الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه رضي الله عنهم

عبدالله عمر خياط

بسم الله الرحمن الرحيم

«إِنَّ ٱللَّهَ
وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝»

اللهم صل وسلم وبارك عليه
وعلى آله وصحبه وسلم

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

تقديم

بقلم فضيلة الدكتور السيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن السيرة النبوية وسير الصحابة رضي الله تعالى عنهم وتاريخهم هي القدوة الحسنة في مناهج الدعاة والمصدر الكبير لقوتهم الإيمانية وعاطفتهم الدينية يقتبسون منها شعلة الإيمان ، يشعلون بها مجامر القلوب ، يرون فيها دعوة احتضنها الإيمان والصدق فهانت في سبيلها الأنفس على أصحابها ، والأموال على أربابها والعشيرة على أهلها واستعذب العذاب لأجلها ، وتتابعت الرحلات لنشرها في مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها وأغوارها وأنجادها ، فنسيت في ذلك اللذات وهجرت الراحات وتركت الأوطان وبذلت المهج وحر الأموال حتى أفضى اليقين على القلوب وسيطر على النفوس والعقول وأقبلت القلوب على الله وهبت ريح الإيمان قوية عاصفة طيبة مباركة ، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى وانتشرت الهداية في العالم ودخل الناس في دين الله أفواجا .

ومن هنا اشتدت عناية المصلحين والمجددين بهذه السيرة المباركة لتكون قدوة حسنة ومادة لتجديد البعث الجديد في حياة المسلمين وإيقاظ هممهم وإلهاب قلوبهم بجذوة الإيمان والحماسة الدبنية وليس لمجرد الوقوف على الوقائع التاريخية أو سرد القصص والأحداث بل لمشاهدة الحقيقة

الإسلامية في مجموعها العملي التطبيقي مجسدة كاملة في مثلها الأعلى سيدنا محمد ﷺ وصحبه الكرام .

وان هذه السيرة العطرة في شخصية هذا النبي ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم ترسم المنهج السوي والطريق المستقيم والسنن البينة الواضحة لدعاة الصلاح والإصلاح وأساتذة الإرشاد والتعليم وتضمن لهم إن ساروا عليها النجاح والفلاح وتحقيق المرام على أكمل وجه وأحسنه .

وان هذا الفراغ الفكري والخلاء الهائل المهيمن على العقول عن هذه السيرة الكريمة وعن هذا التاريخ الإسلامي المجيد الذي خرّج أمثال أولئك الأبطال الغر الميامين ، والغزاة الفاتحين ، قادة العالم ، وأساتذة الحضارة الإسلامية حماة الإسلام ، الأعزة الأتقياء الذين هدوا العالم ، ودكوا العروش ، وفتحوا البلدان وثقفوا بالمعارف الأذهان ، وأسسوا حضارة إسلامية مزدهرة على تقوى من الله ورضوان ، وبنوا صرح دولة إسلامية عتيدة من الشرق إلى الغرب .

هذا الفراغ عن هذه السيرة أمر له خطره الجسيم وعاقبته الوخيمة ونتيجته السيئة في الأمة الإسلامية إن لم نرجع إلى سيرة مجدنا القديم ونستمد حضارتنا من أصول تلك الحضارة العريقة ونكون على صلة وثيقة تامة بأبطالنا ورجالنا وتاريخ حياتهم الذين تخرّجوا في مدرسة الإنسان الكامل ﷺ فهم الذين لا يؤخذ إلا عنهم ولا يقتدى إلا بهم ولا يسمع إلا لهم ولا يصلح لنا حال إلا بما صلح حالهم به .

وقد وفق الله أخانا الأديب الكاتب الأريب البارع الأستاذ عبد الله عمر خياط للكتابة في هذا الموضوع الجليل وهو الموفق دائماً

لاقتناص الفرص واغتنام المناسبات الدينية بالكتابة عنها وتذكير الناس بفضائلها ومزاياها فجزاه الله خير الجزاء وأخذ بيده ونفع بكتابه وجعله خالصاً لوجهه الكريم آمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وكتبه

السيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني

مقدمة

بقلم معالي الدكتور محمد عبده يماني

السيرة المحمدية نبع ثرار ، لا يغيض ، وشجرة طيبة تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها ، لا مقطوعة ، ولا ممنوعة ، لأنها من غراس الجنة ، يقدم ثمرها للمؤمنين متشابهاً : اللون واحد ، والطعم مختلف .. ذلك لأن جوانب العظمة المحمدية لا تحصى ، والزوايا التي ينظر بها إلى هذه السيرة المطهرة ، لا حصر لها ، وكأن التاريخ يخاطب كتاب السيرة بما خاطب به سيدنا يعقوب أبناءه ﴿ **يا بَنِيّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ ، وادخلوا من أبواب متفرّقة** ﴾ .

والطريف أن أول باب دخل إلى السيرة المطهرة منه ، كان الحديث الشريف وأول من دَوَّنَها كانوا من المحدثين .. عروة بن الزبير مثلا ، وكان فقيهاً محدثاً ، فقد نشأ في بيت من أزخر البيوت بكلام الله تعالى ، وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام ، أبوه الزبير بن العوام ، وحسبك ، بل أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وكفى . فجمعت سيرته شتى أنواع الأخبار وصنوف الأحاديث النبوية ، المرتبطة بهذه السيرة المطهرة ، فلا غرو ، إذن ، أن يعتمد عليه الرواد الأوائل من كتّاب السير المشرفة من أمثال ابن اسحق ، والطبري ، والواقدي ، وغيرهم .

وإذا كان سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنهما هو أول من دوّن السيرة المحمدية ، وكان إلى جانب فقهه محدثاً ، فإن أشهر من دَوَّنَ السيرة وهو ابن اسحق كان أيضاً محدثاً ، وَثَّقَهُ ابن شهاب الزهري ، وسفيان الثوري وغيرهما ، واستشهد به البخاري ، وأخرج له مسلم في المبايعات وروى له أبو داود وابن ماجه والنسائي وغيرهم .

وبما أن التاريخ يعتمد على الرواية ، فقد كان الرعيل الأول من كتاب السيرة المطهرة مجرد رواة ونقلة ، ويكفيهم هذا فخراً ، فلولا هذا الدور الذي قام به هؤلاء لما وجد من جاء بعدهم المادة التي يعرضون فيها هذه السيرة العاطرة في الشكل والمضمون اللذين نراهما عليها الآن .

وبطبيعة الحال جاء بعد الجمع ، التبويب .

والمفروض أن يجيء بعد الجمع والتبويب ، دور النقد والتمحيص ، ومع أن السيرة حفلت بنصيب من الاسرائيليات ، وبعض ما لا تثبت صحته ، بعد المقارنة ، والفحص ، والمقابلة ، فإن دور النقد لم يجيء إلا متأخراً ، ويبدو أن السبب في ذلك كان يرجع إلى أن الخلف كانوا ينظرون إلى السلف بعين التقديس ، فكان هناك أمثال السهيلي وأبي ذر وغيرهما ممن لم يتعدوا طور شرح سيرة ابن هشام وأمثال قطب الدين السبكي الذي شرح سيرة محمد بن على بن يوسف ، كما كان هناك ملخصون لهذه السيرة كسيرة الحافظ علاء الدين مغلطاى ، وغيرها . ولا شك أن الشرح ــ في الجملة ــ يعني التسليم بالمشروح ومثله التلخيص أو الإختصار ، وقد نظم السيرة كثيرون ، ولم ينظروا إليها ــ في نظمهم ــ نظرة الفاحص المدقق .. وممن نظم السيرة عبد العزيز بن أحمد ، الذي كان يعرف بسعد الديرى ، وغيره كابن الشهيد .

لكن لما اختصرت وسائل المواصلات العالم ، وجعلته أشبه بالقرية ، ولما اشتد ساعد أعداء الإسلام ، وتفاقم خطرهم ، بفعل وسائل الاعلام ، ولما كرس المستشرقون جهودهم في البحث عن هذه الأمور التي تسيء إلى الإسلام ، وإلى نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه والتي لم يعرها السلف الصالح من المؤرخين كثير التفات لفرط إيمانهم ، وربما لفرط « طيبتهم » في نفس الوقت ، عندها نهض الحادبون على الإسلام ، وعلى السيرة الطاهرة الزاكية النية المشرفة ، نهضوا ليمحصوا الحق ، ويزهقوا

الباطل ، ويطهروا السيرة مما علق بها من أرجاس الاسرائيليات وأدناس الشعوبيين ، وغير هؤلاء ، فجاء دور النقد ــ جاء دور وضع الأمور في نصابها ، وإحقاق الحق .

ولعل من أول من قام بذلك ــ بصورة مصغرة ــ هو الشيخ محمد عبده العالم المصري المعروف ، فاقتصر في النقد على مسائل قليلة ، كقصة الغرانيق .

أما أول من انبرى لتطهير السيرة المحمدية ككل فهو من غير شك الدكتور هيكل ، في كتابه الفريد « حياة محمد » عليه الصلاة والسلام . فقد غربل السيرة المطهرة « غربلة » عن وعي تام ، وإيمان صحيح ، وفكر حر ، ومنطق نزيه ، وأخرجها أنصع ما تكون ، وأشرق ما كانت ، وأبهج ما ستظل .. المؤسف أن أكثر قادة الفكر عندنا يجهلون هذا الكنز ، أو يتجاهله البعض ، من الذين لا يعلمون ، ويسيئهم أن يعمل الناس ، ولكن هناك الكثير من أهل الضمائر الحية الذين يقدرون هذا الكتاب حق قدره ، منهم أستاذنا العلامة الجليل ، والداعية الموهوب ، فضيلة الشيخ على الطنطاوي وقد سمعته ينوه بقدر هذا الكتاب في برنامجه الناجح ، الموفق ، نور وهداية ، ولا يعرف الفضل من الناس إلا ذووه .. ومن أَجَلِّ من أسهم في تنقية السيرة المحمدية ، الأستاذ الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ، لا عن طريق « أطوار التاريخ » لكن عن طريق « أدوار » الأبطال في مشوار السيرة .. وللأستاذ محمد فريد وجدي زاويته الخاصة التي نظر من خلالها إلى السيرة ، وأخرجها زاهية « في ضوء العلم الحديث » .

وتبع هؤلاء كثيرون ، عالجوا السيرة المطهرة ، كل من الجانب الذي اختاره من جوانبها التى لا تحصى ، ووسعتهم هذه السيرة جميعاً ، وستظل حياضها الدفاقة أبداً منهلاً عذباً سائغاً للواردين من أهل الفكر والتحقيق ، ورياضها العباقة أبداً مستراحاً لذوى الشفافية من أهل الحب ، وستظل

أجواؤها الضاربة في آفاق السمو مرتاداً لكبار النفوس ، وكبار العقول .. وأتوا به متشابهاً ، اللون واحد والطعم مختلف .

ومن الأبواب المتفرقة التي يدخل بها الكتاب إلى السيرة المطهرة المشرفة باب المحبة ، وإذا كنا في هذا العصر في أمس الحاجة إلى باب التمحيص والتدقيق ، دفاعاً عن الإسلام ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الباب الذي دخل منه الدكتور هيكل في كتابه الرائد الراشد الفريد « حياة محمد ﷺ » ، وأعقبه في ذلك الأستاذ العبقري العلامة الموسوعة المحقق المدقق المرحوم عباس محمود العقاد فجاء بما يثلج صدور السلف ، ويشفي غيظ قلوب الخلف ، إذا كنا في أمس الحاجة إلى مثل هذا النهج في معالجتنا للسيرة المطهرة ، فإن الدخول من باب المحبة لا يقل عن ذلك ، وللأستاذ خالد محمد خالد ــ والحق يقال ــ الدور البارز ، والجهد المشكور ، والأداء الفريد الذي لا ينكره إلا ضعاف النفوس من الحسدة والمكابرين .

وسرني ، سروراً لامزيد عليه ، أن يدخل من نفس الباب صديقنا الحميم ، الكاتب الموهوب الموفق ، الأستاذ عبد الله عمر خياط ، ان شخصاً نشأ في بيئة كبيئته ، لخليق الا يلج السيرة المشرقة الطاهرة المطهرة ، إلا من باب المحبة ... هذه الأنوار المتوهجة المقدسة تتدفق على قلب المحب مشيعة من غار ثور وغار حراء صباح مساء ، هذه البروق العلوية الميمونة المباركة تتجاذبه لماعة ، لألاءةً ، قدسية ، علوية ، وهي تسطع من أركان الكعبة المشرفة ، فتستحوذ على المشاعر والأحاسيس ، وتحلق بأرواح أصحابها في آفاق الطهر ، والصفاء ، والنور ... وهل الحب الإلهي إلا طهر ، ونور ، وصفاء .. هذه النسمات العليلة البليلة ، المضمخة باعطار الملأ الأعلى تهب عليه ــ صباح مساء ــ من رياض المصطفى صلوات الله وسلامه ، من طيبة الطيبة ، فينتشي منها كل حين نشوة أو قل سكرة ــ

يغيب بها عن عالم المادة الصماء البكماء ، عالم الأثرة ، إلى عوالم الإيثار ، عالم الأنانية إلى عوالم التضحيات ، عالم الشح والبخل بالمال ، إلى عوالم التضحية بكل غال ونفيس ، عالم التضحية بالأرواح .

ومن لم يجد في حب طه بنفسه وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

« والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه » ﴿ **يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ . (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار .. ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار) ... « أمجاد الأنصار ، وأمجاد المهاجرين السابقين الأولين منهم ، هي العطر السماوى الخالد الذي تحمله النسمات العباقة أبداً ، وهى تنبثق من رياض المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى جيرة البيت الأدنين ، كلما هبت ، وهبوبها لا ينقطع .. وهل في هذا العطر المحمدي ، والعبير العلوي إلا المحبة » .

إن المؤلف الصديق الأستاذ / عبد الله عمر خياط ، لا يسعه — والحال هذه إلا أن يرتاد مرابع السيرة الطاهرة من باب المحبة ، ولا شيء إلا المحبة ولو أراد غير ذلك لما استطاع .. ولو استطاع لما انتهى إلى هذه الغاية التي وصلها في عرضه لأحداث السيرة التي تعتبر كنزاً من الكنوز . فجاء عرضه الجميل بأسلوب جيد وبحث شيق فكان هذا النتاج القدير الذي يضاف إلى المكتبة الإسلامية ، ويتحف بها القراء .

ومن هذا الباب دخل سيدنا حسان بن ثابت وهو يتحدث في حب واعتزاز وتقدير وإكبار عن سيدنا محمد ﷺ .

خلقت مبرأً من كل عيبٍ كأنك قد خلقت كما تشاءُ

أم قوله في البيت قبل هذا « وأكمل منك لم تلد النساء »

هذا الكلام لو قيل في غيره ﷺ ، حتى ولو كان نبياً مثله ، لكانت فيه مبالغة ما بعدها مبالغة ، أما في حق سيدنا محمد ﷺ ، فلم يصور الشاعر إلا الحقائق المطلقة الثابتة التي شهد بها حتى الأعداء ـــ سيدنا محمد ﷺ ـــ مبرأ من كل عيب ، سيدنا محمد ﷺ أكمل الناس ، لم تلد امرأة مثله ، ولا قريباً منه ، هذه كلها حقائق مجردة .

فأقوال العشاق أو المحبين في سيدنا محمد ينبغي أن تحكى ، وألا تطوى في حدود ﴿ **إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحَىٰ إليَّ** ﴾ في هذه الحدود تنقلب المبالغة في حق غيره ﷺ ، مجرد حقيقة في حقه صلوات الله عليه وسلم .

لذلك نرى أن المؤلف الصديق الأستاذ الخياط رتع في ربوع السيرة الهنية واستسقى من حياضها الروية ، وقطف ما شاء الله له أن يقطف من حياضها الجنية ، محلقاً في هاتيك الأجواء على جناح المحبة ، ولذلك جاءت عباراته سهلة ، وأسلوبه لطيفاً وعرضه محبباً إلى النفس .

ومما زاد في جمال الأداء ، وروعة العرض ، أن المؤلف لا يكتفى بما يقول ، وإنما يتجول بفكره في بدائع ما قاله غيره ، ويقطف من شتى الثمار .

وددت لو طاوعت قلمي ، فطوفت بالقارىء في آفاق هذا الكتاب الممتع المفيد ، ولكني آثرت أن أترك المجال للقارىء وحده ، ينهل ما شاء ، ويعبُّ ما شاء ، ويقطف ما شاء .

إن من أجمل ما راعنى في هذا الكتاب الثمين ، أن الأستاذ ، وهو يكتب للجماهير ، لم يظلم الخاصة حقهم من هذه القطوف ، إن الكتاب في أصله كان مقالات تنشر في الصحف ، والصحف لابد أن تنزل إلى مستوى الجماهير دون أن تسف ، ودون أن تستغل ، ولما كانت الصحف

ليست قاصرة على الجماهير وحدهم ، كان على المؤلف أن يرتفع إلى مستوى الخاصة في نفس الوقت وهي مشكلة لا يعرفها إلا من عاناها ، ولا يحلها إلا القليل من كبار الكتاب الذين وهبوا الأسلوب السهل الممتنع ، السهل بحيث يفهمه العوام ، الممتنع لأنه ــ على سهولته ــ يشبع نهم الخواص .. ولعل المؤلف الكبير ما كان يدور بخلده أن يجمع هذه المقالات الرائعة فى كتاب واحد ، وعلى هذا النسق البديع الرفيع ، لولا أنى تطفلت فأشرت إليه بذلك ، حتى لا يحرم من لم يقرأوه كمقالات ، من الاستفادة منه ، والاستمتاع به ، في كتاب يتداوله الناس .

فكانت هذه الاستجابة الطيبة وهذا العمل الذي أسأل الله أن يبارك فيه وينفع به والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد .. وعلى آله وصحبه وآل بيته الطيبين الطاهرين .

محمد عبده يماني

تقريظ

بقلم فضيلة الشيخ أبي تراب الظاهري

قال أبو تراب :

إذا كان الحديثُ النبوي الشريف عند المُحقّقين من العلماء هو قولُ النبي ﷺ ، وفعلُهُ ، وإقرارُهُ لأمرٍ مّا ، يُفْعَلُ بحضرته العليّة أو يُقال ، فلَا يُردُّه ولا يُنكره ، فإنّه يَنْضافُ إلى هذه الأنواع الثلاثة من الحديث هَمُّه ﷺ أيضاً بأمْرٍ مّا يَقْصُدُهُ ، كما هَمَّ بتحريق بيوت الذين لا يشهدون الصلاة مع الجماعة ، وكذلكَ يَنْدرج في أقسام الحديث الإخْبارُ عنه ﷺ ، كما وَصَفَ الصحابةُ رضي الله عنهم شَخْصَه الكريم ، ذلك لأن موضوعَ الحديث هو ذاتُ النبي ﷺ فالأحْرى أن تكونَ سيرتُه الشريفةُ من الحديث ، لأنّها أنْبَاءٌ عن ذاتٍ نَزَلَ عليها الوحي ، وهي لَا تَنْطِقُ عن الهوى ، فكما أن قولَه ، وفِعْلَه ، وإقرارَه ، أنواعٌ من الحديث ثلاثةٌ ، كان هَمُّه وقَصْدُهُ ، وخبرُهُ وَنَبأُ صِفتِه وسيرته نوعانِ آخران أيضاً يُعَدَّانِ حديثاً عنه فِداه أبي وأمّي .

قال أبو تراب :

لِأَجْلِ ذلك كان الاشتغال بالسيرة المحمّدية على صاحبها صلوات الله وسلامُه مطلباً سامياً جليلًا ، سَعَى لِنَيْلِهِ السلف رحمهم الله منذ القُرون الأولى ، وكان حُبُّهم لرسول الله ﷺ حاديَ أرواحهم لِتَسْرَحَ في رياض سيرته العطرة ، فتَسْتَمِدَّ منها قُوَّةَ الإيمان ، وتَرْتَشِفَ رحيقَ اليقين ، وتَقْوَى على اقتفاء سُنَنِهِ وآثاره ، واتباع أوامره ومناهجه ، وهل المُتعة إلّا في

التحلّي بشمائل الحبيب ، والتخلُّق بأخلاقه ، فتلك لعمرو الحق لذّةٌ لا تُدانيها لذّة ، وحلاوةٌ لا يَذوقها إلّا ذو قلبٍ مشوقٍ مُنْجذبٍ إلى الوصال ، وذو نفسٍ نَزوع إلى بَلّ صدى الالتياع

أعِدْ ذِكْرَ نَعْمانٍ لنا إنّ ذِكْرَهُ كمِسْكٍ إذا كرَّرْتَه يَتَضَوَّعُ

قال أبو تراب :

وكان من تمام نعمة الله أن قيَّض رجالًا من هذه الأمة الإسلامية كانوا حماةً لِسُنَّةِ نبيِّهِ الكريم : فكم من مُدَوّنٍ لأقوالِه وأفعالِه عليه الصلاة والسلام ، وكم من ناقدٍ لِروُاتها وأسانيدها ، وكم من مؤرّخٍ لتراجِم رجالها ، وكم من شارحٍ لمُتونها وألفاظها ، وكم من مُتَفَقهٍ لأحكامها واستنباطاتها ، وهَلُمَّ جَرًّا ، وهم كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله :

هنيئاً لأَصْحابِ خير الوَرى وطُوبى لأرباب أخبارِهِ
همو سَبَقُونا بتذكيرِهِ ونحن سَعِدْنا بتَذْكارِهِ

وكلُّ هؤلاء كان يَقُودهم إلى ذلك حُبُّ رسول الله ﷺ الذي هو إيمانُ الإيمان ، ولُبُّ الألباب ، وجاء آخرون فَدَوَّنُوا المأثورَ من سيرته الفوّاحةِ بالأريج ، كي يعيشوا في ظلالِ ذكراهُ الوارفة في أَهْنَأ عِشْرَةٍ ، وَأطْيَبِ نُعْمَى ، وأَغْبَطِ أُنْسٍ ، يَحْدوهم إلى ذلك أيضاً حُبُّ سيّد ولد آدم عليه الصلاة والسلام والتشوُّقُ إلى لقائه يَأْتَلِقُ في أفئدتهم ، وأكبادُهم تَخْفِقُ ، وجُفونُهم تَنْدفق ، إذا كتبوا سيرَته العَبِقة ، وَيزْدادُ الحنينُ إذا تَحَدَّثُوا بها ، وهكذا كان وَجْدُ أصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتَبَسُوا من مِشْكاةِ نُبّوتِهِ ، ونَهِلُوا من نَمير حديثه ، ثم نقلوهُ إلى مَنْ دُونهم حتى وَصَلَ إلينا هذا التراث العظيم .

قال أبو تراب :

هذا وإن أخي الكريم ، الصديقَ القديم ، ذا الهمة القَعْساء ، الصحافي البارزَ الأديبَ الأستاذ (عبدالله عمر خياط) جَذَبَهُ أيضاً حُبُّه للمصطفى ﷺ ، فأجال باصرتَه في شَتَّى كتب السيرة التي وقعتْ تحت يده ، فَتَملَّى منها ، وتَشَرَّبَ من صفاء نَداها ، فمَلأتِ السيرة النبوية الطاهرة أقطارَ جوانحِه ، وهو محبٌّ طالتْ ظَماءَتُه ، واشتدّتْ غُلَّتُه ، فأَحَبّ ، مَتَّعَه الله بالصحة والعافية مع الأنجال النجباء ــ أن يَنْخَرِطَ في سِلْك أولئك الأفذاذ الذين تَضَرَّجَتْ أقلامُهم بعَبَرات الشوق في كتابة السيرة الشريفة ، فأَسْهَرَ ناظَرهُ لكي يَكْتُبَ هذه الورقاتِ ، يَتَشرَّفُ بها ليكونَ في عِدادِ مَنْ كتبوا في السيرة المحمّدية غَيرُ مشْرئبٍّ ليكونَ فَرَسَها المُجَلّي أو المُصَلّى ، بل ليكونَ لأقرانه وأَنْدادِهِ ، ومَنْ هم دُونَه قد قَدَّمَ لهم باقةً من سيرة الشفيع المُشَفَّع يَشُمُّونَ عَرْفَها ، فيَزدادُونَ به حُبًّا وإيماناً .

قال أبو تراب :

وعمل صاحبي هذا مشكور الصنيع عند ذويه ، محمودٌ لدى الجميع ، وأسأل الله واهبَ المِنَن أن يَتَقَبَّلَ منه بِحُسْن نيَّتِهِ ، وخُلوصِ طَوِيَّتِهِ ، فهو الكريمُ لايُضيعَ عَمَلَ عاملٍ يُريد به الخير ، وأَشْهَدُ بأنّه في إسهابه هذا صادق المحادثة ، تَوَّاقٌ إلى مناسَمَة أرواحِ طابةَ الطيّبة ، ونَفْسُه بساكنها وَلْهَى ، وَعَينُه على آثارها عَبْرَىَ ، وَيصْدُق فيه فول ابن ظهيرة المحدث المكّي :

وَجْدي مُسَلْسَلُة قد صَحَّ مُتَّصِلاً ... بالحُسْنِ مُتَّصِفٌ راويه مقبولُ
والقلبُ أَضْعَفَهُ قَطْعُ الوصال كما ... قد أَوْقَفَ النومَ تجريحٌ وتعديلُ
ففي فؤاديَ من حُبّي لكم جُمَلٌ ... لها بِمُطْلَقِ دَمْعِي كم تفاصيلُ
فاقْصِدْ إلى مَسْجِدٍ واحْلُلْ بِرَوْضَتِه ... وصَلِّ واخْضَعْ وسَلْ فالفَضْل مبذولُ

قال أبو تراب :

وأَوَّلُ من صَنَّفَ في السيرة النبوية الإمام محمد بن اسحاق شيخ أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ هـ ، ثم هَذَّبه أبو محمد بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ وشرحه السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هـ وسماه « الروض الأُنُف » وهو كتاب مفيد معتبر عند أهل العلم .

قال أبو تراب :

لكن كتاب السيرة عن دغفل بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٦٥ هـ ، والسير والمغازي لعاصم بن عمر بن قتادَة المتوفى في سنة ١٢٠ هـ ، والسير لسعيد بن يحيى المتوفى سنة ٢٤٩ . ومن أقدم كتب السير ، وكذلك سيرة رسول الله ومغازيه للواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، والمبدأ والمبعث لأبان بن عثمان من القرن الثاني والمبعث لهشام بن عمار من القرن الثاني .

وشرح قطعة كبيرة من سيرة ابن هشام البدر العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، وسماه « كشف اللثام » ونظمها الخضراوي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ ، والدبرني المتوفي سنة ٦٩٧ هـ ، في أكثر من ثلاثة آلاف بيت وأبو اسحاق التلمساني على قافية اللام ، وابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ هـ ، خمسة وعشرين ألف بيت ، وسماه « فتح القريب في سيرة الحبيب » ولعلاء الدين الخلاطي المتوفي سنة ٧٠٨ هـ ، كتاب في السيرة ، وكذلك للحافظ عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي المتوفى سنة ٧٠٥ هـ ، وللشيخ ظهير الدين الكازروني المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، وكتابه من أجمع كتب السيرة ، وللحافظ عبدالغني المقدسي المتوفى سنة ٤٠٤ هـ ، كتاب في السيرة ، شرحه عبدالكريم الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥ هـ ، وسماه « المورد العذب الهني » واختصر سيرة ابن هشام البرهان ابن المرحّل ، وزاد عليها ،

وسماه « الذخيرة » وهو من علماء القرن السادس ، وصَنَّف الحافظ مُغْلَطايْ المتوفى سنة ٧٦٢ هـ ، كتاباً في السيرة لَخَّصه ابن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ ، وصَنَّفَ في السيرة أيضاً الخلاطي م سنة ٧٠٨ هـ ، ويحيى الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، وابن جماعة المتوفى سنة ٧٦٦ هـ .

وللمحبّ الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، كتاب في السيرة ، وكذلك لابن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥ هـ ، والابشيطي المتوفى سنة ٨٣٥ هـ ، وللحافظين ابن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، تأليف في السيرة ، فِلِلأَوَّل : « الدرر » وللثاني : « جوامع السيرة » وللطبري محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، أيضاً السيرة النبوية ، ولأبي زرعة المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، كتاب في السيرة . وكذلك للكلاعي المتوفى في سنة ٧٣٠ هـ ، والبقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، وابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، والنووي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وابن جابر الضرير م ٧٨٠ والرعيني م ٧٧٩ والقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ، وابن الشمّاع المتوفى سنة ٩٣٦ هـ ، والتكريتي من علماء القرن السادس وابن شاكر م ٧٦٤ هـ ، وابن حجرالعسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، والمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، والهروي المتوفى سنة ٣٤٣ هـ ، وأبي الشيخ المتوفى سنة ٣٦٩ هـ ، والدياربكري المتوفى ٩٦٦ هـ ، وابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، والبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، ويحيى بن حميدة م ٦٣٠ هـ ، والمقدسي الحافظ م ٦٠٠ هـ ، وابن أبي الدم المتوفى سنة ٦٤٢ هـ ، والعراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ ، وأبي نُعيم الحافظ ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وابن النقاش م ٧٤٣ هـ ، والصفدي م ٧٦٤ هـ ، والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ، والجويني م ٥٣٠ هـ ، والكفيري م ٨٧١ هـ ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ،

والضياء المقدسي م ٦٤٣ هـ ، والتركماني م ٦٤٥ هـ ، وابن عساكر المتوفى سنة ٧١ هـ ، وابن فارس المتوفى ٣٩٥ هـ .

قال أبو تراب :

كلٌّ هؤلاء لهم كتب في السيرة النبوية ، وذكرتهم على غير ترتيب في الزمن حسب إملاء الذاكرة .

ومن أجمع تلك الكتب في السيرة كتاب « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » للشامي المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ، في عدة مجلدات ، وقد جمعه من عشرات الكتب . وهو مطبوع بالقاهرة ، ومن أوسع الشروح وأحسنها في سيرة كتاب الزرقاني المتوفى سنة ١١٢٢ هـ .

وفي السيرة أيضاً : إتحاف البرية بمنتقى السيرة الحلبية للقابسي المتوفى في القرن الثاني عشر ، وأخبار النبي ومغازيه وسراياه لابن جميع المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، والأخبار المرضية في سيرة خير البرية للحاتمي المتوفى سنة ١١٠١ هـ ، واختصار أخبار محمد بن اسحاق للأشبيلي العشّاب المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، واختصار السيرة النبوية لابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ ، وأرجوزة في سيرة النبيّ للسخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، وإنسان العيون في سيرة الأمين المأمون للبرهان الحلبي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ ، وبحر الوفا في سيرة المصطفى للسفاريني المتوفى سنة ١١٨٨ هـ ، وبُشَر الأنام في سيرة خير الأنام للقباني المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ، وبلوغ المرام من سيرة ابن هشام والروض الأنُف والإعلام لابن حجة المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ، وبهجة المحافل للعامري المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، وتحبير الوفا للسفاريني المذكور آنفاً ، والجواهر السنّية للفاسي المتوفى ٨٣٢ هـ ، والجواهر والدرر للإمام يحيى المتوفى ٨٤٠ هـ ، والجوهر الثمين لابن يَلْبَغ المتوفى سنة ٧٥١ هـ ، وحسن

السريرة للطبري المتوفى ١٠٣٣ هـ ، وخلاصة الأثر للبطحيشي المتوفى ١١٤٧ هـ ، وخلاصة الأخبار للأسكداري المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ ، وخلاصة السيرة للمؤيّد بالله يحيى بن حمزة المتوفى سنة ٧٤٧ هـ ، وخير البُشَر لابن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، والدر المنظوم للحسباني المتوفى سنة ٨١٥ هـ ، والدرة المنيفة لابن جمّوع المتوفى سنة ١١١٩ هـ ، والدرة المضيئة لابن شاهين المتوفى سنة ٨٧٣ هـ ، والدرة المضيئة للمقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، والدرة المضيئة للصالحي المتوفى سنة ٩٠٩ هـ ، والدرة المضيئة للسجلماسي المتوفى سنة ١٠٥٧ هـ ، وذات الشفا لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ، وذخائر النثار للسجاوندي م ٥٦٠ هـ ، والرسالة الكاملية لابن النفيس م ٦٨٧ هـ ، والروض والحدائق للخازن م ٧٤١ هـ ، ورياض الأنس للديلمي م ٥٠٩ هـ ، وريحان المروج لابن عطية من علماء القرن التاسع ، والسول في نظم سيرة الرسول لفتح بن موسى الأندلسي م ٦٦٣ هـ ، والسيرة النبوية للوزير المغربي ٤١٨ هـ ، وللوقشي الطليطلي م ٤٨٩ هـ ، ولابن طرخان م ٥٣٨ هـ ، وللخزرجي م ٨١٢ وابن جماعة م ٨١٩ هـ ، والبرماوي م ٨٣١ هـ ، والدلائي م ١١٤١ هـ ، وابن رستم ق ١١ والفاسي م ١١٠٩ هـ ، والمناوي م ١٠٣١ هـ ، والملطي م ٩٢٠ وابن رسلان م ٨٤٤ والقسنطيني م ٧٨٧ هـ ، والفوائد المنيرة لابن درباس م ٦٠٢ هـ ، والقصيدة اللامية في السيرة للشواطيبي م ٤٦٩ هـ ، ولسان الزمان في أخبار سيد العربان لابن عقيلة م ١١٥٠ هـ ، ومحاضر السير للنيسابوري م ٨٦٧ هـ ، ومختصر السيرة للواسطي م ٧١١ هـ ، ومستعذب الأخبار لأبي مَدْيَن م ١١٨١ هـ ، ومرآة العقول للمجلسي م ١١١٠ هـ ، ومقبول المنقول للعلاء البغدادي م ٧٤١ هـ ، ومقصورة في السيرة للمكودي م ٨٠٧ هـ ، ومنحة اللبيب للباعوني م ٨٧١ هـ ، والمورد العذب للقطب الحلبى

م ٧٣٥ هـ ، والميرة في حلّ مشكلات السيرة لابن عبدالهادي م ٩٠٩ هـ ، والنبراس لابن العجمي م ٨١٨ هـ ، ونظم سيرة ابن هشام للجزيري م ٦٦٣ هـ ، ونظمها للطاووسي م ٦٠٠ هـ ، ونظمها للأقفهسي م ٨٠٨ هـ ، وللبقاعي م ٨٨٥ هـ ، وللعراقي م ٨٠٦ هـ ، وابن فهد م ٨٧١ هـ ، والمراغي م ٨٥٩ هـ ، وابن الهائم م ٨١٥ هـ ، ونظم أبو حيان النحوي المتوفي سنة ٧٤٥ هـ ، عيون الأثر لابن سيد الناس ، ونفائس الدرر لابن جموع ١١١٩ هـ ، ونهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز لرفاعة الطهطاوي م ١٢٩١ هـ ، ونور النبراس لابن العجمي م ٨٤١ هـ . وهداية المتغول بسيرة الرسول للسوهائي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ .

قال أبو تراب :

هذا وكتب السيرة وفيرة العدد ، أَحْبَبْتُ أن أذكر للمحبّين أهمَّها من تواليف المتقدمين فحسب ، لِيَقِفُوا على مدى جهودهم وعنايتهم . وقد أَلَّفَ صديقنا الدكتور صلاح الدين المنجد معجماً في مجلد ضَمَّنَه أكثر كتب السيرة وغيرها مما يتعلق بها ، وسماه « معجم ما أُلِّفَ عن رسول الله ﷺ » وللدكتور في هذا الكتاب زَلاَّتٌ ، كإدخالِه كتاب المسامرات لابن عربي في كتب السيرة ومن أوهامه فيه أنه ذكر كتاب « المنتقى من أخبار المصطفى » للمجد ابن تيمية من جملة كتب السيرة ، وليس هو منها ، بل هو كتاب أحاديث الأحكام ، وليس في السيرة الذاتية ولا في المغازي ، وسبيله سبيل كتب الحديث أجمع ، وهذا يدل على أن الدكتور غَرَّه العنوان ، فظن الكتاب كتاب سيرة ، فهذا الذي أوقعه في الوهم .

وبالجملة فمن الكتب النافعة المتداولة مختصر السيرة النبوية لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله يستفيد منه المحبون على اختلاف طبقاتهم ، فالمختصرات من المطولات تعظم جدواها في هذا الزمن الذي كثرت فيه الصوارف ، فَأَنَّى لغير متفرغ أن يطلع على كل هذا التراث وهذا هو الذي حدا بأخي الأستاذ عبد الله خياط إلى أن يقتطف للجيل الحاضر من شتى بساتين السيرة النبوية زهرات مختلفة الألوان ضمن كتابه هذا ...

وأسأل الله في ختام هذا التقريظ أن يوفق الجميع للاتباع ، ويجنّبهم زلل الابتداع .

وكتب

أبو تراب الظاهري

عفا الله عنه

هـذه كلمتي

عبدالله عمر خياط

كل إنسان محب بفطرته . مجبول على ذلك . فتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها .

فالطفل يتمسك بثدي أمه حباً في الرضاع الذي لا يجده عند غيرها . والشاب يلجأ لأبيه حباً فيما عنده من ألوان العطاء . والشائب الذي يهيم حباً بوليده أو حفيده إنما يدفعه إلى ذلك حب الخلود لما يراه في الطفل من امتداد له وبُقيا لحياته . والإنسان عامة يميل لكل ما يتخيل أنه مصدر سعادته ومكمن سروره .

وكما أن الإنسان محب بطبعه . فإنه بنوازع بشريته . دائم التلذذ بذكر ما ومن يحب سراً وجهراً ولو في بعض حين من الزمن . وعند نفر قليل من الناس .. ولنطرح سيرة أي محبوب أمام من يُحبه فسنرى كيف يتراقص الفرح في عينيه ؟ وكيف يملأ السرور جوانبه .

هذا بالنسبة للعامة من المحبين والمحبوبين الذين لا يزيد مبتغاهم أو عطاؤهم عن بعض الماديات التي مهما عزت فإنها محدودة الأثر ، قصيرة الأجل .. فأي حب .. وأي هيام يا ترى يتولج الإنسان إذا كان الحب لمصدر الهداية .. وباعث النور .. والرحمة المهداة .. والشفيع الأوحد يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه .

الإنسان محب لمصدر سعادته لا ريب في ذلك .. والذي لا شك فيه أن ليس ثمة سعادة أعظم ولا أعمق من سعادة الحب في الله .. ولله ولرسوله ﷺ . وهو الذي أرسله الحق سبحانه وتعالى رحمة للعالمين وجعل محبته من

محبة الرسول ﷺ فقال في محكم كتابه : ﴿ **إن كنتم تحبُّونَ اللهَ فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله** ﴾ (آل عمرآن : آية ٣١) .

كما جعل سبحانه وتعالى طاعة الرسول ﷺ من طاعته عز وجل فقال : ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله** ﴾ (النساء : آية ٨٠) .

ولهذا فقد كانت محبة الرسول ﷺ في نفوسنا نَفَساً يسري في أرواحنا كسريان الكهرباء في أسلاكها .. بل وأفضل .

فلئن كانت الكهرباء التي تسري في الأسلاك لتصل إلى اللمبة . أو حتى « النجفة » ستضيء العتمة أو تبث الوهج فيما حولها .. فإن النور الذي جاء به الرسول ﷺ ويكتسبه المحب له بحسن الاتباع والتأسي لهو ضياء يهدى لخيري الدنيا والآخرة .

ولئن كان ذكر المحبوب .. أي محبوب .. وفي الوقت المحدود .. والوقت القصير يملأ نفس المحب سروراً .. فأن المؤكد أن ذكر سيدنا محمد ﷺ .. وهو يملأ الآفاق ويجري اسمه على كل لسان في كل حين وعند الأذان .. والصلاة . والشهادة .. والزيارة ليشرح الصدر .. ويُفَرِّج الكرب .. ويُبلغ المأمول .

ومن هذا المنطلق حرصت في كل مناسبة لذكرى الرسول ﷺ أن أسهم بموضوع متواضع مما تنشره لي عكاظ أو خلافها من الصحف .

في مناسبات كثيرة كتبت .. أو بالأصح شَرُفَ قلمي بنقل بعض ما دونته كتب السيرة من سيرة المصطفى ﷺ للقراء في مقالات قصيرة يطالعها القارىء العجل . والمحب الذي تشغله متطلبات الحياة عن استرواح السيرة العطرة في بطون المجلدات الضخام التي حققت لنا سيرة الرسول ﷺ بكل دقة وأمانة .. وبكل تفصيل وبيان .

وكما كتبت .. أو نقلت بعض صفحات من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .. فقد كتبت عن الصديق وعن الفاروق رضي الله عنهما من خلال ما دونته كتب السيرة أو كتبه ذووا القدرة البلاغية .. فقدمته لقراء عكاظ في مقالات متتابعة .. إرتاح لها القراء .. وطلب مني كثيرهم ممن أُقدِّر وأحترم ، ضمها إلى بعض وإصدارها في كتاب يستفيد به المحبون . ويستعيض بها المنهمكون في مشاغل الحياة عن المجلدات الضخام .

ويشهد الله أنني لم أُفكر أصلا في ذلك ولكنني من بعد ما بُلِّغْتُ ارتياح الناس أو البعض منهم ممن ألحّ علي بالفكرة ــ ظل التفكير في تنفيذها شاغلي .

ولقد انتهزت فرصة الاجازة هذا العام فأخذت ما كتبت أو بالأصح ما رويت مما نقلته كتب السيرة الشريفة من نفائس المرويات وأثمنها من حيث الدقة واستقامة الأداء وبلاغة الأسلوب ــ وعمدت إلى مراجعته وإضافة مزيد من الإيضاح والمواقف التي تفيض بها المراجع وتزيد في الشرح .. أو تكشف عن مزيد من الخبىء .. ثم كتبت فصلين جديدين عن ذي النورين وعن الإمام علي رضي الله عنهما ليكمل الحديث عن الحبيب محمد رسول الله ﷺ الذي يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان نبيه في محكم التنزيل : ﴿ **قُلْ إن كنتم تحبُّونَ اللهَ فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله** ﴾ (آل عمران : آية ٣١) وخلفائه الراشدين الذين قال في حقهم من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .. وقوله عن عموم أصحابه رضوان الله عليهم :

« أصحابي كالنجوم ــ أو قال ــ كالشموس بأيهم اقتديتم إهتديتم » .

فإن وُفقت في ذلك وكان فيه ما يرضي المحبين فلله الحمد والمنة .. وإن لم يقنعهم ذلك . فحسبي منه جهد المحب الذي حاول أن يقدم موجزاً لسيرة خير خلق الله وأكرمهم ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم .

لوس أنجلس ١٢/٣/١٤١٠هـ
١/٩/١٩٨٩م

ولد الهدى ..

.. **أربعة عشر قرناً** وصرير الأقلام لا يزال يهزج بسيرة الرحمة المهداة ﷺ .. ومع ذلك تظل السيرة العطرة رافداً غدقاً .. وموردا عذباً .. ومجالاً رحباً لكل من يسعده الحظ بتتبع عطاياها الخيرة .. وإلى أن يبلغ الكتاب أجله .. ويقوم الناس لرب العالمين .

أربعة عشر قرنا والسيرة العطرة لمن أرسله الله رحمة للعالمين ﷺ تفيض بالعطاء الذي يهدي إلى الحق ويبعد عن الضلال لقوله ﷺ « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما » كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

أربعة عشر قرنا .. وكل الاجتهادات في تحليل السيرة وتفسيرها وتوضيح أبعادها ومعرفة أسرارها لما تزل في الأسطر الأولى .. في الوقت الذي عم فيه نفعها الملايين من الذين هداهم الله فاتبعوا النور الذي جاء به البشير النذير ﷺ واقتدوا بسنته عليه الصلاة والسلام ليكونوا يوم لا ينفع مال ولا بنون مع الذين قال الله فيهم ﴿ **يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورُهُمْ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أَتْمِمْ لنا نورَنا واغفرْ لنا إنكَ على كل شيءٍ قدير** ﴾ (التحريم : آية ٨) .

أربعة عشر قرنا مضت .. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ستظل سيرة المصطفى ﷺ .. ورسالته التي أرسله الله بها ليخرج الناس من الظلمات الى النور .. هدياً للبشرية .. وسبيلاً إلى الخير والصلاح في الدنيا والآخرة لكل من آمن بالله واليوم الآخر .. وسلك الطريق المستقيم الذي هدانا إليه من قال في حقه رب العزة والجلال في محكم كتابه ﴿ **لقد جاءكم**

رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (التوبة : آية ١٢٨) .

* * *

عطايا السيرة

.. وفي استرجاع السيرة النبوية وما اشتملت عليه من تعليمات وتوجيهات ومبادىء ومُثُل . عبرٌ ، وتذكير للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .. فلقد تضمن كتاب الله الكريم من سير الأمم الغابرة وقصص السابقين ما قال عنه الحق سبحانه وتعالى **﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾**(يوسف : آية ١١١) .. بل وأكثر من ذلك .. مما تشير إليه هذه الآيات من كتاب الله الحكيم .

﴿ وَكُـلّاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ وجاءكَ في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ (هود : آية ١٢٠) .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ (غافر : آية ٧٨) .

﴿ وَرُسُلاً قد قصصناهم عليكَ من قبلُ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ (النساء : آية ١٦٤) .

﴿ ألم يأتِكُمْ رُسُلٌ منكم يقصون عليكم آياتي ﴾ (الأنعام : آية ١٣٠) .

﴿ كذلك نقصُّ عليك من أنباءِ ما قد سبق ﴾ (طه : آية ٩٩) .

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لعلهم يتفكرون ﴾ (الأعراف : آية ١٧٦) .

﴿ لقد كان في قصصهم عِبْرةٌ لأولى الألباب ﴾ (يوسف : آية ١١١) .

بهذه الآيات الكريمة من القرآن يتبين مدى أهمية القصص الحق وقد جاء بالموعظة للذين يتفكرون من أولى الألباب .

ولقد اشتملت كتب الأحاديث والسيرة النبوية على كثير من القصص التي رواها المصطفى عليه الصلاة والسلام لأصحابه ليكون لهم من ذلك عبرة وهدى .. كقوله ﷺ « إنما هلك من كان قبلكم بهذا » وقوله عليه الصلاة والسلام « كان فيمن قبلكم » « ولتتبعن سنن من كان قبلكم » وكثير من قصص بني إسرائيل وغيرهم مما تضمنته الصحاح الستة والمسانيد .

فالقصص الحق طريق للهدى ووسيلة للاقتداء بنص القرآن .. ومعطيات الحديث .

ذكريات إسلامية

يقول الله تعالى : ﴿ **وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ (الذاريات : آية ٥٥) وبحلول شهر ربيع الذي ولد فيه المصطفى ﷺ .. وفيه أُنزل عليه .. وفيه هاجر إلى المدينة المنورة .. وفيه قبض بعد أن أدى الرسالة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حق جهاده .. حري بنا أن نستروح جانباً من سيرته العطرة على أمل أن نستهدي بها بعد أن اقفرت الطرق وأصاب المسلمين من البلاء ما لا يعلمه إلا الله .. على أن الاستهداء بسيرة محمد بن عبد الله ﷺ ليست مرتبطة بزمن معين .

فاسترجاع السيرة العطرة سواء في هذه المناسبة أو غيرها من المناسبات الكريمة وسيلة لاستذكار التوجيهات الكريمة .. والسنن الحميدة التي هدانا اليها من أرسله الله رحمة للعالمين .. وفي ذلك يقول الأستاذ الكبير « أحمد محمد جمال » فيما كتبه بجريدة الشرق الأوسط في ١٩٨٥/١٠/٢ تحت عنوان « الذكريات الإسلامية يجب إحياؤها » قال :

« دعوت مراراً فيما سبق لي من مقالات ومؤلفات الى إحياء الذكريات الإسلامية كالهجرة النبوية والإسراء والمعراج وغزوة بدر وفتح مكة ومولد الرسول عليه الصلاة والسلام وبعثته وغير ذلك من أحداث لها أثرها البعيد المجيد في تاريخ المسلمين .

وكنت أعلل الدعوة الى إحياء هذه الذكريات بأن الله عز وجل في القرآن يقص على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلينا معه قصص الانبياء والرسل السابقين ومواقف أممهم معهم ويعلل تبارك وتعالى ذلك بانه إنما يريد تسلية رسوله وتقوية عزمه وتكوين صبره فيما يلاقيه في سبيل الدعوة الى الله عز وجل وذلك في مثل قوله تبارك وتعالى ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ (هود : آية ٤٩) .

كذلك يُذكِر الله عز وجل نبيه ﷺ والمؤمنين بما كانوا عليه من ضعف وقلة وبما أبدلهم من قوة ونصر ويُذكرهم بمواقف المشركين في مكة ومواقف المنافقين واليهود في المدينة لكي يصبروا ويشكروا ويستمروا في الدعوة الى الحق والهدى .. دون مبالاة بالمتاعب والعقبات .

وإلى جانب ذلك يأمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بأن يكون دائم البلاغ والتذكير لقومه بالحق والخير والهدى في مثل قوله عز وجل : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر** ﴾ (الغاشية : آية ٢١) وقوله ﴿ **فَذَكِّرْ فما أنتَ بنعمةِ ربكَ بكاهِنٍ ولا مجنون** ﴾ (الطور : آية ٢٩) .

وإذا كان هذا يحدث في أفضل العهود الاسلامية والرسول ﷺ موجود قائم بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة والوحي الإلهيُ يتنزل به جبريل عليه السلام تبصيراً وتذكيراً وتدبيرا فكيف بالعهود التالية وبعهدنا الأخير .. الذي أصبح المسلمون فيه على عكس ما كان سلفهم الصالح من عزة وقوة ووحدة .

اننا إذن أحوج ما نكون إلى إحياء الذكريات الإسلامية في مناسباتها عن طريق خطب الجمعة وأجهزة الاعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز وعن طريق الأندية الأدبية وندوات المدارس والجامعات ليكون في هذا الإحياء تذكير لغافل وتعليم لجاهل وحث على الاقتداء والاهتداء بالرسول الكريم والسلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان » .

ذكرى عزيزة

ويتحدث الأستاذ الكبير أحمد محمد جمال بتاريخ ١٤٠٦/٢/١٣ تحت عنوان « ذكريات نبي الاسلام » فيقول :

« ما أكثر ذكريات نبي الإسلام في سيرته وفتوحه وبركاته وما أجدره ﷺ بحبنا خالصا من دون الناس حب طاعة واقتداء وذكرى تُعيدنا إلى أنفسنا فتتذكرنا بأخطائنا في البيوت والمدارس والمجتمعات العامة والخاصة في إصلاح المفاسد وتقويم المعوجات وإكمال النواقص وتقريب الأبعاد وتأليف الخصوم .. في سبيل صالح المجتمع الاسلامي اجمع .

أجل .. إنها ذكريات نبي الاسلام ﷺ الذي أخرج هذه الأمة على اختلاف ألسنتها وألوانها وامتدادها في أقطار الدنيا من الظلمات إلى النور .

والإخراج من الظلمات إلى النور إيجاز معجز بليغ من إعجازات القرآن الكريم يطوي تحته معاني كثيرة تتوافق في الأصل وتختلف في الفروع انها ظلمات كثيرة ونور واحد .

ظلمات الجاهلية الجهلاء والحمية العمياء والعادات الجافية والظلم والقسوة والفرقة وتلك هي حياتنا قبل الاسلام .

ثم جاءنا من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام من توحيد الخالق والعدل والفداء في سبيل الحق وإحسان المعاملة وتنظيفها من الخيانة وتأليف القلوب وتطهيرها من البغضاء .

أما ذكرى ميلاده فقد اعتاد المسلمون هيئات واذاعات وصحافات أن يحتفوا بذكرى هذا الميلاد الشريف حيث تلقى الأحاديث وتنشر المقالات وتنشر القصائد التي تمجد الرسول ﷺ وتروى سيرته وتذكر عبقريته وترسم بطولته وتثبت عمله الفذ الذي انجزه كرسول من رب العالمين بعثه لإنقاذهم مما ركبهم من جهالة ومما ركبوه من ضلال .

لقد حق للمسلمين أن يتهجوا لذكرى نبيهم الحبيب وأن ينشطوا قلوبا وعقولا لإحياء ذكرياته وتذكرها والتذكير بها وحق للرسول ﷺ نفسه أن يحظى بهذا الاهتمام والتحفي من امته التي جاء حريصاً على هداها رحيماً في سياستها حكيما في قيادتها عادلا في قضائها بانياً لأمجادها مقدما إياها في مدارج الخير والكمال ومعارج الحق والجلال .

ان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام بعث منا لنا وللناس كافة وولد في أرضنا ودرج عليها وسعي في شعابها نذيراً وبشيراً ثم أذاع عليه الصلاة والسلام وأصحابه وأتباعه من بعده برسالته : هدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

ان الإسلام الذي جاء به نبيه الكريم قد أبدل بظلام الارض نوراً وبجور الطغاة عدلا وبباطل المشركين حقا وبشَرِ الجاهلين خيراً والحضارة الإسلامية التي أنشاها محمد بن عبدالله أسلم الحضارات وأقومها وأحكمها وأثبتها تشريعاً وتعليماً وتربية واجتماعاً وسياسة وحرباً » .

السيرة النبوية

.. **ويتحدث** معالي الدكتور محمد عبده يماني في كتابه القيم (علموا أولادكم محبة رسول الله) عن السيرة النبوية وأهمية إستعادة أحداثها لمزيد من الاهتداء وحسن الاقتداء فيقول :

(لاشك أن الاجتماع لسماع السيرة النبوية لسيد الأنبياء والمرسلين .. أمر محبب .. وفيه الكثير من الفضائل ما دام يتم في جو إسلامي ، دون ابتداع أو انحراف . وذكرُهُ ﷺ يكون في كل حين ، وإن كان في شهر ربيع الأول ؛ فيزداد تعلّق الناس بالاستماع إلى السيرة ، نظراً لأنه الشهر الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام (إنَّ في شهر ولادته يكون الداعي أقوى لإقبال الناس واجتماعهم وشعورهم الفياض بارتباط الزمان بعضه ببعض .. فيتذكرون بالحاضر الماضي ، وينتقلون من الشاهد إلى الغائب[1]) .

حتى والأمر كذلك .. وحتى مع تعلق المسلمين بالاحتفاء بالمولد الشريف في شهر ربيع الأول ، إلا أن أهل العلم لا يقولون بسنّية الاحتفال بالمولد الشريف في ليلة مخصوصة ، ويعدون ذلك بدعة لم يفعلها صحابة رسول الله ﷺ .. إذ يجب الاحتفاء به ﷺ في كل وقت وحين .. نتذكّره ونصلّي عليه بأمر الله عز وجل ﴿ **إنَّ الله وملائكَتَهُ يُصَلُّون على النبيِّ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا صَلّوا عليهِ وَسَلِّموا تسليماً** ﴾ (الأحزاب : آية ٥٦) .

ولا شك أن محبة رسول الله ﷺ والفرح بمولده وسيرته أمر يجلب الخير للمسلم .. وذلك لأن الكافر قد انتفع به . فهذا أبو لهب .. عندما سمع بولادة محمد ﷺ فرح .. وأعتق جاريته ثويبة التي بشّرته بمولده . وقد جاء هذا الحديث في صحيح البخاري مرسلًا ، ويقول في ذلك الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقي :

إذا كـانَ هـذا كَـافِرٌ جـاءَ ذَمُّـهُ ... بِتَبَّتْ يَـدَاهُ في الجَحِيمِ مُخَلَّدا
أَتى أَنَّـهُ في يومِ الاثنينِ دائمـاً ... يُخَفَّفُ عَنـهُ للسـرورِ بـأَحْمَـدا
فَمَا الظَّنُّ بالعبدِ الذي كانَ عمرُهُ ... بأحمدَ مسروراً ومَاتَ مُوَحِّدا[1] »

---

(١) السيد الدكتور محمد علوي المالكي ، حول الاحتفال بالمولد النبوي .

ويضرب الدكتور يماني مثلا من سيرة الرسول ﷺ يقاس عليه في أهمية أحياء المناسبات الكريمة والاحتفال بها تعبداً لله فيقول :

وقد أصَّل ﷺ هذه القاعدة بنفسه ، كما صرح في الحديث : أنه ﷺ لما وصل إلى المدينة ورأى اليهود يصومون يوم عاشوراء سأل عن ذلك فقيل له : إنهم يصومونه لأن الله تعالى نجى فيه نبيهم وأغرق عدوهم فهم يصومونه شكراً لله على النعمة ، فقال ﷺ : « نحن أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه » .

بل إن الدكتور يماني يدلل بآيٍ من الذكر الحكيم على ضرورة الفرح بالذكرى العطرة لسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه فيقول :

« ان الفرح به ﷺ مطلوب بأمر القرآن من قوله تعالى : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا** ﴾ (يونس : آية ٥٨) فالله تعالى أمرنا أن نفرح بالرحمة ، والنبي ﷺ أعظم الرحمة قال الله تعالى : ﴿ **وما أرسلْنَاكَ إِلَّا رحمةً للعالَمين** ﴾ (الأنبياء : آية ١٠٧) » .

ومن هذا المنطلق يقول الدكتور يماني في مقدمة كتابه (علموا أولادكم محبة رسول الله) تحت عنوان (يوم السيرة) ما نصه :

ليت الأمهات يجلسن إلى أبنائهن وبناتهن حول السيرة العطرة وإشراقاتها الزكية ، ليت الآباء يفعلون الشيء نفسه ، بل أحسب أن هذا من واجب المدارس أيضاً . فليتها تحدد يوماً من أيام ربيع الأول كل عام تسميه : (يوم السيرة) ، يجتمع فيه الأساتذة بالطلاب في غير ابتداع ، ولا مبالغة ، ولا تهويل : وإنما في مجلس وقور من مجالس العلم والمعرفة ، وليس ضرورياً أن يكون يوم ولادته ﷺ حسب الروايات ، ولكن في أيّ يوم خلال شهر ربيع الأول ، أو حتى في العام ، يخصص يوم يسمى يوم السيرة النبوية ، وذلك لربط أبنائنا بسيرة نبينا ﷺ ، وتعريفهم على تاريخ حياته ،

منذ كان جنيناً مباركاً في بطن أمه إلى أن وضعته ، (فوقع على الأرض معتمداً بيديه شبه الساجد) وقد استنار البيت من حوله ، وغمره الأنس والجمال ، إلى أن استرضع في بادية بني سعد حيث شُق صدره ، إلى أن ذاق مرارة اليتم مرتين بفقدانه أمه وجدّه . وما كان من نشأته طاهراً مطهراً لا يسجد لصنم ، ولا ينضم إلى مجلس لهو أو عبث ، ثم إقرار قريش بتفرّده في مكارم الأخلاق ، وتسميته بالصادق الأمين ، وما كان من خروجه في تجارة خديجة والمعجزات التي رآها ميسرة والقوم في الطريق ذهاباً وإياباً وكيفية تعامله ﷺ مع التجار في السوق ، ثم زواجه من خديجة سيدة نساء قريش ، التي اختارته وفضلته على سادات مكة جميعاً ، وإنجابها البنات في بيئة تكره البنات وتئدهن ، وكيف استقبل ﷺ البنات الأربع بنفس الحفاوة والترحيب التي استقبل بها القاسم وعبد الله الطيب الطاهر ، وأثر هذا كله في قريش الوثنية الممعنة في الغيّ والضلال والشرك ، ثم ما كان بعد ذلك من وقوع الخلاف بين القبائل القرشية حول وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة المشرفة بعد إعادة بنائها ، وكيف وصل الأمر بهذه القبائل أن شحذت السيوف ، ولعقت الدماء ، وتأهبت للانقضاض على بعضها ، فلم ينقذهم إلا حكمة الصادق الأمين ، وحسن مشورته ، وسداد رأيه .

يجب أن يعرف أبناؤنا هذا الجانب من تلك الحياة المتألقة بأنوار العظمة ، وهو الجانب الذي كان في الجاهلية وقبل بعثته ﷺ برسالة الإسلام ، تمهيداً لدراسة الجوانب الأخرى التي كانت في الإسلام .

النسب الشريف

وانطلاقاً من هذا .. أو إعتماداً على ذا .. فانه لشرف لي أن أستعرض والقارىء الكريم جانباً من سيرة المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم . بَدْءً بنسبه الشريف عليه الصلاة والسلام ..

روى الإمام مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم وأصطفاني من بني هاشم » .

كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه كان ﷺ نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام يُسبح ذلك النور وتُسبح الملائكة بتسبيحه . فلما خلق آدم ألقى ذلك النور في صلبه . قال رسول الله ﷺ : فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح وقذف بي في صلب إبراهيم . ثم لم يزل الله تعالىٰ ينقُلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من أبوين لم يلتقيا على سفاح قط » .

وقد جاء في كتاب الفصول في إختصار سيرة الرسول ﷺ للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير ما نصه :

« هو سيد ولد آدم : أبو القاسم محمد ، واحمد ، والماحي الذي يُمحي به الكفر ، والحاشر الذي يُحْشرُ النّاسُ ، والعاقب الذي ليس بعده نبي ، والمقفي ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة . ابن عبدالله ، وهو أخو الحارث ، والزبير ، وحمزة ، والعباس ، ويُكنى أبا الفضل ، وأبا طالب ، واسمه عبدمناف ، وأبي لهب ، واسمه عبد العزى ، وعبد الكعبة ، وهو المقوّم ، وقيل : هما اثنان ، وحَجْل ، واسمه المغيرة ، والغَيْداق ، وسميٌّ بذلك لكثرة جوده ، وأصل اسمه نوفل ، وقيل : حجل ، وضرار .

وصفيّة ، وعاتكة ، واروى ، وأميمة ، وبَرّة ، وأم حكيم — وهي البيضاء .

هؤلاء كلهم أولاد عبد المطلب ، واسمه شيبةُ الحمد على الصحيح ، ابن هاشم واسمه عمرو ، وهو أخو المطلب — وإليهما نَسَبُ ذوي القربى — وعَبْدِ شمس ، ونوفلٍ ، اربعتهم أبناء عبد مناف أخي عبدالعزى ،

وعبدالدار ، وعبد ، أبناء قصي ، واسمه زيد ، وهو أخو زُهرة ، إبنا كلاب أخي تَيْم ، ويقظة أبي مخزوم ، ثلاثتهم أبناءُ مُرّة أخي عدي ، وهُصَيص وهم أبناء كعب أخي عامر ، وأسامة وخزيمة ، وسعد ، والحارث ، وعوف ، سبعتُهم أبناء لؤي أخي تيم الأدرم ابْنَيْ غالب أخي الحارث ، ومُحارب ، بني فِهْر أخي الحارث ابْنَيْ مالك أخي الصّلت ، وَيَخْلَدَ « وفي رواية مخلد » ، إبني النّضْر أخي مالك ومَلْكَان ، وعبد مناة ، وغيرهم ، بني كنانة أخي أسدٍ ، وأسدة ، والهُون ، بني خُزَيمة أخي هُذيل ابن مُدركة ، واسمه عمرو ، وهو أخو طابخة ، واسمه عامر ، وقَمعة ، وثلاثتُهم أبناء الياس ، وأخي الناسّ ، وهو عيلان والد قيس كلها ، ولد مُضر أخي ربيعة وهما الصريحان من ولد اسماعيل ، وأخي أنمار ، وإياد ، وقد تيامنا « أي إرتحلا إلى اليمن » أربعتهم أولاد نزار أخي قُضاعة في قول أكثر أهل النسب ، كلاهما ابنا مَعَدٍّ بن عدنان . فجميع قبائل العرب ينتسبون إلى من ذكرت من أبناء عدنان » .

وقد بيّن ذلك الحافظ أبو عمر النَّمَري في كتاب « الإنباه بمعرفة قبائل الرواة » بياناً شافياً رحمه الله تعالى .

وقريش على قول أكثر أهل النسب هم الذين ينتسِبون إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وأنشدوا في ذلك :

قُصَيٌّ لعمري كان يُدعى مُجَمِّعاً
به جَمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهْرِ

وقيل : بل جِمَاع قريش هو النضر بن كنانة ، وعليه أكثر العلماء والمحققين واستُدل على ذلك بالحديث الذي ذكره أبو عمر بن عبد البر — رحمه الله تعالى — عن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال : قدمتُ على رسول الله ﷺ في وفد كِنْده فقلت : ألستم منّا يارسول الله ؟ قال : « لا ، نحن بنو النضر بن كِنَانة لا نقفو أُمَّنَا ولا ننتفي من أبينا » وقد رواه ابن

ماجة في سننه بإسناد حسن ، وفيه : فكان الأشعث يقول : لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد .

وقيل : ان جِمَاع قريش الياس بن مضر بن نزار . وقيل : بل جماعهم أبوه مضر .

وهما قولان لبعض أصحاب الشافعي ، حكاهما أبو القاسم عبدالكريم الرافعي في شرحه وهما وجهان غريبان جداً .

فأما قبائل اليمن كحمير وحضرموت وسبأ ، وغير ذلك ، فأولئك من قحطان ليسوا من عدنان وقضاعةُ فيها ثلاثة أقوال : قيل إنها من العدنانية ، وقيل : قحطانية ، وقيل : بطن ثالث لا من هؤلاء ولا من هؤلاء وهو غريب ، حكاه أبو عمر — ابن عبدالبر — وغيره .

ثم يذكر ابن كثير طرفا من سيرة القبائل واستدلالاته على انتساب الرسول ﷺ مما هو ثابت لامرية ولانزاع فيه ليروي بعد ذلك نسبه ﷺ بعد عدنان إلى أن يقول : وهو صفوة الله منهم ؛ كما رواه مسلم في صحيحه عن واثلة بن الاسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اختار كِنانة من ولد اسماعيل / ثم اختار من كِنانة قريشاً ، ثم اختار من قريش بني هاشم ، ثم اختارني من بني هاشم » .

وكذلك بنو إسرائيل أنبياؤهم وغيرهم يجتمعون معه في إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب . وهكذا أمر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام ، وهو في التوراة كما ذكره غير واحد من العلماء ممن جمع بشارات الأنبياء به ﷺ ، أن الله تعالى قال لهم ما معناه : « سأقيم لكم من أولاد أخيكم نبياً كلكم يسمع له ، وأجعله عظيما جداً » ولم يولد من بني إسماعيل أعظم من محمد ﷺ ، بل لم يولد من بني آدم أحد ولا يولد إلى قيام الساعة أعظم منه

ﷺ فقد صحّ أنه قال : « أنا سيّدُ ولد آدم ولافخر ، آدم فمن دونه من الأنبياء تحت لوائي » وصحّ عنه أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغبُ إليّ الخلق كلُّهم حتى إبراهيم ، وهذا هو المقام المحمود الذي وعده الله تعالى ، وهو الشفاعة العظمى التي يشفع في الخلائق كلِّهم ليريحَهم الله بالفصل بينهم من مقام المحشر ، كما جاء مفسَّرا الأحاديث الصحيحة عنه ﷺ .

وأمه ﷺ : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مُرّة » .

ويكفي النبي الكريم ﷺ انتسابا من قبل هذا وبعده ما جاء في القرآن الكريم ﴿ **وتقلُّبك في الساجدين** ﴾ (الشعراء : آية ١٩) فهذا يعني أنه من سلالة لم تسجد لغير الله جَل جلاله ..

المولد العظيم

يقول شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه « فضل أهل البيت وحقوقهم » ــ صفحة ٤٥ « لا خلاف بين أهل العلم أن النبي ﷺ توفي في شهر ربيع الأول .. شهر مولده وشهر هجرته وأنه توفي يوم الاثنين وفيه ولد وفيه أُنزل عليه » .

وجاء في الحديث أنه سئل ﷺ عن صيامه يوم الاثنين فقال : « ذلك يوم ولدت فيه » وقد جاء في كتب السيرة الكثير مما كتبه العلماء والفقهاء والكتاب عن تاريخ ميلاده ﷺ .. ويبدو لي أن أدق تحديد ليوم ميلاده الشريف ما تحدثت به المراجع الحديثة نقلا عن « التقويم العربي قبل الاسلام وتاريخ ميلاد الرسول ﷺ » .

فقد سئل المشرف على صفحة دين وتراث عن تاريخ ميلاد رسول الله ﷺ . محدداً مدققاً مع ما يوافقه في التاريخ الميلادي .. فكان جوابه :

« جاء في كتيب ـــ التقويم العربي . قبل الاسلام وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته ﷺ لمحمود باشا الفلكي المصري : عن قتادة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ سئل عن يوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه وكان ذلك اليوم لمضي اثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول .. أي وكان في فصل الربيع وقد اشار لذلك بعضهم بقوله :

يقـول لنـا لسـان الحـال منـه
وقـول الحـق يعـذب للسميـع
فـوجهي والـزمـان وشهـر وضعـي
ربيـع في ربيـع في ربيـع

وحكى الاجماع عليه . وعليه العمل الآن خصوصا أهل مكة وقيل لعشر ليال من ربيع وقيل لسبع عشرة ليلة خلت منه وقيل لثمان مضت منه قال ابن دحية : وهو الذي لا يصح غيره وعليه اجمع اهل التاريخ » .

ثم أخذ يستقصي الروايات التي جاءت ببعض المعلومات عن حياة الرسول المبكرة ليعرف الفصل الذي ولد فيه رسول الله فذكر حادثة عودة حليمة به إلى ديارها بعد سنتين وان أخته الشيماء كانت ترقصه فأخذت حليمة تبحث عنه حتى وجدته مع أخته خارج الخباء فعتبت عليها اخراجه في الحر الشديد فيرى أن هذه الملاحظة تؤكد أن ميلاد رسول الله ﷺ كان في الربيع لان سنه حينئذ كانت سنتين وثلاثة أشهر فكان الربيع قد أنتهى ودخل فصل الصيف أو بدايته .

وبعد أن ذكر اثنى عشر دليلا انتهى إلى القول « ان التوافق الذي يلاحظ بين هذه الكثرة من الروايات والاقوال المختلفة يعادل عندي حقيقة لا يعتريها الشك ومن ثم فأني لا أتردد لحظة في القول بأن النبي محمد ﷺ قد ولد في ربيع سنة ٥٧١ ميلادية .

ولما كان شهر ابريل قد تحدد صراحة في بعض هذه الأقوال ويدل عليه الاستنتاج في بعضها الأخر فأني أقره على أنه الشهر الذي حدث فيه ميلاد الرسول ﷺ .

ولكن في أي أيام شهر أبريل ؟ يجيب الباحث بقوله « ان الاجتماع الحقيقي للقمر وقع في العاشر من ابريل عام ٥٧١ الساعة ٩ والدقيقة ٤١ تقريبا بعد منتصف الليل بحساب الزمن الوسط لمكة وما كان يمكن رؤية الهلال بالعين المجردة الا يوم ١١ مساء . واذن فان الشهر العربي القمري الموافق لا بد أنه ابتدأ يوم الأحد ١٢ ابريل وقد ولد النبي ﷺ طبقا للآراء الجديرة بالثقة يوم ٨ أو ١٠ أو ١٢ من الشهر القمري ربيع الأول وكان يوم ولادته ﷺ يوم الاثنين كما هو المتفق عليه بإجماع الآراء .

ولما لم يكن بين يوم ٨ ويوم ١٢ من هذا الشهر القمري يوم اثنين إلا يوم ٩ منه فإننا لا يمكننا أن نعتمد غير هذا اليوم لميلاد النبي ﷺ .

وإذن فإني أختم هذا البحث مقرراً أن النبي محمد ﷺ قد ولد يوم الأثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ ابريل ٥٧١ م .

أشهد أن هذه الدراسة ــ يقول الباحث ــ من أدق ماقرأت في بيان ميلاد رسول الله ﷺ وتمحيص التاريخ الحقيقي لهذا الميلاد وانها لتدل على عناية المسلمين بتحقيق كل ما يتصل بحياة المصطفى حتى تكون سيرته ملء سمع التاريخ وبعده وضوحاً وجلاء وأحسب أن هذه الجهود الخيرة التي يمليها الحب والولاء لرسول الله هي بعض جوانب حفظ الله لآخر رسالة من رسالاته إن في كتابه عز وجل الذي تعهد تعالى بحفظه نفسه وإن في حديث رسول الله أو في وقائع حياته وتاريخ مولده وهذه الجهود المخلصة ثوابها عند الله تعالى رحمة ومغفرة وذكراً حسنا لكل من ساهم فيها فرحمهم الله وتقبل منا ومنهم صالح العمل » .

هذا ما تقول به المراجع عن ميلاد المصطفى ﷺ وأنه ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ ابريل ٥٧١ م .. وان كان قد تعارف العامة على أن يوم الثاني عشر من ربيع هو يوم ميلاده .

وقد ثبت بالتحقيق والتدقيق أن ولادته ﷺ كانت بمكة المكرمة فقد قال ابن حزم الأندلسي في كتابه جوامع السيرة بعبارة حاسمة قاطعة « ولد ﷺ بمكة » .

وقال ابن هشام في كتابه « السيرة النبوية » (ولد بالشعب في الدار التي كانت عند الصفا وكانت بعد لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجّت) . وذكر ابن سيد الناس مثل هذا في مؤلفه « عيون الأثر في سيرة سيد البشر » وكذلك قال الامام السهيلي في « الروض الأنف » وابن سعد رواية عن الواقدي في « الطبقات الكبرى » وقد أضاف ابن هشام تحت عنوان « إعلام جده عبد المطلب بولادته ﷺ » ، فقال : (فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده ، أنه قد ولد لك غلام فأتِه فانظر إليه ، فأتاه فنظر إليه ، وحدَّثته أمه بما رأت حين حملت فيه وما أُمِرَتْ به أن تسميه) . وكما يقول ابن هشام : فقد فرح جده وأخذه فدخل الكعبة ، وقام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه منشداً :

الحمد لله الذي أعطاني
هذا الغلام الطيِّبَ الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذي شنآن
من حاسد مضطرب الجنان

معجزات كونية

لقد صاحبت ولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام الكثير من المعجزات الكونية لاقناع أبناء عصره بنبوته .. وان كانت معجزته الخالدة هي القرآن .. ولقد تحدث عن كيفية وقوع تلك المعجزات التي يعرفها كل مسلم .. فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في العدد الرابع من السنة الثامنة بمجلة الشباب التي يصدرها الأهرام بقوله :

« أما مسألة المعجزات الكونية » فالمعجزات أمور خارقة . ومعنى أمور خارقه أنها غير خاضعة لناموس الكون ، ولا لقانون الوجود ، الكون له قانون يسير عليه فأذا ما جاء أمر خارج على ذلك القانون ، فاننا نقول ان هناك حادثة جاءت وخرقت القانون ، وما دامت خرقت القانون فاننا نتساءل : كيف يُخرق القانون ؟

ومن البديهي أنه لا يمكن أن يخرق القانون إلا خالق القانون ، لأن الفرق بين قانون الانسان وقانون الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان يملك أن يطلق القانون أو لا يطلقه ولكنه إذا أطلق القانون ، فإنه لا يملك التحكم فيه فإذا كان هناك إنسان يجيد التصويب على الهدف ، ومعه بندقية سليمة ومحشوة برصاصة ، فإن له أن يصوب ويطلق أو لا يصوب ولا يطلق .. هو مختار في هذا ، ولكنه حين يضع يده على الزناد ويطلق الرصاصة على الهدف ، فلا يستطيع أن يتحكم في الرصاصة ، ويقول لها : « يا رصاصة لا تصيبي الهدف ، فقد خرج القانون من يده ، ولكن الحق يطلق القانون ، ويقول للقانون « قف ولا تفعل » .

فالمعجزات وهي خرق لناموس الكون وخرق لقوانين الوجود تدلنا على أن الذي فعل ذلك ، هو الذي خلق الناموس وخلق الوجود ، وخلق قوانين الوجود وهذا الخرق إذا حدث وكان أمراً مادياً ، يحدث مرة

واحدة ، فإذا حدثنا أن معجزات الرسول كانت كذا . وكانت كونية كلها ، وكانت أخباراً لا سبيل إلى تصديقها الا بالنقل المتواتر عن الصادقين التقاة الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب لكن إذا حدثنا عنها القرآن ، فنقول نعم .. الآن نُصدق ، لأن القرآن وهو أقوى واثبت وثيقة ــ قد حدثنا ورسول الله امتاز بمعجزة أخرى باقية إلى أن تقوم الساعة وهي القرآن .

ولكن هل امتيازه بمعجزة القرآن يعني أنه حُرم من معجزات كونية يراها المعاصرون له كما أعطي أصحابه الرسل ؟ لا .. فمحمد رسول الله أعطاه الله المعجزات الكونية التي أعطاها لإخوانه الرسل ثم تميز بمعجزة أخرى باقية .

اذن فمجيء المعجزات الكونية على يد رسول الله ﷺ تسوية له باخوانه من الرسل ، ومجيء المعجزة الباقية هي زيادة مكانته ومقامه على الرسل » .

بشائر وشواهد

.. وفي كتابه « عبقرية محمد » يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد يرحمه الله .. عن البشائر بمولده والشواهد على نبوته ﷺ وكيف أكدتها الأحداث .. وأثبتتها الأيام والسنين :

« والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية .. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟

لا موضع هنا لاختلاف ..

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها .

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد ، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة .

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة ، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه .

وقد ولد مع النبي عليه الصلاة والسلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين .. يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين .

وقد جاءت الحقائق .. والوقائع لتؤكد صدق ما قيل عن المعجزات التي صاحبت مولده ﷺ .. كما أثبتت الأيام والسنين فلاح دعوته عليه الصلاة والسلام ونجاحه في اداء الامانة وتبليغ الرسالة وفق ما أمره الله سبحانه وتعالى به » .

رضاعه ﷺ

وفي مختصر السيرة النبوية لابن هشام فصل بعنوان « الرضاع » يقول فيه :

« كانت حليمة إبنة أبي ذؤيب تُحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد تلتمس الرضعاء قالت

وذلك في سنة شهباء « مجدبة » لم تُبق لنا شيئاً فخرجت على أتانٍ لي قمراء « انثى الحمار التي يميل لونها للخضرة » معنا شارف لنا ، « ناقة مسنة » والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع ، من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع مافي ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما بغذيه ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على اتاني تلك فلقد أَدمْتُ « أي أطلت المسافة » بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرآة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم ! وما عسى ان تصنع أمه وجدُه فكنا نرفضه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « تعني زوجها » والله أني لاكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ، قال : لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قال : فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه اخوه حتى روى ثم ناما وماكنا ننام معه قبل ذلك وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي حين اصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد اخذت نسمة مباركة . فقلت والله أني لارجو ذلك ثم خرجنا وركبت انا اتاني وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى أن صواحبي ليقلن لي : يا إبنة ذؤيب ويحك اربعي علينا أليست هذه اتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله انها لهي ! فيقلن والله ان لها شأنا !

فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لُبَّناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح اغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعا لُبَّنا .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً « الشديد » فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مُكثِه فينا ، ولما كنا نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها :

لو تركت بُنيَّ عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة ــ الطاعون ــ فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفى بَهْمٍ لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه .

فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدته قائما منتقعا وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : ما لك يا بني ؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو .

فرجعنا إلى خبائنا وقال لي أبوه : ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت : ما أقدمك به ياظئر « المرضعة لأبناء الناس » وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت : قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين قالت : ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك فلم تدعني حتى أخبرتها قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم قالت : كلا والله ماللشيطان عليه من سبيل وإن لبُنَيِّ لشأنا أفلا

أخبرك خبره ؟ قلت : بلى قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بُصْرَىٰ من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخفَّ عليَّ ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وأنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقي راشدة » .

ويمضي ابن هشام فيقول :

« وان نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يارسول الله أخبرنا عن نفسك قال : نعم أنا دعوة أبي ابراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام واستُرضعت في بني سعد بن بكر .

فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطَسْت من ذهب مملوءة ثلجا ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها . ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنني فوزنتهم فقال : دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها » .

وقد روى الإمام مسلم رحمه الله :

« عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأَمَه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه (يعني : ظئره ـــ التي هي مرضعته ـــ) فقالوا : إن محمداً قد قتل » وقد أثبت الامام أحمد رحمه الله ذلك في مسنده .. ما جاء في نهاية الحديث . « وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره » .

نشأته ﷺ

وكما نقلنا من أوثق المصادر البينة ما سبق . فاننا نعتمد عليها فيما ذكرته عن نشأته ﷺ :

« وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبدالمطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامة فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه بالأبْواء بين مكة والمدينة كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تُزيره إياهم فماتت وهي راجعة به إلى مكة . فكان رسول الله ﷺ مع جده عبدالمطلب بن هاشم وكان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم « دعوا إبني فوالله أن ل شأناً ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع »

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين هلك عبد المطلب وذلك بعد الفيل بثماني سنين .. فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب .

وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده فكان إليه ومعه .

وان رجلا من لِهْب كان عائفا « الرجل الذي يتفرس في خلقة الإنسان فيخبر بما تؤول حاله إليه » فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم فأتى به أبوطالب وهو غلام مع من يأتيه فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء فلما فرغ قال : الغلام .. علي به فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول : ويلكم ردوا علي الغلام الذي رأيت آنفا فوالله ليكونن له شأن .

ويُروى عنه ــ وهو طفل صغير ــ أن بعض رفاقه وأترابه جدّوا في البحث عنه طويلا ــ ذات يوم ــ حتى وجدوه بعد طول عناء جالساً في ظل حائط عند أطراف مكة .

وهمّوا به ليأخذوه معهم إلى سامر فيه زمر ، وطبل ، ولهو .. فهز الطفل الصغير رأسه معتذراً ، وقال : « أنا لم أخلق لهذا .. » .

.. ولقد أدّى أبو طالب الدور المناط به كأفضل ما يكون مما سيكون له أعظم الأثر وأحسنه في نفس رسول الله ﷺ كما سنرى في الفصول اللاحقة :

الشخصية الباهرة

.. وعاش الرسول ﷺ سنوات حياته قبل البعثة مثلًا لحسن الخلق وصدق الحديث وعفة اليد واللسان ورجاحة الرأي وفصاحة التعبير والأداء وفي ذلك يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد يرحمه الله في كتابه « عبقرية محمد » :

« فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام .. فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب .

أما فصاحة محمد .. فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه .

فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشي واستُرضعت في بني سعد بن بكر » .

فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة . وهذه هي فصاحة الكلام .

وخير وصف لفصاحته ﷺ ما روي عن عائشة رضي الله عنها : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل .. يحفظه من جلس إليه » . وإضافة إلى ذلك فقد أوتي ﷺ « جوامع الكلم » .

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه ، وتجمعان إليه قلوب من عاشروه . وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء .

وحسبك من حب الضعفاء إياه أن فتى مستعبداً يفقد أباه وأسرته ـــ كزيد بن حارثة ـــ ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة ، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه ..

وأن خادم خديجة رضي الله عنها ـــ ونعني به ميسرة ـــ يقدمه ليبشر سيدته بالربح والتوفيق في تجارته ، وهو أولى أن ينفس عليه ، وأن يدعي لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم .

وحسبك من حب الأقوياء إياه أنه جمع على محبته أُناساً بينهم من التفاوت في المزاج والخصال ما بين أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة ، وهم جميعاً من عظماء الرجال .

ولكن الرجل قد يكون صبيحاً دمثاً محبوباً ، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم إياه نصيب كبير .. لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به ، وإذا اتفقت الخصلتان حيناً فمن الجائز أن تفترقا حيناً آخر ، لأنهما في عنصر الخصال لا تتلازمان .

أما محمد فقد كان جامعاً للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان ، وكان مشهوراً بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه . وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه .

يوم التحكيم

.. وعن الشخصية العظيمة .. ومواقفها الخالدة التي تؤكد عظمة محمد الإنسان ومن قبل أن يصبح رسولًا نبياً .. تحدثنا كتب السيرة عن كثير .. وكثير جداً من المشاهد التي حفلت بها أيام حياته ﷺ يكفينا منها يوم التحكيم .. وهو اليوم الذي اختاره الكاتب الإسلامي خالد محمد خالد في مقدمة الأيام التي تضمنها كتابه « عشرة أيام في حياة الرسول ﷺ » إذ يقول عن هذا اليوم :

كان هذا اليوم قبل الرسالة بخمسة أعوام :

وعلى الرغم من أننا آثرنا أن تكون الأيام التي أخذناها لموضوع هذا الكتاب من الفترة التالية لبدء الوحي والرسالة والواقعة في سنوات النبوة فإنه لم يكن ثمة بد من مجاوزة القاعدة التي وضعناها تجاه هذا اليوم الفريد !!

انه اليوم الوحيد بين الأيام العشرة نختاره من سنوات ماقبل الوحي سنوات التهيؤ والإعداد .

وما كان لموضوع كهذا الذي نحن بسبيله أن يبلغ تمامه دون أن تمثل فيه فترة التهيؤ والإعداد ببضعة أيام وما أكثر الأيام الماجدة العظيمة التي تزخر بها حياة الرسول قبل أن يناديه الوحي ويشرق عليه يوم الاصطفاء . بيد أن المجال القريب لبحثنا هذا لم يتح لنا أن نستطرد مع روائع تلكم الأيام فاخترنا ذلك اليوم الذي يمثل أصدق تمثيل فترة ما قبل الوحي بكل خصائصها ومزاياها وإرهاصاتها .

انه يوم قوي النبض باهر السمت بالغ الدلالة ..!!

وانه لينهض شامخا فوق قمة فترة من الحياة ماضية .. وفترة أخرى آتية .. فيعلمنا بصوت مسموع تفسير الآية الكريمة القائلة :

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حيثُ يجعلُ رِسَالَتَه ﴾ ..!! (الأنعام : ١٢٤) .

أجل .. سيكشف لنا هذا اليوم بل ستكشف لنا ساعة واحدة من ساعات ذلك اليوم كل ما زخرت به الأربعون عاما التي سبقت بدء الوحي والرسالة من أمانة واستقامة وعظمة .. كما ستصدح دقاتها بأعظم إرهاصات المصير الإنساني متمثلا هذا الإرهاص في الايماءة الصادقة إلى الرجل الذي سيحمل تبعات الغد تجاه الناس أجمعين والذي سيحمل كلمة الله للعالم في نبوة راشدة وحنيفية سمحة وآعدة والذي سيكون رحمة مهداة وحجة قائمة » .

ثم يقول .. وهو يتحدث عن اليوم الباهر الذي ينبيء عن عظمة محمد .. وسمو تفكيره .. وجلال معطياته ﷺ فيقول :

« وليبدأ حديثنا عن يوم التحكيم هذا بعرض صورته التاريخية :

فقبل بزوغ الإسلام بسنوات خمس والرسول ﷺ في الخامسة والثلاثين من عمره المبارك لم يأته الوحي بعد ، وروحه تغذ السير في بحثه عن الحق وعن الحقيقة أجمعت قريش أمرها لبناء الكعبة اقدس ماورثوا وما عرفوا كانت الكعبة يومذاك رضما من الحجارة المرصوصة بغير ملاط يمسكها ويزينها وبغير سقف مرفوع .

والآن وقريش تريد أن ترتفع ببنائها وتضفي عليها من العمارة ما يليق بولائهم لها فقد تواصوا على أن يخصوها بأطيب ما يكسبون . لقد وقف فيهم « أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم » وهو خال والد الرسول وقف يقول لهم : يا معشر قريش ..

« لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا .. »

« لا تُدخلوا فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة احد من الناس » ..

ونهضت قريش بالعمل ، جامعة له ما يحتاج من حجارة وملاط واخشاب ولكي يكون شرف القربى وثوابها من نصيب القبائل جميعا قسموا أركانها على القبائل حيث تشترك في كل جانب منها أكثر من قبيلة .

ونهضوا يبنون حتى أفضى البناء إلى موضع الركن حيث يقوم الحجر الأسود رامزاً في جلال مهيب لكدح « ابراهيم واسماعيل » في سبيل الله والدين .

فمن مِن الناس أو من القبائل سيذهب بشرف رفع الحجر ووضعه في متكئه ومكانه ..؟

ذلك شرف ليس في وسع قبيلة ما ان تدعه يُفلت منها إلى قبيلة أخرى سواها ولو اقتضى الأمر انتضاء السيوف وملاقاة الحتوف .

ولقد طال بينهم اللجاج والخلاف ثم احتدم الخصام وتسعرت المغايظ وغشاهم نذير حرب أهلية طاحنة حين جاء بنو عبد الدار بجفنة مملوءة دماً ثم ألقوا هم وبنو عدي أيديهم في تلك الجفنة متعاهدين معا على الموت في سبيل الأّ يفوتهم ذلك الشرف العظيم والقربى الجليلة .

بقيت قريش في ذلك التوتر المنذر بالسوء خمسة ايام .. وفي اليوم السادس وقد غص المسجد الحرام بجموعهم المتربصة والمتحفزة أشار عليهم واحد من شيوخهم أن يحكموا بينهم فيما هم فيه مختلفون أول داخل عليهم وتواثقوا جميعا على قبول هذه المشورة ..

وجلسوا جماعات وحِلقا يغشاهم قلق .. وعيونهم شاخصة نحو الباب تترقب ..!!

ترى من هذا الذي ستختاره الأقدار ليجمع الشمل ويرأب الصدع ويهدى للتي هي أقوم ..؟؟

هاهو ذا يبزغ فجأة في لحظة من أكثر لحظات الحياة امتلاء بالتهلل والبشرى ولا يكاد القوم يبصرونه حتى ترتفع أصواتهم بكلمات كأنهم واياها على موعد .

هذا الأمين رضينا .. هذا محمد .!!

ويتقدم محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .. يتقدم ليعرف : ما الخبر ؟ حتى إذا تبينه حنى رأسه في خشوع شاكراً لربه اصطفاءه إياه لهذه المهمة الجليلة .. ولم يبحث عن الحل فقد كان الهامه وكانت بديهته مهيأين دائماً للعمل القويم الناجز حين تعمى السبل على الآخرين وبسط نحوهم يديه قائلا :

(هلم إلي ثوبا) ...

وأسرعوا إليه بثوب بسطه الرسول ثم وضع الحجر في وسطه ونادى الجموع المتحفزة آمراً إياها أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب حتى إذا فعلوا طلب اليهم ان يرفعوه جميعا إلى أعلى وحين بلغوا مكانه المرموق أخذ الرسول الحجر بكلتا يديه وثبته في مقامه وواصلت قريش عملية البناء ..!!

كان هذا اليوم يوم الارهاص العظيم .. واليوم الذي بدأت السماء فيه وربما لأول مرة تضع مصطفاها ومختارها داخل دائرة الضوء الواسعة الرحيبة وتقدمه داخل دوره المنتظر بأسلوب رامز ريثما تقدمه في الغد القريب جهاراً علنا » .

دلالة ورمز

وبعد أن يقول الكاتب : « صحيح ان حياته السالفة كانت ممتلئة بالايماءات المسفرة لدوره المرتقب » .. يورد نماذج عدة كقوله ﷺ عندما كان طفلا ينأى عن اللهو مع أترابه : أنا لم أخلق لهذا .. او ما قاله

بحيرا الراهب لأبي طالب .. أو الاهتداء ـــ وهذا هو الأهم ـــ بفطرته وبصيرته الذكية إلى ما في وثنية قومه من ضلال عرف عنها ورفضها فلم يحن جبهته العالية لصنم ولا وثن وراح يلتمس العون والهدى من رب العالمين وبعد أن أفاض الكاتب في الحديث عن هذا راح يوضح الأهمية ليوم التحكيم وما فيه من دلالة ورمز للمستقبل فيقول :

« صحيح ان حياته كلها قبل النبوة وقبل يوم التحكيم هذا كانت موكبا من الارهاصات الصادقة المبينة . بيد ان ليوم التحكيم مزية ينفرد بها عن بقية الأيام فالإرهاص فيه متكامل ومباشر بدور المنقذ ودور الرسول .. المنقذ الذي سيكون على يديه خلاص العالم من ظلماته الماحقة والرسول الذي لن يجيء به إلى منصة القيادة اختيار الناس بل اصطفاء السماء ..

فأما عن « المنقذ » فها هو ذا يحسم ببصيرته المضاءة بنور الله نزاعاً محتدماً كان على وشك ان يتحول إلى حرب اهلية تحمل كل ضراوة الجاهلية وبأس القبلية .

وأما عن الرسول فها هو ذا في يوم التحكيم لا يجيء به الناس بل يجيء به القدر العظيم .

ألم تتفق قبائل قريش على تحكيم أول قادم .. فمن الذي أختار هذا القادم ..؟

أهي قريش .. كلا ولا احد من الناس .. إنما أختارته المقادير !! وكان « محمد الأمين » هو الرجل المختار .. وهذا الذي حدث يوم التحكيم مثل إرهاصاً وثيقا بالمستقبل القريب لهذا الرجل .. أن قوة أعلى من قوة البشر ستصطفيه وتختاره لمهام أجل وأعظم ، مثلما أختارته اليوم لمهمة التحكيم .

هذا هو الرمز الحي والذكي ليوم التحكيم وهذه قيمته الثمينة كيوم خالد في حياة الرسول .

ولا تقف دلالة الرمز وجلال القيمة عند هذا المعنى الذي ذكرناه بل تمتد إلى الأسلوب الذي عالج به الرسول الموقف حيث يشكل هو الآخر إرهاصاً مبيناً المنهج الذي سيمارس به النبي دوره غداً على مسرح الحياة .

أن الرجل الذي أخرج قريشاً من محنتها سيقدُر له غداً أن يُخرج العالم كله من حيرته وضلاله مُرسَلاً إليه من رب العالمين .

والطريقة التي بدد بها حيرة قريش اليوم وعالج بها محنتها ترهص في وضوح المنهج الذي سيتوسل به غدا لتبديد حيرة العالم وظلماته فماذا كان جوهر تلك الطريقة لنرى من خلالها جوهر هذا المنهج ؟ إنه « التوفيق » .

أجل .. لقد كان أسلوب الرسول يوم التحكيم أسلوبا « توفيقياً » وفق به في براعة فائقة بين الأتجاهات المتنابذة وأحل به مكان النفرة والتمزق وحدة متعاضدة حققت لنفسها الخير من أقرب طريق .

وهكذا سيكون لُباب منهجه عندما يُوحى إليه ويحمل رسالة الله إلى الناس » .

يوم يتيه على الزمان

في كل يوم تشهد الحياة الدنيا ولادة الألوف .. بل عشرات الألوف الذين يخرجون من رحم أمهاتهم .. ثم تمضي بهم أيام العمر إلى النهاية الطبيعية لكل مخلوق دون أن يحس بوجودهم أحد .. أو يستفيد من حياتهم مخلوق ... أو يأسى لغيابهم بشر !!

ملايين .. بل ألوف الملايين من البشر استقبلتهم الحياة الدنيا .. وودعتهم دون أن يكون لهم أثر يذكر أو عمل يشير إلى مرورهم بمواكب الحياة اللهم إلا قلة معدودة لا تقاس بالأعداد الهائلة التي شهدت الحياة وجودها . سجل التاريخ لها بعض الأعمال التي أثَّرت في مجرى الحياة .. أو تركت بعض البصمات عليها كان من بينهم أنبياء الله ورسله الذين بعثهم الله إلى أممهم بدليل قوله تعالى : ﴿ **وإن من أمةٍ إلا خلاَ فيها نذير** ﴾ (فاطر : آية ٢٤) .. أو المصلحون والحكام الذين اتسمت أعمالهم بالفلاح والعدل فكان لهم في صفحات التاريخ بعض سطور .

ملايين الملايين لم يكن لهم أثر .. أو يبقى لهم ذكر .. فيما عدا أنبياء الله ورسله الذين بعثهم الله على فترات في الأمم السابقة ولكن مهمتهم ظلت محصورة في قومهم لقوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلاً إلى قومهم** ﴾ (الروم : آية ٤٧) ومصلحون وحكام يمكن حصرهم ، حفظ التاريخ سيرتهم في المجال المحدود الذي استطاعوا أن يبرزوا فيه .

تلك سنة الله في الذين خلوا منذ فجر التاريخ .. وبداية الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. لم يتألق فيها ذكر انسان .. ويذكر فيها اسمه على امتداد العصور .. والدهور وسيظل كذلك إلى يوم البعث

والنشور .. غير الرحمة المهداة .. ونبي الله ومصطفاه .. الذي بعثه الله رحمة للعالمين .. وأرسله سبحانه وتعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ــ كما جاء في سورة التوبة ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ (آية ١٢٨) أو كما قال سبحانه وتعالى وبنص مماثل في سورة الفتح : ﴿ **هو الذي أرسلَ رسُولَه بالهدى ودينِ الحقّ ليُظهرهُ على الدينِ كُله وكفىٰ باللّهِ شهيداً . محمدٌ رَسولُ الله والذينَ معه أشداءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهم تراهمْ رُكعاً سُجَّداً يبتغونَ فَضلاً مِن اللّهِ ورِضواناً سيماهُم في وجُوهِهِم من أثرِ السجود** ﴾ (الفتح : آية ٢٨ ، ٢٩) .

ولقد أفضل الله على هذا النبي الأمي الذي اصطفاه من بين خيرة خلقه بمميزات . ونعم لا تحصى ولم ينل منها غيره إلا قليلاً بما في ذلك أنبياؤه ورسله السابقون الذين كانت رسالاتهم لأممهم .. بينما جاءت رسالة محمد عليه السلام لعامة الخلق إذ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **قل يا أيها الناسُ إني رسولُ اللهِ إليكم جميعا** ﴾ (الأعراف : آية ١٥٨) .

وكما أنه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين لقوله عليه الصلا والسلام .. وفق ما روى الإمام البخاري بسنده « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاَّ وضُعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة .. وأنا خاتم النبيين » فإنه عليه الصلاة والسلام أول الخلق وأول من نبيء .. وأول من يبعث يوم القيامة إذ روى الإمام أحمد رحمه الله في مسنده هذه الأحاديث الثلاثة .. ولها كثير من المتشابهات :

● عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اني عند الله لخاتم النبيين وان آدم لمنجدلٌ في طينته » .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي . وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر .» .

رسل الله

.. **يقول** الحق سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم : ﴿ **وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذير** ﴾ (فاطر : آية ٢٤) ويقول عز من قائل : ﴿ **وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبلهِ الرسل**﴾ (آل عمران : آية ١٤٤) .

ولقد أرسل الله رسله .. ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور .. ولينذروهم عذاب يوم شديد .. ﴿ **يوم يفرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه** ﴾ عبس : آية ٣٤) .. وهو اليوم الذي فيه ﴿ **تَذْهَلُ كل مرضعةٍ عما أرضعت وتضعُ كل ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وترى الناس سُكَارَىٰ وما هم بسكارى ولكن عذابَ اللهِ شديد** ﴾ (الحج : آية ٢) .

والحق سبحانه وتعالى .. وهو الرؤوف الرحيم .. لا يرضى لعباده الكفر .. كما أنه عظمت رحمته لا يعذبهم إلا بعد أن يرسل إليهم رسولا يبشر المؤمنين وينذر الكافرين .. وبهذا يعلمنا رب العزة والجلال أنه لا جزاء بغير بلاغ . ولا عقاب بغير حساب .. والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر .. يكفي منها قوله تعالى :

﴿ **وما كنا مُعَذِّبِينَ حتى نبعثَ رسولا** ﴾ (الاسراء : آية ١٥) .

﴿ **وما كان ربك مهلكَ القرى حتى يبعثَ في أمها رسولا** ﴾ (القصص : آية ٥٩) .

﴿ قد جاءكم رسولُنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ (المائدة : آية ١٥) .

﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه ليبينَ لهم ﴾ (ابراهيم : آية ٤) .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إلـٰـه إلا أنا فاعبدون ﴾ (الأنبياء : آية ٢٥) .

﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل ﴾ (النساء : آية ١٦٥) .

وعندما شاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى لدين الحق أن يكون خاتمة الأديان وأظهره على الدين كله .. اختار سيد ولد آدم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ليكون خاتم النبيين كما هو إمام المرسلين فقال عز من قائل :

﴿ هو الذي أرسل رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقّ ليظهِرَهُ على الدين كله ﴾ (التوبة : آية ٣٣) .

وقد تكررت هذه الآية نصاً في أكثر من موضع فجاءت في سورة الفتح وفي سورة الصف .

وقد خاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام فيما نزل به عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى :

﴿ يا أيها النبيُّ إنا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ الأحزاب : آية ٤٥) .

﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ﴾ (الفتح : آية ٨) .

﴿ الذين يتبعون الرسولَ النبيَّ الأمّي ﴾ (الاعراف : آية ١٥٧) .

﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ﴾ (التوبة : آية ١٢٨) .

﴿ **قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا** ﴾ (الأعراف : آية ١٥٨) .

رجل الموقف

.. **وقبل** أن نسترسل في سرد ما تضمنته كتب السيرة من أنباء بعثته ﷺ وما جاء به من الحق . يجدر بنا أن نقف قليلا لنرى الحال التي كانت عليه قريش في جاهليتها .. وكفاءة الشخص الذي أهَّلَته الأقدار ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .. وكيف كان هذا النور رحمة تهدي إلى الصراط المستقيم .

الكاتب الإسلامي عباس محمود العقاد يقول في كتابه « عبقرية محمد » عن.رجل الموقف :

« عالم يتطلع إلى نبي .. وأمة تتطلع إلى نبي ، ومدينة تتطلع إلى نبي ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي .

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدماته ، ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في المدينة .. وفي الجزيرة ، وفي العالم بأسره .

نبيل عريق النسب .. وليس بالوضيع الخامل ، فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب ..

فقير .. وليس بالغني المترف فيُطغيه بأس النبلاء ، والأغنياء ، ويُغلق قلبه مايغلق القلوب من جشع القوة واليسار .

يتيم بين رحماء .. فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتُل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين .

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة .. تربى في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء ..

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية ..

وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه .. فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجتها .

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة ، على غير علم من الدنيا التي ترقبها .

ذلك محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ..

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟.. وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟.. علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها » .

دعوة محمد

وعن جاهلية ما قبل الإسلام .. والأصنام التي كانت تعبد من دون الله وكيف واجه محمد ﷺ بدعوته كل ذلك . يقول الكاتب الإسلامي الكبير محمد حسين هيكل يرحمه الله في كتابه « حياة محمد » .

« وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شَبَهٍ قوي فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث ، وان تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هي اسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر . وها هي ذي طريقة محمد وأساس دعوته ، فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها ؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدأوا يفكرون فيما امامهم . لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم . فأي صنم هو الحق وأي صنم هو الباطل ؟ وكان في بلاد العرب وفي البلاد التي تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار ، وكان فيها الذين يعبدون الشمس . فأي هؤلاء على حق ، وأيهم على باطل » ؟

وعن جوهر الدعوة المحمدية .. على مُبَلِّغِهَا ألف أفضل الصلاة والسلام .. يلحق الأستاذ « هيكل » بما سبق النص التالي :

« لنذر هذا كله إذاً جانبا ، ولنمح أثره من نفوسنا ولنتجرد من كل رأي ومن كل عقيدة سابقة ، ولننظر ، والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سِيَّان . مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالا . فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأممه بعضها ببعض . والإنسان يتصل بالحيوان والجماد . وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك . وذلك كله يتصل في سنن مطردة لا تحويل لها ولا تبديل . ﴿ **لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمرَ ولا الليلُ سَابِقُ النهار** ﴾ (يسٓ : آية ٤٠) . ولو ان إحدى موجودات الكون تحولت أو بدلت لتبدل ما في الكون . فلو ان الشمس لم

تسعد الارض بالنور والحرارة على السُنَّة التي تجري عليها منذ ملايين السنين ، لتبدلت الأرض غير الأرض والسماء . وما دام ذلك لم يحدث ، فلابد لهذا الكل من روح يمسكه ، منه نشأ ، وعنه تطور وإليه يعود .. هذا الروح وحده هو الذي يجب أن يخضع له الإنسان . أما سائر ما في الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء . والإنسان والكون والزمان والمكان وحده . وهذا الروح جوهرها ومصدرها . إذاً فلتكن لهذا الروح وحدة العبادة ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة . وفي الكون كله يجب ان نلتمس من طريق النظر والتأمل سننه الخالدة . وإذاً فما يعبُد الناس من دون الله أصناما وملوكا وفراعنة وناراً وشمساً انما هو وهمٌ باطل غير جدير بالكرامة الانسانية ، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كُرِّم به من القدرة على استنباط سنة الله من طريق النظر في خلقه .

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأولون ، وقد أبلغهم الوحي إياها على لسان محمد ﷺ في آي من البلاغة كانت ولا تزال معجزة ، فجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره في كمال جماله . هناك ارتقت نفوسهم وسمت قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم ، فهداهم محمد ﷺ إلى ان الخير هو طريق الوصول ، وانهم مجزيون عن هذا الخير يوم يُتِمونَ واجبهم في الحياة بالتقوى ، ويوم تُجزى كل نفس بما كسبت . ﴿ **فمن يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يره ومن يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ شراً يره** ﴾ (الزلزال : آية ٧ ، ٨) .

أي سمو بالعقل الإنساني أعظم من هذا السمو !! وأي تحطيم لقيوده أشد من هذا التحطيم « حسب الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروة من مراتب الإنسان . وفي سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها » .

وجاء الوحي

وتمضي الأربعون من حياة الرسول ﷺ طاهرة نقية حافلة بالأعمال الباهرة والخلال الحميدة ويجيء الوحي بعدها بالرسالة كما تقول بذلك الصحاح وكتب السيرة .

وقد ذكر ابن هشام في مختصر سيرة الرسول ﷺ « البعث » فقال :

فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين كافة وللناس بشيراً وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على من خالفه وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه .

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصُرنَّه قال أأقررتُم وأخذتمُ على ذالكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾
(آل عمران : آية ٨١) .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه الا جاءت كفلق الصبح وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيء احب اليه من ان يخلو وحده .

وكان رسول الله ﷺ حين أراده بكرامته وابتدأه بالنبوة إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون اوديتها فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر

والحجارة فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة وهو بحراء في شهر رمضان .

وكان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين . فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل ان يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ماشاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ماأراد من كرامته ، من السَنةِ التي بعثه الله فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه اهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

وجاء الوحي .. ودعا محمد ﷺ بدعوته فكان أول من آمن به من الرجال . أبو بكر الصديق . ومن النساء « خديجة بنت خويلد » وكان قد بنى بها من خمسة عشر عاماً .. ومن الصبيان « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه ورضي الله عنهم جميعاً » .

الجهر بالدعوة

تجمع كتب السيرة على ان أول ما فعله رسول الله ﷺ بعد نزول الوحي بقول الله تعالى : ﴿ **وَأَنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين** ﴾ (الشعراء : آية ٢١٤) . ان دعا بني هاشم فحضروا ومعهم نفر من بني عبد المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا فبادره أبو لهب قائلا : هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك وإن أقمت على ما أنت

عليه فهو أيسر عليهم من أن ينبت بك بطون قريش وتمدهم العرب فما رأيت أحدا جاء على بني ابيه بشر مما جئت به فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال : ان الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو أني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون وأنها الجنة أبدا أو النار أبدا » فقال ابو طالب ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير اني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أُمرت به فوالله لأزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل ان يأخذ غيركم فقال أبو طالب والله لنمنعه ما بقينا . وبعد ما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يُبلِغُ عن ربه قام يوما على الصفا فصرخ ياصباحاه فاجتمع اليه بطون قريش فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر . وقد روى البخاري طرفا من هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ (الشعراء : آية ٢١٤) . صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي يابني فهر ! يا بني عدي ! لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هنالك ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال النبي ﷺ : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا فقال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ **تَبَّتْ يدا أبي لهبٍ وَتَبّ** ﴾ (المسد : آية ١) .

الموقف الحاسم

حاول زعماء الكفر والضلال يومذاك بشتى الوسائل محاربة الدعوة التي جاء بها المصطفى عليه الصلاة والسلام .. ولكن أنّى لهم أن يفلحوا في محاربة الله ورسوله .

ولما ضاقت بهم السبل لجأوا الى أبي طالب عم الرسول ﷺ . وهو الذي تعهد برعايته وحمايته من قومه بعدما تولى أمره .. طالبين الوساطة والحل الوسط في رأيهم .. كما تقول كتب السيرة في الرواية التالية :

« لم يكن عمه أبو طالب قد دخل في دين الله ، ولكنه ظل حامياً لأبن أخيه قائماً دونه ، معلنا استعداده للدفاع عنه . لذلك مشى رجال من أشراف قريش إلى ابي طالب وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب ، فقالوا : « يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعابَ ديننا وسفَّه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفَّه عنا وأما أن تُخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فَسنَكفيكه ، فردَّهم أبو طالب ردَّاً جميلا ومضى محمد يشتد في الدعوة إلى رسالته ، ويزداد لدعوته أعوانا . وائتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبي طالب مرَّةً أخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة . وكان انهدَ فتًى في قريش وأجمله وطلبوا إليه أن يتخذه ولدا ويسلمهم محمدا فأبى . ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها . ثم ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة وقالوا له : « يا أبا طالب ان لك سِناً وشرفاً ومنزلة فينا وقد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا . وانا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » . وعظُم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا بتسليم ابن اخيه ولا خذلانه . ماذا تراه يصنع ؟ بعث إلى محمد فقص عليه برسالة قريش ثم قال له : « فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تُحَمِّلني من الأمر ما لا أطيق !!

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدري بعدها ما اتجاهه . في الكلمة التي تفتر عنها شفتا هذا الرجل حكمٌ على العالم أهوَ يظلّ في الضلال يُمَدُّ له فيه ، فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخَرِف الآفِن ؟ أم هو يُضيء أمامه نور الحق تُعلن فيه كلمة التوحيد . وَتُحرر فيه العقول من رق العبودية والقلوب من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى ؟ وهذا عمه كأنه ضعُف عن نصرته والقيام معه . فهو خاذله ومسْلِمهُ . وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لايَقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدّة والعدد . إذاً لم يبق له دون الحق الذي ينادي الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عدة .

ليكن !! إن الآخرة خير له من الأولى . فليؤدّ رسالته وليَدْعُ إلى ما أمره ربه . ولَخَيْرٌ له أن يموت مؤمناً بالحق الذي أُوحي إليه من أن يخذله أو يتردد فيه . لذلك التفت إلى عمه ممتلئ النفس بقوة إرادته وقال له : **« يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »** .

ويعلق كاتب السيرة على هذا الموقف الحاسم بقوله .. « يالعظمة الحق » ثم يستمر في عرض بقية الموقف الفصل فيقول : « اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف كذلك مبهوتاً أمام هذه القوة القدسية والإرادة السامية فوق الحياة وما في الحياة . وقام محمد وقد خنقته العبرة مما فاجأه به عمه وإن لم تذُر بنفسه خلجة ريب في السبيل الذي يسلك . ولم تكن إلا لحظة اهتز فيها وجود أبي طالب متحيراً بين غضبة قومه وموقف ابن اخيه حتى نادى محمداً أن أقبل . فلما أقبل قال له : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت لا أسلمك لشيء تكرهه أبدا » .

تصاعد الأذى

وقد أفضى أبو طالب « كما تقول كتب السيرة » إلى بني هاشم وبني عبدالمطلب بقول ابن اخيه وبموقفه وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به ومحمد ﷺ يقول له :

« يا عم .. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

وطلب أبو طالب من عشيرته أن يمنعوا محمداً من قريش فاستجابوا له إلا أبو لهب فإنه صارحهم بالعداوة وانضم إلى خصومهم منذ اليوم الذي دعا فيه محمد ﷺ وعشيرته وكان تعليق أبي لهب « تباً ألهذا جمعتنا ؟ » فجاء القرآن بقوله تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كَسَبَ** ﴾ (المسد : آية ١، ٢) .

وقد تصاعد أذى قريش .. رغم ما كان يبذله أبو طالب من جهد لمنعته .. وما تقوم به خديجة رضي الله عنها من اعانته ، فقريش — وقد سمعت إجابة محمد ﷺ على أبي طالب — لم تنم ولم تعُدْ لِما عُرفت من قبل من دعة النعيم بل وثبتْ — كما تقول كتب السيرة — كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم حتى ألقى أحدهم عبدَه الحبشي « بلالا على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره في محاولة لقتله لا لشيء إلا لأنه مصر على التمسك بالإسلام ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر كلمة « أحدٌ . أحدٌ » محتملاً العذاب في سبيل دينه . وقد رآه أبو بكر يوماً يعاني هذا العذاب فاشتراه وأعتقه . واشترى أبو بكر كثيراً من الموالي الذين كانوا يُعذبون ، ومن بينهم جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه . وعُذبت امرأة « أم عمار بن ياسر » حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الاسلام إلى دين آبائها وكان المسلمون من غير

الموالي يُضربون وتوجه إليهم أشد صور المهانة . والتي لم يسلم محمد ﷺ مع منع بني هاشم وبني المطلب له من بعض منها . ومن هذه الإساءات . كانت « أم جميل » زوج أبي لهب تُلقي النجس أمام بيته فيكتفي محمد ﷺ بأن يُزيله . وكان « أبو جهل » يلقي عليه أثناء صلواته ، رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته . هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهجر الكلام حيثما ذهبوا . واستمر الأمر على ذلك طويلا ، فلم يزدادوا إلا حرصاً على دينهم وابتهاجا بالأذى وبالتضحية في سبيل عقيدتهم وإيمانهم » .

قوة الإسلام

لقد استمرت قريش في المكابرة بشتى الطرق في صد محمد ﷺ عن اداء رسالته . ولكن الله الذي قال له في الكتاب العزيز ﴿ **إنك بأعيننا** ﴾ قد كفاه شر المستهزئين .

ولقد أجهد الكتاب أقلامهم في إظهار ما كان للرسالة من تأثير .. وللنبي ﷺ من أثر ولعل أبلغ ما يمكن أن يصور ذلك . هو ما رواه ابن اسحاق عن ممثل قريش الذي جاءه بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب رضوان الله عليهما .. ورأت قريش في ذلك مباءة مجابهتها للرسول ﷺ .

قال ابن اسحق : وحدثني يزيد بن زياد .. عن محمد بن كعب القرظى .. قال : حدث أن عتبة بن ربيعة .. وكان سيداً .. قال يوماً وهو جالس في المسجد وحده .. يا معشر قريش .. ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء .. ويكف عنا ؟.. وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون .. ويكثرون .. فقالوا : بلى يا أبا الوليد .. قم إليه فكلمه .. فقام إليه عتبة

حتى جلس إلى رسول الله ﷺ .. فقال : يا ابن أخي .. إنك منّا حيث قد علمت من السِّطة — « الشرف » — في العشيرة .. والمكان في النسب .. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم .. فرقت به جماعتهم .. وسفّهت به أحلامهم .. وعبت به آلهتهم .. ودينهم .. وكفّرت به من مضى من آبائهم .. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .. فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد .. أسمع .

قال : يا ابن أخي .. إن كنتَ إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا .. وإن كنتَ تريد به شرفاً .. سودناك علينا .. حتى لا نقطع أمراً دونك .. وإن كنتَ تريد به ملكاً ملكناك علينا .. وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًا — « ما يتَرَاءى للإنسان من الجن » — تراه لا تستطيع رده عن نفسك .. طلبنا لك الطب .. وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه .. فإنه ربما غلب التابعُ — « من يتبع الناس من الجن » — على الرجل حتى يُدَاوَى منه .. حتى إذا فرغ عتبة .. ورسول الله ﷺ يستمع منه .. قال : أقد فرغتَ يا أبا الوليد ؟ ..

قال : نعم .. قال : فاسْمَعْ مني .. قال : أفعلُ .. فقال : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم حٰم تَنْزِيْلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ .. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ .. بَشِيْرًا وَنَذِيرًا .. فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ (فصلت : ١ — ٥) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه .. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها .. وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها وهي قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهنَّ إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ (فصلت : آية ٣٧) . فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه .. فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .. فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ .. قال : ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط .. والله ماهو بالشعر .. ولا بالسحر .. ولا بالكهانة يا معشر قريش .. أطيعوني واجعلوها بي .. وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه .. فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم .. وإن يظهر على العرب فملكه ملككم .. وعزّه عزّكم .. وكنتم أسعد الناس به .. قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .. قال : هذا رأيي فيه .. فاصنعوا ما بدا لكم .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ (فصلت : آية ١٣) . فقام مذعوراً فوضع يده على فم رسول الله ﷺ يقول : « أنشدك الله والرحم ! وذلك مخافة أن يقع النذير وقام إلى القوم فقال ما قال .

الهجرة إلى الحبشة

ونعود ثانية إلى السيرة النبوية .. فعن سعد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) كان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله . إنهم « يعني المشركين » كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضُر الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزى آلهتك من دون الله ؟ فيقول : نعم .. حتى أن الجُعل (دابة سوداء قيل أبو جعران) ليمر بهم فيقولون له . الجعل إلـهٰك من دون الله ؟ فيقول : نعم إفتداء منهم مما يبلغون من جهد » .

وتقول كتب السيرة إنه لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة اتقاء الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الاسلام .. وكان أول من خرج من المسلمين « عثمان بن عفان » ومعه امرأته « رقية » بنت الرسول ﷺ « وأبو حذيفة بن عتبة » ومعه امرأته « سَهْلة بنت سهيل » . و « الزبير بن العوام » ومصعب بن عمير » و « عبدالرحمن بن عوف » وأبو سلمة بن عبد الأسد » وامرأته أم سلمة وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم وسهيل بن بيضاء .. فكان هؤلاء العشرة رضي الله عنهم أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ولحق بهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه .. ثم تتابع المسلمون في الهجرة .

وقد حاولت قريش بسفيرين لهما إلى إمبراطور الحبشة إسترداد المهاجرين أو التنكيل بهم هناك .. ولكن مساعيهم خابت من بعد أن سمع الامبراطور هذه الاجابات التي تنقلها كتب السيرة بالنص التالي :

« وعندما وقف المسلمون المهاجرون من مكة إلى الحبشة بين يدي النجاشي قال لهم : « ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم .. ولم تدخلوا به في ديني .. ولا دين هذه الملل ؟.. فرد جعفر بن أبي طالب قائلًا : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام .. ونأكل الميتة .. ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار .. ويأكل القوي الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه .. وصدقه .. وأمانته .. وعفافه .. فدعانا إلى الله .. نوحده ونعبده .. ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان .. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة

الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات .. وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً .. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام « وعدد إليه أمور الإسلام » .. فصدقناه واتبعناه على ما جاء به .. من الله .. فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً .. وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا .. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله .. وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك .. ورغبنا في جوارك .. ورجونا ألا نُظلم عندك .. فقال النجاشي : وهل معك مما جاء به من الله من شيء تقرأه عليَّ ؟ .. قال جعفر : نعم .. وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى ﴿ **فَأشارتْ إليه قالوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبيًّا ، قال إنِّي عَبْدُ الله آتانِي الكتابَ وَجَعَلَنِي نَبيًّا** ﴾ (مريم : آية ٢٩ ، ٣٠) .

.. وهنا استبعد الامبراطور سفيري قريش وأذن للمسلمين بالبقاء في رعايته وحمايته .

صحيفة ظالمة

ولما رأت قريش اطمئنان أصحاب محمد ﷺ بأرض الحبشة .. وعودة رسلها من الحبشة وهم يجرون أذيال الخيبة .. مع تصاعد أعداد المسلمين وازدياد قوتهم بإسلام عمر بن الخطاب من بعد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما .. ثارت ثائرة الكفر في نفوسهم فكان أن ائتمروا فيما بينهم لعزل محمد ﷺ وأهله وصحابه .

يقول ابن هشام في كتابه مختصر السيرة :

« فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل الاسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة . ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم .

فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا
نبيا كموسى خُطَّ في أول الكُتُبِ
وأن عليه في العباد محبة
ولا خير ممن خصه الله بالحبِّ
وأن الذي الصقتُمُ من كتابكم
لكم كائن نحسا كراغية السَّقْبِ
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى
ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذَّنْبِ

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سراً ، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش » .

سنوات ظل النبي الكريم وأهله وصحابته يعانون ألواناً من الحرمان ولا يجدون في كثير من الأحايين أبسط أنواع الطعام ليدفعوا قسوة الجوع .. حتى أن بعضاً من أبناء العمومة والأقارب شعروا بفداحة الظلم الذي ارتكبه قومهم . كما تقول كتب السيرة ، وأن هشام بن عمر كان من أحسن قريش في هذه البأساء عطفاً على المسلمين إذ كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً أو براً فيسير به في جوف الليل حتى إذا استقبل فم الشعب خلع خطامه ثم ضرب على جنبه فيدخل البعير عليهم .. وتضيف كتب السيرة أنه لما ضاق صدر هشام بما يحتمل محمد عليه السلام وأصحابه من الأذى .. ذهب لزهير بن أبي أمية وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب وقال له : « يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما أني أحلف بالله أن لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته لمثل مادعاك إليه ما أجابك إليه أبداً وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة إياها بالاتفاق سراً مع المطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود .. ثم غدا زهير بن أمية فطاف بالكعبة سبعاً ونادى في الناس يا أهل مكة : أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم والله لا أقعد حتى نشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به كذبت والله لا تُشق !! فتصايح زمعة وأبو البختري والمطعم وهشام بن عمرو وكلهم يكذبون أبا جهل ويؤيدون زهيراً .

قال زمعة بن الأسود لأبي جهل : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كتبت . قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتِبَ فيها ولا نُقر به ، قال المطعم بن عدي . صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها ! وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل . تُشُـوِّرَ فيه بغير هذا المكان .

قال : وأبو طالب جالس في ناحية المسجد . فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها الا « باسمك اللهم » .

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة . فشُلَّتْ يده .

لا هو بشاعر ولا مجنون

.. خرج الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. من العزلة التي فرضها عباد الأوثان .. ولا تزال قريش في عنادها ومكابرتها بعدم قبول ما جاء به الرسول من الهدى والذكر .. ورغم وضوح البينات .. بل ورغم معرفتها بمكانة محمد ﷺ وإعترافها بصدقه .

فلقد رُوى إنهم إجتمعوا يوماً في ناديهم فقدم عليهم النضر بن الحارث .. وكان ذا أهبة .. وذا مكانة .. وصاحب علم وخبرة .. ولما رآهم لا يزالون مختلفين في أمر محمد ﷺ . ويتشاورن بشأنه قال لهم :

« يا معشر قريش .. لقد أعياكم أمر محمد .. وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأياً لما أصابكم به » .. وكان النضر بن الحارث رجلًا محنكاً .. واستطرد يقول : « لقد نشأ فيكم محمد حتى بلغ مبلغ الرجل .. وكان أحب الناس إليكم وأصدقهم فيكم .. واتخذتموه أميناً .. فلما وخطه الشيب وعرض عليكم هذا الأمر قلتم ساحر .. وكاهن وشاعر .. ومجنون .. وتالله لقد سمعت كلامه .. وسمعتموه وليس فيه شيء مما ذكرتم » .

بل .. وأكثر من هذا .. فقد سافر أبو سفيان صاحب تجارة قريش .. ولقي هرقل عظيم الروم فسأله بعض أسئلة عن النبي ورسالته .. ورغم عداء أبي سفيان قبل إسلامه للرسول فإنه لم يستطع أن ينال من محمد .. أو يتهمه بما ليس فيه .. ها هو هرقل يسأل .. وأبو سفيان يجيب :

هرقل : كيف نسبه فيكم ؟
قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .
هرقل : هل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟
قال أبو سفيان : لا ..
هرقل : هل كان من آبائه من ملك ؟
قال أبو سفيان : لا ..
هرقل : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟
قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم .
هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟
قال أبو سفيان : بل يزيدون .
هرقل : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟
قال أبو سفيان : لا ..
هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب ؟
قال أبو سفيان : لا ..
هرقل : فهل يغدر ؟
قال أبو سفيان : لا .. ونحن منه في مدة لاندري ماهو فاعل فيها .
هرقل : بماذا يأمركم ؟
قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً . واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة » .

نطق أبو سفيان بهذا الذي هو الحق .. وهو يومذاك من أعداء الرسالة والرسول .. والفضل ما شهدت به الأعداء .

★ ★ ★

عام الحزن

وعام الحزن هو الذي توفيت فيه أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها بعد أن سبقها إلى الموت أبوطالب إذ لم تمض إلا شهور على نقض الصحيفة حتى فاجأت محمداً عليه الصلاة والسلام في عام واحد فاجعتان اهتزت لهما نفسه وكما تقول كتب السيرة « هما موت أبي طالب وخديجة دراكا . وكان أبوطالب يومئذ قد نيف على الثمانين فلما اشتكى وبلغ قريشا أنه موف على ختام حياته خشيت ما يكون بينها وبين محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه من بعد . وفيهم حمزة وعمر رضي الله عنهما وهما المعروفان بشدتهما وبطشهما فمشى أشرافها إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب أنت منا حيث قد علمت وحضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف وليدعنا وديننا وندعه ودينه وجاء محمد عليه الصلاة والسلام في حضرة عمه فلما عرف ما جاؤوا من أجله قال عليه الصلاة والسلام : **كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ! قال أبوجهل : نعم وأبيك وعشر كلمات .**

قال عليه الصلاة والسلام : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

فقال بعضهم أتُريدنا يا محمد أن نجعل الآلهة إلهاً واحداً ثم قال بعضهم لبعض والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون وانطلقوا .. وتوفي أبو طالب والأمر بين محمد عليه الصلاة والسلام وقريش أشد مما كان . ومن بعد أبي طالب توفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وهي التي كانت سند محمد بما توليه من حبها وبرها ومن رقة نفسها وقوة ايمانها .. خديجة التي كانت تُهَوِّن عليه كل شدة وتُزيل من نفسه كل خشية والتي كانت ملاك

رحمة يَرى في عينيها وعلى ثغرها رضي الله عنها من معاني الإيمان بما يزيده انطلاقاً في دعوته وثقة في انتصاره .

ويكفيها فخراً قولتها المشهورة يوم جاءها الأمين ﷺ يخبرها بنزول الوحي عليه وهي تطمئنه :

(أَبْشِرْ يابن العم .. واثبتْ فوالَّذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أنْ تكونَ نَبيَّ هذه الأمة .. وَوَالله لايُخْزيك الله أبدا .. إنك لَتَصلُ الرحِمَ .. وتَصْدُقُ الحديثَ .. وتَحْمِلُ الكلَّ .. وتقْري الضَّيْفَ .. وَتُعِيْن عَلى نَوَائِبِ الحَقِّ) .

ولقد ظل ﷺ كما هو طبعه وفياً لها ولذكراها .. وهاهو يدافع عنها يوم قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .. وفي نفسها غيرة من كثرة ذكره ﷺ لها .. وبره بها :

(وهل كانتْ إلا عَجوزاً أبْدَلَكَ الله خيراً منها)

فقال عليه الصلاة والسلام في وفاء لتلك الإنسانة الكريمة .. ومعزة لها .. واعتزاز بها مع حبه الكبير لعائشة وحرصه على عدم التكدير عليها :

والله ما أبْدَلَني الله خَيْراً منها .. آمنتْ بي إذ كفرَ الناس .. وصدقتني إذ كذبني الناس .. وواستني إذ حرمني الناس ..

لقد أحبته فأحبها الله وأكرمها .. وكرَّمها .. رضي الله عنها .

الخروج إلى الطائف

مات أبو طالب .. ولحقت به السيدة خديجة رضي الله عنها .. وبقي الرسول ﷺ وحيداً في مواجهة قريش :

ولا شك أن لهاتين الحادثتين أثراً وأى أثر على نفسيته عليه السلام خاصة وأن قريشا قد اهتبلت غياب هذين النصيرين فراحت تزيد من إيذائها

ومواجهتها الشرسة .. وكان من أيسر ذلك ــ كما تقول كتب السيرة ــ أن اعترضه عليه السلام سفيه من سفهاء قريش فرمى على رأسه الشريفة ترابا .. ولما دخل عليه السلام إلى بيته والتراب على رأسه قامت إليه ابنته فاطمة رضوان الله عليها وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي وليس أوجع على النفس من بكاء البنات .. ولم يزد الرسول عليه السلام أن قال لإبنته .

لا تبكي يا بنية فإن الله مع أبيك .. ثم كان يردد : والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب !!

ومع تصاعد أذى المشركين وكثرة مساءاتهم خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة وحيداً إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه برجاء إسلامهم .. ولكنهم قابلوه بما يكره فطلب منهم عليه السلام أن لا يذكروا عن استنصاره بهم شيئاً حتى لا يشمت به قومه ولكنهم لم يسمعوا له بل أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه عليه السلام ففر منهم إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة واحتمى به فرجع السفهاء عنه ..

وإلى ظل شجرة عنب جلس عليه الصلاة والسلام وإبنا ربيعة ينظران إليه وإلى ماهو فيه من شدة الكرب .. فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسه إلى السماء متضرعاً إلى الله السميع العليم بقوله :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني : إلى بعيد يتجهّمُني أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلَّ على سخطُك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

بهذا الدعاء الصادق توجه نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام إلى ربه وقد آذاه قومه ومن استنصر بهم من القبائل وثقيف خاصة .

ولقد استجاب الله لنبيه دعاءه .. فكانت رحلة الإسراء والمعراج تقوية لعزيمته ونصراً جديداً من الله ، ولا شك أننا جميعا نعرف من سورة الاسراء .. أو النجم .. أو الأحاديث النبوية الشريفة تفاصيل تلك القصة والتي سنفصلها في الصفحات التالية إعتماداً على أوثق المصادر بما يكشف أسرارها ويجلي أبعادها .. ويوضح نتائجها .

بك بشّر الله السماء .. ! !

كم هو جميل أن تقترن ساعات الجمال بلحظات الجلال المشرق بضياء الإيمان .

فالجمال الذي تشكله مناظر الطبيعة من زهور .. وخضرة .. وبحار .. وأنهار .. وسهول وجبال .. وامطار وثلوج .. وشمس وقمر وغير ذلك هو بالتأكيد مصدر بهجة وسرور وراحة للناس .

والجلال الذي تمثله أحاديث الايمان .. وسمو الروح .. وصفاء النفس هو بالتأكيد أيضاً مصدر انشراح وارتياح للنفس المؤمنة .

ولقد سعدت حيناً من الدهر بشيء من هذا الذي غمر نفسي بالضياء .. وملأ جوانبي بالانشراح .

انخفضت درجة البرودة إلى مادون الصفر .. وتحول المطر المنهمر إلى ذرات من الثلج في شكل القطن المنفوش ليرتمى على أوراق الشجر .. وجوف البحيرة كحبات اللؤلؤ .. في الوقت الذي غطى الثلج من قبل رؤوس الجبال بأكوام الثلج الناصع البياض .. وفجأة ظهرت الشمس من وراء الغيوم لتكسو كل تلك المناظر الخلابة بلون ذهبي وهاج .. لا أحلى ولا أروع منه .

في هذا الجو الشاعري الذي يعجز فحول الشعراء عن مجرد تصويره .. بادرني الصديق الأستاذ كمال سنو رئيس تحرير مجلة ياسمين التي تصدر في باريس بعد أن هاجر من بيروت المحترقة . ونحن جلوس بأحد صالونات واحد من فنادق سويسرا قائلا : إن جميع ما جاء به نبينا محمد

ﷺ قد تلقاه من رب العزة والجلال عن طريق جبريل عليه السلام .. فيما عدا فريضة الصلاة التي فرضها الله وأبلغها لنبيه مباشرة خلال رحلة الإسراء والمعراج .. فهل تعرف السر وراء ذلك ؟ .. وهل صحيح أن هذه الرحلة المباركة كانت في مثل هذا الشهر .. شهر رجب .. ؟

وحقيقة أن السؤال كان مفاجئاً لي : فأنا واحد من المسلمين الذين يستمعون القول ويجتهدون في اتباع أحسنه .. وليس لدي من العلم ما أستطيع أن أعطي به الجواب وافياً لما سألني عنه الصديق .. ومع ذلك فقد قلت له : لقد سمعت مرة حديثاً للشيخ محمد متولي الشعراوي عن هذا الموضوع خلاصته : « أن الصلاة عماد الدين .. وأن المسلم قد يمنعه المرض عن الصيام وهو أحد أركان الإسلام .. كما أن الفقر قد يعفيه من أداء زكاة المال والتي هي أحد أركان الاسلام .. وأن الحج قد يسقط عمن لم يستطع إليه سبيلا وهو الركن الخامس في الاسلام .. بينما الصلاة لاتسقط عن مسلم ما دام له نفس يختلج في صدره يؤديها قائماً أو قاعداً .. أو ممدّداً .. أو حتى باصابعه وهو مسجى على الفراش .. ومن هنا كانت الأهمية العظمى لفريضة الصلاة .

ولقد ضرب الشيخ الشعراوي فيما أذكر مثلا — ولله المثل الأعلى — بقوله : أنت تصدر تعليماتك لمرؤوسك .. أو من هو دونك من الموظفين كتابة أو شرحا على الورق ولكن عندما يكون الأمر الذي تصدره غاية في الأهمية لا تكتفي بذلك الأسلوب .. وإنما تستدعى ذلك المرؤوس أو الموظف وتلقنه الأمر ليكون حريصاً في دقة تنفيذه .. وهكذا كان الأمر بالنسبة للصلاة التي تلقى الأمر بها نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام من الحق سبحانه وتعالى .

أما فيما يتعلق بشهر رجب .. فقد قيل أن الإسراء والمعراج قد تم فيه ليلة السابع والعشرين من شهر رجب وقيل في رمضان .. وقيل في ربيع أو

ذي القعدة .. وقيل غير ذلك .. ومع هذا فإن لرجب خاصية تميزه عن الشهور الأخرى لكونه من الأشهر الحرم الذي تتضاعف فيه الحسنات .. وهذا هو بالتأكيد سر تعظيم المسلمين له .

هذا بعض ما استطعت أن أُجيب به على سؤال الصديق سنو .. ويوم عدت إلى جدة .. عدت إلى المراجع الموثوقة وفي مقدمتها القرآن الكريم وصحيح البخاري ومسلم وبعض كتب التفاسير ومن أهمها تفسير شيخ المفسرين ابن كثير .. والإسراء والمعراج للشيخ محمد متولي الشعراوي .. على أمل أن أبسط الجواب وافياً ليس فقط للصديق سنو .. وإنما للكثير من الذين قد يلوب في نفوسهم ذلك السؤال .. أو يماثله فيما يتعلق برحلة الإسراء والمعراج .. وفريضة الصلاة التي أُمر بها النبي عليه السلام .. ثم ما كان فيها « وأعني رحلة الإسراء » من مشاهد كلها عبر لمن له قلب ويلقى السمع وهو بصير .

في القرآن

في القرآن الكريم الذي هو المعجزة الكبرى لنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام .. يقول الحق جل وعلا .

﴿ سبحانَ الذي أَسْرَى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَهُ من آياتِنا إنه هو السميعُ البصير ﴾ (الإسراء : آية ١) .

وفي سورة النجم من كتاب الله تعالى يوضح الحق سبحانه وتعالى ملامح الكيفية التي تمت بها الرحلة المباركة إذ يقول رب العزة والجلال :

﴿ والنجمِ إذا هَوىٰ ما ضَلَّ صاحِبُكم وما غَوَى وما ينطقُ عن الهوى إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمه شديدُ القوى ذو مِرَّةٍ فاستوى وهو بالأفقِ الأعلى ثم دنا فتدلّىٰ فكان قَابَ قوسينِ أو أدنى فأَوحَىٰ إلى عبده

ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يَرَىٰ ولقد رآه نَزْلةً أخرى عند سدرةِ المنتهى عندها جنةُ المأوى إذ يَغْشَىٰ السدرةَ ما يَغْشَى ما زَاغَ البصر وما طَغَى لقد رأى من آياتِ ربهِ الكُبْرَىٰ ﴾ (النجم : آية ١ ــ ١٨) .

دواعي الاسراء

روى الشيخان رحمهما الله عن الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ وهي ترى نزول الوحي تتابعاً مع تطلعاته عليه الصلاة والسلام :

« ما أرىٰ ربَّك إلا يُسارع في هواك » .

.. ولفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتاب الاسراء والمعراج تعليق مميز يكشف فيه دواعي الإسراء ومسبباته إذ يقول :

« هنا نقف وقفة ، فان الإنسان الذي يمده الله بالأسباب عليه أن يستعمل هذه الأسباب وأن يجتهد وسعه في أن يستخدمها في الوصول إلى أهدافه وحين يلجأ إلى الله ومعه الأسباب يرد الله رجاءه . لأنه لا تزال معه الأسباب . ولكن إذا أصبح مضطراً وقد أعيته الأسباب ، فله أن يلجأ إلى الله لينصره لأن السبب قد امتنع والمقدمات لم تعد في استطاعة البشر فوقف موقفه الضارع وقال دعاءه الذي قال فيه : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

دعاء فيه كل مقومات الإيمان واليقين لأن الله الذي أرسله لن يخذله .. ودعاء أيضا يشمل أن رسول الله ﷺ قد استنفد الأسباب وأنه لم يجد إلا عدواً والا بعيداً . فلا بد إذاً أن تتدخل السماء .

سمع الله ضراعة رسوله وأراد أن يبين له أن جفاء الأرض لا يعني أن السماء تخلت عنك . ولكن سأعوضك عن جفاء الأرض بحفاوة السماء وعن جفاء عالم الناس بعالم الملأ الأعلى وأُريك من آياتي ومن قدرتي ومن أسراري في كوني ما يعطيك طاقة وشحنة إن الله الذي أراك هذه الآيات قادر على أن ينصرك ولن يتخلى عنك ولكن الله تركك للأسباب أولا لتجتهد فيها حتى تكون أسوة لأمتك في ألا تدع الأسباب وترفع أيديها إلى السماء » .

ويضيف الشيخ الشعراوي قائلا : إذاً فقد كان حدث الاسراء وحدث المعراج بعده نتيجة لجفوة الأرض لرسول الله ونتيجة لفقد الحامي .

فالله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل لرسوله هذه الرحلة العلوية حتى يثبت له تكريمه وحتى يثبت له أن في الله عوضاً عن كل مافقد وأن الملكوت سيحتفي به حفاوة تمسح عنه كل عناء هذه المتاعب وسيعطيه شحنة قوية لتكون أداته في منطلقه الجديد بإذن الله » .

حديث الإسراء

من هنا ندرك أن رحلة الإسراء .. كانت بمثابة منطلق جديد للدعوة الإسلامية .. ولكن كيف تم الإسراء .. والمعراج ؟

ذكر شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه مختصر السيرة مانصه :

ثم أُسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس راكباً على البراق صحبة جبريل عليه السلام . فنزل هناك . وصلى بالأنبياء إماماً . وربط البراق

بحلقة باب المسجد . ثم عُرج به إلى السماء الدنيا . فرأى فيها آدم . ورأى أرواح السعداء عن يمينه ، والأشقياء عن شماله . ثم إلى الثانية . فرأى فيها عيسى ويحيى . ثم إلى الثالثة . فرأى فيها يوسف . ثم إلى الرابعة . فرأى فيها إدريس . ثم إلى الخامسة فرأى فيها هارون . ثم إلى السادسة . فرأى فيها موسى . فلما جاوزه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي أن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أُمته أكثر مما يدخلها من أُمتي . ثم عُرج به إلى السماء السابعة . فلقي فيها إبراهيم . ثم إلى سِدْرة المنتهى . ثم رُفع إلى البيت المعمور . فرأى هناك جبريل في صورته ، له ستمائة جناح . وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد رآهُ نَزْلَةً أخرى عند سِدْرةِ المنتهى** ﴾ (النجم : آية ١٣) .

وكلمه ربه وأعطاه ما أعطاه . وأعطاه الصلاة . فكانت قرة عين رسول الله ﷺ .

فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه ، وأخبرهم : اشتد تكذيبهم له ، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس . فجلاه الله له حتى عاينه . وجعل يخبرهم به . ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً . وأخبرهم عن عيرهم التي رآها في مَسْراه ومرجعه ، وعن وقت قدومها ، وعن البعير الذي يقدمها . فكان كما قال . فلم يزدهم ذلك إلا ثبورا . وأبى الظالمون إلا كفورا .

وروى الإمام البخاري بسنده عن شريك بن عبد الله قال :

« سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة : انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ؟ فكانت تلك الليلة فلم يرهم أحد حتى أتوا ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله

من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشو إيمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعني عروق حلقه . ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال جبريل ومن معك ؟ قال : معي محمد قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم قالوا : فمرحبا به وأهلا يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك فسلم عليه ورد عليه آدم فقال : مرحباً وأهلاً بإبني نعم الإبن أنت فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات عنصرهما .

ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أَذْفَر فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا وقد بعث إليه ؟ قال : نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم ادريس في الثانية وهارون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع عليّ أحدا ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد

ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة قال : ان أمتك لا تستطيع ذلك فأرجع ليخفف عنك ربك وعنهم .

فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : يارب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يرده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتسبه موسى عن الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وابصاراً وأسماعاً فارجع ليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : يارب إن أمتي ضعفاء أُجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد قال : لبيك وسعديك قال : انه لا يبدل القول لديَّ كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى : قد والله راودت بني اسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول الله ﷺ : قد والله استحييت من ربي عز وجل مما أختلف إليه قال فاهبط باسم الله .

قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام . هكذا ساقه الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد » .

رواية أخرى

وفي رواية أخرى يقول ابن هشام في كتابه (مختصر سيرة الرسول ﷺ) .

قال ابن اسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه وهو الذي يمدُ إليه ميتُكم عينيه إذا حضُر فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له اسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك — يقول رسول الله ﷺ حين حدث بهذا الحديث : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ (المدثر : آية ٣١) . فلما دخل بي قال : من هذا يا جبريل ؟

قال : هذا محمد . قال : أو قد بُعث ؟ قال : نعم . قال : فدعا لي بخير وقاله .

لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عُرضت عليه خيراً ويُسر به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب . ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه : أف ! ويعبس بوجهه ويقول : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث . قلت : من هذا يا جبريل قال : هذا أبوك آدم . وتعرض عليه أرواح ذريته فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب ! وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف (أي تضجر منها وكرهها وساءه ذلك) وقال روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

ثم رأيت رجالا لهم مشافر (والمشفر شفة البعير) كمشافر الإبل . في ايديهم قطع من نار كالأفهار (الفهر حجر قدر ملء كف) . يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم .

فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما .

ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط . بسبيل آل فرعون « خص آل فرعون لأن لهم في الآخرة أشد العذاب » يمرون عليهم كالإبل المهيومة « العطاش » حين يعرضون على النار ، يطئونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : **هؤلاء أكلة الربا** .

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساء معلقات بثديهن فقلت . من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم » .

هذه صور من مشاهد الرسول ﷺ في رحلة المعراج يجدر بنا أن نعتبر منها ونتعظ بها .

مرائي الإسراء

لقد نقلت كتب الصحاح والمسانيد مجموعات كبيرة من الروايات المتعلقة برحلة الإسراء والمعراج . ولو أردنا تتبعها لاستيفاء جميع الصور والمعاني والمرائي الواردة فيها لضاقت بنا أضعاف أضعاف هذه الصفحات .. ولهذا يكفينا منها ما نقلناه من صحيح البخاري وابن هشام بالنسبة

للرحلة .. أما عن المرائي التي شاهدها الرسول العظم صلوات الله وسلامه عليه في رحلته المباركة فإننا نستخلصها من أصح الأحاديث كما أوردها الأستاذ أحمد فراج في كتاب الإسراء والمعراج لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي .. وهذه المرائي هي :

ــ هؤلاء قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم وكلما حصدوا عاد كما كان .

انهم المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف .

ــ وهؤلاء قوم ترضخ رؤوسهم بالحجارة وكلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء .

انهم أولئك الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ــ وقوم على اقبالهم رقاع وعلى ادبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها .

انهم الذين لا يؤدون صدقات اموالهم .

ــ ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال :

هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها .

ــ ورجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

ــ وقوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد وكلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء .

هؤلاء خطباء الفتنة .

ـــ ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ـــ وأقوام بطونهم كأمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر .

انهم الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .

ـــ وأقوام مشافرهم كمشافر الإبل تفتح أفواههم فيُلقمون كُراتٍ من نار ثم تخرج من أسافلهم .

انهم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا .

ـــ إنها بلا شك صور رائعة مروعة تكفي لإصلاح مسيرة الفرد وإرشاده إلى الطريق المستقيم إن كان من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

ليلة الإسراء

.. في حديث الإسراء والمعراج لابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان في بيت أم هانىء ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب ، وكانت معه فاطمة الزهراء وعمرها تسع سنوات ، وإذا بالباب يُطرق فخرجت فاطمة لترى الطارق ، فإذا هو شخص عليه الحلي والحلل ، فسألته عما يريد فقال : « أريد محمداً » فرجعت تستأذن للطارق فخرج النبي فلما رآه ، إذا به جبريل ...» إلى آخر ما ورد بالحديث الشريف .

وهكذا .. وكما تقول العديد من كتب السيرة أن الإسراء والمعراج كان في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب .. فلذا .. ولكونه من الأشهر الحرم التي قال الحق سبحانه وتعالى عنها في كتابه الكريم :

﴿ إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ (التوبة : آية ٣٦) .

.. فقد عظمه الناس .. وسارعوا بعمل الخير من صيام وإحسان خلال أيامه تبعاً لأمر الله بعدم ظلم النفس وتركها سادرة في المعاصي أو التغافل .

وقد أفصح الرسول صلوات الله وسلامه عليه في حجة الوداع التي رسم فيها قواعد التشريع .. هذه الأشهر الحرم لما في حديث أبي بكرة في الصحيحين : أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع في خطبته : ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

وفي جامع الأصول لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٦ باب معقود لصيام رجب أورد فيه ماروى في الصحيح من ذلك عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم حدثه عنه سعيد بن جبير حين سئل عن صوم رجب .

ومن هذا المنطلق كان تعظيم شهر رجب باعتباره من الأشهر الحرم الذي تتضاعف فيه الحسنات وذلك بالإكثار من عمل الخير .. ومفارقة الآثام في أيامه ولياليه واكتناز الأعمال الصالحة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .. ولقد قال شاعر كما ذكر فضيلة الشيخ عبد الله عبد الغني خياط إمام وخطيب المسجد الحرام في مقال له عن هذا الشهر نشر بمجلة الدعوة .

بيّضْ صحيفتك السوداء في رجبِ
بصالح العمل المُنجي من اللهبِ
شهرٌ حرامٌ أتى من أشهر حرم
إذا دعا الله داعٍ فيه لم يخبِ
طوبى لعبد زكا فيه له عمل
وكف فيه عن الفحشاء والريبِ

طلع البدر علينا

طلــــع البــــدر علينـــــا　　مـــن ثنيــــات الـــــوداع
وجـــب الشكــــر علينـــــا　　مــــا دعــــا للـــــه داع
أيهــــا المبعـــوث فينـــــا　　جئـــت بالأمـــــر المطـــــاع
جئـــت شـــرفت المدينـــــة　　مـــرحبـــاً يـــا خـــير داع

.. بهذا النشيد المعبر هزج ولائد الأنصار وهم يستقبلون خلف رجالهم الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه عند قدومه إلى المدينة المنورة .. كما ذكرالإمام البخاري وغيره من كاتبي السيرة الشريفة .. في الوقت الذي كان فيه المهاجرون والأنصار .. وكما روى الشيخان .. يهللون .. ويُكبِّرون .. يرددون : الله أكبر جاء رسول الله ﷺ .. الله أكبر جاء محمد .. الله أكبر جاء رسول الله .. فرحة بلقاء المصطفى .. وترحيباً بمقدمه الميمون .. وقد خرج من مكة مهاجراً بعدما أذن الله بالهجرة من وسط مشركي قريش الذين هالهم تكاثر المسلمين .. وارتفاع معنوياتهم بما جاء به الرسول ﷺ من خبر السماء في أعقاب رحلة الإسراء والمعراج التي حدثهم بوقائعها .. فتوهموا فيها الفرصة للإيقاع بين الرسول ﷺ وتابعيه .. إذ جاء في كتب السيرة :

يوم تحدث النبي عليه الصلاة والسلام عن رحلة الإسراء والمعراج .. ظن المشركون أنهم سيُدركون غايتهم بتكذيب الرسول .. وذهب نفر منهم إلى دار أبي بكر واهمين بأن أبا بكر لا يقنع بهذه الرواية خاصة وأنه يعرف ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مضنٍ وزمن طويل .. وبلغوا دار أبي بكر وصاحوا به .. « كما تقول كتب السيرة » :

يا عتيق كل أمر صاحبك قبل اليوم كان أمما « يعني هينا محتملا » أما الآن فاخرج لتسمع !! وخرج أبو بكر فزعاً تُجمله سكينته ووقاره وسألهم :

ماذا وراءكم .؟؟

قالوا : صاحبك .؟!

وانتفض أبو بكر وقال : ويحكم .. هل أصابه سوء ؟!

فقال القوم بعد أن تراجعوا قليلا : انه هناك عند الكعبة يحدث الناس أن ربه أسرى به إلى بيت المقدس .. ذهب ليلا وعاد ليلا وأصبح بين أظهرنا .

فأجابهم أبو بكر وقد تهلل محياه .

أي بأس ؟.. أني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك .. أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو روحة .. ان كان قال فقد صدق .

وهرول أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله وانطرح يعانقه ويقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله انك لصادق والله انك لصادق .

.. فُجعت قريش بذلك .. فواصلت مكائدها .. ولكن الله بالغ أمره .. ولذا فإننا نعود ثانية إلى خبر الهجرة وما سبقها من الأحداث التي هيأت لها بأمر الله عز وجل .

الأنصار والعقبة

يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في كتاب « مختصر السيرة » « ثم لما أراد الله إظهار دينه وإعزاز المسلمين أسلم الأنصار ــ أهل المدينة ــ بسبب العلماء الذين هم من اليهود وذكرهم لهم النبي وصفته . وأن هذا زمانه » ..

فلما أسلم الأنصار .. أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة فهاجروا إليها وأعزهم الله تعالى بعد تلك الذلة فهو قوله تعالى : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره** ﴾ .

أول ما سمع المهاجرون إلى الحبشة بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمان .. ومات منهم رجلان بمكة وحبس سبعة وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلا .

ولقد جاء إسلام الأنصار .. بعد بيعة العقبة .. فكما يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب : « لقي رسول الله ﷺ في الموسم عند العقبة ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج منهم سعد بن زرارة وجابر بن عبدالله بن رئاب السلمي فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا » ..

وجاءه الاثنا عشر رجلا من العام الآتي « الذي ذكرناه » ومنهم اثنان من الأوس : أبوالهيثم وعويم بن ساعدة والباقون من الخزرج ..

ولما كان العام المقبل وجاء موسم الحج قال من أسلم من الأنصار يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام .. وقد أسلم على يديه كثير من الأنصار في مقدمتهم سيد الأوس سعد بن معاذ وأسيد بن خضير رضي الله عنهما ..

فلما كان العام المقبل وجاء موسم الحج قال من أسلم من الأنصار : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد من جبال مكة ويخاف ؟ فخرجوا مع مشركي قومهم حجاجاً » ..

واجتمع حجاج المدينة والرسول ﷺ وجرى بينهم حديث طويل شهده العباس رضي الله عنه .. وكان جميع أهل العقبة سبعين رجلا .. أسلموا وبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام .

فلما بايعوه صرخ الشيطان بأنفذ صوت سُمع قط : يا أهل الأخاشب هل لكم في محمد والصبَّأة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله ﷺ : هذا أزب العقبة .. أما والله يا عدو الله لأفرغن لك » . ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن حوله : « ارفضوا إلى رحالكم .. فقال العباس بن عبادة بن نضله : والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل مكة غدا بأسيافنا .. » فقال عليه الصلاة والسلام : « لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم » فرجعوا ..

الاذن بالهجرة

كان رسول الله ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .. وعندما أراد الله لنبيه الهجرة نصرة لدينه .. ولحاقاً بالصحابة الذين هاجروا من قبل أذن له ﷺ ..

فقد روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : « رأيت في المنام أنني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى — ظني — إلى أنها « اليمامة » أو « هجر » فإذا هي المدينة « يثرب » ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفا فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحد ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ماجاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين .. ورأيت فيها أيضا بقرا . والله خير . فإذا هم من المؤمنين يوم أُحد . وإذا الخير ما جاء الله من الخير بعده .. وثواب الصدق الذي أتانا الله به بعد يوم بدر » ..

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان النبي ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل الله عليه ﴿ **رَبِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعلْ لي من لَدُنْكَ سلطانًا نصيرا** ﴾ (الإسراء : آية ٨٠) . والنبي ﷺ يعلم .. أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل الله سلطاناً نصيراً فأعطاه » .

قال البراء : أول من قدم علينا المدينة مصعب ابن عمير وابن أم كلثوم فجعلا يقرآن القرآن . ثم جاء عمار بن ياسر وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين راكبا ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشيء فرحهم له حتى جعل النساء والصبيان يقولون : قدم رسول الله .. جاء رسول الله ﷺ .

وقال أنس رضي الله عنه : شهدته يوم دخل المدينة . فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من اليوم الذي دخل المدينة عليه » .

مؤامرة قريش

ونمضي مع شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله .. في وصف الهجرة وما سبقها من مؤامرات قريش .. إذ يقول في كتابه « مختصر السيرة » :

وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة فبادروا إليها . وأول من خرج : أبو سلمة بن عبد الأسد ، وزوجته أم سلمة ولكنها حبست عنه سنة ، وحيل بينها وبين ولدها . ثم خرجت بعدُ هي وولدها إلى المدينة .

ثم خرجوا ارسالا ، يتبع بعضهم بعضا . ولم يبق منهم بمكة أحد إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي ــ أقاما بأمر رسول الله ﷺ لهما ــ وإلا من احتبسه المشركون كرها .

وأعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج . وأعد أبو بكر جهازه .

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا بأهليهم إلى المدينة : عرفوا أن الدار دار منعة ، وأن القوم أهل حلقة وبأس

فخافوا خروج رسول الله ﷺ فيشتد أمره عليهم . فاجتمعوا في دار الندوة . وحضرهم إبليس في صورة شيخ من أهل نجد . فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ .

فأشار كل منهم برأي والشيخ يرده ولا يرضاه ، إلى أن قال أبو جهل : قد فُرِق لي فيه برأي ، ما أراكم وقعتم عليه ، قالوا : ماهو ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً جلداً . ثم نعطيه سيفاً صارماً . ثم يضربونه ضربة رجل واحد . فيتفرق دمه في القبائل . فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ، ونسوق ديته .

فقال الشيخ : لله در هذا الفتى هذا والله الرأي . فتفرقوا على ذلك .

فجاء جبريل ، فأخبر النبي ﷺ بذلك . وأمره ان لا ينام في مضجعه تلك الليلة .

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار — في ساعة لم يكن يأتيه فيها — متقنعا ، فقال « أخرِجْ مَنْ عِندَك » فقال : إنما هم أهلك يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ « أن الله قد أذن لي في الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . قال : « نعم » فقال أبو بكر : فخذ — بأبي أنت وأمي — احدى راحلتي هاتين ، فقال « بالثمن » .

وأمر علياً أن يبيت تلك الليلة على فراشه .

واجتمع أولئك النفر يتطلعون من صير الباب ، ويرصدونه يريدون بياته ويأتمرون : أيهم يكون أشقاها ؟

فخرج رسول الله ﷺ . فأخذ حفنة من البطحاء فذرها على رؤوسهم . وهو يتلو ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سَدّاً ومن خلفهم سَدّاً**

فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ (يٓس : آية ٩) وأنزل الله ﴿ **وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ليثبتوكَ أو يقتلوكَ أو يخرجوكَ ويمكرونَ ويمكر اللهَ واللهُ خيرُ الماكرين** ﴾ (الأنفال : آية ٣٠) .

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر . فخرجا من خَوخَة في بيت أبي بكر ليلا فجاء رجل ، فرأى القوم ببابه ، فقال : ماتنتظرون ؟ قالوا محمداً قال خِبتُمْ وخسرتم ، قد والله مَرّ بكم وذر على رؤوسكم التراب . قالوا والله ما أبصرناه . وقاموا يتنفضون التراب عن رؤوسهم .

فلما أصبحوا قام علي رضي الله عنه عن الفراش . فسألوه عن محمد ؟ فقال : لاعلم لي به .

ومضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى « غار ثَوْرْ » فنسجت العنكبوت على بابه .

وكانا قد استأجرا عبدالله بن أريقط الليثي ، وكان هادياً ماهراً ــ وكان على دين قومه ــ وأمِنَاه على ذلك ، وسلما إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

وجَدَّتْ قريش في طلبهما ، وأخذوا معهم القافة ، حتى انتهوا إلى باب الغار . فوقفوا عليه . فقال أبو بكر : يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا . فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا » . وكانا يسمعان كلامهم ، إلا أن الله عَمَّى عليهم أمرهما .

وعامر بن فهيرة يرعى غنما لأبي بكر ، ويتسمع مايقال عنهما بمكة . ثم يأتيهما بالخبر ليلا فإذا كان السحر سرح مع الناس .

قالت عائشة : فجهزناهما احَثَّ الجهاز وصنعنا لهما سُفْرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فأَوْكَتْ به فم الجراب ، وقطعت الأخرى عصاما للقربة ، فبذلك لقبت « ذات النطاقين » .

ومكثا في الغار ثلاثا ، حتى خمدت نار الطلب . فجاءهما ابن أريقط بالراحلتين فارتحلا وأردف أبوبكر عامر بن فهيرة .

قصة سراقة بن مالك

فلما آيس المشركون منهما جعلوا لمن جاء فيهما دية كل واحد منهما لمن يأتي بهما أو بأحدهما . فجد الناس في الطلب والله غالب على أمره .

فلما مروا بحي من مُدْلِجٍ مُصْعِدين من قُدَيد . بصربهم رجل فوقف على الحي . فقال لقد رأيت آنفا بالساحل اسْوِدة ، ما أراها إلا محمداً وأصحابه .

ففطن بالأمر سراقة بن مالك . فأراد أن يكون الظفر له . وقد سبق له من الظفر مالم يكن في حسابه . فقال : بل هما فلان وفلان ، خرجا في طلب حاجة لهما . ثم مكث قليلا . ثم قام فدخل خباءه وقال لجاريته : اخرجي بالفرس من وراء الخباء وموعدك وراء الاكمة . ثم أخذ رمحه وخفض عاليه يَخُطُّ به الأرض حتى ركب فرسه . فلما قرب منهم ، وسمع قراءة النبي ﷺ ــ وأبو بكر يكثر الالتفات ، ورسول الله ﷺ لايلتفت ــ قال أبو بكر : يارسول الله ، هذا سراقة بن مالك قد رَهَقنا فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض .

فقال : قد علمت أن الذي أصابني بدعائكما ، فادعوا الله لي ، ولكما أن أرد الناس عنكما ، فدعا له رسول الله ﷺ فخلصت قائمتا فرسه . فانطلق وسأل رسول الله ﷺ : أن يكتب له كتابا ، فكتب له

أبو بكر بأمره في أديم . وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة . فجاء به فوفى له رسول الله ﷺ .

فرجع فوجد الناس في الطلب ، فجعل يقول قد استبرأت لكم الخبر ، وقد كُفيتم ماهٰهنا . فكان أول النهار جاهداً عليهما . وكان آخره حارساً لهما » .

بل لقد عاد سراقة إلى مكة وأعلن إسلامه ، متحدياً أبا جهل ومن معه من المشركين إذ أنشد هذه الأبيات :

أبا حكمٍ واللهِ لَوْ كنتَ شاهداً لأمرِ جَوَادي إذْ تَسوخُ قوائمُهْ
علمتَ ولم تَشْكُكْ بأنَّ محمَّداً رسولٌ ببرهانٍ .. فَمَنْ ذا يُقَاوِمُهْ
عليكَ بِكَفِّ القومِ عنهُ فإنّني أرى أمرَهُ يوماً ستبدو معالِمُهْ

قصة أم معبد

ثم مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأةً بَرْزة جَلْدة ، تحتبي بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى مَنْ مَرَّ بها فسألاها : هل عندها شيء يشترونه ؟ فقالت : والله لو عندنا شيء ما أعوزكم القِرَى . والشاء عازب — وكانت سنة شهباء — فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كِسْر الخيمة . فقال « ما هذه الشاة ؟ » قالت : خلفها الجَهْد عن الغنم فقال : « هل بها من لبن ؟ » قالت : هي أجهد من ذلك . قال « اتأذنين لي أن أحلبها ؟ » قالت : نعم — بأبي أنت وأمي — ان رأيت بها حليباً فأحلبها .

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى بالله ،.. فتفاجَّتْ عليه ودَرَّت . فدعا بإناء لها يَرْبِض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرَّغْوة ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا . ثم شرب هو وحلب فيه ثانيا فملأ الإناء . ثم غادره عندها وارتحلوا .

فَقَلَّ ما لبثت : أن جاء زوجها يسوق أعنُزاً عجافاً يتساوكن هزالا . فلما رأى اللبن ، قال : من أين هذا ؟ والشاء عازب . ولا حلوبة في البيت . قالت لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك ، ومن حديثه : كيت وكيت قال : والله اني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه ، صِفيه لي يا أم معبد .

قالت : ظاهر الوضاءة أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجْلة ، ولم تزرِ به صُعْله ، وسيم قَسيم ، في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وَطَف ، وفي صوته صَحَل ، وفي عنقه سَطَع ، وفي لحيته كثاثة أحور أكحل ، أَزَجُّ أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإذا تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأحلاهم من قريب . حلو المنطق فَصْل . لانذر ولاهَذْر كأن منطقه خَرَزاتِ نظم يتحدرن ، رَبْعة لا تقتحمه عين من قِصر ، ولا تَشْنَؤه من طول .

غُصْن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً . له رفقاء يَحفُّون به . إذا قال استمعوا لقوله . وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود . لا عابس ولا مفند .

قال أبو معبد : هذا ــ والله صاحب ــ قريش الذي تطلبه . ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن ، ان وجدت إلى ذلك سبيلا .

وأصبح صوت عال بمكة يسمعونه ، ولا يرون القائل ، يقول :

جزى الله رَبُّ الناس خير جزائه
رفيقين حَلّا خَيمتي أم معبدِ
هما نزلا بِالبرِّ وارتحلا به
فأفْلَحَ من أمسى رفيق محمدِ

فيـاَلَقُصَـــيٍّ مــازوى الله عنكمــو

بـه مـن فخـار لا يحـاذي وسـؤددِ

وقـد غـادرت وهنًـا لـديها بحـالب

يـرد بهـا في مصـدر ثـم مــوردِ

سـلوا أختكـم عـن شـاتهـا وإنائهـا

فإنكمـوا إن تسـألوا الشـاة تشهـدِ

دعـاهـا بشـــاة حـائـل فتحـلبـت

لـه بصـريح ضَـرَّة الشـاة مـزبـدِ

لقـد خـاب قـوم زال عنهـم نبيهـم

وقُـدِّس مـن يَسْـرِي إليـه ويغتــدي

ترحَّـل عـن قـوم فزالت عقـولهـم

وحـلّ عـلى قــوم بنــور مجـــدَّدِ

هـداهـم بـه ـــ بعـد الضـلالة ـــ ربهـم

وأرشـدهـم مَــن يَتْبَــعِ الحــق يرشــدِ

وقـد نـزلت منـه على أهـل يثـرب

ركـاب هـدىً حـلت عليهـم بأسعـدِ

نبيٌّ يـرى مالا يـرى النـاس حـولـه

ويتلـو كتـاب الله في كـل مشهـدِ

وإن قـال في يـوم مقـالة غـائب

فتصـديقهـا في ضَحـوة اليـوم أو غـدِ

لِيَهْـنَ أبـا بكـر سعــادة جَــدِّه

بصحبتـه مَـن يُسْعِـد الله يُسْعَــدِ

ويهـن بني كعـب مكـان فتـاتهـم

ويقعـدهـا للمـؤمنـــين بمــرصـــدِ

قالت أسماء بنت أبي بكر . مكثنا ثلاث ليالي لا ندري : أين توجه رسول الله ﷺ ؟ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات غناء العرب ، والناس يتبعونه ويسمعون منه ولا يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة فعرفنا أين توجه رسول الله ﷺ .

قالت : ولما خرج أبو بكر احتمل معه ماله فدخل علينا جدي أبو قحافة ــ وقد ذهب بصره ــ فقال : اني والله لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا والله قد ترك لنا خيراً . وأخذت حجارة ، فوضعتها في كوة البيت . وقلت : ضع يدك على المال . فوضعها وقال لابأس إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن . قالت . والله ماترك لنا شيئاً . وإنما أردت أن أسكت الشيخ .

دخــول المدينــة

ولما بلغ الأنصار مخرجَ رسول الله ﷺ من مكة . كانوا يخرجون كل يوم إلى الحَرَّة ينتظرونه . فإذا اشتد حر الشمس رجعوا إلى منازلهم . فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول . على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته . خرجوا على عادتهم . فلما حميت الشمس رجعوا ، فصعد رجل من اليهود على أُطُمٍ من آطام المدينة . فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيِّضين يزول بهم السراب . فصرخ بأعلى صوته : يابني قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء هذا جَدُّكم الذي تنتظرونه . فثار الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ .

وسُمعت الوَجْبة والتكبير في بني عمرو بن عوف وكبر المسلمون فرحاً بقدومه وخرجوا للقائه فتلقوه وحيوه بتحية النبوة . وأحدقوا به مطيفين حوله .

هذا مارواه الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله للهجرة في كتابه مختصر السيرة وقد روى .. أن الأنصار أنشدوا عند استقبالهم للرسول ﷺ :

طلـــع البـــدر علينـــا   مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـب الشكـــر علينـــا   مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا   جـئت بالأمـــر المطـــاع
جـئت شـــرفت المـدينـــة   مـرحبـــا ياخـــيرَ داع

ومما أورده ابن القيم بهذه المناسبة في كتابه زاد المعاد .. قول الأنصار مرحبين به ﷺ :

ثَوَى في قريشٍ بضع عشرة حِجَّةً   يُذكِّرُ لو يلقى حبيباً مُوَاتِيَا
ويعرضُ في أهل المواسم نَفسَه   فلم ير مَن يُؤوى ولم ير داعيًا
فلمّا أتانا واستقرت به النوى   وأصبحَ مسروراً بطَيْبَةَ راضيَ
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالِمٍ   بعيدٍ ولا يخشى من الناس باغيَ
بذلنا له الأموال من حلِّ مَالِنا   وأنفسنا عند الوَغى والتآسيَا
نعادِي الذي عَادَىٰ من الناس كلهم   جميعاً وإن كان الحبيبَ المصافيَا
ونعلـمُ أن الله لا ربَّ غيرهُ   وأنّ كتابَ الله أصبح هاديًا

وفي المدينة .. وبعد أن اطمأن المسلمون وبنى الرسول ﷺ أول مسجد أسس على التقوى . وآخى بين المهاجرين والأنصار .. واصل دعوته التي أرسله الله بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وهنا يجدر بنا أن نثبت الوثيقة التي كتبها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار لنرى المبدأ الذي انتشر به الاسلام وصلح عليه أمر الدنيا

والآخرة .. وانها لوثيقة يجدر لكل من يحمل أمراً أن يعيها ويدرك أبعادها ليتفهم الروح الإسلامي الذي كان وراء وحدة المسلمين الذين نصر الله بهم الإسلام .. فكان انتشاره واستمراره إلى يوم الدين بأمر الله .

الوثيقة الخالدة

نقلت كتب السيرة تلك الوثيقة بأمانة ودقة وهذه هي الصيغة المجمع عليها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي وجدهم عليها) يتعاقلون بينهم (الدية) وهم يفدون عانيهم (الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى . وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف

والقسط بين المؤمنين . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا (المثقل بالدين وكثرة العيال) بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (العظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر . ولا ينصر كافراً على مؤمن . وأن ذمة الله واحدة . يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس . وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة . غير مظلومين ولا متناصرين عليهم . وان سلم المؤمنين واحدة . لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم . وأن كل غازية غزت منا يعقب بعضها بعضا . وان المؤمنين يبيء « أباءبه : قتله به » بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط (قتله بلا جناية) مؤمناً قتلا عن بينة فانه قَوَدٌ (القصاص) به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته . وأن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف وأن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف وأن ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف وأن ليهود بني جشم . مثل ماليهود بني عوف . وأن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف ، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف ، إلا من

ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبني الشطيبة مثل ماليهود بني عوف وأن البر دون الإثم (أي ينبغي أن يكون أكبر حاجز عن الإثم) وأن موالي ثعلبة كأنفسهم . وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد ﷺ وأنه لا ينحجز على ثأر جرح . وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته . إلا من ظلم وأن الله على ابر هذا . وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبـر دون الاثم . وانـه لـم يأثم امرؤ بحليفـه . وأن النصـر للمظلـوم . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ . وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره (أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به) وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها . وأن بينهم النصر على من دَهَم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم . وأن يهود الأوس ، مواليهم وانفسهم . على مثل ما لأهل هذه الصحيفة . مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة . وأن البر دون الإثم . لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ .

هذا هو نص الوثيقة الخالدة كما حفظتها كتب السيرة الموثوقة .

فإذا أضفنا إلى ذلك .. التكريم الدائم الذي كان يلقاه الأنصار رضوان الله عليهم من الرسول ﷺ ومحبته لهم .. كما أعلن ذلك وبكل وضوح يوم حنين . لعرفنا أي مكانة احتلها الأنصار في نفس الرسول ﷺ بمناصرتهم .. ومؤازرتهم لـه .

أنصار الله

ففي يوم حنين وقد انتهى بانتصار المسلمين .. كان ذلك الموقف العظيم للرسول ﷺ .. والكرامة العظمى التي نالها الأنصار رضوان الله عليهم إذ تقول كتب السيرة :

« لقد انتهت معركة حنين بالنصر ، وكل حرب تنتهي بالنصر تطرح على الفور مشاكل السلام ، وأولى هذه المشاكل ــ غنائم الحرب .

ولقد كانت غنائم الحروب تمثل بالنسبة للمقاتلين المسلمين حقوقاً مكفولة وهامة .. فهي يومئذ من أهم مصادر المعيشة والرزق .

« ويوم حنين ، كانت الغنائم من الكثرة بمكان ..

وكان هناك آلاف من الإبل والغنم ، تملأ الأعين وتُسيل اللعاب .. وبينما المسلمون الأوائل يتطلع كل منهم إلى قَسْمه ونصيبه إذا بالرسول الذي قرر أن يجعل من يوم حنين « يوم الله » إذا به ينادي المؤلَّفة قلوبهم من مسلمة الفتح الذين لا يزال إسلامهم على شفا المنفعة والنكوص ، فيعطيهم من الغنائم بغير حساب ، حتى إذا بقي منها قليل راح يوزعه على بعض فقراء المهاجرين ..!!

أما الأنصار ، والمسلمون الأوائل والكبار ، فقد فوجئوا بالغنائم تَزَّاوَرُ عنهم إلى الآخرين ..

وكانت مفاجأة لم يعوّدهم الرسول بمثلها من قبل ، وفي زحمة النصر والناس والغنائم ، لم تأت الفرصة ليعطي تفسيراً لما حدث . فكان طبيعياً أن يكون الموقف موضع تساؤل ، بل وإحساس بالأسف والمرارة لا سيما من الأنصار الذين لم تُصب الغنائم منهم أحداً .

ولقد عبّر عن هذا الإحساس شاعر المسلمين من الأنصار « حسّان بن ثابت » فقال :

وَأْتِ الرسول ، فقل يا خير مُؤتَمَنٍ
للمؤمنين إذا ما عُـدِّدَ البَشَـرُ
عـلامَ تُدْعى سُلَيم ، وهي نازحـة
قُـدَّامَ قوم هُمُـوا آوَوْا وهم نصَرُوا
سمـاهُم الله أنصـاراً ، بنصـرهمـو
دينَ الهـدى ، وعَوانُ الحرب تَسْتَعِرُ

ودخل زعيم الأنصار (سعد بن عُبادة) خيمة رسول الله ، فقال :

(يا رسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجِدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء) .

قال الرسول : « فأين أنت من ذلك يا سعد » ؟؟
قال سعد : (ما أنا إلا من قومي) ..

فأمره الرسول أن يجمع له الانصار ، فجمعهم سعد ، حيث خرج إليهم رسول الله ، وقام فيهم يتحدث ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأنصار ..
ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجِدَّةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم ..؟

« ألم آتكم ضُلَّالًا ، فهداكم الله .. وعالَةً ، فأغناكم الله .. وأعداءً ، فألَّف الله بين قلوبكم » ..؟

أجاب الأنصار هاتفين :

(بلى .. الله ورسوله أمنُّ وأفضل) .

واستأنف الرسول حديثه فقال :

« ألا تجيبونني أيها الأنصار » ..؟

قالوا ، وقد غلبهم الحياء :

(بماذا نجيبك يا رسول الله ..؟ فلله ولرسوله المنُّ والفضل) .

قال الرسول :

« أمَا والله ، لو شئتم لقلتم ، فلَصَدَقْتُم وصُـدِّقْتم .

« أتيتنا مكذَّباً ، فصدقناك .. ومخذولًا ، فنصرناك . وطريداً ، فآويناك .. وعائلًا ، فآسيناك ..

« أوَجِدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لُعاعَة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليُسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ..؟؟

« ألَا ترضوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير .. وترجعوا أنتم إلى رحالكم برسول الله ..؟؟

« فوالذي نَفْسُ محمد بيده ، لولا الهجرةُ لكنتُ امرءاً من الأنصار . ولو سلَك الناس شِعْباً وسلكَت الأنصارُ شِعباً ، لسلكت شعب الأنصار .

« اللهم ارحم الأنصار .. وأبناء الأنصار .. وأبناء أبناء الأنصار .. »

لـم يكد الأنصار يستمعون إلى هذه التحية الماجدة ، ينثر عليهم زهورَها الصادق الأمين عليه صلاة الله وسلامه حتى فاضت أعينهم من الدمع ، وعلا نشيجهم وبكاؤهم .

لقد رفعهم الرسول في يوم الله هذا ، إلى مُستوى اليوم العظيم .

رحلة الإيمان

وهكذا نرى رحلة الإيمان .. وقد انتهت بالرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه إلى المدينة المنورة لتبدأ مرحلة جديدة من الانتشار لدين الله بعد أن كتب الله الخير للأنصار بمناصرتهم لرسول الله ومعاهدتهم له عليه الصلاة والسلام على الوقوف معه والذود عنه .

ونحن نرى في السطور القليلة لمسيرة الهجرة أي أذى كان يلقاه الرسول عليه السلام .. وأي مواجهة كانت تقوم بها قريش لمناهضة الرسالة ومع ذلك فقد أتم الله نوره بوقوف المسلمين مع رسول الله وافتدائه بأنفسهم رضوان الله عليهم جميعاً .

وهناك موقف في هذه السطور يدعو للإكبار والتقدير للأمانة خاصة .. فهذه قريش تحارب رسول الله وترفض الدعوة التي جاء بها من عند الله .. بل وتأتمر لقتله ومع ذلك نجد الناس من أهل مكة يودعون أماناتهم وذخيرتهم عند محمد الأمين عليه الصلاة والسلام وهم لم يؤمنوا به ولكنه الوفاء بالأمانة من جانب رسول الله عليه الصلاة والسلام جعلهم يلجأون إليه بودائعهم يأتمنونه عليها ثم هو يرى زعماء قريش يأتمرون به ويرى فتية منهم يرصدونه على الباب لقتله ومع ذلك تكون تلك الأمانات موضع اهتمامه فيضع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مكانه ليرد تلك الأمانات إلى أصحابها .. وهنا موقف إعجاب وتقدير للإمام علي وهو يرى الموت أمامه ومع ذلك يضع نفسه موضع النبي عليه الصلاة والسلام ويفديه بروحه لأنه يرى فيه الأمانة والعدل والحق الذي جاء به ليهدي الناس إلى خير الدنيا والآخرة .. وفي هذا وذاك بل وفي مسيرة المصطفى بكامل أحداثها ما يجب علينا الاقتداء به لنعيد للإسلام سيرته الأولى إن شاء الله .

تاريخ الهجرة

.. **ولاستكمال** البحث .. وإتمام الفائدة .. فإني أختم هذا الفصل بإثبات تاريخ الهجرة .. والطريقة التي تم بها اعتماد يوم الهجرة منطلقاً للتاريخ الإسلامي .. ومغزى هذا الاختيار ..

يقول الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور عطار في كتابه « الهجرة » :

بدأ الرسول الكريم هجرته ومعه صاحبه الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه صباح يوم الاثنين غرة ربيع الأول (سنة ١ هـ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) ودخل المدينة بعد ظهر يوم الاثنين (٨ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) .

وعندما اتفق الصحابة رضوان الله عليهم على مبدأ التاريخ الإسلامي بيوم الهجرة النبوية الكريمة كان في السنة السابعة عشرة منها .. وكان الصحابة يحفظون القرآن ووقفوا على الآيات البينات المحكمات بما يتصل بالزمان وارتباطه . بالشمس والقمر والليل والنهار فربطوا تاريخهم بالقمر وجعلوا سنتهم قمرية متبعين ما جاء بالقرآن الكريم نفسه » .

.. واتفاق الصحابة الذي أشار إليه أستاذنا الكبير أحمد عبد الغفور عطار هو ما ذكرته كتب السيرة من أن أبا موسى الأشعري كتب إلى الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : أنه يأتينا قبل أمير المؤمنين كتبٌ ليس لها تاريخ فلا ندري على أيها نعمل ؟!

وقال ميمون بن مهران : رفع إلى أمير المؤمنين صك محله شعبان فقال : أي الشعابين هو ؟ الذي مضى أو الذي نحن فيه أم الآتي .

وقال قرة بن خالد : كان عند عمر عامل جاء من اليمن فقال لعمر أما تؤرخون ؟ اني رأيت باليمن شيئاً يسمونه التاريخ يكتبون من عام وكذا وشهر وكذا فقال عمر أن هذا لحسن .

وفي رواية مطولة أن عمر رضي الله عنه بعدما تولى أمر المسلمين جمع وجوه الصحابة فقال : أن الأموال قد كثرت وما قسمنا منها غير موقت فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك .

فقال قائل : أكتبوا على تاريخ الروم .. فقيل انه يطول وانهم يكتبون من عند ذي القرنين .. فقالوا يجب أن يعرف ذلك من رسوم الفرس فعندها استحضر عمر الهرمزان وسأله عن ذلك فقال ان لنا حسابا نسميه « ماه روز ومعناه حساب الشهور والأيام » وبينه لهم فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله ﷺ .. ثم قالوا من عند وفاته .. ثم قالوا من مولده وقال علي : منذ خرج النبي ﷺ « من أرض الشرك يعني يوم هاجر فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة .. ولما كانت الهجرة النبوية في شهر ربيع الأول قيل بأي شهر نبدأ فنصيره أول السنة .

فقالوا رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه .
وقال آخرون : شهر رمضان .
وقال آخرون : شهر ذي الحجة .
وقال آخرون : الشهر الذي خرج فيه من مكة .
وقال آخرون : الشهر الذي قدم فيه .

فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : أرخوا من المحرم أول السنة وهو شهر حرام وأول الشهور في العدة وهو منصرف الناس عن الحج .. فلما عزموا على تأسيس الهجرة رجعوا القهقري ثمانية وستين يوماً وجعلوا التاريخ من أول محرم تلك السنة .

الاختيار الموفق

.. وفي كتابه عبقرية محمد يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في فصل مستقل بعنوان « يوم الغار » .

« ستطلع الأقمار بعد الأقمار وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية . وكأنها تقبل بمعلم من معالم السماء يوميء إلى بقعة من الأرض هي غار الهجرة . أو يوميء إلى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذي اختاره المسلمون بإلهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم .

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ في الإسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟

ولمَ لمْ يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبي أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ .. كل يوم من هذه الأيام كان في ظاهر الرأي وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة في جنح الظلام .

فالرجل الذي اختار يوم الهجرة بدءاً لتاريخ الإسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه .

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التي تعتقد حقاً ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقاً فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء .

وليس يوم أحق بالتأريخ إذن من اليوم الذي هجر فيه النبي بلده .. **﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثانِيَ اثنين ، إذ هما في الغارِ ، إذ يقولُ لصاحبه لا تحْزَنْ ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليهِ وَأَيَّدَهُ بجنودٍ لم تروها وجعل**

كلمةَ الذين كفروا السُّفْلىٰ وكلمةُ اللهِ هي الْعُلْيَا واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ (التوبة : آية ٤٠) .

ليقل من قال ان التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتاً معروفاً على عهد النبي عليه السلام .. وليقل من قال ان دخول المدينة هو المقصود بالتأريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم .. ليقل من قال هذا أو ذاك ، فإن تاريخ النصر في القرآن ظاهر إذ هو « ثانى اثنين » في الغار .

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد ـــ سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح ـــ حين نظر إلى غار « ثور » ولم ينظر في التاريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر بدر ولا إلى نصر أُحد ولا إلى نصر فارس ، ونظر إلى تلك « الجنود التي لم تروها » وقد نراها نحن الآن .

يوم الدعوة لم يكن يوم الإسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير .

ويوم ميلاد النبي لم يكن يوم الإسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمداً بشر مثلنا في مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة إلى حيث تنجو وحيث تسود ، وحيث يكون امتحانها الأول في قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان في غار .

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشدة تاريخها وليس بالغنائم والفتوح » .

وقد كان .. يوم الغار يوم شدة ولكنه منطلق لانتصارات بهرت الدنيا وأضاءتها بنور الإسلام .

شهر الخير .. والأحداث العظام

﴿ .. إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ﴾ (التوبة : آية ٣٦) .

هذه الشهور الاثنا عشر .. لم يذكر القرآن الكريم اسم شهر واحد منها في أجزائه الثلاثين بما في ذلك الأشهر الحرم التي قال الله عنها : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ (التوبة : آية ٣٦) . غير شهر رمضان الكريم إذ جاء تكريمه من رب العزة والجلال بذكره منفرداً من دون الشهور في قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (البقرة : آية ١٨٥) .

هذا هو الشهر الوحيد الذي سماه القرآن الكريم باسمه من دون بقية الشهور .. أما الأشهر الحرم فقد جاء إيضاحها على لسان رسول الله ﷺ بقوله : « ثلاث متواليات . ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

ورمضان الذي يهلُّ علينا في كل عام بأيامه الوضيئة ـــ ولياليه المضيئة .. ويا حظ كل من أطاع الله فيه . ونهى النفس عن الهوى .. وأعطى مما رزقه الله .. أو سعىٰ فيه بخير .. أو إلى خير .. هو شهر يضاعف الله فيه الحسنات أضعافاً مضاعفة . إذ تتنزل فيه الرحمات تباعاً .. وتفتح فيه أبواب الجنان وتعتق فيه الرقاب من النار .. ومن تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدّى فريضة فيما سواه .. كما أن فيه ليلة خير من ألف شهر .. وليس هذا فحسب بل إن شهر رمضان .. كان في كثير من أيامه مسرحاً لأحداث عظام من تاريخ الإسلام والمسلمين .. ومنذ فجر التاريخ

الإسلامي .. وهذا وذاك هما دافعي لكتابة هذا الفصل عن الشهر الفضيل مُيَمِّماً بقلمي نحو الأحداث التي كان في مقدمتها مواجهة الرسول ﷺ لقوى الشر والطغيان في بدر .. وفتح مكة .

رمضان .. والقرآن

وفي رمضان الذي فرض صيامه يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة .. وخرج رسول الله عليه السلام على صحبه بالمسجد ليبشرهم بنعمة الله التي حلت بهم قائلا :

« أتاكم شهر رمضان .. شهر خير وبركة يغشاكم الله فيُنزل فيه الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب الدعاء فأروا الله فيكم من أنفسِكُمْ خيرا فان الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل » .

ولقد فرض الله صيام رمضان بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تَتَّقُونَ .. أياماً معدوداتٍ فمن كان منكم مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيامٍ أُخر ، وعلى الذين يطيقونه فِدْيةٌ طَعَامُ مسكينٍ فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له ، وَأَنْ تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ هدًى للناس وبَيِّنَاتٍ من الهدى والفرقان فمن شَهِدَ منكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ومن كان مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيام أُخر ، يريد الله بكم الْيُسْرَ ولا يريد بكم الْعُسْرَ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ، وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعَانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يَرْشُدُون ، أُحِلَّ لكم ليلةَ الصِّيامِ الرفث إلى نسائكم هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن ، عَلِمَ الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفاعنكم ، فالآنَ باشروهُنَّ وابتغوا ما كَتَبَ اللهُ لكم وكلوا واشربوا

حتى يَتَبَيَّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهُنَّ وأنتم عاكفون في المساجد ، تِلْكَ حُدُودُ الله فلا تقربوها كذلك يُبَيِّنُ الله آياتِهِ للناسِ لعلهم يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : آية ١٨٣ — ١٨٧) .

وفي الحديث

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال ﷺ :

يا أيها الناس :

« قد أظلكم شهر عظيم .. شهر مبارك .. شهر فيه ليلة خير من ألف شهر .. جعل الله صيامه فريضة .. وقيام ليله تطوعاً .

من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه .

وهو شهر الصبر .. والصبر ثوابه الجنة .. وشهر المواساة .. وشهر يزاد فيه رزق المؤمن .. من فطر فيه صائماً كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار .. وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء ..

قلنا يا رسول الله : ليس كلنا نجد ما نُفطر به الصائم ؟

فقال رسول الله ﷺ : يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على مذقة لبن « أي شربة من اللبن الممزوج بالماء » أو تمرة . أو شربة ماء .. ومن أشبع صائماً سقاه الله من حوضي شربة لايظمأ حتى يدخل الجنة . وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ومن خفف على مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار » رواه البيهقي .

« وروى الإمام أحمد .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاكم شهر رمضان . شهر مبارك فرض الله عليكم

صيامه تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه مردة الشياطين .. لله فيه ليلة خير من ألف شهر . من حُرم خيرها فقد حرم » .

وفي الصحيح : قال رسول الله ﷺ :

« من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ماتقدم من ذنبه ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ماتقدم ذنبه » .

وفيه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : كل عمل ابن آدم له . الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به .. يدع شهوته وطعامه من أجلي .. للصائم فرحتان : فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك . والصيام جنة « وقاية وحصن من المعاصي » وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني أمرؤ صائم » ..

« وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » ــ متفق عليه .

« وعن ابن عمر « رضي الله عنهما » : أن النبي ﷺ قال إن الجنة تزخرف فى رمضان من رأس الحول إلى حول قابل قال : فإذا كان أول يوم من رمضان هبت ريح من تحت العرش من ورق الجنة على الحور العين فيقلن : يارب أجعل لنا من عبادك أزواجاً تُقر بهم أعيننا . ونقر أعينهم بنا » . رواه البيهقي في شعب الايمان .

« وروى الإمام أحمد رحمه الله بسنده : أن النبي ﷺ قال : « يغفر لامته في آخر ليلة من رمضان ، قيل : يا رسول الله ! أهي ليلة القدر ؟ قال : لا ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله » .

تعظيم رمضان

شهر رمضان .. شهر عظيم بنص ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف .. ومما قرأت عن أسباب تعظيم هذا الشهر .. هذه المرويات :

« في المدينة المنورة ، أرض الهجرة ، فرض الله تعالى صوم رمضان على المسلمين ، وكان فرض صيام هذا الشهر الكريم في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة ، حيث نزل بالوحي جبريل عليه السلام مبعوثا من عند الله إلى رسوله الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام » .

وخرج سيد المرسلين من منزله إلى مسجده مبشراً المسلمين بفرض الصيام عليهم ، منوهاً بفضائل رمضان بقوله : « أتاكم شهر رمضان شهر خير وبركة ، يغشاكم الله فيُنزِل فيه الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب الدعاء فأروا الله فيه من أنفسكم خيراً فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل » .

ومن أسباب تعظيمه أن جميع الكتب السماوية قد نزلت فيه على الأنبياء والمرسلين قبل البعث المحمدي ، ففي الحديث الشريف قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أُنزِلَتْ صُحُفُ ابراهيم في أول ليلة من شهر رمضان . وأُنْزِلَتْ التوارةُ لست مَضَيْنَ من رمضان ، وأُنْزِلَ الانجيلُ لثلاث عشرة خَلَتْ من رمضانَ ، وأُنْزِلَ الزبورُ لثماني عشرة خلت من رمضان ، وأُنْزِلَ القرآنُ لأربع وعشرين خلت من رمضان . وهو حديث رواه ابن عباس من حديث وَاثِلَة بن الأسقع عن الرسول الكريم ﷺ .

وقد اختلفت الآراء في تسمية رمضان وتعددت الروايات والحكايات ، وقد قال ابن دريد : « لما نقل العرب أسماء الشهور في اللغة

القديمة سموها بالأزمنة التي هي فيها ، فوافق رمضان أيام رمض الحر وشدته » . وقد قيل أن الشهور العربية سميت من أسماء فصول السنة الدالة على الحرارة والبرودة ونمو النباتات .

فالمحرم : سمي كذلك لأن العرب كانوا يحرمون فيه القتال .

صفر : كانوا يغيرون فيه البلاد ويتركونها صفراً أي خالية .

ربيع الأول وربيع الآخر : سميا في وقت أربعت فيه الأرض أي أخصبت .

جمادى الأولى وجمادى الآخرة : سميا كذلك لتجمد الماء فيهما في الأماكن العالية .

رجب : اشتق اسمه من الترحيب أي التعظيم ، لانهم كانوا (يرحبون) أي يعظمون فيه الشجر أي يجعلون حوله وتحته بناء يقيه ويحفظه .

شعبان : سمي كذلك لِتَشَعُّبِ النباتات فيه بأنقسام الجذع إلى فروع كثيرة .

رمضان : يدل اسمه على الحر الشديد .

شوال : سمي كذلك لأن النوق كانت تلقح فيه فتشول بأذنابها أي ترفعها .

ذو القعدة : كانوا يقعدون فيه عن القتال .

ذو الحجة : سمي كذلك لوقوع الحج فيه والاشهر الأربعة الحرم التي كان العرب يحرمون فيها القتال هي : ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، رجب .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا رأى هلال رمضان قال : « اللهم اجعله هلال رشد وخير آمنت بالذي خلقك » ، ثلاث مرات ثم يقول : « الحمد لله الذي ذهب بشهر شعبان وأتى بشهر رمضان » .

وفي رمضان ليلة القدر .. وهي التي قال عنها الرسول ﷺ .. من كان متحريها .. فليتحرها في السبع الأواخر .. وهي ليلة خير من ألف شهر بدليل قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر** ﴾ (القدر : آية ١ ــ ٥) .

صوم الصالحين

وذكر الإمام الغزالي أن صوم الصالحين يتم بستة أمور :

الأول : حفظ اللسان عن الهذيان والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، والزامه بالسكوت ، وإشغاله بذكر الله سبحانه وتعالى وتلاوة القرآن والاشتغال بما هو نافع ، فهذا صوم اللسان .

الثاني : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يُذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله ، ويجب أن يبتعد الصائم عن الكذب والغيبة والنميمة والنظر بشهوة .

الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه فالمغتاب والمستمع شريكان في الإثم معاً .

الرابع : كف بقية الجوارح كاليد والرجل عن الآثام والمكاره ، وكف البطن عن الشهوات وقت الإفطار فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحرام ثم الإفطار على الحرام فمثال ذلك الصائم كمن يبني كوخاً ويهدم قصراً ، « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ، قيل

هو الذي يفطر على الحرام وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وذلك حرام ، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام .

الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار ، بحيث يمتلىء جوفه ، فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن ملىء من حلال ، وكيف يستفاد من الصوم بكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته صحوة نهاره ، ومن الآداب أن لا يكثر الصائم من النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القُوى فيصفو عند ذلك قلبه .

السادس : أن يكون قلبه بعد الافطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد فهو من الممقوتين .

ومن أجمل ما كتب عن الصوم قول أمير الشعراء أحمد شوقي عن كتاب أسواق الذهب :

الصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع .

لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب ، وباطنه الرحمة يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسير الكِبر ، ويُعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف ألمه إذا لذع .

ولهذا فإن علينا

عندما نعيش هذا الشهر الفضيل أن نعظمه بالإمتناع عن اللهو والغيبة والنميمة ونهي النفس الأمارة بالسوء عن الهوى .. لتكون الجنة إن شاء الله هي المأوى .

.. ولقد قرأت .. وسمعت من البعض الكثير من الأسئلة التي يحسن بنا ونحن نتحدث عن رمضان .. أن نجيب عليها بما في الكتاب والسنة .

يسأل البعض إذا أكل أو شرب سهواً هل يتم صيامه أم يعتبر فاطراً وعليه قضاء ؟ وفي هذا جاء في حديث متفق عليه أن النبي ﷺ قال :
« من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه » .

والصيام في السفر .. فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : « ان حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ أصوم في السفر ؟ فقال ﷺ : إن شئت فصم وإن شئت فأفطر « متفق عليه » .. وروى الامام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ لست عشرة مضت من شهر رمضان فمنا من صام ومنا من أفطر . فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا منزلا في يوم حار فسقط الصوامون . وقام المفطرون فضربوا الأبنية « الخيام » وسقوا الركاب « الإبل » فقال رسول الله ﷺ « ذهب المفطرون اليوم بالأجر ، « متفق عليه » .. وفي حديث آخر متفق عليه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا بماء فرفعه إلى يده ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك في رمضان فكان ابن عباس يقول :
« قد صام رسول الله ﷺ وأفطر فمن شاء صام ومن شاء أفطر »

ويسأل البعض عن أهمية السحور .. والسر في الحرص عليه حتى وإن لم يكن بالإنسان جوع !!

والجواب على ذلك أن السحور بركة .. وأنه الفاصل بين فترة الصيام من النهار .. والإفطار بالليل فقد روي عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه .. كما روى الإمام مسلم بسنده : أن رسول الله ﷺ قال : « فصل مابين صيامنا . وصيام أهل الكتاب أكلة السحر » .. وروى أبو داود والنسائي عن العرباض ابن سارية قال : « دعاني رسول الله ﷺ إلى السحور في رمضان فقال : هلم إلى الغداء المبارك » ..

* * *

للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه . كما جاء في حديث سبق ايراده .. ومن عجب أن بعض الناس يتأخر في إفطاره بعض ساعة في انتظار حلول الظلام .. بينما موعد الافطار هو أذان المغرب والرسول عليه الصلاة والسلام يقول في حديثين متفق عليهما :

١ ــ لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر ...

٢ ــ إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم .

وروى أبو داوود وابن ماجة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى كانوا يؤخرون » ..

* * *

كثير من الناس « بكل أسف » يصوم عن الطعام والشراب .. ولكنه يقضي ليله في لهو .. ويمضي نهاره في اغتياب الناس والنيل منهم أو يسب هذا ويشتم ذاك ولا يتورع عن أكل مال الناس وظلم الضعاف .. وكل هذا مبطل للصيام بنص الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن ابي هريرة رضي

الله عنه حيث قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس له حاجة لأن يدع طعامه وشرابه » ..

كما روى الدارمي بإسناد جيد أن رسول الله ﷺ قال : كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ..

وإن مما يحسن بالمسلم أن يواظب عليه في كل حين عامة وفي شهر رمضان خاصة هو تلاوة القرآن ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ (الاسراء : آية ٩) .. كما يقول سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي وردت عن الصوم : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ (البقرة : آيه ١٨٥) .

وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين » رواه مسلم .. وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع الصفوة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

عمـرة رمضـان

وفي رمضان الذي يصوم الناس نهاره .. وبقومون ليله ويتلون فيه القرآن آناء الليل وأطراف النهار .. يقبل الناس على أداء العمرة لما ورد عن رسول الله ﷺ من أجر فيها :

روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما » و « عمرة في رمضان تعدل حجة أو حجة معي » وروى ذلك أيضاً أبو داود وابن خزيمة أطول منه ولفظ أبي داود قال : « أراد رسول الله ﷺ الحج فقالت امرأة لزوجها : أحججني مع رسول الله ﷺ

فقال : ما عندي ما أحججك عليه ، فقالت : أحججني على جملك فلان ، قال : ذاك حبيس في سبيل الله عز وجل ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : ان امرأتي تقرأ عليك السلام ورحمة الله ، وانها سألتني الحج معك ، فقلت : ما عندي ما أحججك عليه ، قالت : أحججني على جملك فلان ، فقلت : ذاك حبيس في سبيل الله ، فقال ﷺ : أما أنك لو أحججتها عليه كان في سبيل الله ، قال : وأنها أمرتني أن أسألك ما يعدل حجة معك ، قال رسول الله ﷺ : اقرأها السلام ورحمة الله وبركاته وأخبرها أنها تعدل حجة معي عمرة في رمضان » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت أم سليم ــ والدة أنس ابن مالك ــ إلى رسول الله ﷺ فقالت : حج أبو طلحة وابنه وتركاني ، فقال : يا أم سليم عمرة في رمضان تعدل حجة معي » .

فأي كسب هو أفضل من هذه العمرة التي يقوم بها المسلمون في رمضان ما دام انها تعدل حجة ، ومع من ؟ مع رسول الله ﷺ ، ثم انها قبل هذا وبعده وهو ليس بقليل كفارة لما قبلها كما جاء في الصحيح ؟!

أبواب الخير

رمضان شهر كريم بفضل الله الذي يغدقه على عباده خلال الأيام والليالي التي يغفر الله فيها لعباده الذين يعرفون الحدود ويتمسكون بها .. ويقبلون على فعل الخير ويعملونه ، فلقد روى الحاكم باسناد صحيح عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أحضروا المنبر » فحضرنا ، فلما ارتقى ﷺ : درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الثالثة قال : آمين ، فلما نزل قلنا : يا رسول الله سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ، قال ﷺ : ان جبريل عرض لي فقال : بَعِدَ ــ يدعو عليه وهو الطرد من الرحمة ــ من أدرك رمضان فلم

يغفر له ، قلت : آمين ، فلما رقيت الثانية قال : بَعِدَ من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت : آمين ، فلما رقيت الثالثة قال : بَعِدَ من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قلت : آمين » . كما روى النسائي والبيهقي ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتاكم شهر رمضان .. شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه تفتح أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتُغَلُّ فيه مردة الشياطين ، لله فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم » .

وأخرج البيهقي في الشعب باسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان أول ليلة من رمضان : فتحت أبواب السماء فلا يغلق منها باب حتى تكون آخر ليلة من رمضان ، وليس عبد مؤمن يصلي في ليلة فيها إلا كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة بكل سجدة وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوتة حمراء لها ستون ألف باب لكل باب منها قصر من ذهب موشح بياقوتة حمراء ، فإذا صام أول يوم من رمضان غفر له ما تقدم من ذنبه إلى مثل ذلك ليوم من شهر رمضان واستغفر له كل يوم سبعون ألف ملك من صلاة الغداة إلى أن توارى بالحجاب وكان له بكل سجدة سجدها في رمضان أو نهار شجرة يسير الراكب في ظلها خمسمائة عام » .

وأخرج أحمد والبزار بإسنادهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ أُعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم تُعطهن أمة قبلهم خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الحيتان حتى يفطروا ، ويزين الله عز وجل في كل يوم جنته ثم يقول : يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤونة ويصيروا إليك ، وتصفد فيه مردة الشياطين ، فلا يخلصوا فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره ويغفر لهم في آخر ليلة « قيل : يا رسول الله ، أهي ليلة القدر ؟ قال : لا ولكن العامل انما يؤتى أجره إذا قضى عمله » .

الجوع والعطش لا يكفي

الصيام ليس هو الامتناع عن الطعام والشراب فقط .. ولكنه الامتناع عن كل ما نهى الله عنه ، حتى اللغو والغيبة والنميمة والقول الكاذب .. وما أحرانا وقد هدانا الله لصيام رمضان أن نكون على المستوى الذي يجب أن يكون عليه المسلم الصائم وحتى لا يكون حظنا من رمضان الجوع والعطش .. كما أن من حق المسلم على أخيه المسلم في هذا الشهر الفضيل أن يبرَّه بما يستطيع من عفو واعانة ومساعدة فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . فقد جاء في الحديث : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، كان رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة .. والصيام والقرآن يشفعان للمؤمن يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان « رواه أحمد بسند صحيح » .

وإلى جانب كل تلك المكاسب والفضائل في رمضان .. فإن له عطاء آخر إن قام الإنسان بصيامه إيماناً واحتساباً وفي ذلك يقول الكاتب الاسلامي محمد حسين هيكل باشا في كتابه « حياة محمد ﷺ » .

« إذا أقبلنا على الصيام مختارين مدركين أن أمر الله لا يمكن أن يختلف عن حكم العقل ما أدرك العقل أغراض الحياة في أسمى صورها . قدرنا ما في الصيام من تحرير لنا من رق العادة ومن رياضة لإرادتنا وحريتنا ، وذكرنا أن ما يفرضه الإنسان على نفسه باذن الله من حدود روحية ونفسية لحريته بالتحرر من بعض عاداته وشهواته هو خير ما يكفل لتفكيره أن يبلغ مراتب الإيمان العليا ، وإذا كان التقليد في الإيمان ليس ايماناً بل هو إسلام من غير إيمان فالتقليد في الصوم ليس صوماً ، ولذلك يعتبره المقلد حرماناً وحداً من

حريته بدل أن يدرك ما فيه من تحرير من قيود العادة ومن غذاء نفسي وروحي عظيم » .

حدث في رمضان

كان أعظم حدث وقع في شهر رمضان المبارك هو نزول القرآن الكريم ، ومعنى نزول القرآن في شهر رمضان هو ابتداء نزوله ، لأنه من المعروف أن القرآن قد نزل متفرقاً في مدة البعث كلها ، وأول ليلة نزل فيها كانت ليلة القدر ، وسميت ليلة القدر تنويهاً بمكانتها وقدرها في التاريخ وأول ما نزل من القرآن في شهر رمضان في تلك الليلة المباركة .

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة (سنة ٦٢٤) ميلادية وقعت غزوة بدر الكبرى وكان عدد المشركين يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ، وقد قاتل النبي ﷺ فيها المشركين من قريش بقلة آمنت بالله ورسوله ، واستحث الرسول ﷺ أصحابه على الصبر والفداء فاستجابوا واستبسلوا في القتال وصبروا وصابروا فنصرهم الله نصراً مبيناً .

وكان من نتائج انتصار النبي ﷺ في غزوة بدر الكبرى استقرار الدعوة إلى الإسلام في شبه الجزيرة العربية .

وفي شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٣٠ م) سار الرسول عليه الصلاة والسلام لفتح مكة واستخلاصها من أيدي قريش بعد أن نقضوا عهد الحديبية ، وخرج في العاشر من رمضان وصام فصام الناس معه حتى إذا اقترب القتال أفطروا وزحف على مكة فتم بفضل الله فتحها .

وكان لهذا الفتح فضله في توحيد كلمة العرب وانضوائهم تحت راية الرسول وانتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية ثم في أرجاء العالم كله .

وعن بدر وفتح مكة .. سيكون الفصل التالي مفصلاً لوقائعهما وأثر ذلك على الاسلام والمسلمين .

وفي رمضان كانت معركة القادسية التي انتصر فيها الإسلام انتصاراً باهراً على إحدى الامبراطوريتين اللتين كانتا نسودان الدنيا آنذاك وهي الامبراطورية الفارسية .. وكان ذلك (سنة ١٥) للهجرة ..

وفي رمضان (سنة ٩١ هـ ــ ٧١٠ م) أنفذ موسى بن نصير قوة من فرسان العرب بقيادة « طريف » لارتياد الشاطىء الجنوبي مس الأندلس فعبروا البحر في السفن وغزوا بعض الثغور الجنوبية وكانت هذه الغزوة مقدمة لفتح الأندلس .

وفي (سنة ٩٢ هـ ٧١١ م) أنفذ جيشاً من اثنى عشر ألف مقاتل بقيادة طارق بن زياد لفتح الأندلس والذي نزل أول مانزل عند الجبل المسمى باسمه جبل طارق ، والتقى بجيش الملك وردريك في معركة فاصلة وقعت في شهر رمضان من تلك السنة على ضفاف نهر لكه بالقرب من مدينة شدونة القديمة .

وقبل القتال قال طارق بن زياد قولته المشهورة : « أيها الناس ، البحر من ورائكم والعدو من أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، فصدقوا وصبروا وانتهت المعركة بفوز العرب ودانت الأندلس للفتح العربي .

وهناك حوادث أخرى هامة وأعمال كبيرة حدثت في شهر رمضان المبارك نذكر منها :

في رمضان سنة ٥٣ هـ « ٦٧٣ م » فتح العرب جزيرة رودس .

في رمضان (سنة ١٢٩ هـ ــ ٧٤٧ م) ظهرت دعوة بني العباس في خراسان بزعامة أبي مسلم الخراساني .

في رمضان (سنة ١٣٢ هـ ــ ٧٥٠ م) استولى أبو العباس عبدالله أول خلفاء العباسيين على دمشق وسقطت الدولة الأموية .

في رمضان (سنة ٢٥٤ هـ ــ ٨٦٨ م) انفصلت مصر فعلا عن الدولة العباسية ونودي بأحمد بن طولون والياً عليها .

في رمضان (سنة ٣٦١ هـ ــ ٩٧٢ م) تم بناء الجامع الأزهر بالقاهرة وأقيمت فيه أول صلاة وكان أول جامعة في التاريخ الإسلامي ولا زال يؤدي رسالته إلى اليوم وإلى ماشاء الله .

في (سنة ٥٨٤ هـ ــ ١١٨٨ م) قاتل صلاح الدين الأيوبي الفرنج في سورية ، واستخلص منهم البلاد التي استولوا عليها من قبل ، ولما هَلَّ شهر رمضان من تلك السنة أُشيرَ عليه بالاستراحة في شهر الصوم فقال : ان العمر قصير والأجل غير مأمون » وسار بجيشه في منتصف هذا الشهر إلى قلعة صفد فحاربها وشدد الحصار عليها حتى سقطت .

وفي رمضان (سنة ٥٨٦ هـ ــ ١١٩٠ م) هاجم الأفرنج عكا فدافع عنها أهلها دفاع الأبطال وامتنعت عليهم ولم يدخلوها إلا (سنة ١١٩١ م) بعد حصار دام سنتين .

وفي رمضان من (سنة ٦٥٨ هـ ــ ١٢٦٠) هزم الجيش المصري جيوش التتار في فلسطين ، وهي الجيوش الجرارة التي أنفذها هولاكو لغزو الشام وتحطمت غزوات التتار . .

وفي رمضان من (سنة ٦٦٦ هـ ــ ١٢٦٨ م) استولى الجيش المصري بقيادة الملك الظاهر بيبرس على انطاكية وهزم فيها التتار .

وفي رمضان (سنة ٧٠٢ هـ ــ ١٣٠٢ م) هزم الجيش المصري جموع التتار مرة أخرى بالقرب من دمشق وأسر منهم نحو عشرة آلاف أسير .

وفي العاشر من رمضان (سنة ١٩٧٣) عبر الجيش المصري قناة السويس إلى سيناء وألحق بالجيش الإسرائيلي خسارة فادحة واسترد سيناء .

* * *

ولقد نصركم الله ببدر

قد يهون العمر إلا ساعة .. وتهون الأرض إلا موضعاً ..!

أي نعم .. فإن في عمر الزمن ساعات هي غرة في مفرق الدهر .. وفي الأرض مواقع هي كنز العطاء .. وجبين التاريخ الوضاء !

ساعات حاسمة .. أو معطاءة .. لا تَعْدِلُهَا مئات السنين ولا الدهر كله .. ومواقع أضاء فيها فجر التاريخ فحق لها أن تتيه على ماعداها من بقاع الأرض !

والمؤكد أن أعظم الساعات مجداً وخلوداً هي التي فرق الله فيها بين الحق والباطل .. وأشرفها وأكرمها بعد الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة هي الساحات التي انتصر فيها الإسلام على قوى الشر والعدوان .. وكان عليها « أي المواقع » انتصار الفريق الذي هدى الله .. وانهزام الفريق الذي تبع الضلالة .. ففريقاً هدى . وفريقاً حق عليهم الضلالة .

والذي لا شك فيه أن ذكرى أيام بدر تملأ الإنسان فخراً وعزاً بعطاء تلك الأيام المشرقة في صدر الإسلام .

تلك الأيام التي استطاع فيها المسلمون بصدق إيمانهم ووحدة صفوفهم أن يهزموا دولة الشرك والطغيان على ما كان لها من سلطان يسنده بأس من القوة والجذور المكينة .

الأيام التي وقف المشركون واليهود متحزبين في كل مكان لمحاربة دين الله واضطهاد أهله مخافة انتشار الإسلام بتعاليمه العادلة والقضاء على دولة الظلم والأوثان .. فإذا بالمسلمين وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. يقفون

صفاً واحداً كالبنيان المرصوص فيهدمون دولة الكفر ويقيمون دولة الإسلام لتصبح كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا .

الكلمة التي جاء بها النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام من رب العالمين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقال قولته المشهورة عندما حاول زعماء قريش أن يثنوه عن دعوته ، وله ما سأل :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

وقد صدق رسول الله ﷺ عهده .. فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة التي وقفت معه في محاربة الكفر والانتصار عليه بما هيأ للاسلام والمسلمين إقامة الدولة الاسلامية الكبرى التي يحاول المسلمون اليوم أن يتذكروا أمجادها ليترسموا خطاها .

وعندما يتذكر المسلمون اليوم أمجاد الاسلام بأيامه المشرقة .. فإن معركة بدر الكبرى هي مقدمة ما تعرضه الذاكرة من تلك الأيام العطرة ليس لوقوعها في هذا الشهر الكريم فقط وبالتحديد في اليوم السابع عشر من شهر رمضان .. وإنما لأنها الفيصل بين عهد الشرك .. والاسلام إذ انتصر فيها المسلمون .. انتصاراً عزيزاً بتأييد من الله وصدق إيمانهم .. وتدافعهم إلى القتال طلباً للنصر أو الاستشهاد في سبيل الله بحماس ملؤه الايمان الصادق .. والعزيمة القوية .. ولننظر :

قبل بدء المعركة .. خرج الرسول عليه الصلاة والسلام يهيىء أصحابه للقتال قائلًا لهم :

والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

ويسمع هذه الكلمات النابضة .. عمير بن الحمام بن الجموح الأنصاري السلمي .. وفي يده تمرات يريد أن يأكلها .. ولكنه لم يكد يسمع كلمات رسول الله ﷺ حتى قذف بالتمرات قائلا :

« بخ ، بخ ، فما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء .. ثم يأخذ سيفه ويدخل المعركة فيقاتل قتال الأبطال فيقتل في المعركة .. وكان أول قتيل في سبيل الله .. ويقال أن أول قتيل قتل في المعركة مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم » ..

وصورة أخرى للحب الذي يكنه المقاتلون لصاحب الدعوة .. وقائد المعركة عليه الصلاة والسلام .. تمثلها هذه الرواية التي ذكرها الأستاذ أحمد باشميل في كتابه « غزوة بدر الكبرى » ..

« بينما كان الرسول ﷺ يعدل صفوف جيشه مر بسُواد بن عزبة وهو خارج عن الصف فطعنه في بطنه بعود كان في يده قائلا : استو يا سُواد .. وهنا تظاهر سواد بالاحتجاج على الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا :

أوجعتني يا رسول الله ، وقد بعثك الله بالحق والعدل .. ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يعطي القصاص من نفسه .. فكشف النبي ﷺ عن بطنه ليقتص منه سواد قائلا له :

استقد ـــ أي أضربني كما ضربتك ـــ ولكن سواد بدلا من أن يطعن في بطن الرسول قصاصا أخذ يقبلها ، فقال الرسول ﷺ : ما حملك على هذا يا سواد ؟

قال : يا رسول الله حضر ما ترى ـــ يعني القتال ـــ فأردت أن يكون آخر عهدي بك أن يمس جلدي جلدك ـــ فدعا له الرسول بخير » .

بهذا الايمان .. وهذه الروح قاتل المسلمون . فحققوا الانتصار الذي سيظل شاهداً على ما يحققه الإيمان ووحدة الصف من ثمار .

بدر .. لماذا ؟

والحديث عن معركة بدر الكبرى .. تشدني إليه عوامل .. أو دوافع أربعة :

١ ـــ المحاولة الدؤوب من قبل بعض المؤرخين من مستشرقين وغير مستشرقين من أعداء الاسلام الذين لا يألون جهدا في الدس والسعي لتشويه صور الاسلام ما وسعهم الجهد .. والفرص ، لذلك سبيلا ..

٢ ـــ جهل الكثرة من شبابنا .. وشباب الإسلام عامة .. بكل أسف ، لتاريخ أمته المجيد بما في ذلك بعض المثقفين الذين نالوا حظاً واسعاً من العلم .. ومع ذلك ظل جهلهم بتاريخ أمتهم الاسلامية ضاريا .. ولقد ضرب الأستاذ أحمد محمد باشميل مثلا لذلك في كتابه « غزوة بدر الكبرى » قال فيه :

« سألت مرة أحد هؤلاء الحائزين على الشهادات العالية من تلك الجامعات .. سألته عن معركة الصواري فاستغرب لهذا الاسم وقال ضاحكاً : انه لم يسمع بمعركة تحمل هذا الاسم الغريب .. بينما هذه المعركة « معركة الصواري » تعد من أهم المعارك البحرية الفاصلة في تاريخ حروب الاسلام والامبراطورية الرومانية ، فقد هزم الأسطول الإسلامي الأسطول الروماني في هذه المعركة شر هزيمة ولم تقم بعدها للرومان قائمة وذلك في عصر الخليفة عثمان بن عفان وبقيادة الأمير عبدالله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنهما .. وموقعها قرب المياه التونسية » .

ويضيف الأستاذ باشميل : ولكني عندما سألت هذا الجامعي المثقف « الذي يجهل معركة الصواري » عن معركة « الطرف الأغر » أخذ يشرح

لي تفاصيل هذه المعركة وكأنه أحد الذين شهدوها . فقد اندفع يتحدث عن بسالة نلسون وَثَبَاتِه وكيف جرح وهو على ظهر سفينة القيادة يدير دفة المعركة وكيف انهزم الأسطول الفرنسي بعد أن خسر ثمانى عشرة سفينة وكيف أسر الانجليز قائد الأسطول الفرنسي .. وما هذا الجهل بالتاريخ الاسلامي والالمام بالتاريخ الأجنبي إلا حصيلة التثقيف الحديث الذي أخذه شبابنا المسلم حسب المخطط التعليمي الذي وضعه أعداء الاسلام منذ عشرات السنين » .

٣ ــ استخلاص العبر من سيرة أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأثابهم نصراً عزيزاً .. خاصة ونحن نواجه التحديات الشرسة من قبل أعداء الاسلام لتفتيت قوى الاسلام ومحاربته بكل وسيلة .. وعلى أي أرض .

٤ ــ دحض أقوال الذين يقولون عن معركة بدر الكبرى من المستشرقين وغيرهم بأنها « قطع طريق » وان الاسلام إنما انتشر بقوة السلاح .. وكل ذلك باطل ليس له من الحقيقة أي ظل .. يشهد بذلك ما تقوله كتب التاريخ والسيرة النبوية . التي أستمد منها أصدق الروايات في استرجاع تاريخ الاسلام والمسلمين ..

المشركون .. والدعوة

وقبل أن نتحدث عن المعركة ونتائجها .. لابد لنا أن نعرف الحالة التي كان يعيشها المسلمون مع المشركين منذ أن جاء النبي عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الناس .

فلقد حارب المشركون محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه .. وقعدوا لهم بكل مرصد .. لدرجة اتفاق زعماء الكفر على قتل محمد عليه الصلاة والسلام وقد أنجاه الله بالهجرة مع أبي بكر للحاق بمن سبق من الصحابة رضوان الله عليهم .

ويصف الكاتب الاسلامي عباس محمود العقاد موقف المشركين من الاسلام عند ظهوره في كتابه « عبقرية الصديق » بقوله :

كان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يخرج عليه ناجياً بروحه خالياً بنفسه بينه وبين ربه فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وأمان إلا من أذى الأقارب المخالفين لهم في قليل من الأحيان . وإنما كانوا يثورون على الدعوة العامة التي تُبَدِّلُ الْعُرْفَ كله وَتُخْرِجُ الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها ، فكان الثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع .

رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الأذناب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يعقلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يُصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم .. وما عدا هؤلاء جميعاً فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يمنعه مانع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه وليس معنى ذلك أن التغلب على العرف الجاهلي كان من الهيئات أو كان أهون من التغلب على سائر العقائد فليس أصعب ولا أعضل في الحقيقة من التغلب على عُرْفٍ ترتبط به مصالح السيادة وغباوة الدهماء وتراث الأجداد والآباء وإنما معناه أن الأمر لا يعم جميع المشركين مالم يكن واحداً من أولئك الثلاثة .. وهم ألوف .. وألوف »..

والذي لا شك فيه أن حال المشركين في مكة هو ما وصفه العقاد .. فكلهم ذلك الرجل إلا من هدى الله .. وهم القلة التي اضطرت للهجرة بدينها للمدينة بعد أن بلغ إيذاء قريش لها مبلغه .. ونال المشركون منهم فوق ما يطيقون .

وقريش التي فعلت بالنبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام كل ذلك .. لم تُعْجِبْهَا الهجرة لما تمثله من تحد لكبرائها .. وهي التي أهدرت دم النبي ﷺ وقررت الفتك به ليلة خروجه مهاجراً فكان أن منعت كل مسلم من الاقتراب من مكة المكرمة فضلا عن الدخول إليها والطواف بالبيت الحرام خاصة وهم يعرفون أن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما يريد نشر دعوته بالحسنى ولا يرغب في حمل السيف التزاماً بتعليمات ربه جل وعلا والتي تقول : ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ في الدِّين** ﴾ (البقرة : آية ٢٥٦) .. ﴿ **وَقَاتِلُوا في سبيلِ اللهِ الذينَ يقاتِلونكُمْ ولا تعتدُوا إن اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِين** ﴾ (البقرة : آية ١٩٠) ..

تحرك المسلمين

عاش المسلمون في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه يبنون المجتمع الاسلامي .. ويؤسسون للدعوة .. ويقيمون مساجد الله .. فكان بناء مسجد قباء الذي هو أول مسجد أسس على التقوى .. ومسجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه هو المدرسة الأولى في الاسلام .

ولقد كانت الفترة التي تلت هجرة الرسول ﷺ ، كما يقول باشميل في كتابه ـــ غزوة بدر الكبرى ـــ : حوالي تسعة عشر شهراً وفي هذه الأثناء التي أعقبت هجرة الرسول بما فعلته قريش بالمسلمين لدرجة اهدار دم النبي عليه السلام .. لم يحدث أي عراك دام بين مكة والمدينة .. اللهم إلا ما حدث في السرية التي قادها عبدالله بن جحش وهي المعركة التي تلتها معركة بدر .. أما بقية الحركات العسكرية التي قام بها المسلمون فهي أشبه بدوريات استطلاعية قام بها المسلمون للاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة واختبار مدى قوة القبائل المحيطة بالمنطقة وكذا محاولة كسب بعضها بالمحالفة والموادعة على الأقل .. كما كان

الهدف منها أيضاً إشعار المشركين واليهود بقوة المسلمين على صد أي اعتداء يتعرضون له ويمكن تلخيص هذه الدوريات أو السرايا التي قام بها المسلمون قبل معركة بدر كما يلي :

١ ـــ سرية بقيادة أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب قوامها ثلاثون راكبا من المهاجرين وقد التقت هذه الدورية بقافلة تجارية لقريش يحميها ثلاثمائة مقاتل بقيادة أبي جهل بن هشام على ساحل البحر ناحية العيص وهو مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر .. وكان دلك في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة ولم يحدث قتال بين الفريقين لتدخل مجدي ابن عمر الجهني الذي قام بدور حمامة السلام فحجز بينهما .

٢ ـــ سرية بقوة ستين راكباً قادها عبدالله بن الحارث إلى وادي رابغ وذلك في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة وكان هدف هذه الدورية تهديد تجارة قريش .. وهي التي اضطرت المسلمين للهجرة من مكة فارين بدينهم وظلت أموالهم وممتلكاتهم في حوزة قريش التي تحول بين المسلمين وبين حقوقهم .. وقد التقت هذه الدورية بأكثر من مائتي مقاتل من قريش بقيادة أبي سفيان إلا أنه لم يحدث قتال بين الفريقين .. وفي هذه الدورية .. أو السرية على الأصح .. انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين .. والرجلان هما : المقداد بن عمر البهراني وعتبة بن غزوان وقد أسلما وخرجا مع جيش مكة طلباً للفرار ..

٣ ـــ دورية استطلاعية قوامها ثمانية من المهاجرين بقيادة سعد بن أبي وقاص .. وصلت إلى الخرار وهو مكان قريب من الجحفة برابغ .. لتهديد طريق قريش التجارية بين مكة والشام ومع هذا فإن هذه الدورية لم تشتبك في أي قتال مع العدو وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الأولى من الهجرة .

٤ ـــ غزوة وَدَّان ـــ وهو مكان بينه وبين رابغ مما يلي المدينة حوالي تسعة وعشرين ميلا ، وقوام هذه الدورية مائتا مقاتل قادها الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه وذلك في صفر في السنة الثانية للهجرة وعاد عليه السلام دون أن يلقى حرباً .. بل استطاع خلالها أن يعقد معاهدة عدم اعتداء مع قبائل بني ضمرة بن بكر بن كنانة .

٥ ـــ غزوة بُواط ـــ وهو مكان بالقرب من رضوى في ينبع .. وقد تولى الرسول عليه الصلاة والسلام قيادتها بنفسه إلى منطقة بواط على الطريق المؤدي من الشام إلى مكة وذلك في ربيع الأول في الثانية للهجرة ، وكان هدف هذه الدورية هو الإيقاع بقافلة لقريش .. ولكن القافلة هربت قبل ملاقاتها فعاد النبي عليه السلام دون أن يلقى حربا وكان قوام هذه الدورية مائتى راكب ..

٦ ـــ غزوة العُشَيْرةَ ـــ وهي موضع بين مكة والمدينة ناحية ينبع .. وقوام هذه الدورية مائتا مقاتل بقيادة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقد فرت قافلة قريش و لم يحدث قتال .. وإنما عقد النبي عليه الصلاة والسلام أثناء هذه الغزوة معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج ـــ بطن من كنانة العدنانية ـــ وحلفائهم بني ضمره وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة .

٧ ـــ غزوة بدر الأولى ـــ وهي دورية قوتها مائتا مقاتل وقادها الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه أيضاً في جمادى الآخرة من السنة الثانية طارد بها قوات للمشركين أغارت على مراعي المدينة ونهبت بعض المواشي وقد وصل النبي عليه الصلاة والسلام في هذه المطاردة إلى وادي سفوان القريب من بدر ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يدرك القوات المُغِيرَةَ فعاد دون أن يلقى حرباً .

٨ ــ دورية عبدالله بن جحش الأسدي ــ وهي دورية استطلاعية كانت في شهر رجب من السنة الثانية قوامها ثمانية من المهاجرين .. ونزلت بسببها الآية الكريمة :

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قِتالٍ فيه ، قل قِتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل الله وَكُفْرٌ به ، والمسجِدِ الحرام . وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ، والفتنةُ أكبرُ من القتل ولا يزالُونَ يقاتِلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (البقرة : آية ٢١٧) ..

استعراض القوة

لقد تعددت السرايا .. وجاءت في أعقاب بعضها ، فما هي الغاية منها يا ترى ؟ يقول الكاتب الاسلامي محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » ..

« الراجح عندي أن هذه السرايا الأولى انما قُصِدَ بها إلى افهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضْطَرّوهم إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد . تفاهماً يقي الطرفين شرور العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ولأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها إلى الشام .. يُدْعِم هذا الرأي بأقوى سند أن النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج إلى بواط وإلى العشيرة كان عدد الذين صحبوه عدداً غير قليل من الأنصار أهل المدينة . وأهل المدينة إنما بايعوه ليدافعوا عنه لا ليهاجموا معه » .

ويضيف هيكل : « ولعل محمد رمى من وراء هذه السرايا والرحلات المسلحة إلى غرض آخر .. لعله رمى إلى إرهاب اليهود المقيمين في المدينة وعلى مقربة منها فقد رأيت أن هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أول وصول الرسول محمد إلى المدينة في ضمه إليهم بعد أن وادعوه وعاهدوه على

حرية الدعوة للدين وإقامة المسلمين شعائره وفرائضه .. لم يلبثوا حين رأوا أمر محمد يستقر ولواء الاسلام يسمو ويرتفع أن بدأوا يقلبون للنبي ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ ظهر المجن ويعملون للوقيعة به ».

ومن هنا يتبين أن هذه السرايا إنما كان هدفها إفهام قريش بالقوة الاسلامية الجديدة من جهة وردع اليهود من جهة أخرى .

الفتنة أكبر

ونعود مرة ثانية لقصة سرية عبدالله بن جحش الأسدي الذي بعثه رسول الله في رجب من السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين عددهم ثمانية .. ودفع إليه بكتاب وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره فيمضي لما أمره دون أن يَسْتَكْرِهَ من أصحابه أحداً .

وبعد يومين من المسيرة فتح عبدالله بن جحش الكتاب فإذا فيه :

إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة « بين مكة والطائف » فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارها .

ولما أَطْلَعَ ابن جحش أصحابه على محتوى الرسالة وآفقوه على المسيرة دون استكراه .. ومضوا معه .. وفي الطريق ذهب سعد بن أبي وقاص الزهري وعتبة بن غزوان يطلبان بعيراً لهما ضل . فأسرتهما قريش .. وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا نخلة وهناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي وكان يومئذ آخر شهر رجب ـــ كما أسلفنا ـــ وتذكر عبدالله بن جحش ومن معه وكلهم من المهاجرين ما صنعت بهم قريش من أذىً وحَجْرِ أموالٍ فتشاوروا فيما بينهم وقال قائلهم : « والله لئن تركتم القوم هذه المرة ليدخلُنَ الحرم فليمتَنِعُنّ منكم به . ولئن قتلتموهم لتقتلنّهم في الشهر الحرام » .

وبعد أخذ ورد شجع القوم أنفسهم ورمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين لقريش .

وأقبل عبدالله بن جحش ومن معه بالعير والأسيرين على الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد أن حجزوا له من مغنمهم الخمس .. ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام وأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئاً .. فأسقط في يد عبد الله بن جحش وأصحابه وعنفهم اخوانهم من المسلمين لمخالفتهم أمر النبي عليه الصلاة والسلام .. وقد انتهزت قريش واليهود هذه الفرصة لتثير الشغب على المسلمين لقيامهم بالقتل في الشهر الحرام فكان أن أنزل الله على رسوله قوله تعالى :

﴿ يسألونكَ عن الشهرِ الحرامِ قِتالٍ فيه قل قِتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيلِ الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِهِ منه أكبرُ عند الله والفتنة أَكْبَرُ من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾
(البقرة : آية ٢١٧) ..

بهذا الوضوح قال القرآن بأن القتال وإن كان كبيراً في الأشهر الحرم إلا أن الكفر بالله والصد عن سبيله والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر .. والفتنة أشد من القتل .. ولقد سُري ــ كما تقول كتب السيرة ــ عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر وقبض النبي عليه الصلاة والسلام العير والأسيرين فأفتدتهما منه قريش فقال النبي ﷺ ــ لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ــ يعني سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان ــ فإننا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم ــ وقدم سعد وعتبة وفداهما النبي من الأسيرين فأما أحدهما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام بالمدينة وأما الآخر فرجع إلى مكة وظل بها إلى أن مات .

وقد كانت هذه الحادثة مفترق طريق في سياسة المسلمين إزاء قريش التي رأت أن المسلمين سيحاسبونها على كل ماصدر منها بحقهم من قبل .

الخروج لبدر

معركة بدر بنتائجها هي أول معركة بين الاسلام وقوى الشرك الذي اندحر بهزيمة لم يكن يتوقعها ، ولقد أجمعت كتب السيرة على أن النبي ﷺ في خروجه لبدر لم يكن مستهدفاً لقتال وإنما كان يترصد عيراً لقريش جاءت بخبرها الدورية المكونة من طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي والتي بعثها رسول الله لتقصى أخبار عودة قافلة أبي سفيان التي خرج عليه السلام لها في مسيرة العشيرة السالفة الذكر .

فعندما سمع النبي عليه الصلاة والسلام بدخول قافلة قريش إلى أرض الحجاز دعا المسلمين إلى الخروج لاعتراضها دون تحريضهم على القتال فقد جاء في ندائه عليه الصلاة والسلام : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .. ثم أن رسول الله ﷺ لم يُنْكِرْ على أحد من المتخلفين عن الاشتراك في هذه المسيرة لأنه لم يكن متربصاً لقتال .رغم أن الحالة بين مكة والمدينة كانت حالة حرب أعلنتها قريش بغياً وعدواناً على الرسول والذين آمنوا معه .. ثم ان في هذه القافلة أموالاً للمهاجرين استولت عليها قريش بعد هجرة أصحابها .. وقد عين للصلاة بالناس بالمدينة عبدالله بن مكتوم وولى الإمارة لأبي لبابة رفاعة بن عبد المنذر الأوسي الأنصاري .

وكان خروج النبي عليه الصلاة والسلام واصحابه من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة .. وكانت أمام المسلمين في مسيرتهم رايتان سوداوان وعددهم خمسة وثلاثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون

من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج وعدتهم جميعاً سبعون بعيراً جعلوا يتعاقبونها كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يتعاقبون بعيراً وكان حظ محمد عليه الصلاة والسلام في هذا كحظ سائر أصحابه فكان هو وعلي بن أبي طالب ومرثد بن مرتد الغنوي يتعاقبون بعيراً وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يتعاقبون بعيراً .. وقد سار النبي وصحبه حتى كانوا بوادي الظبية فلقوا رجلًا من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً وانطلقوا حتى أتوا وادياً يقال له ذخران فنزلوا فيه وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجت لتمنع عيرها .. وكان أبو سفيان عندما سمع بخروج النبي عليه الصلاة والسلام أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش يستنجد بها فلما وصل هذا إلى أعالي مكة حول رحله وشق رداءه وصاح بأعلى صوته : يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى أن تدركوها .. الغوث .. الغوث .

فكان أن جمعت قريش أمرها وخرجت عن بكرة أبيها في جيش قوامه ألف رجل تقريباً على رأسهم زعماء الجهل والضلال وأصحاب الأموال ورغم أن أبا سفيان قد استطاع باستطلاعاته أن يتجنب طريق المسلمين وَيَنْفُذ بقافلته فإن أبا جهل وهو من أكبر الحاقدين على النبي أعان في قومه : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجُزُر ونطعم الطعام ونُسْقَىَ الخمر وتعزف لنا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا ..

وهكذا كان .. فقد خرجت قريش والكبر رداؤها والطغيان إزارها !!

دفاع .. وامتناع

.. **هكذا** تكابر قريش .. وتريد أن تتحدى وترهب من حولها بعتادها وجمعها وقوتها .. وهو ما يفرض على المسلمين الإذعان لأمر الله بأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم لا بغياً أو اعتداء .. وإنما دفاعاً عن الدين .. وتوفير أسباب الامتناع له ..

الكاتب الاسلامي الكبير عباس محمود العقاد يقول عن ذلك في كتابه « عبقرية محمد » :

« ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوماً بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها ، وما من شيء غير الغرض الأعوج يُذْهِلُ صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البيِّنة ثم يُخَيِّلُ إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولاً غير مطلوب في هذه الدنيا ، وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين .

أي إرهاب وأي سيف ؟..

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف .. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يُعَرِّضُونَ أحداً لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتاً ولا يصيبون أحداً بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذاً بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يُخْرِجُونَ أحداً من داره .

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفاً من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين .. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى

ويبطلوا الإرهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا احداً بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان .

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع » .

الأمر شورى

وتبدل الأمر .. فقد أفلتت القافلة وجاءت قريش بالجيش اللجب لتحارب رسول الله على ملأ .. فما كان من الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو الذي بعثه الله ليهديهم إلى الصراط المستقيم ويعلمهم أمور دينهم وما فيه مصلحة دنياهم .. إلا أن يأخذ بالمنهج الاسلامي الصحيح الذي يقول : « وشاورهم في الأمر » ويقول عن المسلمين : « وأمرهم شورى بينهم » فيستشير المسلمين بما بلغه من أمر قريش فكان أن أدلى أبو بكر وعمر برأييهما ثم قام المقداد بن عمر بن ثعلبة العامري وخطب قائلًا :

« يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا اننا معكما مقاتلون » .

وسكت الناس .. فقال الرسول عليه السلام : أشيروا علي أيها الناس .. وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوا مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على حرب خارج مدينتهم فلما أحس الأنصار أنه يُريدهم . وكان سعد بن معاذ صاحب رايتهم إلتفتَ إلى محمد ــ عليه السلام وقال :

« لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما

تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انّا لَصُبُرٌ في الحرب صُدُق في اللقاء لعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله » .

ولم يكد سعد يتم مقاله حتى أشرق وجه النبي عليه الصلاة والسلام بالمسرة وقال :

سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم .. وأرتحل ركب النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه حتى إذا كانوا على مقربة من بدر وقف النبي ﷺ على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه لئلا يعرف من السائل فعرف منه أن قريشاً قريب منه .

وسارت قافلة المسلمين إلى بدر حتى إذا جاءوا أدنى مكان منها ـــ كما تقول كتب السيرة ـــ نزل محمد عليه السلام وصحبه وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليماً بالمكان فلما رأى حيث نزل النبي عليه السلام قال : « يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ » ..

فقال الرسول عليه السلام . وهو يعطي للمشورة حقها : بل الرأي والحرب والمكيدة فقال الحباب : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزل به ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب ـــ جمع قليب وهو البئر وتغويرها يعني كبسها بالتراب ـــ ثم نبني لك حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون » ..

وهنا يعطي الرسول عليه السلام المشورة مكانتها في الالتزام بها فيقوم وصحبه إلى حيث أشار الحباب معلناً أنه بشر مثلهم وأن الرأي شورى بينهم

وأنه لا يقطع برأي دونهم وأنه في حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم .

وما أن يستقر بهم المقام ويتم لهم بناء الحوض حتى يقف سعد بن معاذ رضي الله عنه مرة ثانية ليقول :

« يا نبي الله نبنى لك عريشاً تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ، يانبي الله ، ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك » .

فأثنى الرسول عليه السلام على سعد ودعا له وبني العريش ليكون كما أشار سعد ..

ويعلق الكاتب الإسلامي محمد حسين هيكل يرحمه الله في كتابه « حياة محمد » على ذلك بقوله :

« هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق وفاء المسلمين وعظيم محبتهم لمحمد وإيمانهم برسالته فهاهم أولاءِ يعلمون أن قريشاً تفوقهم في العدد وأنها ثلاثة أمثالهم ومع ذلك اعتزموا الوقوف في وجهها وقتالها ، وهاهم أولاءِ يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الكسب المادي هو الذي يحفزهم للقتال ومع ذلك قاموا إلى جانب النبي يؤيدونه ويعززونه ، وهاهم أولاءِ تتردد نفوسهم بين الطمع في النصر ، وخوف الهزيمة ومع ذلك فكروا في حماية النبي وتوقيته أن يظفر به عدوه ، ومهدوا له سبيل الاتصال بمن ترك في المدينة ، فأي موقف أدعى للإعجاب من هذا الموقف ، وأي إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان » ..

كما يقول العقاد يرحمه الله :

« وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي عليه السلام في إدارة المعارك الكبيرة ، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه ، ثم وعى من تجربة واحدة ما قلّ أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى .. فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحاً أو ينبه إلى خطأ ، لأعياه التعديل » .

النصر .. أو الجنة

وعند الحوض قَتَلَ أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبدالمطلب الأسود بن عبد الأسد المخزومي عندما أراد الأخير أن يهدم الحوض الذي بناه المسلمون . فلما قُتِلَ الأسود خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وإبنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من أهل المدينة فلما عرفهم قال لهم : ما لنا بكم حاجة إنما نريد قومنا . ونادى منادي الكفر والضلال : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث و لم يُمهل حمزة شيبة ولا أمهل عليٌّ الوليد أن قتلاهما ثم أعانا عبيدة وقد ثبت له عتبة فلما رأت قريش من ذلك ما رأت تزاحف الناس والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من شهر رمضان .

دعاء النبي

وعندما التقى الجمعان رأى النبي عليه الصلاة والسلام كثرة قريش وقلة عدد المسلمين وَضَعْفَ عدتهم بالقياس إلى ما عند المشركين من عدة .. عاد الرسول عليه السلام ومعه أبو بكر إلى العريش واستقبل القبلة متجهاً بكل نفسه إلى ربه عز وجل وجعل يبتهل إلى ربه بهذا الدعاء :

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلها وخيلائها تحاول أن تُكَذِّبَ رسولك ، اللهم أنشدُك عهدَك ووعدَك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » فأخذ أبو بكر كما روى البخاري في صحيحه بيده عليه السلام وقال :

حسبك يارسول الله .. ألححت على ربك » .

قال ابن اسحاق : وخفق النبي ﷺ خفقة في العريش — أي أدركه النعاس — ثم انتبه فقال : أبشر أبابكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع ..

وقد خرج الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك إلى الجميع وهو يقول : والذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ..

ولقد أقبل المسلمون على القتال وكلهم يبتغي الجنة أو النصر فقتلوا أئمة الكفر وعلى رأسهم أبو جهل وأمية بن خلف وجعلت هام قريش — كما تقول كتب السيرة — تطير عن أجسادها والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون مهللين « أحد أحد » والملائكة وقد أمدهم الله بهم يبشرونهم ويزيدونهم إيماناً وثباتاً حتى لكأن الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوي به على عنق عدوه إنما تحرك قوة الله يده والنبي عليه السلام يأخذ الحصباء ويستقبل قريشاً ويقول : شاهت الوجوه ثم ينفحهم بها فأصابت أعينهم ، ما منهم واحد إلا ملأت عينه . وشُغلوا بالتراب في أعينهم . آية من آيات الله عز وجل فَهُزِمَ جمع المشركين . وولوا الأدبار ، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون قتلوا سبعين رجلا وأسروا سبعين ، أما القتلى فألقي منهم أربعة وعشرون رجلا من صناديدهم في قليب من قلبان بدر ، منهم أبو جهل وشيبة بن ربيعة وأخوه عتبة وابنه الوليد بن عتبة وفي صحيح البخاري : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ استقبل الكعبة فدعا على هؤلاء الأربعة قال : فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس ، وكان يوماً

حاراً ، وفيه أيضاً عن أبي طلحة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها ثم مشى وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

وفي رواية أنه قال ﷺ

« يا أهل القليب بئس عشيرة النبي أنتم ، كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس .

فقال له أصحابه : أتكلم قوماً قد ماتوا ؟ فقال عليه السلام : لقد علموا ان ما وعدهم ربهم حق ! قالت عائشة رضي الله عنها : والناس يقولون أنه قال لقد سمعوا ما قلت .

وأما الأسرى فإن النبي ﷺ استشار أصحابه فيهم ، وكان سعد بن معاذ قد ساءه أمرهم وقال : كانت أول وقعة أوقعها الله في المشركين وكان الإِثْخَانُ في الحرب أحب إليّ من استبقاء الرجال . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي ﷺ : أرى أن تُمكننا فنضرب أعناقهم فتُمَكِّنَ علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكنني من فلان يعني قريباً له فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : هم بنو العم والعشيرة وأرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فأخذ

النبي ﷺ الفدية ، فكان أكثرهم يفتدي بالمال من أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم ، ومنهم من افتدى بتعليم صبيان أهل المدينة الكتابة والقراءة . ومنهم من كان فداؤه إطلاق مأسور عند قريش من المسلمين ، ومنهم من قتله النبي ﷺ صبراً لشدة أذيته ، ومنهم من منَّ عليه بدون فداء للمصلحة .

هذه غزوة بدر التي انتصرت فيها فئة قليلة على فئة كثيرة ﴿ **فِئَةٌ تقاتلُ في سبيلِ اللهِ وأُخْرَى كافِرة** ﴾ (آل عمران : آية ١٣) . إنتصرت الفئة القليلة لأنها قائمة بدين الله تقاتل لإعلاء كلمته والدفاع عن دينه فنصرها الله عز وجل فقوموا بدينكم أيها المسلمون لتنتصروا على أعدائكم ﴿ **اصبروا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتقوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران : آية ٢٠٠) .

القوة المعنوية

لقد كان استبشار الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصر . وحث المسلمين على القتال بقوله : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .. أكبر الأثر في نفوس المسلمين الذين تدافعوا للقتال بعزيمة لا اقتدار لأحد على مواجهتها .. ويصور ذلك حسين هيكل باشا في كتابه « حياة محمد » فيقول :

« ويسير عليك أن تقدر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها ، فدافع الوطنية يزيدها ، وهذا الجندي الذي يقف مدافعاً عن وطنه المهدد بالخطر ممتلىء النفس بالعاطفة الوطنية ، تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به ، وبمقدار تخوفه من الخطر الذي يتهدد العدو الوطن به ، ولهذا تغرس الأم في نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حب الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله ، والإيمان بالحق وبالعدل وبالرحمة وبالمعاني الإنسانية

السامية يزيد القوة المعنوية في النفس بما يضاعف القوة المادية فيها ، والذين يذكرون ما قام به الحلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الالمان ، أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ، ويحاربون في المانيا الجندية المسلحة ويمهدون لعهد سلام ونور ، يدركون ماكانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف في أكثر أمم العالم ، وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان محمد يدعو إليه . الا اتصال الانسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون الموجهة له سبيل الخير والنعمة والكمال .. نعم ما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب الوقوف في جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدون عن سبيله ، والذين ينزلون بالإنسان إلى درك الوثنية والاشراك ! إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة ، ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوة بمقدار ما في الإنسانية من قوة فما أكثر ما يزيدها الايمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة !! انه ليجعلها قديرة أن تسير الجبال ، وتحرك العوالم ، وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منهما في هذا الأمر إيماناً ، وهذا السلطان المعنوي يزيد في قوتها أضعافاً مضاعفة ، فإذا لم يصل هذا السلطان المعنوي إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة ، لم تبلغ القوة المادية كل ما تطمح إلى بلوغه ، وان هي زادت بفعل هذا الإيمان الذي ازداد قوة بتحريض محمد أصحابه فعوضهم بذلك عن قلة عددهم وعدتهم ، وفي حال النبي وأصحابه هذه نزلت الآيتان :

﴿ يا أيها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتالِ إن يَكُنْ منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتينِ وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهونَ ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضَعْفاً فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتينِ وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفينِ بإذنِ اللهِ ، والله مع الصَّابِرِين ﴾ (الأنفال : آية ٦٥ ، ٦٦) .

وجاء نصر الله .. والفتح

يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم بسورة القصص :

﴿ **إنَّ الَّذي فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ** ﴾ (آية ٨٥) .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية كما تقول كتب التفسير والأحاديث .. وكما نقل كاتبوا السيرة :

.. أن النبي ﷺ رضي بمفارقة مكة المكرمة ، وهي أحب بلاد الله تعالى إليه ، في سبيل نشر الإسلام وإقامة دعائم الدولة الإسلامية ، بعد أن استحال عليه ذلك بسبب تعنُّت قريش وعنادها وجحودها وإصرارها على وثنيتها وكفرها . وقد نظر رسول الله ﷺ حين خروجه مع صاحبه الصديق مهاجرين ، نظر إلى مكة وإلى بيتها العتيق وقال : « **والله إنك لأحب أرض الله إلي .. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت** » .

وبعد فترة من السير اشتاقت نفسه إلى مكة فذكر مولده ومولد أبيه وأمه فيها ، فنزل جبريل عليه السلام وسأله : « أشتقت إلى بلدك ومولدك ؟ » فقال عليه أزكى الصلاة والسلام : « نعم » فنزلت الآية : ﴿ **إنَّ الَّذي فرَضَ عليكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ** ﴾ (القصص : آية ٨٥) . والأمر الذي يتوجَّب علينا أن نركّز عليه هنا : هو قول جبريل عليه السلام « أشتقت إلى بلدك ومولدك ؟ » .

.. وإيذاناً أو تبشيراً بفتح مكة كان نزول هذه الآيات الشريفة لسورة : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ (النصر : آية ١ ــ ٣) .

فتح مكة

وكما كانت غزوة بدر التي أعز الله بها الاسلام ودحر الشرك وقواه .. فقد هيأ سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم فتح مكة المكرمة وتخليصها من أدران الشرك إذ جاء في كتب السيرة .. وفي أقصر الروايات التي تتحدث عن هذا الفتح العظيم الذي أخبر الله عنه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا** ﴾ (النصر : آية ١ — ٢) .

جاء في كتب السيرة ما نصه :

« لما تم الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش في الحديبية في السنة السادسة كان مَنْ أَحَبَّ أن يدخل في عهد النبي ﷺ فعل . ومن أحب أن يدخل في عهد قريش فعل . فدخلت خزاعة في عهد النبي ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش وكان بين القبيلتين دماء في الجاهلية فانتهزت بنو بكر هذه الهدنة فأغارت على خزاعة وهم آمنون ، وأعانت قريش حلفاءها بني بكر بالرجال والسلاح سراً على خزاعة حلفاء النبي ﷺ ، فقدم جماعة منهم إلى النبي ﷺ فأخبروه بما صنعت بنو بكر واعانة قريش لها فقال النبي ﷺ : لأمنعكم مما أمنع نفسي منه . أما قريش فسقط في أيديهم ورأوا أنهم بفعلهم هذا نقضوا عهدهم فأرسلوا زعيمهم أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ في ذلك ، فلم يَرُدّ عليه . ثم كلم أبا بكر وعمر ليشفعا له إلى رسول الله ﷺ ، فلم يفلح . ثم كلم علي بن أبي طالب فلم يفلح أيضاً فقال له : ما ترى يا أبا الحسن قال : ما أرى شيئاً يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس . قال : أترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال : لا والله ولكن ما أجد لك غيره ففعل أبو سفيان ، ثم رجع إلى مكة فقالت له قريش : ما وراءك ؟ قال : أتيت محمداً فكلمته فوالله مارد علي شيئاً ، ثم أتيت ابن أبي قحافة وابن الخطاب فلم أجد خيراً . ثم أتيت علياً فأشار عليَّ

بشيء صنعته أجرت بين الناس . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويحك ، مازاد الرجل (يعنون علياً) أن لعب بك .

وتبعاً لذلك فقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالتجهيز للقتال ، وأخبرهم بما يريد واستنفر من حوله من القبائل وقال : اللهم خذ الأخبار والعيون عن قريش حتى نبغتها في بلادها . ثم خرج من المدينة بنحو عشرة آلاف مقاتل ، وولى على المدينة عبدالله بن أم مكتوم ولما كان في أثناء الطريق لقيه في الجحفة عمه العباس بأهله وعياله مهاجراً مسلماً ولما بلغ ﷺ مكاناً يسمى مَرَّ الظهران قريباً من مكة أمر الجيش فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أبو سفيان يسلم

وتقول كتب السيرة أنه بعد أن استراح الناس خرج العباس رضي الله عنه على بغلة رسول الله ﷺ يلتمس أحداً لعله يذهب إلى مكة فيأتيه بأهلها فيؤمنوا أو يستأمنوا قبل أن تُدخل عنوة وتُراق فيها الدماء .

فبينما هو يسير في ظلام الليل إذ سمع شخصين يتحادثان وأحدهما يقول للآخر : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً » فيجيبه الآخر : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب فيرد عليه الأول أن خزاعة أذل من ذلك وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعساكرها .

فيعرف العباس الشخصين من صوتهما وهما أبو سفيان ابن حرب ، وبديل بن ورقاء فينادي العباس : « يا أبا حنظلة » وهو لقب أبي سفيان — فيعرف أبو سفيان صوت العباس فيقول : أبو الفضل ، فيقول : نعم . فيقول مالك فداك أبي وأمي ؟؟

فيقول العباس : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس . وَاصَبَاحَ قريش .

قال أبو سفيان : فما الحيلة .

قال العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب معي في عجُزِ البغلة حتى آتى رسول الله ﷺ فأستأمنه لك .

قال العباس : فركب خلفي ورجع صاحبه فجئت به . وكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟؟!! فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . وعندما مررت بنار عمر قام إليَّ وقال : من هذا ؟؟! فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : « أبو سفيان عدو الله !! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عَقْدٍ ولا عهد » .

ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ . وركَّضت البغلة فسبقته فنزلت عن البغلة ودخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال :

« يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد . فدعني أضرب عنقه » .

قلت : « يارسول الله إني قد أجرته » . ثم جلست إلى رسول الله ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلًا يا عمر ، فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف .

فقال عمر رضي الله عنه : مهلًا يا عباس فلإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله ﷺ للعباس : « اذهب به يا عباس إلى رَحْلِك فإذا أصبحت فأتني به » .

وفي الصباح جاء به إلى رسول الله ﷺ فأسلم ليرسل بأمر رسول الله ﷺ من ينادى في أهل مكة قائلًا : من دخل المسجد فهو آمن ومن لزم داره فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

وكلمة عمر للعباس : « فلإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم » ، تجعل من عمر رجلًا عظيماً . فالخطاب والده ومع ذلك يجعل إسلام العباس أحبَّ إليه من والده لمعرفته أن رسول الله ﷺ يحب إسلام العباس .

وفي ذلك تطبيق عملي لمحبة رسول الله ﷺ عندما قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

دخول مكة

.. تهيأ المسلمون لدخول مكة البيت الحرام فأمر الرسول ﷺ عمه العباس أن يوقف أبا سفيان بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل حتى يمر به المسلمون فمرت به القبائل على رايتها ما تمر به قبيلة إلا سأل عنها العباس فيخبره فيقول : مالي ولها حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها فقال : من هذه ؟ قال العباس : هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية فلما حاذاه سعد قال : أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب وأجلها فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه ورايته مع الزبير ابن العوام فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان أخبره بما قال سعد فقال النبي ﷺ كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن تؤخذ الراية من سعد وتدفع إلى ابنه قيس ورأى أنها لم تخرج عن سعد خروجاً كاملاً إذ صارت إلى ابنه ، ثم مضى ﷺ وأمر أن تركز رايته بالحجون ثم دخل مكة فاتحاً مؤزراً منصوراً قد طأطأ رأسه تواضعاً لله عزوجل حتى أن جبهته تكاد تمس رحله وهو يقرأ . ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ (الفتح : آية ١) . وَيُرَجِّعُهَا وهي التي جاء فيها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذ يبايعونَكَ تحتَ الشجرةِ فعلم ما في قلوبهم فأَنْزَلَ السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ (الفتح : آية ١٨) . ومنها قوله تعالى : ﴿ **لقد صَدَقَ اللهُ**

رسولَهُ الرُّؤْيَا بالحق لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمنينَ محلِّقين رؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تخافونَ فعلمَ ما لم تعلموا فجعلَ من دونِ ذلك فتحاً قريباً ﴾ (الفتح : آية ٢٧) .

وعلى مشارف مكة بعث ﷺ على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد وعلى الأخرى الزبير بن العوام وقال : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن ، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد الحرام فطاف به على راحلته وكان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم . فجعل ﷺ يطعنها بقوس معه ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » والأصنام تتساقط على وجوهها ، ثم دخل ﷺ الكعبة فإذا فيها صور فأمر بها فمحيت ثم صلى فيها فلما فرغ دار فيها وكبر في نواحيها ووحد الله عز وجل ثم وقف على باب الكعبة وقريش تحته ينتظرون ما يفعل .

وهنا أخذ الرسول ﷺ بعضادتي الباب وقال : لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش أن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾** (الحجرات : آية ١٣) يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته **﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾** (يوسف : آية ٩٢) . **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » ولما كان اليوم الثاني من الفتح قام النبي ﷺ خطيباً في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ان الله حرم مكة ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يَعْضِد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا : ان الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وانما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب » .

وكانت الساعة التي أُحلت فيها لرسول الله ﷺ من طلوع الشمس إلى صلاة العصر يوم الفتح ثم أقام ﷺ تسعة عشر يوماً بمكة يقصر الصلاة لأنه لم ينو قطع السفر . أقام كذلك لتوطيد التوحيد ودعائم الإسلام وتثبيت الإيمان ومبايعة الناس ، وفي الصحيح . عن مجاشع قال أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح ليبايعه على الهجرة فقال ﷺ ذهب أهل الهجرة بما فيها ولكن أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد » .

وهكذا كان النصر الذي هيأه الله للمسلمين بإيمانهم الصادق وعزيمتهم المخلصة .. لتنتهي دولة الشرك والطغيان وينتصر المسلمون الذين أخلصوا لدينهم ووفوا البيع . فإن الله القوي العزيز قد وعد عباده بالنصر إن صدقوا العهد واتبعوا ما جاء به النبي ﷺ .

وفجر الإسلام بما شهده من مواقف حاسمة وساعات مضيئة إنما كان لصدق المؤمنين وحسن اتباعهم .. ونحن إذ نُذَكِّرُ اليوم ببعض المواقف فإنما نأمل الاقتداء والتأسي بما فعله الرسول ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم . وما تحقق لهم من نصر بإذن الله وصدق إيمانهم .. فاللهم وفق عبادك لما تحب حتى يستحقوا ما وعدت ولينصرن الله من ينصره .

حجة الوداع .. وخطبة البلاغ

في أي مكان بالعالم .. في الأرض أو في الجو .. أو بالبحر .. أو حتى فوق هامات السحاب .. بإمكان المسلم . أن يؤدي الصلاة .. ويخرج الزكاة .. ويصوم رمضان . وينفق مما آتاه الله .. ويعمل من الإحسان ماشاء .. ويذكر الله بما شاء أو بما يلهمه الله به من كريم الذكر وطيب الثناء ..!

في كل مكان .. يمكن للمسلم أن يؤدي فروض الصلاة .. وما يتبعها من سنن وما يستطيعه من نوافل .. دونما حاجة لموضع مخصوص .. أو مكان محدود .. فالمهم هو الطهارة .. وحلول الوقت .. فالحق سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمْتُمْ إلى الصلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إلى المرافِقِ وامسحوا برؤوسِكم وأرجلَكم إلى الكعبينِ وإن كنتم جُنُباً فاطَّهَّرُوا وإن كنتم مَرْضَى أوعلى سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائِطِ أو لامستم النساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكم وَأَيْدِيكُمْ منه .. ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكن يريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تشكرون** ﴾ (المائدة : آية ٦) .

كما يقول سبحانه وتعالى في سورة النساء : ﴿ **فإذا اطْمَأْنَنْتُمْ فأقيموا الصلاةَ .. إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا** ﴾ (آية ١٠٣) والزكاة أيضا بإمكان المسلم أن يخرجها على مستحقيها حيث يكون فيدخل بذلك في رحمة الله التي قال عنها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ **ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ فسأكتبها للذين يتقونَ ويؤتونَ الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ (الأعراف : آية ١٥٦) .

وما ينطبق على الصلاة والزكاة ينطبق أيضاً على الصيام الذي فرضه الله على المسلمين بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ (البقرة : آية ١٨٣) .. وقوله عز من قائل : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾(البقرة : آية ١٨٥) .

كذا نجد أن بامكان المسلم .. أن يؤدي هذه الفرائض .. وما شاء من النوافل وفعل الخيرات .. في أي بقعة بالعالم .. وبأي مكان في الوجود .

الحج هنا

الحج هنا حقيقة ولا منازعة في ذلك على الإطلاق إذ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين .. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾ (آل عمران : آية ٩٦ ، ٩٧) ..

والحج فريضة .. محدودة الزمان .. محددة المكان لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **وَأَذِّنْ في الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجَالاً وعلى كل ضَامِرٍ يأتينَ من كل فَجٍّ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسْمَ اللهِ في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعامِ فكلوا منها وأطعموا البائِسَ الفقير . ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نذورَهم ولْيَطَّوفوا بالبيتِ العتيق . ذلك ومن يُعَظِّمْ حرماتِ الله فهو خيرٌ له** ﴾ (الحج : آية ٢٧ ــ ٣٠) .

وفي سورة البقرة آيات بينات عن الحج ومناسكه تتوسطها آية موضحة لما يجب أن يكون عليه سلوك الحاج خلال تأديته الفريضة ، إذ يقول رب العزة والجلال :

﴿ الحجُّ أشْهُرٌ معلوماتٌ فمن فَرَضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رفَثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله وتزودوا فإن خيرَ الزادِ التقوى ﴾ (البقرة : آية ١٩٧) .

الحج هنا .. لأن البيت الحرام هنا .. ولا بيت سوى الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا .

والحج هنا .. لأن المشعر الحرام هنا .. وهو الذي قال فيه الحق .. **﴿ فاذكروا اللهَ عند المشعرِ الحرامِ واذكروه كما هداكم ﴾** (البقرة : آية ١٩٨) .

والحج هنا .. حيث عرفات التي يقف بها الناس يوم الحج الأكبر .. والرسول ﷺ يقول : (الحج عرفة) .

والحج هنا .. لأن الحطيم هنا .. والمقام هنا .. والحجر الأسعد هنا .. ومنى .. ومزدلفة .. والصفا .. والمروة .. والجمرات الثلاث هنا .

وبهذا فإن فريضة الحج .. لا تكون إلا هنا .. ولا تتم إلا بأدائها في موعدها المحدد .. وأماكنها المحدودة في المشاعر المعظمة .. وعلى الذين يستطيعونه أن يؤدوا مناسكه وفق ما أمر الله به :

ـــ تعظيم للبيت الحرام .
ـــ وقوف بالمشعر الحرام من بعد الوقوف بعرفة .
ـــ وطواف بالبيت الحرام .
ـــ وسعي بين الصفا والمروة .
ـــ ورمي للجمرات .
ـــ وأضاحي في سبيل الله .

وكل ذلك في وقار وسكينة .. حيث لارفث ولا فسوق ولا جدال في الحج .

تعظيم مكة

والبيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا .. وإليه حَجّ الناس لمن استطاع إليه سبيلا .. هو في مكة البلد الحرام .

ولمكة المكرمة حرمة اختصها الله بها من دون سائر البقاع في العالم .. ويحدثنا عن ذلك فضيلة الشيخ عبدالله عبد الغني خياط إمام وخطيب المسجد الحرام .. كما جاء في كتابه « الفضائل الثلاث » فيقول عن « فضل مكة وشرفها » :

« ان كل مايكتبه الكاتبون ويسطره الباحثون عن فضل مكة وشرفها ماهو إلا غيض من فيض فليس شرف مكة وما ورد فيه من نصوص بالذي يمكن أن يُستوعب أو يأتي عليه الكاتب في سطوره ، وحسبنا الإلماع دون الإشباع ، والإشارة دون الإفاضة ، وحسب مكة شرفاً وفضلًا ورفعة أن سماها الله سبحانه « أم القرى » كما قال تعالى مخاطباً من لا ينطق عن الهوى عبده ورسوله المصطفى محمد بن عبدالله ﷺ : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذرَ أُمَّ القرى ومن حولها** ﴾ (الشورى : آية ٧) . والأم في كل شيء : أصله .. فأم القرى أصل لجميع البلاد وكل البلاد تبع لها مهما كان لها من الأمجاد ــ فارتفعت به إلى الذروة ــ فإن فضل مكة وشرفها يربو على ذلك ، وقد استجاب الله فيها دعوة خليله إبراهيم رافع قواعد البيت العتيق حيث قال : ﴿ **وإذ قال إبراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بلداً آمناً وارزقْ أهله من الثمراتِ من آمن منهم باللهِ واليومِ الآخر** ﴾ (البقرة : آية ١٢٦) .

وقال في آية أخرى : ﴿ **وإذ قال إبراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا البلد آمنا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أن نعبدَ الأصنام** ﴾ (إبراهيم : آية ٣٥) . إلى أن قال : ﴿ **ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتكَ المحرَّمِ ربنا**

ليقيموا الصلاةَ فَاجْعَلْ أفئدةً من الناسِ تهوي إليهم وارزقهم من الثمراتِ لعلّهم يشكرون ﴾ (إبراهيم : آية ٣٧) . وقال تعالى ممتناً على قريش بما أضفاه عليهم من الأمن في رحاب مكة : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطّفُ الناسُ من حَوْلِهِمْ** ﴾ (العنكبوت : آية ٦٧) . وقال تعالى وهو يقسم بالبلد الأمين مكة مشعراً بفضله وشرفه : ﴿ **والتينِ والزيتونِ وطورِ سِينِينَ وهذا البلدِ الأمين** ﴾ (التين : آية ١ ــ ٣) . وقال تعالى في معرض تعداد نعمه على قريش سكان الحرم وامتنانه عليهم بالأمن من أخطرِ أعداء الانسانية .. الجوع والخوف .. ﴿ **لإيلافِ قريشٍ إيلافهم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ فليعبدوا رَبَّ هذا البيتِ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ** ﴾ (قريش : آية ١ ــ ٤) . انه بلد الجبار ، وحسبك بذلك ، لقد أمن فيه الطير ، والنبت الضعيف ، والحيوان الأعجم ، كما جاء في الحديث عن الصادق المصدوق ﷺ انه قال يوم فتح مكة موجها الأنظار إلى حرمتها وفضلها وشرفها : « ان الله حرم مكة ولم يحرمها الناس ، ولا يحل لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد بها شجراً ، فإن ترخص أحد فقال : أحلت لرسول الله ﷺ ــ أي آحل القتال فيها لرسول الله ﷺ ــ فقولوا له : ان الله أحلها لرسوله ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما باختلاف في اللفظ وفي رواية : « فهو حرام بحرمة الله عزوجل إلى أن تقوم الساعة ، لا يعضد شوكه ، ولا يختلي خلاه ، ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف . أي لا يباح لأحد أن يأخذ ما يعثر عليه فيه من اللقطة إلا لغرض التعريف بها والبحث عن صاحبها ، وما ذاك إلا لاستشعار النفوس لحرمة البلد الحرام والاشارة إلى أنه البلد الأوحد الذي اختصه الله سبحانه بمزايا وفضائل تجعل له في قرارة كل مسلم حرمة العظيم ورفعة البلد الكريم .

وقد صح عنه ﷺ من حديث عبدالله بن عدي في فضلها وشرفها وتولعه بها أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على الحزورة من مكة وهو

يقول : « **والله انك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت** » . أخرجه النسائي والترمذي وقال : (حديث صحيح) ، فأي فضل بعد هذا لأي بقعة من الأرض يبلغ فضل مكة ؟!» .

جمع الأركان

والحج بنسكه .. فيه جمع لأركان الاسلام الخمسة التي فرضها الله على عباده كما يوضح ذلك الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور عطار في كتابه « أحكام الحج والعمرة » فيقول في فصل مستقل بعنوان « الحج يجمع كل أركان الاسلام » ..

« يقصد الإسلام من أركانه الخمسة التي بني عليها وحدة المعتقد ، ووحدة الإنسانية في الأخوة والمحبة والشعور والتعامل والوحدة في الحق والواجب » .

فشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أول مظهر وأعم وأشمل للوحدة التي تنتظم الناس ، وتحررهم من العبودية لغير الله . وتجعلهم تابعين لإمام واحد .

والصلاة مظهر من مظاهر الوحدة ، لأن كل من يدين بالشهادة يدين بهذه العبادة وهي الصلاة ، وهي أعم من الأركان الثلاثة ، الصوم والزكاة والحج ، فهي لا تسقط عن مسلم إلا عن المرأة في ظرف خاص بالحيض أو النفاس .

والصوم فريضة يتفق المسلمون في أدائها في شهر معلوم لا يجوز في شهر غيره إلا على آحاد تخلفوا عن الإجماع لعذر من أعذار الشريعة ، فالصوم على هذا مظهر من مظاهر الوحدة .

أما الزكاة ففيها مظهر الوحدة أيضاً فهي تجمع الاغنياء والفقراء على التحاب والتعاطف والخير ، وهذا الجمع وحدة .

والحج أدل على الوحدة من الأركان الأخرى ما عدا الشهادة ، لأنه لا يتم إلا بوجود الحجاج في مكان واحد في يوم واحد بنية واحدة ومظهر واحد ، أما الصوم أو الصلاة أو الزكاة فتؤدى في أي مكان كان صاحبها ، وليس بفرض ولا سنة وليس بمستطاع أن يجتمع المصلون جميعاً في مكان واحد بل يصلي كل جماعة أو فرد في مكان .

وركن الحج يجمع كل الأركان الأخرى : الشهادة والصلاة والصوم والزكاة ، ويشترك الحجاج في كل هذه الأركان عندما يقومون بركن الحج .

فالشهادة قوام الحج كله ، ويرددها الحاج منذ إحرامه بنية الحج حتى ينتهي من أداء مناسكه .

والصلاة غير المفروضة ــ وهي صلوات التطوع ــ يقيمها الحاج ، وأولها ركعتا سنة الاحرام بالحج ، وصلاة عيد الأضحى بالمسجد الحرام ، وركعتا طواف القدوم وتحية المسجد وركعتا طواف الإفاضة ، ولولا الحج لما صلى هذه الصلوات .

وأما الصوم فالحاج يصوم تطوعاً في أيام الحج ، ويصوم من تمتع بالعمرة إلى الحج ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فمن تمتع بالعمرةِ إلى الحجِّ فما استيسرَ من الْهَدْيِ فمن لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحج وسبعةٍ إذا رجعتم** ﴾ (البقرة : آية ١٩٦) .

والصوم إمساك عن الطعام والشراب من قبل طلوع الشمس إلى الغروب ، وإمساك عن الشهوات ، وتنزه عن الآثام .

والزكاة : حصة من المال ونحوه فرض شرع الله بذلها للفقراء ومن ذكرهم الله من أشباههم . ومفروض من ملك نصاب الزكاة أن يعطي مستحقيها قدراً من المال بطريق التمليك .

وحجاج بيت الله الحرام يتصدقون ، وكثير منهم لا زكاة عليهم ، ومع هذا يعطون الفقراء .

والحج كله بذل وسخاء في أريحية ، وما بخل حاج قط بصدقة أو عطاء وهو ببلد الله الحرام أو بعرفة ومزدلفة ومنى وبالمدينة المنورة .

فالحج يحوي كل أركان الإسلام ، ولهذا كانت نفقته مباركة حتى ليصل ثواب الدرهم إلى سبعمئة ضعف كما جاء في الحديث الشريف .

الحج في الإسلام

كانت حجة الوداع .. أو حجة البلاغ .. هي الحجة الأولى والأخيرة لرسول الله ﷺ على ما أمر الله به من القواعد الابراهيمية . فقد حج الرسول من قبل وهو يدعو الناس إلى الاسلام على ما كان عليه الوضع بين المشركين ولكنه لم يذكر إلا الله رب كل شيء .. وخالق كل شيء .. وحج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمسلمين نيابة عن الرسول ﷺ .. قبل حجة الوداع .. ولكن النسيء الذي يقدم الشهور ويؤخرها جعل ذلك الحج في شهر ذي القعدة وقد ألحق الرسول ﷺ بأبي بكر رضي الله عنه الإمام علياً كرم الله وجهه ليقرأ على المشركين في الحج سورة براءة وقد أنزلت عليه .. فأذن علي في الحج بسورة براءة ونادى يوم الأضحى ألا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان .. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد .. فأجله إلى مدته . ولهذا كانت حجة الوداع للرسول ﷺ وفق القاعدة الابراهيمية .. هي أول حجة وآخر حجة عليها الاعتماد .. وفيها العماد فيما يجب أن يكون عليه الحج .

ففي السنة العاشرة للهجرة ، حج رسول الله ﷺ بالناس ، وقد تم منع المشركين ، فَعَلَّمَ المسلمين مناسك حجهم ، بأقواله وأفعاله وأوامره كما هو شأنه ﷺ في سائر أيام حياته .. فكان يقول لهم مراراً : « **خذوا عنى**

مناسككم » فكانت حجته تلك عبارة عن تعليم وتوجيه وإرشاد وتشريع ، وقيادة . ولقد صارت قيادة الحجيج بعد رسول الله ﷺ سنة سار عليها خلفاؤه الراشدون ، وملوك وأمراء وولاة أمور المسلمين ، يتولاه أكثرهم بنفسه لما في ذلك من اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وخدمة للمسلمين .

وقد بلغ عدد السنوات التي لم يحج فيها بالناس أحد ، سواء بسبب الفتن والحروب ، أو لعدم ذكرها في كتب التاريخ (٢١٣) سنة ، أمّا السنوات التي لم يحج فيها أمير بعينه ، وإنما كان يحج بكل قطر أمير على حجاج بلده ، فقد بلغت (٢٠١) سنة ، وبذلك يكون مجموع تلك السنوات (٤١٤) سنة ، وكان الحج أيامها مضنياً وشاقاً .

وفي العهد السعودي كان الملك عبد العزيز رحمه الله يتولى قيادة الحجيج شخصياً وقد سار على سيرته أبناؤه .. وحتى عهدنا الحاضر ..

حجة الوداع

حجة الوداع للرسول ﷺ .. أو حجة البلاغ كما يسميها بعض العلماء لما جاء فيها من تعليمات اكتمل بها الاسلام حيث يقول رب العزة والجلال بنهاية الحج : ﴿ **اليومَ أكملتُ لكم دِينَكُمْ وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دينا** ﴾ (المائدة : آية ٣) .. هي الحجة التي يقتدي بها المسلمون منذ أن فرض الله الحج .. وحتى اليوم .. وإلى أن تقوم الساعة .

ولكي نرى القاعدة على حقيقتها وكما صنعها الرسول ﷺ .. ليهتدي بها المسلمون في حياته وعلى امتداد التاريخ من بعده عليه الصلاة والسلام .. وقد أوشك ﷺ .. على الرحيل كما أنبأت سورة إذا جاء نصر الله والفتح .. فإن علينا أن ننظر إليها ونتدبر ما فيها .. من خلال الحديث الصحيح الذي رواه الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري حيث

ضمنه مسيرة الرسول ﷺ من المدينة وحتى تمام الحج وفي ذلك ما يكفي للاعتماد عليه والاستشهاد به . يقول جابر رضي الله عنه :

« ان رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

« فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت أسماء بنت عميس محمد ابن أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي .

« وصلى رسول الله ﷺ بالمسجد ، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به ، فأهلَّ بالتوحيد : لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وأهلَّ الناس بهذا الذي يهلون به ، فلم يرد رسول الله ﷺ شيئاً منه ، ولزم رسول الله تلبيته » .

قال جابر رضي الله عنه : « لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن ، فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ : ﴿ **واتخذوا من مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى** ﴾ (البقرة : آية ١٢٥) . وجعل المقام بينه وبين البيت ، فكان أبي يقول ــ ولا أعلم ذكره إلا عن النبي ﷺ ــ كان يقرأ في الركعتين : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أحد** ﴾ وَ ﴿ **قُلْ يَا أَيُّها الكافِرون** ﴾ ثم رجع إلى الركن

فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ **إن الصفا والمروةَ من شعائرِ الله** ﴾ (البقرة : آية ١٥٨) . أبدأ بما بدأ الله به .

« فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره وقال : لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إلـٰه إلا الله وحده ، أنجز وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

« ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ، فنزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدنا مشى ، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

« حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : « لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهَدْيَ ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ فليحل ، وليجعلها عمرة .

« فقال سراقة بن مالك بن جعشم : يا رسول الله ، ألعامنا هذا ؟ أو للأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال : « دخلت العمرة في الحج مرتين ، لا بل لأبد الأبد » .

وقدم علي كرم الله وجهه من اليمن ببدن النبي ﷺ ، فوجد فاطمة رضي الله تعالى عنها ممن حل ، ولبست ثياباً صبيغاً ، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : ان أبي أمرني بهذا .

قال : فكان علي يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذي صنعت مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكَّرتْ عنه ، فأخبرته أنني أنكرت ذلك عليها ، فقال : « صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ قال : اللهم اني أهل بما أهل به رسولك » . قال : « فإن معي الهَدْيَ فلا تحل » .

« قال : « فكان جماعة الهَدْيِ الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مئة » .

قال : « فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هَدْيٌ ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج . « وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأمر بقبة تُضْرَبُ له بنمرة » .

« فسار رسول الله ﷺ ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضُرِبَتْ له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي فخطب الناس » .

خطبة البلاغ

.. في يوم عرفة .. والمسلمون وقوفٌ بين يدي الله سبحانه وتعالى بلباس الإحرام متوحدين مظهراً كما هم موحِّدون الله بقلوبهم . وألسنتهم ومشاعرهم . خطب الرسول ﷺ المسلمين .. بأبلغ ما قيل .. وأصدق حديث .. لأشمل المعاني والتوجيهات .. وبأبسط الكلام وأدقه إيجازاً .. وهو ما يدعونا اليوم لمطالبة خطباء هذا الموقف . أن يقتدوا بما فعله الرسول ﷺ فلا يطيلون حتى يضيق الناس بالزحام ويتضايقوا بالحر اللآهب . خاصة وأن حجاج اليوم أغلبهم من الذين لا يفقهون اللغة العربية ولا يدرون شيئاً مما يقول الإمام . وإنما جاؤوا إلى المسجد تتبعاً لخطى الرسول وتبركاً بالصلاة حيث صلى النبي ﷺ .. ويكفيهم من الإمام موعظة موجزة .. أو توجيهاً بما في آيات الله التي يحفظونها أو يعرفونها من خلال تلاوتهم للمصحف الشريف ..

خطب الرسول ﷺ فقال كما تقول رواية جابر رضي الله عنه :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وأن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعاً في بني سعد ، فقتلته هذيل ،

وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله .

واتقوا الله في النساء ، فإنكم اتخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن الا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ « قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال باصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : « اللهم أشهد ، اللهم أشهد « ثلاث مرات » .

« ثم أذن ، ثم أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً .

« ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة .

« فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص » .

« وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : « يا أيها الناس ، السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة .

« ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن العباس ، وكان رجلا حسن الشعر ، أبيض ، وسيماً .

« فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر اليهن ، فوضع رسول الله يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف ، رمى من بطن الوادي .

« ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بيده ثم أعطى علياً فنحر ما غبر ، وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها .

« ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال : انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . فناولوه دلواً ، فشرب منه » .

هذه حجة الرسول ﷺ .. وعليها الاعتماد في التأسي والمتابعة .

يفنى الزمان .. وفيه مالم يوصف !

.. يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بختام سورة التوبة :

﴿ لقد جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّمْ حرِيصٌ عليكُم بالمُؤمنِين رءوف رحيم . فإنَ تولَّوا فقُل حَسْبيَ الله لَا إلَهَ إلا هوَ عليهِ تَوَكَّلتُ . وهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيم ﴾ (التوبة : آية ١٢٨) .

وقد صح في الحديث عن أنس رضي الله عنه أنه قال : قرأ رسول الله ﷺ : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . بفتح الفاء .. وقال : « أنا أنْفَسُكُمْ نسباً وصهراً وحسباً . ليس في آبائي من لدن آدم سفاح »

.. كما يقول عنه الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإنكَ لعلىٰ خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ (القلم : آية ٤) . ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ (الأنبياء : آية ١٠٧) . ﴿ ولسوف يعطيكَ ربكَ فترضى ﴾ (الضحى : آية ٥) . وكفاه عزة وجلالاً وتكريماً أن الله وملائكته يصلون عليه .. وأن الجميع مأمور بالصلاة عليه . لقوله تعالى : ﴿ إن اللهَ وملائكتَه يُصَلُّونَ على النبيِّ يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما ﴾ (الأحزاب : آية ٥٦) . فاللهم صَلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

ولقد أكرم الله نبيه ﷺ بكثير من الفضائل .. أو بالأصح بالفضائل كلها في الدنيا والآخرة . فها هو ﷺ يصف نفسه وهو قائم على المنبر كما روى الترمذي برجال الصحيح :

« أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فِرقةً ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » .

وجاء في صحيح « مسلم » عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثتُ من خير قرونِ بني آدم قرناً فقرناً ، حتى كنتُ من القرن الذي كنتُ منه » .

وروى الأمام أحمد في مسنده عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لَمُنْجَدلٌ في طينته » .

.. وتبعاً لأمر الله سبحانه وتعالى الذي يقول : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ (الضحى : آية ١١) . فقد تحدث رسول الله ﷺ عن نفسه .. ورسالته كما سبق وعن مكانته بما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين بقوله ﷺ :

« أعطيتُ خمساً لم يُعطَهُنَ أحد من الأنبياء قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثتُ إلى الناس عامة » .

« بعثتُ بجوامع الكلم ، ونصرتُ بالرعب وبينا أنا نائم أوتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فَوُضعتْ بين يديَّ » .

« إن الله فضلني على الأنبياء ـــ أو قال أمتى على الأمم ـــ وأحلَّ لنا الغنائم » .

« ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أعطي من الآيات ما مِثْلُهُ أمَنَ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وفي الآخرة

.. وكما خص الله بكرمه وعميم فضله . نبي هذه الأمة عليه الصلاة والسلام في الحياة الدنيا بمميزات وأفضال ليست لغيره ولا حتى من الأنبياء .. ولا يوفيها متكلم بفم .. فقد أكرمه الله بالمقام المحمود يوم القيامة تعظيماً له ﷺ ورحمة بالمؤمنين . إذ روى الشيخان رحمهما الله في صحيحيهما ما نصه :

قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون مم ذاك ؟ .. يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه ؟ إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : أبوكم آدم فيأتونه فيقولون :

يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ .. فيقول : ان ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيته .. نفسي .. نفسي .. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح .. فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول :

ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي .. نفسي نفسي .. اذهبوا إلى غيري .. اذهبوا إلى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون :

يا ابراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله

مثله ولن يغضب بعده مثله نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله واني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسي .. نفسي اذهبوا إلى غيري .. اذهبوا إلى عيسى ..

فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلّمتَ الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله .. نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتوني فيقولون :

يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟

.. فانطلق حتى استأذن على ربي فإذا رأيت ربي وقعت ساجد فيدعني ما شاء الله ثم يُقال ارفع رأسك وسل تُعطه وقل تُسمع واشفِ تشفع فأرفع رأسي .. فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعلمنيه ربي ثم أشفِ فيُحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم ارجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال ارفع محمد وقل تُسمع وسل تُعطه واشفع تُشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي ثم أشفع فيُحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال ارفع محمد قل تُسمع وسل تُعطه واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فأقول : يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » .

الإنسان الكامل

لقد جهد العلماء والكتاب .. منذ فجر الإسلام وعلى امتداد التاريخ في تتبع سيرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .. ومحاولة تجسيد معطياته .. وتفصيل شمائله .. وسرد أفضاله وصفاته .. ومع ذلك لم يوفه أحد منهم حقه .. فسيفنى الزمان وفيه ما لم يوصف .

شيخ علماء الحجاز في عصرنا .. وصاحب الفضيلة في جيلنا الدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني يقول في مقدمة كتابه « وما أكثر ما كتب وألف في السيرة الشريفة » « الإنسان الكامل » .

« إن العناية بالسيرة النبوية والاهتمام بها قد تناوله الكتاب من نواحيه المختلفة لا في اللغة العربية والفارسية فقط بل وفي كثير من اللغات الغربية ، ومن بينها الانكليزية التي هي أكثر لغات الغرب اهتماماً بالجانب النبوي ، فإنها غنية بكتب تبحث عن السيرة ، لأن كثيراً من مؤلفي الغرب بذلوا غاية جهودهم فألفوا كتباً في سيرة النبي الأمين وأقاموا حججاً بالغة على عظمة رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام واعترفوا بما للنبي الكريم من الفضل في تحرير المجتمع من مظاهر العبودية والتقليد ومن ربقة الذل والهوان وقال بعضهم : إن دعوته عليه الصلاة والسلام رفعت الأمة من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة في سنين معدودة وإن كانت دراساتهم وكتبهم لا تخلو من دس وسم ، ولذا فإنه لا ينبغي خلع الثقة المطلقة عليها .

ومهما كتب الكتاب وملأوا بطون الأسفار والمجلدات بفضائله فهم عاجزون ومقصرون في حصر جميع ما لحضرته ﷺ من الأوصاف الحميدة والخصال الطيبة الطاهرة ، فهو ﷺ قد بلغ أوج الكمال الانساني حيث اصطفاه ربه لتبليغ رسالته الإلهية فكان لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وقد أثنى عليه ربه فقال : ﴿ **وإنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ** ﴾ (القلم : آية ٤) . وقال عز من قائل ﴿ **ولو كنتَ فَظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من**

حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران : آية ١٥٩) . وأمثال هذا كثيرة في أعظم كتاب وأفضل خطاب فخارج عن الطوق البشري إحصاء كمالاته بتمامها .

كملت محاسنه فلو أهدى السنا للبدر عند تمامه لم يخسفِ
وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ

وكلما تقدم الإنسان في الحضارة وخطا خطوة في حلبة الرقي وصعد درجة في سلم الارتقاء أدرك بقدر اتساع آفاقه الفكرية ما لمحمد ﷺ من الأيادي البيضاء على الإنسانية جمعاء .

وقد مضى على انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى أربعة عشر قرناً ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع وذكراه نشيد الحياة الظامئة إلى منبع هذا الإلهام الكريم وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

وإذا ذكر المسلمون هذا النبي الأمي تقديساً للرسالة التي حملها وَبَلَّغها عن الله تعالى ونشرها في الخافقين وإيماناً بسمو ما جاء به من عقيدة وتشريع فإن الإنسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم البر الرحيم والعلم المفرد الوحيد مجاهداً في تاريخها الحافل المديد .

ان عظمته عليه الصلاة والسلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه بل من جلال شخصيته وكمال خلقه وسعة أفقه وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل وأنه عاش ومات مجاهداً في سبيل الله ، وأنه الرسول المبعوث الذي اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ليبلغ رسالة الله إلى العالم على فترة من الرسل ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء التي بشر بها الأنبياء والمرسلون وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون بين دين البشرية عامة وعقيدة الناس قاطبة وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

فقد دعت إلى التوحيد المطلق وقررت مبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ، وكانت البشرية بسمو روحها وجلال نزعاتها ونبيل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان ودعوتها إلى الحب والرحمة والتعاون وإيقاظ الضمير والشعور بالمسؤولية وتقدير العهود والحرمات ونشر العلم والعمران والمدنية ، وحرب الوثنية والشرك والضلال والعناد والرذائل والمنكرات والأهواء الضالة والأوهام الضارة والشهوات الجامحة والخرافات الكاذبة والتقاليد البالية ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله وفي ظل رسالة كاملة هي شريعة الله ، ثم لم يمض إلى جوار ربه إلا وقد جمع العرب عليها ودعا الملوك والأمراء إليها، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى وملك البحرين والحبشة وحاكم مصر وهرقل قائد دولة الروم العظمى .

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم وتحرير الإنسانية فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا وقامت عليها حضارة مشرقة ولم تزل عقيدة كثير من الأمم والشعوب ولن تزال حية بما فيها من أخلاق وأحكام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها » .

ثم يضيف فضيلة الدكتور محمد علوي المالكي فيقول مما جاء في مقدمة كتابه القيم عن الرسول ﷺ : « الإنسان الكامل » ما نصه :

ولقد كنت أقرأ في سورة المائدة فاستوقفني قوله تعالى : ﴿ **اليومَ أكملتُ لكم دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دينا** ﴾ (آية ٣) . ووقفت عند هذه الآية وقفة تأمل وتبصر واعتبار وأخذت أكررها وأرتلها متذوقاً حلاوتها مستشعراً بلاغتها متأثراً وجميع جوارحي بها وخلصت إلى :

١ ــ ان الله تعالى لما أراد أن يكون هذا الدين خاتم الأديان فلا دين بعده ينسخه أو يبدله أو يصلحه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **ما كان محمدٌ أبا**

أحدٍ من رجالكم ولكنْ رَسُولَ اللهِ وخاتَمَ النبيين ﴾ (الأحزاب : آية ٤٠) . جمع فيه من الأحكام والآداب والتعاليم ما يضمن له أن يكون خالداً باقياً ، وصالحاً لكل زمان ومكان ، وكفيلاً بإسعاد الإنسانية كلها وتخليص البشرية من أدرانها وإقامة العدالة والحق بين الناس أجمعين . فكان بذلك الدين القيم التام المحفوظ الخالد ، القيم : الذي يقول فيه تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطر الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله ، ذلك الدينُ الْقَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** ﴾ (الروم : آية ٣٠) .

التام : الذي قال فيه تعالى : ﴿ **ما فَرَّطْنا في الكتابِ من شيء** ﴾ (الأنعام : آية ٣٨) .

المحفوظ : الذي قال فيه تعالى : ﴿ **لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلْفِهِ** ﴾ (فصلت : آية ٤٢) .

الخالد : الذي قال فيه سبحانه : ﴿ **إنَّا نحنُ نزَّلْنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون** ﴾ (الحجر : آية ٩) .

والتمام والحفظ والخلود هي أولى سمات الكمال فهو بهذه الصفات الدين الكامل .

٢ ـــ وإذا كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة التامة القيمة المحفوظة الخالدة الكاملة من كل نواحيها فلا بد وأن يكون حاملها والداعي إليها الذي بعثه الله بها على ذلك المستوى بل وأرفع ، وفي نفس تلك الرتبة بل وأعلى ، وفي تلك المنزلة والدرجة بل وأجلّ ، لأنه هو المتحمل القائم بأعباء هذه الرسالة ، ومعلوم أن الحمل الكبير لا يحمله ـــ إلا من هو أكبر منه .

٣ ـــ ومن هذه الزاوية اللطيفة والحيثية الشريفة تصورت أن النبي محمد ﷺ الذي جاء بهذا الدين الكامل لا شك أنه هو إنسان كامل ، كامل في كل شيء ، كامل في خلقه وصورته ، فلم يرَ الرائي قبله ولا بعده مثله .

فهو الـذي تم معناه وصورته   ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النَّسَمِ

كامل في خلقه وسجاياه ، إذ يقول فيه ربه سبحانه : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ، كامل في أدبه وسيرته إذ يقول عنه مولاه ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالًا فهدى ووجدك عائلًا فأغنى** ﴾ فهو الإنسان الكامل في كل شيء من الصفات الحسية والمعنوية ، المنزه عن كل عيب أو نقص .

خُلِقـتَ مُبَرَّأً من كل عيبٍ   كأنك قد خُلِقْتَ كما تشاءُ »

★ ★ ★

كما يقول الكاتب الاسلامي الكبير عباس محمود العقاد يرحمه الله في كتابه « عبقرية محمد » عن الرسول ﷺ ورسالته الخالدة في فصل مستقل بعنوان « محمد في التاريخ » ما نصه :

محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة ، وفاقاً لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة .

فما مكان هذه العظمة في التاريخ ؟ ما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور ؟

مكانها في التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله ، وأن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله .

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الأوروبيين والأسيويين والأفريقيين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب الحاضرة التي نشهدها في هذه الأيام ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه

كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذي ولد في شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح .

كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر ، توسط بينهم وليد مستهل في مهده بتلك الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء .. ما أضعفها يومئذ صيحات في الهواء .. ما أقواها بعد ذلك أثراً في دوافع التاريخ .. ما أضخم المعجزة .. وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون ..»

ويقول رحمه الله .. عن الفتوحات التي تمت لرسول الله ﷺ .. وانتصر فيها لدين الله بقوة الإيمان في فصل بعنوان « فتوح إيمان » .

« على أننا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان .

وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدل في التاريخ ، ويبتعث دوافع الشعوب .

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإيمان ، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التي تهول الأنظار .

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم ، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة إلى الله .

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة في عالم الضمير .. فمن أنكرها فإنما ينكر تقدم الإنسان كثيراً أو قليلا في هذه الطريق .

عقد عالم أوربي هو « الدكتور ماركس دودز في كتابه (محمد وبوذا والمسيح) » مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل : « أليس محمد نبياً على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب قائلا : « انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وانه لخليق في هذه الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني إسرائيل ، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق ، وصبر على الإيذاء يوماً بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفي والحرمان والضغينة ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذي نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء .. وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان . إلا أن أحداً غير محمد لم يقم في العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان . فإذا سأل سائل : ما الذي دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه » ..

والحقيقة التي يراها المنصف مسلماً كان أو غير مسلم ، هي هذه :

هي أن فتوح محمد فتوح إيمان ، وأن قوة محمد قوة إيمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل » .

★ ★ ★

عظيم .. هو الرسول

.. وما دام أن العقاد .. قد جاء برأي من الغرب .. فانني لا أجد مندوحة من إيراد بعض ما قاله المستشرقون عن عظمة الرسول ﷺ ورسالته الخالدة من خلال ما نقله الأستاذ عبد الرحمن عزام — رحمه الله — في كتابه « بطل الأبطال » وهو تلخيص لبعض آراء الكتاب والمستشرقين من مختلف الملل غير الإسلامية . إذ يقول :

.. المبرزون في تاريخ الانسانية هم الذين كان لإصلاحهم الخلود والأثر الباقي .. وأعظم هؤلاء محمد ﷺ بإجماع المفكرين .

يقول فيه « كرلايل » كان مولده مبعثاً للنور من الظلمات ويقول السير موير : لم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تم كالذي تركه عند وفاته . ويقول ليونارد : ان كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له وفنى في خدمته بقصد شريف ودافع عظيم فإن هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبي العرب .. وفي دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة . ويقول بوزورث اسمث : ان محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق » .

وقول اسمث يذكرني بكتاب « الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ ، للكاتب الأمريكي مايكل هارت .. والذي كتب فيه عن النبي صفحات لم يكتب بعضاً منها عن غيره من المائة الذين تحدث عنهم .

ومما كتبه عن « محمد رسول الله ﷺ » إن محمداً دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً .. وبعد ١٣ قرناً من وفاته فإن أثر محمد عليه السلام مايزال قوياً متجدداً » .

وفي موضع آخر يقول : ولما كان الرسول ﷺ قوة جبارة فيمكن أن يُقال أيضاً انه اعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ .. إذا استعرضنا التاريخ .. فإننا نجد أحداثاً كثيرة من الممكن أن تقع دون أبطالها المعروفين .. مثلاً كان من الممكن ـــ يقول هارت ـــ أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن أسبانيا دون أن يتزعم حركتها الاستقلالية رجل مثل سيمون بوليفار .. ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو أو عن العرب عموماً وعن امبراطوريتهم الواسعة .. دون أن يكون هناك محمد ﷺ .. فلم يعرف العالم كله رجلا بهذه العظمة قبل ذلك .. وما كان من الممكن أن تتحقق هذه الأنتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته وإيمان الجميع به » .

البشرية والوحي

ومادمنا بصدد آراء المستشرقين .. فإن بعضاً من الذين في قلوبهم مرض والمستشرقون منهم بصفة خاصة يركزون على قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بَشَرٌ مثلكم يُوحَىٰ إليَّ** ﴾ (الكهف : آية ١١٠) . فيرون من الآية بأنه عليه السلام بشر دون أن يتفكروا فيما تلا ذلك بأنه يوحى إليه .. في الوقت الذي يرى المؤمنون بأن عظمته ﷺ في كونه بشراً وحقق كل المعجزات الخالدة .. وعلى مدى ثلاثة وستين عاماً فقط عاشها في هذه الحياة الدنيا .. وقد وجدت فيما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود في كتاب « محمد نظرة عصرية جديدة » .. تعليلا وتحليلا لهذه النظرة فيها الكثير من التوفيق إذ يقول :

« ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه هي نظرة أبي جهل الذي رأى يتيم أبي طالب ولم ير الرسول محمداً عليه السلام .

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على ـــ بشر ـــ أو على « يوحى إلي » حسب قوة الشعور الديني وضعفه فالذي لا إيمان له لا

يرى إلا البشرية ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ويخف التركيز على البشرية كلما قوي الإيمان ويزداد التركيز على « يوحى إلي » كلما ازداد الإيمان حتى يصل الإنسان إلى أن لا يرى أو لا يكاد يرى إلا « يوحى إلي » وان مقياس الإيمان قوة وضعفاً ، مقياس درجة الإيمان الذي لا يُخطيء ، إنما هو ما وقر في القلب أو غُلِبَ عليه من البشرية أو يوحى إلى أنهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان » .

هذا ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود ـــ رحمه الله ـــ .. وفي رأيي : أن عظمة محمد ﷺ هي في كونه بشراً .. ومع ذلك حقق هذه المعجزة الخالدة .

معجزة خالدة .. لأنها انتصرت على كل أعدائها في جميع الأجيال والعصور .. واستمرت منذ إطلالتها في توسع وانتشار حتى الآن .. وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها وذلك لنجاح الداعي في رسالته وأدائه لها بأمانة . وتبليغه إياها بصدق .. ومجاهدته في سبيلها بعزيمة وإيمان .. وفي ذلك يقول العقاد يرحمه الله في سطرين اثنين لا ثالث لهما بكتابه « عبقرية محمد » .

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ..

محمد رسول الله

﴿ مُحَمَّد رسُولُ الله والذين معهُ أشداءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهم تراهم رُكعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ (الفتح : آية ٢٩) .

بهذه النعوت الكريمة وصف الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ وصحبه في آخر آية من سورة الفتح وذلك في أعقاب الآية الشريفة التي تقول :

﴿ هُوَ الذِي أرْسَل رسُولَهُ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كُلِّهِ وكفى بالله شهيدا ﴾ . (الصف : آية ٩) .

ومن قبلها كانت فاتحة سورة محمد .. هي هذه الآيات البينات التي تقول :

﴿ الَّذينَ كَفَروا وصَدُّوا عن سَبِيل الله أضَل أعْمالَهُمْ . والذِينَ آمَنُوا وَعمِلوا الصَّالِحاتِ وآمنُوا بما نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِهِمْ كَفَّرَ عنهم سَيِّئَاتِهِم وأَصلَحَ بَالَهمُ ﴾ . (محمد : الآية ١ ، ٢) .

وفي الحديث الشريف يقول ابن عباس رضي الله عنهما :

ما خلق الله تبارك وتعالى وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من سيدنا محمد ﷺ . ومن تعظيم الله له ﷺ أن أخذ له ميثاق النبيين ، قال تعالى :

وَإذْ أَخذَ الله ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ : قَالَ ءأَقْرَرْتُمْ وَأَخذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ ﴾ (آل عمران : الآية ٨١) .

وقد رفع الله ذكره إذ ما من مُصلٍّ أو مؤذِّنٍ. أو مستغفرٍ أو مسبحٍ أو متشهدٍ . أو زائرٍ لقبره الشريف إلا ويذكر اسمه ويصلي عليه . اللهم صَلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

قال قتادة رضي الله عنه : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس من خطيب ولا مستشهد ولا صاحب رسالة إلاّ ويقول : أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله .

وقال القاضي عياض في الشفا : (ومما ذكر من خصائصه وبرّ الله سبحانه وتعالى به أنه خاطب الأنبياء جميعاً بأسمائهم فقال تعالى : يا آدم .. يا نوح .. يا إبراهيم .. يا موسى .. يا داود .. يا عيسى .. يا زكريا .. يا يحيى .. ولم يخاطبه ﷺ إلاّ بقوله : يا أيها النبي ، يا أيها الرسول ، يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر) .

وقال ابن الجوزي : (ما أقسم الله تبارك وتعالى بحياة أحد غيره ﷺ لأنه أكرم البرية عنده وذلك قوله : ﴿ **لعمرك** ﴾ (الحجر : الآية ٧٢) ومعناه : وبقاؤك يا محمد ، وقيل : وعيشك ، وقيل : وحياتك) .

الرحمة المهداة

هذا هو الرسول النبي الأمي الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور — وبين لهم طريق الهدى انفاذاً لما أمره الله سبحانه وتعالى به بقوله في سورة النحل :

﴿ **وأَنْزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لتُبينَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم** ﴾ (الآية ٤٤) .

وفي هذا رحمة .. وأي رحمة .. إذ يقول رب العزة والجلال في سورة الأنبياء : ﴿ **وَما أَرسَلْنَاكَ إلا رحْمَةً للعَالِمِينَ** ﴾ (الآية ١٠٧) .. ولهذا كان من أسمائه ﷺ : نبي الرحمة .. رسول الرحمة .. وقد روى الحاكم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » .

ويذكر الشيخ أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين أن الرحمة كانت عنده ذات أثر عام ، وللخلق كافة ، ويذكر أن بعض أصحابه قالوا : يا رسول أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا . فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة بالكافة » .

ولقد جاء في الحديث ان رسول الله ﷺ قال : « إن مثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ــ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ..

« وكان منها أجَادِبُ أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ..

« وكان منها قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كَـلَأً » .. !!

ويروي أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول :

« كنت أمشي مع رسول الله وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي **فجبذ بردائه جبذاً شديداً** ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ فإذا قد أثَّرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته .. ثم قال الأعرابي : يا محمد مُرْ لي من مال الله تعالى الذي عندك » . فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء » .

بل وأكثر من هذا .. فلقد ذكرت كتب السيرة أن أعرابياً جاء بجلافة يطلب منه ﷺ شيئاً فأعطاه ما عنده ، .. وتضيف الرواية أن رسول الله ﷺ سأل الأعرابي : « أأحسنتُ إليك ؟ » ، قال الأعرابي : (ولا أجملتَ) . فغضب الحاضرون من المسلمين وقاموا إلى الأعرابي ، فأشار

إليهم ﷺ أن كُفّوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ، ثم قال له : « أأحسنتُ ؟ » قال : (نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً) ، فقال ﷺ : « إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك » قال الأعرابي : (نعم) . فلما كان الغد ، جاء ﷺ فقال : « إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي ، أكذلك ؟ » قال الأعرابي : (نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً) ، فقال النبي ﷺ : « مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلّوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم . فتوجّه لها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت إليه ، واستناخت وشدّ عليها رحالها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

ولم تقتصر مرحمته ﷺ بالإنسان . وانما شملت كل مخلوق بما في ذلك الحيوان فلقد روى عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ما أن رأى النبي ﷺ حتى ذرفت عينه . فأتاه رسول الله ﷺ ومسح ذفراه . فسكت فسأل رسول الله ﷺ عن صاحبه . فلما جاءه قال له :

ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟!.. فإنه شكا إليّ أنك « تجيعه وتدئبه » أي تجهده .

فأي رحمة هي أبلغ من هذا .. وأشمل من ذا ؟!

نقلة أبدية

هذه شخصية باهرة .. لا مثيل لها في الوجود على الإطلاق .. ولذا فقد فنى الزمان وذابت الأقلام دون أن توفيه ﷺ بعض حقه .. وفيما قدمت من سيرته نقلاً عن كتب السيرة طرفاً من بعض جوانب شخصيته عليه الصلاة والسلام .. ونُتفاً من سيرته إذ لا تكفي المجلدات الضخام لكل ذلك .. أو حتى بعض ذلك .. واستكمالاً لخفافي الصورة .. أو بعض جوانبها التي عنيت باستقائها من أمهات المصادر . استمد الفصول التالية على أمل أن يجد فيها القارىء شيئاً من مبتغاه .. وأن أكون خدمته « وأعني القارىء » فيما قدمت تعظيما لقدر رسول الله ﷺ واعترافاً بفضله وقد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين .

فكما تقول كتب السيرة : إن عمل محمد ﷺ لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والإعجاب والثناء .

إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ، ولم تكن أصناما كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير . ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق وتفسد العقول . فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة إلى عبادة الحق الأعلى .. عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ومن فوضى إلى نظام ، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات » .

ومن هذا المنهل .. التقطُ بعض المواقف .. كما دونتها كتب السيرة بإيجاز وتصرف لا يخل بالحقائق .. ولا يخلخل الأسلوب كما ذكرت آنفاً وعلى أمل أن يجد فيها الباحث عن المستقبل الأفضل ما يهديه سواء السبيل فإنه وكما قيل : لن تتحرك أمة إلا إذا فتحت أمامها باب المستقبل ولن تلتفت

إلى الماضي إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقبل . ولن تعيره الحياة إلا وهو مبعوث من جديد في صورة الخلق الجديد .. فالإيمان للمستقبل .. وعسى أن يكون المستقبل للإيمان ففيه صلاحنا وبه فلاحنا .

المختـــار

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل . غير أننا لا نعرف أحداً من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيراً من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكي للمتفرسين شيئاً من طبائعهم التي تنم عليها سيماهم ، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته : في سيماه وفي هندامه ، وفي شرابه وطعامه ، وصلاته وصيامه ، وحله ومقامه ، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجاً من العطف والتدين ، وضرباً من اتباع السنن وقضاء الفروض ، لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى . فيقول غير ما قال آنفاً ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين ...

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبي عليه السلام كان مثلا نادراً لجمال الرجولة العربية ، كان كشأنه في جميع شمائله مستوفياً للصفة من جميع نواحيها . فرب رجل وسيم غير محبوب ، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب ، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب

الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء ، أما محمد عليه السلام فقد استوفى في شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس . فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه ، وكان نعم المسمى بالمختار .

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلاً أزهر اللون ، عظيم الهامة ، مفاض الجبين ، سبط الشعر ، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب . أدعج العينين في كحل ، أقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين ، أسيل الخد ، ضليع الفم ، غزير اللحية ، جميل الجيد ، عريض الصدر ، عريض ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، لا بالمشذب ولا بالقصير ، مربوعاً أو أطول من المربوع ، معتدل الخلق متماسكا لا بالبدين ولا بالنحيل .

وإذا أقبل يتحرك إليه الناظر فرأى رجلاً يصفه الأقدمون بأنه « حي القلب » ويصفه المحدثون « بالحركة الحيوية » .

يمشي فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صبب ، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعاً كأنما ينشط بجملة جسمه ، ويلتفت فيلتفت كله ، ويشير فيشير بكفه كلها ، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى وراحة اليسرى ، ويفتح الكلام باشداقه ويختمه باشداقه ، وربما حرك رأسه وعض شفته أثناء كلامه . وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء : أشد حياء من العذراء ، نضّاح المُحيا إذا كره شيئاً عُرف ذلك في وجهه وإذا رضي تطلقت أساريره وتبين رضاه .

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء في هذه البنية الجميلة .. فكان عليه السلام يصرع الرجل القوي ويركب الفرس عارياً فيروضه .

فمحمد عليه الصلاة والسلام كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويُهاب شواظها من لا يهاب ، وكان الإمام علي فارس الفرسان

يقول : « **كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺ . فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو** » .

وكما كان عليه الصلاة والسلام هكذا في الشدة وعند ملاقاة الأعداء فقد كان ﷺ مشرق الوجه . دائم البشر لين الجانب يمزح ولا يقول إلا حقاً .. ملؤه الرحمة والعطف ، ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو . قالت عائشة رضي الله عنها : « خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال ﷺ للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك . فسابقته فسبقته ، فسكت . « حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال تعالى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل ﷺ يضحك ويقول : هذه بتلك ! » .

وهذا بعد أن قارب الستين انها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال ».

العابـد .. والطبـائع الأربـع

« **طبيعة** العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ، وطبيعة العمل والحركة ..

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس وقلما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة . فإذا اجتمعت معاً فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفاوت .

طبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها .. تدعونا إلى الحلول من الكون في أسرة كبيرة .

وطبيعة التفكير تثير في نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء .. تدعونا إلى الحلول من الكون في معمل كبير .

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا ، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا ، أو صنع قرائحنا وأيدينا ، أو صنع قرائحنا وأوصالنا ، تدعونا إلى الحلول من الكون في متحف كبير .

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها ، وتجذبنا إليها فنستمد منها القدرة التي تجذبها إلينا : تدعونا إلى الحلول من الكون في ميدان صراع ومضمار سباق .

وقلما تشعر بالكون بيتاً لأسرة ، ومعملاً لباحث ، ومتحف فن ، ومضمار سباق في وقت واحد . إنما هي حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات ، وقد تلحقها بها إلحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل .

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعاً على نحو ظاهر في كل طبيعة : كان عابداً ومفكراً وقائلاً بليغاً وعاملاً يغير الدنيا بعمله . ولكنه عليه السلام كان عابداً قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجية فيه .

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه : فولد في بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه .

ونشأ يتيماً من طفولته فانطوى على نفسه وتعوّد التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا ، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير .

ولقد نشأ على العبادة .. أو هو بالأصح قد كان في تكوينه مُهَيَّأً لتلقي الوحي الإلهي .

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه وكرب لذلك وتربد وجهه وأخذته البرحاء حتى إنه ليتحدر مثل الجمان في اليوم الشاتي وسمع عند وجهه كدوي النحل .

وليس هذا في خليقة كل بنية إنسانية . وإنما هو خليقة البنية المتفردة التي تتلقى وحياً وتستوعب سرا وتهتز لنبأ عظيم ».

صفة العابد

.. **وكانت** أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحه لتلقي الوحي والنبوة . فكان حساً كله وحياة كله . يراه من ينظر إليه فيرى فؤاداً يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية . يسرع في مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه ، ويفكر فلا يزال يطرق إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء ، ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه ، ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه ، ويمتلىء عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام ، حس مرهف يدني إليه ما وراء الحجاب ، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن ، ويجعله أبداً في حالة قريبة من حالة الوحي حيثما هبط الوحي عليه .

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل ، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة .

كانت عبادة محمد خلواً بالنفس إلى حين ، أو عجباً من بدائع الكون التي ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خلق جديد .

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة .

وهي هي دهشة العين التي أبت أن تكل من الألفة لأنها أبداً في نظرة جديدة ، أو في نظر إلى كل منظور مخلوق جديد .

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام : عجب من بدائع الكون في كل نظرة كأنه يراها لأول مرة ، وتفكير في الخلق ينتهي إلى الإيمان لأنه يبدأ بالعجب ، ولا يزال أبداً بين العجب والإيمان .

وأن محمداً باعث الإيمان إلى القلوب . لقد كان يجدد إيمانه كما يجدد عجبه كل يوم . وكان يدعو الله فيقول : « **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** » ... **وقيل له في ذلك فقال** ﷺ : « **إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ** » .

حركة متجددة في الحس وفي الفكر وفي الضمير .

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع .

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع .

وإنما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل في الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك .. ثلث أيامه لربه وثلثها لأهله ، وثلثها لنفسه . وما كان في فراغه لنفسه ولا لأهله شيء يخرجه من معنى عبادة الله والاتصال بالله ، على نحو من التعميم ».

عزيمة الزهد والإيمان

.. **وليس** أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد في نعمة العيش وهي بين يديه .

فقد ثبت أن محمداً ﷺ لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعاً حتى مضى لسبيله ، وقالت عائشة رضي الله عنها :

« **لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا**

بقوتك » فيقول : « يا عائشة ! مالي وللدنيا ... اخواني من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ».

وقالت زوجه أم سلمة « رضي الله عنها » تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها : « **... فإذا جرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحى وبُرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه ! » .**

رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال له : « يا رسول الله ! قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله » فاستوى جالساً وقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ! » .

وترى عن يقين أنه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان إلا إستزادة لأسباب الإيمان وشحذاً للعزيمة في سبيل ذلك الإيمان ، واعتذاراً إلى الله وإلى الناس فيما تجرد له من إصلاح .

لأن محمداً ﷺ لم يكن كارهاً لطيبات الدنيا ولا حاضاً لأحد على كراهتها والإعراض عنها . فإذا قنع بما قنع فإنما فعل ذلك ليرتفع بايمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره .. كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضاً من الأغراض التي نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس .

فليكن الإيمان إذن موئل كل غرض وكل عمل وكل جزاء ... وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله في هدايتهم غير منقوص ولا مظنون .

إذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشى أن يحسب المتعة من آماله .

وإذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هي جملة الآمال وغاية الآمال .. فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه ، وليتم بذلك حسابه لنفسه وحسابه عند الله ».

آدابــه الاجتمــاعيـة

.. **وكان** في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب في كل زمان . فلم يُر قط ماداً رجليه بين أصحابه ، وتعود كلما زار أحداً ألا يقوم حتى يستأذنه ، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في إناء ، وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وربما نهض بالليل فيشوص فاه بالسواك ، ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم ، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه : « **إغتسلوا يوم الجمعة ولو كأساً بدينار** » .

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور . فيأكلون في جيل بأصابع اليد ويأكلون في الجيل الآخر بالشوكة والسكين ، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض . وهي عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع ، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل . وإنما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب في كل أمة وفي كل زمان .. فلم يكن يهفو في حق أحد ولم يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف ، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل في أصدق معانيه .

صاحب هذا السمت رسول .

وصاحب هذه الآداب رسول ..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة في الأنظار وسماحة في القلوب . فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هي الصفة التي ترقت في محمد إلى ذروة الكمال ».

أريحيته ﷺ

.. **ولقد** كان ﷺ صاحب أريحية فياضة تقابل النفوس بما تحب .. ولقد امتزجت هذه الأريحية بجميع خصاله ﷺ وجميع علاقاته بالناس . ولا سيما الضعفاء والمكسورين فكان أحرص الناس على جبر القلوب وتطييب الخواطر وتوخى المواساة وتجنب الاساءة ، يتفقد أصحابه كباراً وصغاراً ويسأل عنهم .. ولقد روى عنه ﷺ أنه قال :

« إن الله يسأل عن صحبة ساعة » .

كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بُعثت لأتَمِّمَ مكارم الأخلاق » .

ولقد كان من آدابه ﷺ أنه إذا أنتهى إلى مجلس جلس حيث ينتهي به المجلس . ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع حديثه وإن طال وما أخذ أحدٌ بيده الشريفة فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها .

ومن سننه التي اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفي ذلك يقول من وصاياه في آداب الولائم والمحافل : « إذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما باباً ، فإن أقربهما باباً أقربهما جواراً ، وان سبق احدهما فأجب الذي سبق » .

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه . وربما خفف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية » .

البـــر بالخـدمـة

.. **وربما** كان البر بالخدمة في هذ المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم .. فالبر بالخادم عطف عليه . أما البر بالخدمة فارتفارع بالخادم إلى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه ، وذلك هو دأب النبي الذي جرى عليه في بيته وبين أهله وخدمه .

ولكن محمداً يخشى القصاص إذا استباحه في معاملة وصيفة تهمل أمره ، وهو الذي لا يُهمل له أمر عند سادة الشرفاء .

وروى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أرسله في حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون في السوق ، « وإذا رسول الله ﷺ قد قبض ثيابي من ورائي ، فنظرت إليه ﷺ وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! إذهب إلى حيث أمرتك ! » .

كلمة أمر لا يقولها لخادمه إلا وقد ناداه مدللا وقابله ضاحكاً كأنه يعتب على قرين . وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام .

وفي الحديث أنه ﷺ أرسل ذات يوم خادما في حاجة قريبة . فغاب الخادم نصف اليوم أو قرابة ذلك « ويأخذ الرسول ، ما يأخذ كرام البشر من الغيظ الكريم ويظن من يراه أنه سينزل بالغلام حين يعود عقاباً أليماً » .

« وحين يعود الغلام : يلوح « الرسول » في وجهه بالسواك وهو يقول : **لولا خوف القصاص من الله لأوجعتك ضرباًبهذا السواك** » .

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده ، فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافىء عليها ، ويلبي دعوتهم إذا دعوه إلى طعام ، ويوصي بهم قائلا : « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت

أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » و « اتقوا الله في الضعيفين النساء والرقيق » .

وعلى هذا كان النبي عليه السلام يكره أن تقبّل يداه مخافة أن تجري العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع . قال أبو هريرة رضي الله عنه : « دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح ... فوثب الوزان إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها ، فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال ﷺ : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

رجـل الجـد

.. **لقد** قضى محمد عليه الصلاة والسلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال أهله .. وكان معروفاً عن الناس من شبابه إلى كهولته فلم يُعرف عنه أنه انقاد للذات الحسن في ريعان صباه . ولم يسمع عن أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح .. بل عُرف بالطهر والاستقامة والأمانة حتى سمي ﷺ بالأمين من قبل الرسالة .. كما اشتهر بالصدق والجد والرصانة منذ نشأته وإلى آخر حياته ﷺ .

ولما جاءه الوحي وكلف بالرسالة والدعوة إلى الإيمان بالله انطلق بثبات مكين . وعزم شديد . يدعو الله على بصيرة فصدع بالذي أُمر وهدى الناس لخيرى الدنيا والآخرة عن طريق الإيمان بما فيه من عبادة الله وأمانة وصدق وعمل طيب .

ولقد روى عنه ﷺ أنه قال : « أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة .. وصدق حديث .. وحُسْن خليقة وعفَّةٌ في طُعمه .. » .

ويقول عليه السلام : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ... وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يأيها الرسل كُلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ . (المؤمنون : آية ٥١) . وقال : **﴿ يأيها الذين آمنوا كلُوا من طيبات ما رزقناكم ﴾** (البقرة : آية ١٧٢) . **ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشْعث ، أغْبَر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، ومَلْبسه حرام ، وغُذِيَ بالحرام ! فأنَّى يستجاب لذلك ؟؟ »** .

ويعْلن « محمد » أن اللقمة الحرام تفسد العبادة نفسها ، وترد الأعمال الصالحة تراباً في تراب .

إنه يقول لسعد بن أبي وقاص :

« يا سعد : أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، فو الذي نفس محمد بيده : إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يُتقبل منه عمل أربعين يوماً ... وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولَى به .. » .

قبــول الدعــابة

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بل بأعظمها جداً ووقاراً وهو إقامة الأديان واصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ثم يطيب نفسا للفكاهة ويطيب عطفاً على المتفكهين . ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ . فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة ، ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق إلا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وان نهضت بالعظيم من الأعمال .

فاستراحة محمد ﷺ إلى الفكاهة هي مقاس تلك الآفاق النفسية الواسعة التي شملت كل ناحية من نواحي العاطفة الإنسانية ، وهي المقياس الذي يُبدي من العظمة ما يبديه الجد في أعظم الأعمال .

كان ﷺ يقبل الدعابة .. ويمزح فلا يقول إلا حقاً .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : دخل النبي عليه الصلاة والسلام على أمي فوجد أخي أبا عمير حزيناً . فقال ﷺ : يا أم سليم ما بال عمر حزيناً ؟ .. فقالت : يا رسول الله .. مات نغيره .. تعنى طيراً كان يلعب به !

فقال ﷺ : أبا عمير .. ما فعل النغير ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك .

وكان نعيمان بن عمر من أشهر الصحابة رضوان الله عليهم بالدعابة لا يقيل منها أحداً .. ويراه النبي ﷺ فلا يزيد على أن يبتسم . وربما قصد النبي عليه السلام ببعض هذه الدعابات طمعاً في حلمه ﷺ .

ذات يوم جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : « لو نحرتها فأكلناها ؟ فإنا قد قرمنا إلى اللحم ، ويغرم النبي ﷺ حقها » فنحرها نعيمان . وخرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح : « واعقراه يا محمد !.. » فخرج النبي يسأل : « من فعل هذا ؟ » قالوا : « نعيمان » ... فأتبعه النبي حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد . فأشار إليه رجل ورفع صوته : « ما رأيته يارسول الله » وهو يشير باصبعه إلى حيث هو ، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : الذين دلوك عليَّ يا رسول الله هم الذين أمروني ! » فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك . ثم غرم ثمن الراحلة .

ونعيمان هذا هو الذي باع عاملاً لأبي بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وَاصِلٌ إلى النبي لا محالة .

سافر أبو بكر إلى بصرى تاجراً ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده . فجاءه نعيمان وطلب إليه طعاماً فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر . فأقسم نعيمان ليغيظنه . وذهب إلى قوم فقال لهم : تشترون مني عبداً لي ؟ » قالوا : « نعم ! » قال : « إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده أنا رجل حر ... إلى أشباه ذلك . فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا علي عبدي ... » قالوا : « لا بل نشتريه ولا ننظر في قوله » فاشتروه منه بعشر قلائص ، ثم أداهم إياه فوضعوا عمامته في عنقه ولم يحفلوا بقوله ، وجعلوا كلما قال لهم : أنا حر ! انه يتهزأ ولست أنا بعبده » سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة .. فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعاً ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه .

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان ، وجعل يذكرها حولا كاملاً كلما رآه .

وطلب بعضهم منه ﷺ أن يحمله على بعير فوعده عليه الصلاة والسلام أن يحمله على ولد الناقة . فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟!

وذات يوم كانت عمته صفية رضي الله عنها في حضرته ﷺ وهو منشرح الصدر فقال لها :

لا تدخل الجنة عجوز ؟

فبكت عمته .. فقال لها ﷺ وهو يضحك : إن الله تعالى يقول ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاءً .. فجعلناهن أبكارا . عُرُباً أترابا** ﴾ (الواقعة : آية ٣٥ــ٣٧) .. ففهمت وثابت إلى الرضاء والرجاء » .

معاملته لزوجاته

.. وإنما نُلخِّص ما أوجبه النبي على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم ، وهو دون ما أوجبه على نفسه في معاملة زوجاته بكثير .

فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ولم يجعل من هيبة النبوة سداً رادعاً بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحايين . فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل إلا حقاً ... » ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ في الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته ، فيعجب لهم ويهم بأن يبطش بإبنته حفصة لأنها تجترىء كما تجترىء الزوجات الأخريات . وإذا رأى النبي غضباً كهذا من جرأة كتلك كفّ من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك !.

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « **خدمتك زوجتك صدقة** » .

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهن وهو ميل قلبه : « **اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك** » .

وذهب إليه أبو بكر يوماً « يستأذن عليه فوجد الناس جلوساً لا يؤذن لأحد منهم . ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده فوجدا النبي ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكتاً . فأراد أبو بكر أن يقول شيئاً يسري عنه ، فقال : « يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة ! سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها » فضحك رسول الله ﷺ وقال : هن حولي كما ترى

يسألنني النفقة !.. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ » .

فقلن : « والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده » . ثم اعتزلهن الرسول شهراً أو تسعة وعشرين يوماً فنزلت بعدها الآية التي فيها التخيير وهي : ﴿ **يا أيها النبيُّ قل لأزواجِك إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتها فَتَعَالَيْنَ أمتعكُنَّ وأسرحكنَّ سراحاً جميلاً ، وإن كنتنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورسوله والدارَ الآخرةَ ، فإن الله أَعَدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً** ﴾ (الأحزاب : آية ٢٨ ، ٢٩) .

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة ! إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك .. » .

قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية .

قالت : « أفيك يا رسول الله أُستشير أبوي ؟.. بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. » ثم خيَّر نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها .

علام يدل هذا ؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات .. ولكنها التقوى في الله ورجاء ما عنده سبحانه وتعالى من الطيبات .

ولم يطلق النبي ﷺ زوجة من زوجاته ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادما فضلاً عن زوجة ، وإنما رُوِيَ عنه ما ينفى ذلك ممن عاشروه ولازموه .

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال :

« أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! » .

ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل في مولد ابنه الذي سماه باسم جده الأكبر أملاً في أن يصبح بعده خليفته الأكبر . ولعل العطف الأبوي قد تمثل في تشييع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله في استقباله يوم ميلاده .

كانت أسباب كبيرة توحي إلى قلب محمد العظيم شوقه الطويل إلى استقبال ذلك الوليد .

كان منها أن محمداً ﷺ عربي يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم فخورون بالنسب فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلف ويتوقون إلى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وان كان حب الذرية فطرة مركبة في جميع الطباع .

ومحمد ﷺ كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته ويوصي المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة . فاشتياقه إلى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة الإنسانية والخليقة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التي ركبت في جميع الطباع .

وكان من أسباب هذا الشوق القوي طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضي الله عنها ، وشماتة أناس من شانئيه سماه بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم نسله : وفي ذلك نزول الآية الكريمة : ﴿ **إن شَانِئَكَ هو الأبتر** ﴾ .

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له ﷺ في خلالها زوجة من زوجاته . ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل ، مات القاسم ، والطاهر ، طفلين . وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوجن . ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء .

فجيعة تضاعف الشوق إلى الوليد المأمول .

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق إليه .

حـزن الأبـوة

طال اشتياق النبي إلى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه في أثر كل زواج حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد ، ومن معدن غير المعدن الذي يختار لإيواءِ المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات ، فبشرت النبي بعقب لعله غلام ، واجتمع في هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ، ورجاء لا ينتهي بانتهاء الزمان .

وولد ابراهيم !..

ولد الطفل الذي نظر أبوه ﷺ إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أباً ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد .

إن العطف الإنساني كله ليتجه إلى تلك النفس الزكية وهي تتوسع فرحا بالوليد المأمول ... حلق الأب المتهلل شعر وليده وتصدق بزنته فضة على المساكين ، وذلك هو التوسع الذي وسعه رجل كان أقدر الرجال على وجه البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك .

جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله دراً وجوهراً بعض ما يستطيع في ذلك اليوم الأغر الميمون .

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الوجيع يوم الوداع :

فلقد مات الطفل ولما يدرك السنتين .. ومات معه ذلك الأمل الكبير .

خرج الرجل الذي اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة في حجره الأبوي قبل أن يودعه حجر التراب . وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ! لو كان بك مثل ما بي لهدك . ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .

إي والله ! إنها لإحدى الفواقر التي يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور جبال .

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : **البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان** » وتدمع عيناه ﷺ فلا يزيد أن يقول : **تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب** .

حزن كما ينبغي له أن يحزن .. أما الحزن الذي لا ينبغي له فهو الصراخ الذي نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ، ويقول الأب الذي انكسفت الشمس حقاً في عينيه : « كلا .. إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! » .

أو تخسفان ولكن في أكباد المحزونين ، وليس في كبد السماء .

فقد روى أسامة بن زيد رضي الله عنه أن زينب بنت النبي ﷺ أرسلت إليه أن ابنتي قد حضرت فأشهدنا » .. فأرسل عليه الصلاة والسلام إليها يقول : إن الله أخذ ما أعطى . وكل شيء عنده مسمى فلتحتسب ولتصبر » .

فأرسلت رضي الله عنها تقسم عليه .. فقام النبي ﷺ . وقمنا فرفع الجثمان في حجر النبي ونفسه تقعقع ففاضت عيناه ﷺ .. فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟!.

قال : هذه رحمة الله وضعها في قلوب من شاء من عباده .. ولا يرحم عباده إلا الرحماء .

أكـــرم الآبـــاء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟.. كذلك شاء القدير القادر ، وكذلك رأينا محمداً مثال الأب يوم ولد له ابراهيم ، ومثال الأب يوم ذهب عنه إبراهيم .

ما يتمنى طفل ـــ لو جاز أن يتمنى الأطفال ـــ أبوة أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة في الحالتين .

بل كان محمد مثال الأب حيثما له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير .

أرأيت إلى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد في صلاته .

إن النبي في صلاته لهو النبي في مقامه الأسنى . وأن النبي في مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي

عن ظهره غير معجل . ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ؟ فيقول : ان ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .

أرأيت إلى فاطمة رضي الله عنها تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد ﷺ . أرأيت إلى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فاطمة تُشبه أباها في مشيته وسمته .

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات يخصها بمناجاته في عشية وفاته . انني مفارق الدنيا .. فتبكي ويخبرها .. أنك لاحقة بي .. فتضحك — وهي في هذا الضحك وذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الأباء والأبناء .

سرها بنبوته .. وسرها بأبوته فضحكت ساعة الفراق . لأنها ساعة الوعد باللقاء في دار الخلد بالجنان » .

لا .. ينطق عن الهوى .. ! !

﴿ .. وَمَا يَنطِقُ عنِ الهَوىٰ . إنْ هُوَ إلا وَحيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فاستَوَىٰ * وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قوْسَينِ أو أدْنَى * فأوْحَىٰ إلَىٰ عَبْدِهِ مَا أوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَءَآهُ نَزْلَةً أُخرىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِنْدهَا جَنَّةُ المَأْوَىٰ * إذْ يَغْشَىٰ السِّدْرةَ ما يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رأَىٰ مِنْ آياتِ رَبّه الكُبْرىٰ ﴾ . (النجم : آية ٣ ــ ١٨) . هذا هو محمدُ ﷺ في القرآن الكريم الذي يقول بلسان الحق سبحانه وتعالى في سورة الطور مطمئناً رسوله عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَاصبِرْ لحكم رَبِّكَ فإنك بِأَعْيُنِنا ﴾(آية ٤٨) . كما يُسائله مُنَبِّهاً إلى حفظ الله له كما جاء في سورة الزمر .

﴿ أَلَيْسَ اَللهُ بكَافٍ عَبْدَهُ ويُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ من دُونِهِ ﴾(آية ٣٦) .

إن هذا القرآن الكريم الذي هو المعجزة الكبرى لسيد البشر ﷺ .. كما قال ذلك بلسان رب العزة والجلال سبحانه وتعالى .. هو الذي يقول مؤكداً إنتصار الحق الذي يبعث الله به مع أنبيائه عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كما جاء في سورة « الصافات » : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُون * وَإنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالبُونَ ﴾(آية ١٧١) .

ويوجه النبي ﷺ فيقول تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلين ﴾ (آية ١٩٩) .

كما يقول عز من قائل : ﴿ ولا تَسْتَوِي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفَعْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عَدَاوةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حميمٌ ﴾ (فصلت : آية ٣٤) .

ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه ﷺ فيما جاء بسورة آل عمران : ﴿ فَبِمَا رحمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لهم ولو كنتَ فَظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عنهم واستغْفِر لهم وشاوِرْهم في الأمرِ فإذا عزمتَ فَتَوَكَّلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكلين ﴾ (آية ١٥٩) .

ويخاطب الحق سبحانه وتعالى عباده من أمة محمد ﷺ فيقول كما جاء في سورة الأحزاب : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (آية ٤٠).

والحديث مصان

لقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ وتكفل بقدرته سبحانه وتعالى على حفظه ليبقى نوراً يستضيء به المسلمون حتى يوم الدين فقال عز من قائل : ﴿ إنا نحن نَزَّلْنا الذكْرَ وإنا له لحافِظُونْ ﴾ (الحجر : آية ٩) .

وكما جاء القرآن بمجمل التعاليم .. فقد قام الرسول ﷺ بما فعل وما تحدث أو وجه ، بتوضيح تعاليم الشريعة .. وهو بذلك إنما هو مبلغ رسالة ربه الذي أمرنا الله بطاعته .. فقال بسورة النساء : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ (آية ٨٠) .

كما قال سبحانه وتعالى بسورة الحشر : ﴿ وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (آية ٥٩) .

ولهذا كان الاقتداء بالسنة لزاماً كالاهتداء بالقرآن .. فقد روى الإمام أحمد في مسنده ، كما جاء في كتب السنن للدارمي وابن داود والترمذي :

عن المقدام بن معد يكرب يقول : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته ويحدث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً أحللناه . وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله ، ألا وإني أعطيت القرآن ومثله معه » .

وقد بقيت السنة ولله الحمد مصانة إذ هي عن الصادق المصدوق ﷺ . ولا أدل على ذلك من الحديث الذي يروى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما ، من أنه كان يكتب كل ما يسمع من النبي ﷺ كما جاء في صحيح البخاري في باب كتاب العلم ، وفي سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد : أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه .. فنهتني قريش عن ذلك .. وقالوا : تكتب لرسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا .. فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : اكتبْ والذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق ، وأشار إلى فمه حين قال ذلك ﷺ ، ولهذا سمّى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه بالصادقة .. وكان يقول : لقد حبب الحياة إلي أمران .. أحدهما : هذه الصادقة ، فقد كنت لا أكتب فيها إلا ما سمعت أذناي ، ويقول مجاهد : رأيتُ عند عبد الله ابن عمرو بن العاص كتابا فسألته : ما هذا ؟ فقال : هذه الصادقة .. فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس في ذلك بيني وبين رسول الله ﷺ أحد .

تمحيص وعناية

ولقد عنى رواة الحديث رحمهم الله بالتمحيص والتدقيق في كل مادونوه من سيرة الرسول ﷺ واحاديثه .. وللدكتور محمد عبده يماني بحث مطول يوضح فيه ذلك بكتابه « بأبي أنت وأمي يا رسول الله » نكتفي منه بهذه الصفحة التي يقول فيها :

.. والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعرفون تماما دقة مصادر السيرة النبوية واستيعابها لكل ما نسب إليه ــ فقد اشتملت على كل شيء عن حياته ﷺ وتضمنت كل ما عزي إليه من حق أو باطل ، ومن صدق أو كذب وكل ذلك معلوم بالتفصيل ، وواضح أمره للناقدين ، بحيث يستطيع المتتبع لهذه السيرة أن يطلع على صورة متكاملة واضحة بجميع جوانبها وتفاصيلها .. حتى الأحاديث التي نسبت إلى الرسول ﷺ .. حفظت ، سواء منها الصحيح أو الضعيف وحتى المكذوب عليه ﷺ .. وكل شيء موثق .. مدقق في سنده .. وروايته .. ورجاله ، وقد يخطر ببال سائل أن يسأل : ما بال المحدثين حفظوا موضوعات الأحاديث وضعافها وهل اكتفوا بالصحيح وأهملوا غيره ؟؟ فالجواب : أن المحدثين الكرام لم يجدوا غضاضة في حفظ هذه الأحاديث بمختلف أسانيدها ودرجاتها حتى لا يأتي من يقدح في هذه الأحاديث ويدعي أن المسلمين قد أخفوا بعض الأحاديث لأنها ضعيفة أو مكذوبة .. خشية على رسولهم فاستبعدوا ما فيه غمز أو لمز أو ضعف أو كذب ، كما يطعن الطاعنون في هذه الأيام على الأخبار المسيحية لأجل ذلك . أما المحدثون الكرام من علماء المسلمين فقد جمعوا كل ماله علاقة بالنبي ﷺ صحيحاً كان أو باطلاً ، وجعلوا لنقده قواعد ، وأصّلوا لتحقيقه أصولاً يرجع إليها في تمييز الصحيح من الفاسد .. والغث من السمين جاءت الأصول والقواعد على نحو من الرفعة والدقة .. والفحص .. بحيث يطمئن إليها قلب المؤمن وتخرس ألسنة الحاقدين والحاسدين والطاعنين .

وما من حياة أحد ــ مهما بلغت من صحة التاريخ وثبوت الرواية ــ يصح أن يكون منها للناس أسوة تُتبع ومثال يقتدى به إلا إذا كانت معلومة للناس بجميع أطوارها ومتجلية لهم دخائلها من كل مناحيها ، وحياة محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا

عهده وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم .. وهو في حياته لم يحتجب عن عيون قومه إلا مدة يسيرة ليعدّ عدته للمستقبل ، وليهيىء الأسباب لحياته المقبلة .

إن جميع شئونه وأطوار حياته ــ من ولادته ورضاعته وطفولته إلى أن صار يافعا وشابا ــ كل ذلك ظاهر أمره ، معلومة تفاصيله .

قد علم التاريخ عن هذا النبي ﷺ اشتغاله في التجارة ، وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه في صداقته ، وفي وفائه للناس قبل النبوة ، واتصلوا به حتى اتخذوه أمينا ، وأقاموه حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود في موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على أمره حين حبب الله إليه الخلوة ، فاعتزلهم في غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحي من رب العالمين ، وحين بدأ أمر الإسلام يظهر للوجود ، فأخذ يدعو الناس إليه ويبلغ ما أنزل عليه » .

البليـــغ

.. **ويؤكد** ذلك الكاتب الإسلامي عباس محمود العقاد في كتابه « عبقرية محمد » الذي استقينا منه مرويات الفصل السابق .. ونستكمل منه هذا الفصل .. وهو يتحدث عن بلاغة الرسول ﷺ وفصاحته فيقول :
« **اللهم هل بَلَّغت** » .

هذه اللازمة التى رددها النبي ﷺ في أطول خطبه الأخيرة . وهي خطبة الوداع .. وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات . فما كانت حياة النبي ﷺ كلها بعملها وقولها . وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ . وما كان لها من فاصلة خاتمة ابلغ من قوله عليه الصلاة والسلام وهو يجود بنفسه :

« **جلال ربي الرفيع فقد بَلَّغت** » .

ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي ﷺ في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى .. بل هي السمة الجامعة التي لاسمة غيرها . لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع .

وكلام النبي عليه السلام المحفوظ بين أيدينا إما معاهدات ورسائل كُتبت في حينها وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كُتبت بعد حينها وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع .

والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعاً ، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقنُه المسلم ليدعو الله على مثاله .

أنظر مثلاً إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهي كما جاء في مختار مسلم :

« ... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل . فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : أنظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم :

اللهم انه كان لي والدان شيخان كبيران ، وامرأتي ، ولي صبية صغار أرعى عليهم . فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالديَّ فسقيتهما قبل بني . وانه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي . فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء .

« ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء » .

وقال الآخر : اللهم انه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يُحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائه دينار . فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها .

« فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه . فقمت عنه ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة . ففرج لهم .

« وقال الآخر : اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق « إناء يسع ثلاثة آصع » أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطني حقي ، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه .. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها فقال : اتق الله ولا تظلمني حقي ! قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فقال : اتق الله ولا تستهزىء بي ! . فقلت : إني لا أستهزىء بك . خذ ذلك البقر ورعاءها ! فأخذه فذهب به .

« فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي ، « ففرج الله ما بقي » .

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام في التعليم بالقصص .

فانظر إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة كما جاء في مختار مسلم حيث قال : « كان رسول الله إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم

إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا » .

وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر والوصايا .

قائد بلا نظير

.. **عندما** تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها ، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وان حرباً تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة ، وان نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل ، وان المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم . فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة .. هي استضخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة .

لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون .. بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يُركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة .

وهذه الفكرة هي التى ترينا محمداً عليه السلام قائداً حربياً بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام .

وهذه القدرة هي أكبر شهادة للرسول ﷺ تأتي عن طريق السماء ، للقائد الخبير بفنون القتال .

ويزيد هذه الشهادة عظماً أن الرجل كان يتجنب القتال في غير ضرورة . رجل شجاع غير هياب .. ولقد سبق أن روينا ما قاله الإمام على كرم الله وجهه . من أنه إذا حميت الوطيس كنا نتقى برسول الله » وأنه عليه الصلاة والسلام كان دائماً في المقدمة .

.. شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجرر فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال .

فلولا ثباته في وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين ، لَحَقَّتْ الهزيمة على المسلمين .

وخروجه والليل لما يُسْفِرْ عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعاً ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تَدْعُهُ إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شيء .. لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع والحراسة وهو قرير العين في داره .. ولكنه أراد ﷺ أن يرى بنفسه . فلم يثنه خوف ولا داخله وجل لأنه البطل الشجاع الذي لا يرهبه شيء — ولا يخاف من شيء غير الله وحده » .

وغضي مع العقاد الذي يقول :

والدعوة في الحرب لها غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة .. أحدهما إقناع خصمك والناس بحقك وهذا قد تكفل به القرآن والإسلام .

وثانيهما : إضعافه عن قتالك وتخذيله بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه .. وربما بلغ النبي برجل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين ، وبدر الأموال .

قال ابن إسحق ما ننقله ببعض تصرف : « ان نعيم بن مسعود الغطفاني أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي .. فمرني بما شئت .

فقال رسول الله : **إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة** .. أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا .

« فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ــ وكان لهم نديماً في الجاهلية ــ فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودِّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم .

« قالوا : صدقت .. لست عندنا بمتهم .

« فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم .. البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه . وقد ظاهرتموهم عليه .. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره .. فليسوا كأنتم !.. فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل

ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمداً حتى تناجزوه .

« فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

« ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً . وانه قد بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم .. فاكتموا عني !

« قالوا : نفعل .

« قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟.. فأرسل إليهم أن نعم .. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهمونني . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

« قال : فاكتموا عني .

« قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟..

« فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

« فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان ابن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من

قريش وغطفان ، فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر .. فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بمقاتلي محمد حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

« فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلي بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

« وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

« ... وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تُكفأ قدورهم وتُطرح أبنيتهم .. ثم رحلت .. ثم رحلت قريش وغطفان إلى بلادها ، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعاً إلى المدينة » .

هذه دعوة نعيم بن مسعود ..

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انْتُهِزَتْ فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التي تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة .. فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال في الوقت الذي ينبغي أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هي دعوة الإضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون » .

حســن الإدارة

.. **ليس** في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة أن يؤسس إدارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة .

أما السليقة المطبوعة على انشاء الإدارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام ، وتعرف التبعة ، وتعرف الاختصاص بالعمل ، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه .

وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما تكون .

كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج إلى تدبير . ومن حديثه المأثور « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » . ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة إذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة . وكان قوام الرئاسة والأمامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة ، وهما الكفاءة والحب : « **أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين** » .

و « **أيما رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه** » .

وكان إلى عنايته باسناد الأمر إلى المدبر القادر عليه حريصاً على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر ، على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قال : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه . والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » .

وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصاراً كانوا أو مهاجرين ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحداً يدعي لنفسه حقا في إقامة الحدود ، وإكراه الناس على طاعة الأوامر ، واجتناب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس » .

وتقول كتب السيرة .

وقف عليه السلام خطيباً ذات يوم فقال :

« أما بعد ،

فإني أستعملُ الرجل منكم على العمل مما وَلاّني الله ، فيأتي فيقول : هذا لكم .. وهذا أُهْدي إليّ ..

« أفلا جلس في بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ..؟؟

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقيَ الله يحمله يوم القيامة ..

« اللهم هلْ بلَّغْت .. » !!

ولنقرأ هذا النبأ الذى ترويه كتب السيرة في أكثر من موضع ودلالته ناطقة بحرمانية انتهاب الأموال العامة :

أهدى رفاعة بن زيد للرسول خادماً ..

وفي غزوة وادي القرى أصابه سهم وهو يحط رَحْل رسول الله ﷺ .

فأقبل الصحابة على الرسول يُعزّونه ، ويقولون : هنيئاً له يا رسول الله ، لقد ذهب شهيداً .

فأجابهم الرسول ﷺ .. قائلاً :

« وما يدريكم .؟ إن الشملة التي أخذها يوم خيبر لتشتعل عليه ناراً » .

يا أمان الخائفين .. مجرد شملة .. أوقعته في النار وأشعلتها فيه .. فما هو يا ترى مصير الذين ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم من مال الله أو مال الناس !

تدبير الشؤون العامة

ـــ **ويقول** العقاد رحمه الله عن ذلك .

.. على أن الإدارة العليا إنما تتجلى في تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الإدارة كلها نصوصاً وقواعد يجري الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات والموازين التي تصرف الشئون على نسق واحد ، ولكنها في كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك .

وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمد ﷺ في حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام . فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء ، وأدناها إلى السلم والارضاء .

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في مكانه ، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة ، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار إحدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيثار من طريق المصادفة والاقتراع ، فأشار محمد بالرأي الذي لا رَأْيَ غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول . فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه ، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان ، وأن يُسَنِّف (يُظْهِرَ) الدعوة وهي مكنونة في طوايا الزمان ، ولو علموا بها يؤمئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن .

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة .. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها ، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية .

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أُناساً من أهل مكة الضعيف إيمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها ، بل تُريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع والإقناع في وقت واحد : « **أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء أبناء الأنصار** .. » .

جوامع الكلم

.. إلا أن الابلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات .

ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين في قوله :

« **أحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً** » .

ومن أمثلته علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله :

« كما تكونوا يولَّ عليكم » ..

وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام .

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء .

وكان بليغاً مبلغاً على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية . وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين .

من ذلك .. وهو كثير .. وكثير جداً وهذا بعض القليل منه :

« من خاف أدْلَـجَ .. ومن أدلج بلَغ المنزل » .

،،،،،

« ألاَ إن سِلْعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » .

،،،،،

« لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم » ..

،،،،،

« لا يكونَنَّ أحدكم إمَّعَة » .

،،،،،

و « الإمَّعَة » إنسان وضع نفسه تحت أقدام العجز ، ودَحْرجَها على أرض المهانة ..

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

،،،،،

« خيرُ الصداق أَيْسَرُه » .

،،،،،

من أخذ من أموال الناس يريد أداءها . أدَّىٰ الله عنه . ومن أخذ من أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله .

،،،،،

« مَطْلُ الغَنِّي ظُلم » .

« من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة ، فلينفّس عن مُعْسر ، أو يضع عنه » ..

«««««

« كان فيمن قبلكم تاجر يُداينُ الناس ، فكان إذا رأى مُعْسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه ؛ لعلَّ الله يتجاوز عنا .. فتجاوز الله عنه » ..

«««««

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذَرَّة من كِبر » .

«««««

ادْرءُوا الحدودَ بالشبهات » .

«««««

« إن الإمام إنْ يُخطْىء في العفو ، خير مِنْ أن يخطىء في العقوبة » .

«««««

« إن الله يعذب الذين يعذِّبون الناس في الدنيا » .

«««««

« من يُحرم الرفق ؛ يحرم الخيرَ كلَّه » .

«««««

« اللهمَّ من وَلي من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم ، فاشْقُقْ عليه : ومَنَ وَلي من أمْر أمتي شيئا فرَفق بهم فارفق به » .

«««««

دَخلَت امرأة النار في هرَّة حَبَستْها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض » ..

«««««

« خيرُ الأصحاب عند الله ، خيرُهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله ، خيرُهم لجاره » .

«««««

« من أسْدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به ، فادْعُوا الله لَه » ..

«««««

« ليس مِنَّا مَن لم يرحَم صغيرنا ، ويَعرف شَرَف كبيرنا » ..

«««««

« أنزلوا الناس مَنازلهم » ..

رأيه في الشعر

.. **ويقول** العقاد رحمه الله :

.. لقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأي النبي في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفني وتدخل في كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بمقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة . ومنها قوله : « **أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد** « **ألا كل شيء ما خلا الله باطل** » . وقوله عن امرىء القيس أنه صاحب لواء الشعراء إلى النار ، وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود ، فكان يقول مثلاً « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس : « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً » قدم كلمة الإسلام فقال : « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً » لينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون .

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النضح عن الإسلام والذود عنه وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم في قواعد النقد والانشاء ..

وقد جاء فيما روته كتب السيرة أنه جلس ﷺ يوماً في فناء بيته يخصف نعله ، وعلى مقربة منه جلست « عائشة » تطهو طعاماً .. ونظرت إليه فوجدته يعاني خصف نعله في مشقة وكَبَد ، وجبهته تتفصد عرقاً .. وأرادت أن تسليه ، فقالت :

« لكأنك المعْنِّي بقول الشاعر يا رسول الله فتهلل وجهه ، وقال : وماذا قال يا عائشة ..؟؟ » .

قالت :

ومُبَرَّإٍ من كل غُبَّرِ حيضةٍ وفساد مرضعةٍ ، وداءٍ مُعْضِلِ
وإذا نظرتَ إلى أسِرَّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلّلِ

وإذا الرسول يضحك في جذل عظيم ، ويغمره حبور مشرق ، ويقول ، وقد أفعمته النشوة :

« لا فُضَّ فُوك يا عائشة .. »

« لا فُضّ فُوك يا عائشة .. »

كما سمع ﷺ من كعب بن زهير قصيدته الشهيرة

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ
مُتَيَّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

وفيها يقول :

إن الرسول لَنُورٌ يستضاءُ به
وَصارِمٌ من سيوف الله مسلولُ

عطوف ودود

ونختم هذا الفصل بمجمل لما روى وكتب عن عطفه ووداده ﷺ — لنرى في الفصل التالي محبته ﷺ .. وما كان ويكون لها من شأن .

« كان ﷺ عطوفاً يرأم من حوله ويدوم لهم على المودة طول حياته وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام .

كان صبياً في الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره ..

وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى ..

وليس في سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ، فيلقاها هاتفاً بها : أمي ! أمي ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده ... كأنه يذكر : ما لذلك الثدي عليه من جميل ، ويعطيها من الإبل والشاء ما يغنيها في السنة الجدباء .

ولقد وفدت عليه هوازن وهي مهزومة في وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة .. لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبي إلى المسلمين أن يردوا السبي من نساء وأبناء ، واشترى السبي ممن أبوا رده إلا بمال .

وحضنته في طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه فقال لأصحابه : « من سرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن ... » . وما زال يناديها يا أمة يا أمة كلما رآها وتحدث إليها ، وربما رآها في وقعة قتال تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجمية ، فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغي إليها ويعطف عليها .

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع . فما نهر خادما ولا ضرب أحداً ، وقال أنس : « **خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟** » .

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفساً ، صافي القلب إذا كره شيئا رؤي ذلك في وجهه ، وإذا رضي عرف من حوله رضاه .

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوي الرحم . فكان يضع الإناء للهرة لتشرب ، وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى

المسلمين « إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين » وكرر الوصايا بها أن « اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » .

وقال : « **ان الله غفر لامرأة مومسة مرَّت بكلب على رأس ركي يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك** » .

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد . كأنه من الاحياء فكانت له ﷺ : قصعة يقال لها الغراء . وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار .. وكانت له درع موشحة بنحاس تسمىٰ ذات الفضول .. وكان له سرج يسمىٰ الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمى الصادر ومرآة تسمى المدلة ومقراض يسمىٰ الجامع . وقضيب يسمىٰ المشرد .. وفي تسميته ﷺ تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التي يجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناويين .. وكأن لها « شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها كما يتميز الأصحاب بالوجوه والملامح والكنى والالقاب » .

ضوء الطاعة .. وضياء المحبة

﴿ يَوْمَ لاَ يُخزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه نُورُهم يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأَيْمَانِهِمْ يَقُولونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنَا إنكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ (التحريم : آية ٨) .

هذا هو حال المؤمنين يوم تَبْيضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ وتَذْهَلُ كلُّ مرضعةٍ عما أَرْضَعَتْ وَتَرَى الناسَ سكارَىٰ وما هُمْ بِسُكَارَىٰ ولكنَّ عذابَ اللهِ شديد .. والساعةُ أدهى وأمرّ .

ولكن من هم المؤمنون ؟

الحق سبحانه وتعالى يصفهم في محكم كتابه بسورة النور فيقول :

﴿ إنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَىٰ اللهِ ورسُولِه ليحكُمَ بَينُهمْ أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وأطَعْنَا وأُوْلَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ ۞ ومن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ وَيَخشَ الله وَيَتَّقْهِ فأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائزُونَ ﴾ (آية ٥١) .

ولقد أوجب الله على عباده طاعة نبيه ﷺ وجعلها مقرونة بطاعته سبحانه وتعالى فقال بذلك في أكثر من موضع بالقرآن الكريم منه :

﴿ قل أطيعوا اللهَ والرسولَ فإن تولَّوْا فإن اللهَ لا يحبُّ الكافرين ﴾(آل عمران : آية ٣٢) .

﴿ وأطيعوا اللهَ والرسولَ لعلكم تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران : آية ١٣٢) .

﴿ ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ يُدْخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوزُ العظيم ﴾ (النساء : آية ١٣) .

﴿ ومن يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئكَ مع الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وَحَسُنَ أولئكَ رفيقا ﴾ (النساء : آية ٦٩) .

﴿ مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أَطَاعَ اللهَ ﴾ (النساء : آية ٨٠) .

﴿ فآمنوا باللهِ ورسولِهِ النبيِّ الأميِّ الذي يؤمنُ باللهِ وكلماتِهِ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (الأعراف : آية ١٥٨) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ ورسولَهُ ولا تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون ﴾ (الأنفال : آية ٢٠) .

﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمونَ الصلاة ويؤتونَ الزكاةَ ويُطيعون اللهَ ورسولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إن اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾ (التوبة : آية ٧١) .

﴿ ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد فاز فوزاً عظيما ﴾ (الأحزاب : آية ٧١) .

وقد قرن الله عز وجل محبة الرسول ﷺ بمحبته فقال تعالى :

﴿ إن كُنْتُم تُحبُّون الله فاتَّبِعُونى يحببكم اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبكم ﴾ (آل عمران : آية ٣١) .

ومن هنا كانت محبة الرسول ﷺ رفقاً بطاعته عليه الصلاة والسلام .

ولئن كانت طاعته عليه الصلاة والسلام نوراً يضيء للمؤمنين طريق الهدى والرشاد .. فإن محبته ﷺ ضياء للقلوب يجرى مجرىٰ الدم فيها .. أو هو بالأصح نفس يتنفس به المؤمنون . ووهج ينيلهم سعادة الدارين .. كما هو فرض لا يكمل إيمان المرء إلا به لما أمر به القرآن مما ذكرنابعضاً منه آنفاً ولما جاء في الحديث الشريف ـــ كما سنشرح ذلك مفصلاً فيما يلي .

في الحـــديث

روى الامام البخاري بسنده في الصحيح بباب « حب رسول الله ﷺ من الإيمان » قال « قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

كما روى البخاري أيضاً في باب « حلاوة الإيمان » عن أنس عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما . وان يحب المَرْءَ لا يحبه إلا لله وان يكره ان يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

وقد جاء في « جواهر البخارى » شرح القسطلاني من حديث عبد الله بن هشام ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ « لأنت يا رسول الله أحب الي من كل شيء إلا نفسي » فقال :

لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر : فإنك الآن أحب الي من نفسي .. فقال النبي ﷺ الآن يا عمر » .

وقال القرطبي .. « كما ورد في جواهر البخاري » .. كل من آمن بالنبي ﷺ ايمانا صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة غير أنهم متفاوتون فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأولى . ومنهم من أخذ منها بالحد الأدنى كمن كان مستغرقا في الشهوات محجوبا في الغفلات لكن الكثير منهم إذا ذُكر النبي ﷺ اشتاق الي رؤيته « ﷺ » بحيث يؤثرها على اهله وولده ووالده . ويبذل نفسه فى الأمور الخطيرة ويؤثر زيارة قبره ورؤية موضع آثاره لما وقر في قلوبهم من محبته ﷺ » .

وفي باب الاقتداء بسنته ﷺ « بجواهر البخاري » رحمه الله : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو

نائم ، فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان فقالوا : ان لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار واكل من المأدبة ومن لم يُجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا أولوها له ﷺ يفقهها فقال بعضهم : انه نائم وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان فقالوا : فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن اطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس » .

ويقول شيخ الإسلام الإمام ابن تيميه رضي الله عنه في الفتاوي — الجزء العاشر — باب السلوك — « عبد الله من يُرضيه يرضى الله ويُسخطه ما يُسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله وبغض ما أبغضه الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي اعداء الله تعالى وهذا هو الذي استكمل الإيمان كما في الحديث « من أحب الله وابغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » وقال « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » .

ويضيف الامام ابن تيمية رحمه الله قائلاً : « وفي الصحيح عنه ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وان يحب المرء لا يحبه إلا لِلهِ ومن كان يكره ان يرجع إلى الكفر بعد أن انقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار » فهذا وافق ربه فيما يُحبه وما يكره فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما واحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا من تمام حبه لله فان محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب فإذا أحب أنبياء الله واولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم الله لا لغيره وقال الله تعالى : ﴿ **فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبهم ويحبونه أذِلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين** ﴾ (المائدة :

آية ٥٤) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ (آل عمران : آية ٣١) . فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به فمن كان مُحبا لله لزم أن يتبع الرسول فيُصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسى فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله » .

الرسول وصحبه

ولقد أحب الرسول ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار فبشر بعضهم بالجنة . ووعد الآخرين بها ما داموا محبين لله وللرسول . فلقد سأله ﷺ أعرابى :

متى الساعة .. يا رسول الله ؟

فقال الرسول ﷺ : **وما أعددت لها ؟**

فرد الأعرابي : ما أعددْتُ لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة . ولكن أُحب الله ورسوله .

فيرد عليه الرسول ﷺ مطمئناً : **أنت مع من أحببت .**

وفي الحديث

« جيء الرسول ﷺ ذات يوم برجل قد شرب خمراً .. فلما أبصره أصحابه قالوا : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به شارباً .. فصاح الرسول فيهم : لا تلعنوه ، فإنه يحب الله ورسوله .. !! ..

ويروي أنس رضي الله عنه هذا الحديث فيقول : « دخل النبي ﷺ على شاب وهو في الموت ، فقال : كيف تجدُك ..؟

فقال : أرجو الله ، يا رسول الله وأخاف ذنوبي ...

« فقال ﷺ :

لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنهُ مما يخاف » .

وخرج رسول الله ﷺ إلى بئر ليغتسل وهناك وقف حذيفة بن اليمان ممسكا ثوبه ليستره به . ثم قام حذيفة بدوره ليغتسل . فأمسك الرسول ثوبه ليستره به وأصر على ذلك قائلا :

يا حذيفة : **ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه . وإن مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى .**

ويروي سعيد بن المُسَيَّب عن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال :

« سألت ربي عز وجل فيما اختلف فيه أصحابي من بعدي ، فأوحى الله إليّ : يا محمد أن أصحابك عندى بمنزلة النجوم بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشيء فيما هم عليه من اختلافهم ، فهو عندي على عهدى »

ويروي أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« معاشر المسلمين لو عبدتم الله حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتاد ، وصليتم حتى كف الركب منكم ثم أبغضتم واحداً من أصحابي .. لأكبكم الله على مناخركم » .

وكان ينهى أصحابه عن أن ينقلوا إليه أخبار الآخرين فيقول لهم : « لا تحدثوني عن أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم منشرح الصدر .. » .

.. ويكرم أصحابه .. فيقول لصاحب له مسافر :

« **لا تنسني من دعائك يا أخي** » .

لقد أكرم الله أصحاب الرسول ﷺ بالكثير .. ومنَّ عليهم الرسول بأن جعل للصحبة عطاء ، وكيف لا وهو القائل « **إن الله يسأل عن صحبة ساعة** » .

الحب الكبير

ولقد تفانى الصحابة رضوان الله عليهم في حب الرسول وفداه جمعهم بكل ما يملك .. فقد مر بنا الحديث الذي جاء في صحيح البخاري رحمه الله وقال فيه راويه :

كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : يا رسول الله لأنت أحب الي من كل شيء إلا من نفسي .

فقال النبي عليه السلام : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر : فالآن والله أنت أحب الي من نفسي » .

فقال النبي ﷺ .. الآن يا عمر .

ومن صور الحب ما رُوى عن أبي بكر الصديق .. ثاني اثنين إذ هما في الغار .. حيث وضع الصديق قدمه في شق بالغار لأنه خشى ان تجيء حشرة من الحشرات تؤذي النبي عليه السلام .

ومن قبل في مكة وقد أغمي عليه من بعد ما ضربه اعداء الإسلام لقيامه بالدعوة إلى الإسلام .. فلا يبحث عن غير محمد ويقول : أروني محمداً ﷺ وما أن رأى الرسول عليه السلام حتى يقول : كل ما أجد قد زال برؤيتك يا رسول الله .

كما روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه ــ يعني أباه أبا قحافة ــ

وذلك لأن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك » كما قال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنه : ان تُسلم أحب اليّ من أن يسلم الخطاب لأن ذلك أحب إلى رسول الله ﷺ .

وسئل الإمام علي كرم الله وجهه كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ فقال : **كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وأبنائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ .**

وعن ابن اسحق ان امرأة من الأنصار قتل أبوها واخوها وزوجها يوم أُحد .. فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ .. قالوا خيرا هو بحمد الله كما تُحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل .

وعندما احتضر بلال قالت زوجته ــ وآحزناه ــ فقال بلال رضي الله عنه : واطرباه غداً ألقى الأحبة محمد وحزبه .. ولما أخرج الكفار زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب : أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك يُضرب عنقه وأنك في اهلك ؟ فقال زيد رضي الله عنه ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة واني جالس في أهلي » .

وروى أنه لما نزلت هذه الآيات البينات :

﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا ترفعوا أصواتَكم فوقَ صوتِ النبيِّ ﴾
(الحجرات : آية ٢) .

﴿ لا تَجعلوا دعاءَ الرسولِ بينَكم كَدُعَاءِ بعضِكم بعضاً ﴾
(النور : آية ٦٣) .

قال أبوبكر رضي الله عنه : والله يا رسول الله لا أكلّمك بعدها إلا كأخي السرار . وأن عمر رضي الله عنه إذا حدَّثه ؛ حدَّثه كأخي

السرار . وروي عن عمرو بن العاص أنه قال : « ما كان أحد أحبّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له . ولو سُئلت أن أصِفه ما أطقتُ لأني لم أكن أملأ عيني منه » .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وهم جلوس وفيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم لهما » .

وما ذلك إلا من فرط حبهم له وتعلقهم به وإجلالهم لهيبته .

حب مستمر

.. **وقد** ظل .. وسيظل حب المؤمنين لرسول الله ﷺ حتى قيام الساعة .. وذلك بدوام طاعته والاهتداء بهديه والاقتداء بسيرته .. ولهذا كان المحبون في تواصل .. وكان تقدير النبي ﷺ — بإلهام من الله — حتى للذين سيجيئون بعده .

يقول الكاتب الإسلامي خالد محمد خالد في كتابه « كما تحدث الرسول » .

« إن الصحبة الروحية من أزكى أنواع الصحبة وابقاها وانقاها .

والصحبة الروحية هي تلك التي تجمع بين قلوب المؤمنين المباركين من عباد الله .

انظـــروا ...

هذا « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه مع جلال قدره وسبقه يظل يسأل الوفود القادمة من اليمن عن رجل لم يعرفه قط ولم يَلْقَهُ من قبل ..

لكنه سمع الرسول عليه السلام يتحدث عنه في حب وتقدير ـــ ذلكم هو « أُويس بن عامر القَرَني » .

لقد عاش (عمر) سنين عدداً تحمله أشواقه إلى هذا الرجل الصالح .

وكلما التقى بوفد من وفود اليمن سألهم عنه حتى التقى به ذات يوم فكان من أسعد أيام حياته .

قال له عمر حين لقيه : لقد أوصاني رسول الله إن لقيتُك أن تستغفر لي ..

فاستغفر له (أُويس) ودعا له ..

ثم سأله أمير المؤمنين وقد علم منه أنه يقصد الكوفة :

ألا أكتب لك إلى عاملها ؟

قال أُويس : أكون في غبراء الناس أحب إليَّ . !!

الآخرون السابقون

وقصة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أُويس رحمه الله تدفعنا لاسترجاع بعض سير الصالحين من تابعي الرسول باحسان .. وعن ذلك يتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « الفرقان » عن أولياء الله وأحبائه فيقول :

« وافضل أولياء الله هم انبياؤه وافضل انبيائه هم المرسلون منهم ، وافضل المرسلين أولوا العزم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ (الشورى : آية ١٣) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أَخذْنا من النبيين مِيثاقَهُمْ ومنك ومن نُوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى بنِ مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا * ليسأل الصادقينَ عن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ للكافرين عذاباً أليما ﴾ (الأحزاب : آية ٧ ، ٨) .

ويمضى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول : وأفضل أولى العزم : محمد ﷺ خاتم النبيين وامام المتقين وسيد ولد آدم وامام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا صاحب المقام المحمود الذي يغبطه الأولون والآخرون . وصاحب الحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة . وصاحب الوسيلة والفضيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن كان قبلهم . وهم آخر الأمم خلقا وأول الأمم بعثا . كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ـــ يعني يوم الجمعة ـــ فهدانا الله له . الناس لنا تبع فيه . غدا لليهود وبعد للنصاري » .

وقال ﷺ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض » . كما قال عليه الصلاة والسلام « آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن . من أنت ؟ فأقول : أنا محمد فيقول : بك أُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » وفضائل أمته كثيرة » .. انتهى .

الفضـــائـل

لقد أوتى الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه السبع المثانى والقرآن العظيم .. وهو معجزته الخالدة إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين ويقف نبي الرحمة ﷺ بعد أن يعتذر كل نبي عن الشفاعة إلى الله .. فيقول : أنا لها ، أنا لها .

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى جانب ذلك بعضاً من الفضائل التي خص الله بها نبيه محمداً ﷺ مما ثبت في الصحاح . فيقول في كتابه « الفرقان » :

« وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة أتباع رسول الله ﷺ . فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ . مثل انشقاق القمر وتسبيح الحصا في كفه واتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه واخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس ، واخباره بما كان وما يكون ، وإتيانه بالكتاب العزيز ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة كما أشبع في الخندق العسكر من قِدْرِ طعام وهو لم ينقص في حديث أم سليم المشهور ، وروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص . وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهو نحو ثلاثين ألفا ، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه ، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائه أو خمسمائة ، ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه ، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الاشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرأت ، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلا كل منهم جزَّ له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ، ثم فضل فضله وقضى دين عبد الله بن جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقا .

قال جابر : فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له ، فلم يقبل ، فمشى فيها رسول الله ﷺ ، ثم قال لجابر : جُد له فوفاه الثلاثين وسقا ، وفضل سبعة عشر وسقا ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة ».

كرامات الصحابة

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عما أكرم به نبيه ﷺ من المعجزات ثم ذكر بعد ذلك جانبا من الكرامات التي نالها صحابة رسول الله ﷺ وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين مما حصل للأنبياء أو الرسل السابقين .. فقال :

« وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً مثل ما كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء ماء مثل الظلة فيها أمثال سراج ، وهي الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صَحْفَةٍ فسبحت الصَّحْفَةُ أو سبح ما فيها ، وعياد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نوراً مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما » رواه البخاري وغيره .

ويمضي شيخ الإسلام في تعديد ذلك فيقول : وقصة الصديق في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسلفها أكثر منها . فشبعوا وصارت أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثير فأكلوا منها وشبعوا » .

وخبيب بن عدى كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة .. وعامر بن فهيرة قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع ، وقال عروة : فيرون الملائكة رفعته .. وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا هو دلو معلق فشربت منه رويت وما عطشت بقية عمرها .

وسُفينة مولى رسول الله ﷺ . أخبر الاسد بأنه رسول رسولِ الله ﷺ فمشى معه الاسد حتى أوصله مقصده .. والبراء بن مالك كان إذا اقسم على الله تعالى ابر قسمه ، وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون : يا براء اقسم على ربك ، فيقول : يارب أقسمت عليك لما منحتنا اكتافهم ، فيُهزم العدو . فلما كان يوم القادسية ، قال : اقسمت عليك يارب لما منحتنا اكتافهم وجعلتنى أول شهيد ، فمُنحوا اكتافهم وقتل البراء شهيدا .. وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا . فقالوا : لانُسلِم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره .. وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ، ما دعا قطا إلا أستجيب له . وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق .. وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشا أمَّر عليهم رجلا يسمى سارية . فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل . يا سارية الجبل . الجبل . فقدم رسول الجيش فسأله ، فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا فإذا بصائح : يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .. ولما عُذبت الزنيرة على الإسلام في الله فأبت إلاّ الإسلام وذهب بصرها ، قال المشركون أصاب بصرها اللات والعزى . قالت : لا والله . فرُدَّ عليها بصرها .. ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فعميَ بصرها لما كذبت عليه ، فقال اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها ، فعميت في حفرة من أرضها فماتت ».

كرامات خارقة

هذا ما رواه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . مما حصل من الكرامات لأصحاب رسول الله ﷺ بفضل حسن اتباعهم له .. بل لقد ذكر ما هو أكثر من ذلك مما وقع لأصحاب الرسول ﷺ كالمشى على الماء والنجاة من النار مثلما حصل لموسى وابراهيم عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (الفرقان) .

« والعلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين ، وكان يقول في دعائه : **يا عليم يا حليم يا عليٌّ يا عظيم** . فيُستجاب له . ودعا الله بأن يُسقوا ويتوضأوا لما عدموا الماء والاسقاء لما بعدهم ، فأُجيب . ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم . فمروا كلهم على الماء ما أبتلَّتْ سروج خيولهم . ودعا الله أن لا يروا جسنده إذا مات . فلم يجدوه في اللحد . وجرى مثل ذلك لأبي مسلم الخولاني الذي أُلقى في النار . فانه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها . ثم التفت لأصحابه فقال : تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم . فقدت مخلاة ، فقال : اتبعني ، فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها ، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة ، فقال أتشهد أني رسول الله ؟ قال ما أسمع ، قال أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقى فيها ، فوجدوه قائماً يصلى فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً .. وقدم إلى المدينة بعد موت النبي ﷺ ، فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضي الله عنهم ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بابراهيم خليل الله ، ووضعت له جاريته السم في طعامه فلم يضره ، وخببت امرأة عليه زوجته ـــ سعت بافسادها ـــ فدعا عليها فعميت وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

وكان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه الفى درهم في كمه وما يلقاه سائل في طريقه إلا اعطاه بغير عدد ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولاوزنها ، ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال . انما أنت كلب من كلاب الرحمن ، واني استحى من الله أن اخاف شيئا غيره ، ومرت القافلة ودعا الله تعالى أن

يهون عليه الطهور في الشتاء فكان يؤتى بالماء له بخار ، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه » .

ومع التابعين

ثم يواصل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حديثه فيما وقع للتابعين من الفضائل من بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فيقول :

« وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات ، فدعا الله عز وجل فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج فخر ميتا » .

وصلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق عَلَيَّ منة ، ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه ، فلما وصل إلى بيته قال : يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية ، وأخذ سرجه فمات الفرس .. وجاع مرة وهو بالأهواز فدعا الله عز وجل واستطعمه فوقعت خلفه دوقلة رطب في ثوب حرير ، فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانا ، وجاءه الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل ، فلما سلم ، قال له : أطلب الرزق من غير هذا الموضع ، فولى الأسد وله زئير .

ورجل من النجع كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه : هلم نتوزع متاعك على رحالنا ، فقال لهم : امهلوني هنيهة ، ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ولما مات أويس القرني ــ من سادات التابعين بشر به الرسول ﷺ كما جاء في صحيح مسلم ــ وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبرا محفوراً فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب .

وكان عمر بن عقبة بن فرقد يصلي يوما في شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم .

وكان مطرِّف بن عبد الله الشخِّير (عابد فاضل توفي رحمه الله سنة ٥٥ هـ) إذا دخل بيته سبَّحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط .. ولما مات الأحنف بن قيس ــ سيد تميم يضرب به المثل في الحلم توفي رحمه الله سنة ٦٧ هـ ــ وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر .. وكان ابراهيم التيمي ــ عابد مشهور توفى سنة ٩٢هـ ــ يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئا وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ، ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء . فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا .. وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال صوتاً حسناً ودمعا غزيرا وطعاما من غير تكلف ، فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه جارية دهره ، وكان يأوى إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه .. وكان عبد الواحد ابن زيد (من الزاهدين توفي سنة ١٩٧ هـ) أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء ، فكان وقت الوضوء يطلق له أعضاءه ثم تعود بعده » .

وهذا باب واسع كما يقول شيخ الإسلام .. وإلا فإن هناك ما هو أكثر .. وأكثر .. ويكفي فيما ذكرنا أن جميع المعجزات التي حصلت للرسل من قبل قد أوتيها أصحاب محمد ﷺ وتابعوهم .. وهذا ما ينفي أنه ﷺ كغيره من الرسل .. فهو كما أخبر عليه السلام : « خاتم الرسل وسيد ولد آدم ولو كان الرسل جميعاً أحياء لما وسعهم إلا اتباعه ، وكذلك أممهم وفقا للميثاق الذي نص عليه القرآن .. وكفاه بذلك فخراً وسؤدداً » .

فاللهم صَلِّ وسلم وبارك على خير خلقك الذي أرسلته هدى ورحمة للمؤمنين .

نبي الرحمة سبيلا

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الحشر : ﴿ **وما آتاكُمُ الرسولُ فَخُذُوهُ وما نهاكم عنه فَانْتَهوا ، وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ شديدُ العقاب** ﴾ (آية : ٧) .

كما يقول سبحانه في سورة الأحزاب : ﴿ **وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أنْ يكونَ لهمُ الخِيَرةُ مِن أَمْرِهِم** ﴾ (آية ٣٦) .

ويحدد الرسول ﷺ مكانته ودوره في كلمات جليلة فيقول :

« **مَثَلي ومَثلكم ، كمثَل رجل أوقَدَ ناراً ، فجعل الجنادِبُ والفراش يقعن فيها ، وهو يذُبُّهن عنها .. وأنا آخِذٌ بحجزِكم عن النار ، وأنتم تُفْلتون من يدى ..!!** » .

وعندما بُعث الرسول ﷺ كانت قريش تعيش الجاهلية الأولى سادرة في غيها لآهية بأوثانها فعميت بصيرتها عن رؤية نور الحق الذي جاء به رسول الهدى ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .. وما ذلك الاَّ لأن زعماء الكفر والضلال فيها لم يروا في محمد ﷺ غير يتيم أبي طالب .. أما الذين هداهم الله واتبعوا النور الذي جاء به عليه الصلاة والسلام فقد كانت محبتهم لمحمد الصادق الأمين طريقهم إلى الإيمان فقالوا ﴿ **ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول** ﴾ (آل عمران : آية ٥٣) .. و ﴿ **ربنا إننا سمعنا مُنادياً يُنادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربَّنا فَاغْفِرْ لنا ذُنوبَنا وكَفِّرْ عنا سيئاتِنا وتَوَفَّنَا مع الأبرار * ربنَا وآتِنَا ما وعدتَنَا على رسُلك ولاَ تُخزنا يومَ القيامةِ إنك لا تُخلفُ الميعاد * فاستجابَ لهم ربُهم أنى لا أضيعُ عملَ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى** ﴾ (آل عمران : آية ١٩٣ ــ ١٩٥) .

ولقد أدى نبي الرحمة ﷺ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .. وما أحرانا ونحن نعيش جاهلية القرن العشرين أن نستعيد طرفا من سيرته ﷺ في حياته ومعاملته لأهله وتوجيهه لمن تبعه رجاء الاهتداء والاقتداء به . وبسيرته الشريفة التاريخية من يوم ميلاده ﷺ إلى ما بعد هجرته وانتشار الدعوة الإسلامية التي صلح بها أمر من قبلنا ولن يكون صلاح حالنا اليوم إلا بالعودة إلى الله واتباع ما جاء به الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه وما كان عليه من قول وعمل يجب الاهتداء بهما والاقتداء بتعاليمهما امتثالا لقوله تعالى ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ (الأحزاب : آية ٢١) . وهذا لا يكون إلا بالمحبة الصادقة للرسول الكريم ﷺ لأنه قدوة المهتدين في الفضائل والمناقب .

فلقد روى أبو داود والترمذي وصححه ابن ماجه وابن حبان عن العِرْبَاضِ بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا .. فقال ﷺ :

« **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإنْ تَأمَّر عليكم عَبْدٌ حبشي ، وانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا .. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ** » .

وروى الطبراني بإسناد جيد كما جاء في « المتجر الرابح » الذي حققه فضيلة الشيخ عبد الملك بن دهيش ، عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، قالوا : بلى ، قال : ان هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً » .

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه النسائي : أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا ندعو الله ونحمده على ما هدانا لدينه ، وما منَّ علينا بك قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك قال : « أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم وإنما أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله عز وجل يُباهي بكم الملائكة » . وقال عمر بن عبد العزيز : سَنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً ، الأخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله . ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها . ومن اقتدى بها فهو مهتد . ومن انتصر بها فهو منصور . ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاَّه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً ».

أحســـن الشـــمائل

أكرم الله نبيه محمداً ﷺ بالخُلق الحسن فقال عز من قائل : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ . فكان بهذا أحسن الناس على الإطلاق في صفاته وشمائله .

وفي كتاب « الإنسان الكامل » الصادر عن دار القبلة لفضيلة الدكتور السيد محمد بن علوي المالكي الحسنى فصل في هذا الشأن يقول فيه :

« من أكمل ما جاء في وصفه حديث الحسين عن أبيه على بن أبي طالب رضي الله عنهما إذ تحدث فيه عن جملة من أحواله ، وفيما يتعلق بمعاملة الخلق ومعاشرتهم يقول رضي الله عنه في الحديث المشهور في الشمائل :

وكان من سيرته في جزء الأمة ايثار أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج

فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والامة « أي يكون مشغولاً بطلباتهم » من مسألتهم عنه واخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغها فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبّت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره يدخلون رواداً ولا يفترقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة « يعنى على الخير » .

قال الحسين رضي الله عنه فسألت أبي « عليا رضي الله تعالى عنه » مخرجه كيف كان يصنع فيه : قال كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويُحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره وخلقه ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويُحسن الحسن ويقويه ويُقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه .

الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، واعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

وقال الحسين فسألته : أي عليا رضي الله عنه — عن مجلسه ﷺ كيف كان ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى ولا يوطن الأماكن وينهي عن إيطانها .

وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك .

يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف .

ومن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء . مجلسه

مجلس علم وحياء وصبر وأمانة . لا تُرفع فيه الأصوات ولا تُؤْبَن فيه الحرم ولا تثنى فلتاته متعادلين بل كانوا يتناضلون فيه بالتقوى متواضعين . يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

وقال الحسين وسألت أبي عليا رضي الله عنه ــ عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه فقال : « كان رسول الله ﷺ دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح « وفي نسخة صحيحة » ولا مداح ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يُؤيس منه راجيه ولا يُخيب فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والإكثار ومالا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عند حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى ان كان أصحابه ليستجلبونهم ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة فارفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام .

ومن كمال أدبه ﷺ في معاملة الخلق تغافله عن سفه المبطلين وقبوله ظواهر أقوالهم وان كانت تنم عن قبح نواياهم وسوء مقاصدهم .

ومن ذلك ان جماعة من اليهود استأذنوا على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليكم . فقالت عائشة بل عليكم السام واللعنة فقال ﷺ يا عائشة ان الله يحب الرفق في الأمر كله . قالت ألم تسمع ما قالوا ؟ قال قد قلت وعليكم رواه مسلم في صحيحه .

فهو ﷺ يعلم انهم يقصدون معنى آخر غير السلام وهو « السام » أي الموت أو السلام بكسر السين وهي الحجارة ولكنه أجرى ذلك على ظاهره منهم مع حفظ كرامة المسلمين بقوله في الجواب « وعليكم » .

وتروى كتب السيرة عن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمرو قال لكعب :

أخبرني عن صفة محمد ﷺ وأمته ، قال : أجدهم في كتاب الله تعالى : « إن أحمد وأمته حمادون يحمدون الله عز وجل على كل خير وشر ، يكبرون الله على كل شرف (شرف : مكان عال) ، ويسبحون الله في كل منزل ، نداؤهم في جو السماء ، لهم دويّ (دوي : الصوت ليس بالعالي) في صلاتهم كدويّ النحل على الصخر ، يصفّون في الصلاة كصفوف الملائكة ، ويصفّون في القتال كصفوفهم في الصلاة .

إذا غزوا في سبيل الله كانت الملائكة بين أيديهم ومن خلفهم برماح شداد ، إذا حضروا الصف في سبيل الله كان الله عليهم مُظلاً — وأشار بيده — كما تظل النسور على وكورها لا يتأخرون زحفاً أبداً » .

معيشته ﷺ

.. ولكي نقتدي بسيرته .. ونهتدي بسنته نسترجع كما أسلفت شيئا من أقواله ﷺ وجانباً من أفعاله وأعماله وتوجيهاته .

ولنبدأ بمعيشته ﷺ .. تقول كتب السيرة : « وضرب محمد عليه السلام المثل عن نفسه ، في فقره وغناه وضعفه وقوته ، ضربه وهو محاصر مع أهله في الشعب وضربه وهو ملتجىء إلى المدينة وهو يقيم دولة الإسلام فيها وبعد أن أقامها وبعد أن ملك الأموال والرقاب في جزيرة العرب كلها ، فكان يهبُ هِبَاتِ الملوك فيعطي الغنى ويرجع إلى داره وفراشه فيها الحصير وطعامه خبز الشعير .

قال ابن مسعود : دخلت على رسول الله ﷺ وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه ، فقلت يا رسول الله لو إتخذنا لك وطآءً تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ فقال :

مالي وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

وعن قتادة بن النعمان قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء » .

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها انها قالت لعروة : يابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقِدِتْ في أبيات رسول الله ﷺ نار .. فقلت : يا خالة ، ما كان عيشكم ؟ قالت : الاسودان : التمر والماء ، ألا إنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانها فيُسقينا .

وقد تذكر ﷺ مرة وهو في الصلاة ان في بيته تبرا ، فخفف الصلاة ، وسارع إلى التبر ففرقه على الفقراء ، كراهة ان يبيت الذهب في بيته .

قال عقبة بن الحارث : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فأسرع وأقبل يشق الناس من سرعته ودخل إلى بيته ثم لم يكن بأوشك من ان خرج فقال : ذكرت شيئا من تبر كان عندي فخشيت أن يحبسنى فقسمته . هذا الذي يقسم التبر بين الناس هو الذي تقول عائشة ايضا عن حال أهله : ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثا حتى قضى لسبيله وما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا احداهما تمر . ويقول أنس : قال رسول الله ﷺ لقد خفت في الله ما لم يخف أحد وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد ، ولقد أتى عليَّ ثلاثون ما بين يوم وليلة ، ومالى ولبلال من الطعام إلا شيء يواريه إبط بلال .

ومما يروى عن النبي ﷺ أنه قال :

من أصبح منكم آمناً في سربه .. مُعَافًى في جسده .. عنده قوت يومه . فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

والغِنَى عند محمد ﷺ ليس هو كثرة المال فلقد ثبت أنه قال : تَعِسَ عَبْد الدرهم والدينار .. ولكنه غنى النفس إذ يقول عليه الصلاة والسلام :

« ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض ..
« ولكنَّ الغِنَى غنى النفس » .

ويقول عن المال :

« إن هذا المال خَضِرٌ حُلو ..
« فمن أخذه بسخاوةِ نفس ، بورك له فيه ..
« ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه ..
« وكان كالذي يأكل ولا يشبع » .

يقول شارح الحديث :

إن معنى « سخاوة نفس » ، القناعة والاعتدال ونبْذ التهافت .
ومعنى « إشراف نفس » ، التهالُك والطمع .

وفي هذا الحديث يرفع الرسول ﷺ من قدْر المال إذا توسلنا إليه بأنفس مترفعة مطمئنة .

ويحذر من شرِّه ، إذا انساقت وراءه الأنفس لاهثةً ، طامعة ، مسعورة » .

★ ★ ★

الـزهـــد

كان رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ومالك الأمر في الجزيرة يملأ صحن المسجد بالأموال فيقسمها على الناس إلى آخر درهم حتى أن أعرابياً نال عطاء الرسول ﷺ ذهب ينادى في عشيرته . إن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر .. ومع ذلك كان إذا دخل إلى بيته نام على جلد محشو بليف قالت عائشة : كان فراشه من أدم حشوه ليف .

وتقول عائشة : « انه كان لرسول الله ﷺ حصير يحتجزه في الليل ، فيصلي فيه ويبسطه في النهار ، فيجلس عليه وكان في طعامه قانعا زاهدا يقول : « **حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده** » .

يقول أنس خادمه : ما علمت النبي خبز له مرقق قط ولا أكل على خوان قط وسئل سهيل بن سعد هل أكل النبي النقى ؟ فقال : ما رأى النبي النقى منذ أن بعثه الله حتى قبضه .

ولم يقصد رسول الله بهذا الزهد اضاعة المال ولا تحريم ما أحل الله لعباده من الزينة والمتاع « كما تقول كتب السيرة » فقد عرف الزهد بهذا المعنى السامي في قوله : « ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال .. ولا اضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصبت بها . أرغب منك فيها لو انها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ (الحديد : آية ٢٣) » . ويروي ابن هشام عن زيد بن اسلم : لما استعمل رسول الله عتاب بن اسيد على مكة رزقه كل يوم درهما فقام وخطب الناس فقال :

« **أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم فليست لي حاجة إلى أحد** » .

ورحلة السمو عند محمد ﷺ .. بدايتها معرفة الحدود واستبراء الشبهات ـــ ها هو عليه الصلاة والسلام يقول :

« الحلال بَيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما مُشْتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشُّبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .. ومن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحِمى ، يوشك أن يرتَع فيه .. » .

ويحدثنا « وابصةُ بن معبد » فيقول :

« أتيت رسول الله ﷺ ، وأنا أريد ألا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سَألْتُ عنه .. » .

« فقال لي ادْنُ يا وابصة ، فدنوت منه حتى مسَّت ركبتي ركبته ، فقال لي .. » .

يا وابصة : أخبرك عما جئت تسأل عنه ؟؟ قلت يا رسول الله أخبرني .. قال جئت تسأل عن البر والإثم . قلت : نعم .. فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكتُ بها في صدرى ، ويقول يا وابصة . استفت قلبك .. » .

البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب .. والإثم ما حاك في القلب وتردّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس ، وأفتْوك .. » .

والسمو ـــ لن يكون بالمال ـــ ولكنه بحسن الخلق ـــ ومعاملة للناس بإحسان .

يقول عليه السلام :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حَسن .. وإن الله يبغض الفاحش البذىء » .

« إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم » .

« إن العبد ليدرك بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل .. » .

« إنكم لن تسعوا للناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه ، وحُسن الخلق .. » .

وأخيراً :

« ذهب حُسن الخلق بخير الدنيا والآخرة .. » .

الذهـب .. والنعيـم

ولقد كان الرسول ﷺ في بيته كما هو مع أهله .. كما هو مع أصحابه والمسلمين عامة .. فكل حياته سيرة تروى لتكون قدوة للناس .. وهذا شيء قد خصه الله به ﷺ .

ولقد رُوى أنه قال لعلي : كيف تطمعون في شيء من هذا وأهل الصفة على ما هم عليه من الفقر ؟ ودخل على فاطمة وفي يدها سلسلة من ذهب . وهي تقول لامرأة عندها :. هذه أهداها لي أبو الحسن ، فقال ﷺ :

يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول الله في يدها سلسلة من نار ؟ ثم خرج ولم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا ، فأعتقته ، فحُدِّث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار » .

وتذكر كتب السيرة أنه ﷺ ذكر وهو في مرض موته ان في بيته سبعة دنانير فأمر أهله أن يتصدقوا بها فنسوا لاشتغالهم بمرضه ، وأفاق يوم

الأحد الذي سبق وفاته فسأل عائشة ما فعلت بالسبعة الدنانير ؟ فأجابت انها لا تزال عندها . فطلبها ووضعها في كفه ثم قال : **ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ؟ ثم تصدق بها على الفقراء** . وقد لقى الله في كساء ملبد . وإزار غليظ ، هو لباسه الذي قضى فيه ولكنه ترك وراءه نوراً يشع من جبين القناعة والزهد ، يهدى البشَرَ إلى الحياة الطيبة ويوجههم إلى ما هو أسمى من متاع الأبدان الزائلة ، إلى متاع الأرواح الخالدة ولا يزال رسول الله في قناعته وزهده قدوة الأبطال والناس جميعا يتطلعون إلى منتهى قصده فلا يدركون منه إلا قليلا .

يروى « أبو سعيد الخدري » رضي الله عنه .. فيقول :

« بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ ، إذ قال لنا :

« من كان معه فَضْلُ ظَهر ـــ أى راحلة فائضة عن حاجته ـــ فليعدْ به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل من زاد ، فليعد به على من لا زاد له .. » .

« ثم ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل ـــ أي فيما يزيد عن حاجته » .

ويرفع « الرسول » في هذا المقام مثلا أعلى للناس كي يحذُوا حذوه ، فيقول :

« إن الأشعريين إذا أرملوا في غَزو ، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة ـــ جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية . فهم منى ، وأنا منهم .. » .

يقول شارح الحديث : لقد كان « الرسول » حريصاً على أن تكون طاقات المال والثروة في خدمة الناس جميعاً ، فحث على السخاء والبذل ، وكَرَّهَ إلى الناس الشح والاكتناز .

ونمضى مع راوى السيرة الذي يذكر . « يقول ﷺ لأصحابه :

« أيُّكم مالُ وارثه ، أحب إليه من ماله .. ؟ » .

« قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه »

« قال : فإن ماله ، ما قدَّم — أي أنفق وبذل — ومال وارثه ما أخَّر — أى ما اكتنز وادخر — ... » .

ويقول عليه السلام :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً .. وأعط ممسكا تلفاً .. » .

ويقارن « الرسول » بين الباذلين والأشحاء مقارنة سريعة ولكنها فاصلة ، فيقول :

« السخي قريب من الله ؛ قريب من الجنة ، قريب من الناس بعيد من النار .. » .

والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار .. » .

ولقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة حلة من استبرق تباع فأتى بها النبي فقال : يا رسول الله ابتع هذه فتجمل بها للعيد والوفود فقال رسول الله انما هذه لباس من لا خلاق له .

ولقد خرج ﷺ مرة من المسجد فوجد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فسألهما عن خروجهما فقالا : أخرجنا الجوع ، قال : وما أخرجنى إلا الجوع فذهبوا إلى أبى الهيثم ، فأمر لهم بشعير ، وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء معلقا عنده في نخلة ثم أتوا بالطعام ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء فقال عليه الصلاة والسلام : **لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليوم** » .

العبادة والحياة

لقد جاء الرسول ﷺ ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده .. ولكنه مع هذا يرى في مطالب الحياة والمعيشة الزوجية ما يجب عدم التراخي فيه أو التهاون عنه فلقد ذهب إلى بيت النبي ﷺ نفر من أصحابه « كما تقول كتب السيرة » يسألونه عن عبادته فلما أُخبروا بدا عليهم كأنهم تقالُّوها . فقالوا : وأين نحن من النبي عليه السلام لقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وقال أحدهم : أما أنا فاني أصلى الليل أبداً ولا أنام منه شيئا .

وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً .

وقال ثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

وبلغ النبأ رسول الله ﷺ فيقول لهم :

« أنتم القوم الذين قلتم كذا : وكذا ؟ أما والله انى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلي وأرقد فمن رغب عن سنتي فليس مني .. » .

ويبلغه ذات مرة أن عبد الله بن عمرو بن العاص يصوم دائما ويقوم الليل كله فيقول له « بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل فلا تفعل فان لجسدك عليك حقا ولنفسك عليك حقا .ولزوجك عليك حقا صم وافطر » .

« صم من كل شهر ثلاثة أيام . فذلك صوم الدهر » .

قال : يا رسول الله اني أطيق أفضل من ذلك .

قال : فصم يوما وافطر يوما وذلك صيام داود وهو اعدل الصيام .

قال : يا رسول الله اني اطيق أفضل من ذلك ..

قال رسول الله ﷺ : لا أفضل من ذلك :

ويحكي الرسول نفسه عن نفسه فيقول :

« اني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوِّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » .

ليت بعض أئمة المساجد في عصرنا هذا يستعيدون هذه الصورة ويتمثلون بها .. ويمتثلون لها ..!

جددوا إيمانكم

وما دمنا قد أتينا على ذكر الصلاة . فإنه لحري بنا أن نذكر تعليماته ﷺ وتوجيهاته لأداء فروض الإسلام الخمسة — وهي قولة :

★ أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

★ واقام الصلاة .

★ وإيتاء الزكاة .

★ وصوم رمضان .

★ وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ونبدأ بالشهادة — وذكر الله — فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال :

أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إلـه إلا الله ... ويقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه : جددوا إيمانكم .

فيسألونه : وكيف نجدد إيماننا ؟

فيقول عليه الصلاة والسلام :

أكثروا من قول لا إلـه إلا الله .

وفي حديث آخر يكشف ﷺ عن سر اهتمامه بذلك وحضه المستمر على ملازمته إذ يقول :

اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وامرتني بها ووعدتني عليها الجنة وأنت لا تخلف الميعاد .

ولقد سأل سائل رسول الله ﷺ :

ـــ أي الأعمال أحب إلى الله ..؟

فأجابه الرسول عليه السلام :

« أن تموت ، ولسانك رَطْبٌ ، من ذكر الله » .

الصــــلاة

يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿ إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾** (النساء :آية ١٠٣) أي لأوقاتها . كما يقول عز من قائل :

﴿ قد أَفْلَحَ المؤمنونَ الذين هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُون ﴾ (المؤمنون : آية ١ ، ٢) .

ولذا فقد كان الرسول ﷺ كما تقول المرويات :

إذا سجد وأطال السجود ، وسُمِع وَجِيبُ قلبه ، ونشيج تضرعه وبكائه .. فذاك لأنه في غمرة شوق جارف ، ومحبة آخذة .

ولهذا ، كان ينتظر الصلاة على شوق .. فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه : « أرِحْنَا بها .. يا بلال .. ! » .

يقول عليه السلام في انتشاء عظيم بحلاوة الصلاة :

« وجُعِلَتْ قُرة عيني في الصلاة » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

لا دين لمن لا صلاة له ــ إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد .

وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال : « الصلاة نور » .

ويضرب لها مثلاً ، فيقول عليه السلام :

« أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات .. أيُبقي ذلك من دَرنه شيئاً .. ؟

« قالوا : لا يبقي ذلك من درنه شيئاً ..

« قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » .

والصلاة لا تكون بغير وضوء .. وهو الذي يَحُطُّ الخطايا أو يمحوها كما جاء في الحديث السابق . ولهذا كان النبي ﷺ يحث على حسن أدائه فيقول :

« إن أمتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِين ، من آثار الوضوء .. » .

« فمن استطاع منكم أن يطيل غرته : فليفعل » .

كما يقول عليه الصلاة والسلام :

« ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ..؟

« قالوا : بلى يا رسول الله ..

« قال : إسباغ الوضوء على المكَاره . وكثرة الخُطى إلى المساجد .. وانتظار الصلاة بعد الصلاة » .

« فذلكم الرِّبَاط .. فذلكم الرباط .. فذلكم الرباط » !!

وكثرة الخطى إلى المساجد التي ألمح إليها الحديث السالف .. يقول عنها ﷺ في حديثه :

« من مشى في ظلمة الليل إلى المساجد ، لقي الله عز وجل بنور يوم القيامة » .

ولنقرأ هذا الحديث له عليه الصلاة والسلام :

« صلاة الرجل في جماعة تضعُف — أى تزيد على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً .. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لايخرجه إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفعت له بها درجة ، وَحُطَّ عنه بها خطيئة — فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه مادام في مصلاه ما لم يُحْدث ، تقول اللهم صَلِّ عليه .. اللهم ارحمه ..

« **ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة** » .

وقد يستبعد أحدنا المسجد عن داره فيتوانى عن الذهاب إليه . ولذا أسوق الحديث الذي يرويه جابر رضي الله عنه بقوله :

« خَلَت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سَلِمَةَ أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال لهم : بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد .

« قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ..

« فقال عليه السلام : يا بني سَلِمَةَ ..

« ديارَكم ، تُكْتب آثارُكم » .

« ديارَكم ، تُكْتب آثارُكم » !!

.. ولهذا كان حرص الصحابة رضون الله عليهم على شهود الصلاة جماعة بالمسجد ، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

لقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق » .

ولقد كان الرجل يؤتى بها يهادىٰ بين الرجلين « أي مسنوداً باثنين من أهله لمرض أو ضعف » حتى يقام في الصف .

وما ذلك بالطبع إلا لما عرفه هؤلاء الأخيار من فضل صلاة الجماعة ... ومدى الانتفاع بها لدرجة إسقاط الحد : يقول أنس رضي الله عنه :

« كنت عند النبي ﷺ ، فجاءه رجل ، فقال : يا رسول الله ، إني أصبْتُ حدًّا ، فأقمْه عليّ ، ولم يسأله ، وحضرت الصلاة فصلى النبي ﷺ ، فلما قضى النبي الصلاة . قام إليه الرجل ، فقال : يا رسول الله : إني أصبت حَدًّا ، فأقم فيَّ كتاب الله تعالى ، فسأله الرسول : أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم .. قال : اذهب فإن الله قد غفر لك ذنبك » .

وربما تكاسل بعضنا .. أو تراخى لأتفه الأسباب عن الذهاب إلى المسجد .. وصلى في بيته بدون عذر ضروري غير ما لفقه لنفسه .. ولأمثال هؤلاء ننقل ما رواه صاحب رسول الله ﷺ . أبو أمامة بقوله :

« أقبل ابن أم مكتوم ، وهو أعمى ، وهو الذي أُنزل فيه قوله تعالى ﴿ **عَبس وتولَّى ، أنْ جاءه الأعمى** ﴾ .

أقبل إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي .. إني كما ترى قد دَبَرَتْ سنِّي ، ورقَّ عظمي ، وذهب بصري ، ولي قائد لا يُلائمني قيادُه إياي ــ أي لا يحسن السير بي ــ فَهل تجد لي رخصة في الصلاة في بيتي ...؟

« فقال له الرسول ﷺ : هل تسمع المؤذن في البيت ...؟

« قال : نعم يا رسول الله ...

« قال الرسول : ما أجد لك رُخصة ..

« ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة في الجماعة ما لهذا الماشي إليها ، لأتاها ولو حَبْواً على يديه ورجليه »...!!

والرسول ﷺ ... وهو الذي لا يعطي العذر لهذا الصحابي الجليل الذي عناه القرآن في سورة (عبس) رغم كبر سنه ورقة عظمه .. يُذكر أمته بأهمية صلاة النوافل بالبيت فيقول :

« إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده ، فليجعل لبيته نصيباً من صلاته ؛ فإن الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيراً » .

إنه يعلمنا عليه الصلاة والسلام أن نبعث في بيوتنا الحياة والنور بالصلاة فيها ، فيقول :

اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم .. ولا تتخذوها قبوراً » !!

كما يقول عليه الصلاة والسلام :

« ... أما صلاة الرجل في بيته فنور ؛ فَنَوِّروا بيوتكم » .

وقد يصلي الرجل في بيته .. أو مكتبه .. ولكن يستعجل في أدائها .. فلا يتم الركوع أو السجود وبدون خشوع كالذي عناه الرسول ﷺ بقوله :

« أسوأ الناس سَرقةً ، الذي يسرق من صلاته ..

« قالوا : يا رسول الله : وكيف يسرق من الصلاة ؟.

« قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها » .

ويضرب للمصلي المتعجل مثلًا فيقول :

« مثل الذي لا يتم ركوعه ، وينقُر في سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرتين لا تغنيان عنه شيئاً » .

وعندما قال الرسول ﷺ :

« إنما يكتب للمرء من صلاته ما عَقَلَ منها » .

إنما أراد أن يوعينا بأهمية الأخبات والتدبر والخشوع الذي وصف الله به المصلين من المؤمنين كما ذكرنا في مستهل هذا الفصل : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ (المؤمنون : آية ١ ، ٢) .

ولقد ذكرنا أيضاً في مستهل الفصل قول الله تعالى : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾ (النساء : آية ١٠٣) . أي أداؤها لأوقاتها .. ولقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ... ومن صلَّاها لغير وقتها .. ولم يسبغ لها وضوءها .. ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ، ولا سجودها ــ خرجَتْ وهي سوداء مظلمة ، تقول : **ضيَّعك الله كما ضيعتني ..**» .

بينما الأمر مع الذي يؤديها لوقتها وكما يجب ، بخلاف ذلك .

ففي نفس هذا الحديث الذي يرويه (أنس) رضي الله عنه يقول عن النبي :

« من صلى الصلوات لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأَتَمَّ لها قيامها وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها خرجت وهي بيضاء مُسْفِرَة ، تقول : حفظك الله كما حفظتني » .

ولئن طال هذا الفصل .. عن الصلاة .. فلأنها عماد الدين وخير الأعمال إذ يقول عليه الصلاة والسلام :

« إعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » .

ويُسأل ﷺ : « يا رسول الله . أيُّ الأعمال أحب إلى الله ...؟

فيجيب عليه السلام : « الصلاة على وقتها » .

الزكـاة

يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل بسورة البقرة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة ﴾ (آية ٢٥٤) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرضِ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تنفقون ﴾ (البقرة : آية ٢٦٧) .

ويكلف الحق سبحانه وتعالى عباده بأداء الزكاة فيقول :

﴿ وأوحينا إليهم فِعْلَ الخيراتِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ﴾ (الأنبياء : آية ٧٣) .

﴿ فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصموا باللهِ هو مولاكم ﴾ (الحج : آية ٧٨) .

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا ﴾ (المزمل : آية ٢٠) .

ويصف الحق سبحانه وتعالى مانعي الزكاة من الذين يكنزون الأموال فلا يؤدون حقها أو ينفقونها في سبيل الله فيقول عز من قائل : ﴿ والذين يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيل اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم . يوم يُحْمَىٰ عليها في نارِ جهنم فَتُكْوَىٰ بها جباهُهُمْ وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴾ (التوبة : آية ٣٤ ، ٣٥) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما من صاحب ذهب ولا فضة ، لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَتْ له صفائح من نار ، فَأُحْمِيَ عليها في نار جهنم ، فَيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره .. كلما بردت أُعيدَتْ له » .

ويقول شراح الحديث : ولا يرى الرسول ﷺ في الزكاة أداء لحق المال فحسب ، بل هي كذلك خير تحصين له وأوثق تأمين . يقول عليه الصلاة والسلام : « **حصنوا أموالكم بالزكاة** » .

فالزكاة سبيل لنماء المال وحفظه عند الله وعند الناس .. أما عند الله؛ فلأن الزكاة تعني شكر الله على نعمائه والله سبحانه يقابل الشكر على النعم بإعطاء المزيد منها ..

وأما عند الناس ؛ فلأن الزكاة حين تُنْفَق في سُبُل المعروف والبر ، فتصلُ رحماً ، وتُفَرِّج كرباً ، وتُغيث ملهوفاً .

ولقد سئل عليه السلام يوما عن أشياء لم تُفرض فيها الزكاة . فكان جوابه :

« .. ما أُنزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الفذَّة الجامعة : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه .. ومن يعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَه** ﴾ (الزلزال : آية ٧ ، ٨) .

عن « أنس بن مالك » رضي الله عنه يقول :

« أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله . إني ذو مال كثير ، فأخبرني كيف أصنع ..؟ وكيف أنفق ..؟

« فقال الرسول : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طُهرة تُطهِّرك .. وتصل أقرباءك ..

وتعرف حقَّ المسكين . والجار ، والسائل » ..

وفي حديث طويل يرويه (أبو هريرة) رضي الله عنه بقوله :

« قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال :

« ولا أُلفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرَس له حِمحَمة ، يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتُك .

« ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة ، على رقبته شاة لها ثُغاء ، يقول : يا رسول الله أغِثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبْلَغْتُك .

« ولا ألفينَّ أحدكم يجيىء يوم القيامة ، على رقبته نفس لها صياح ، يقول : يا رسول الله أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتُك ..

« ولا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة ، على رقبته رقاع تَخْفق ، يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتُك .

« ولا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ، يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتُك » .

« ففي هذا الحديث الكريم « كما يقول شراحه » . تعداد لبعض الأصناف التي تتكون منها الثروة ، وقد جاء المال في ختامها وهو الذي عبّر عنه الرسول بالصامت .. فالصامت هو المال ذهباً أو فضة أو أوراقاً نقدية .

.. والمهم هو أن يكون المال حلالاً وإلا فلا خير فيه ولا جدوى من كثرته وحتى لو أنفقه كله فلقد قال رسول الله ﷺ : « لا تغبطن جامع المال من غير حله . أو من غير حقه فإنه إن تصدق به لم يُقبل منه ، وما بقي كان زاده إلى النار » .

كما يقول عليه الصلاة والسلام : « من اكتسب مالاً من مأثم ، فوصل به رحمه ، أو تصدق به ، أو أنفقه في سبيل الله جمع ذلك كله فقذف به في جهنم » .

ويفسر الرسول ﷺ ذلك بقوله :

« إن الله تعالى طيِّب ، لا يَقبل إلا طيباً » .

أما المال الحرام .. فهو زاد الإنسان إلى جهنم وإن اغتنى به في هذه الدنيا .. وبالذات في هذا الزمن الذي عناه الرسول ﷺ بقوله :

يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ من الحلال أم من الحرام » .

ولهذا نبه الرسول ﷺ من شر ذلك ومغبته فقال :

« كُلُّ لحم نبتَ من حرام ، فالنارُ أولَى به .. » .

والجسد الذي تكونت خلاياه من المال الحرام « كما يقول شارح الحديث » لا يصلح أن يكون مَعْلَماً من معالم الله والهدى في الأرض .

هاهو ذا رسول الله يتحدث عن :

« ... الرجل يطيل السفر ، أشعثَ أغبر . يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب ... ومَطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام ... فَأَنَّى يستجاب لذلك .. » ؟!

ولقد قصده يوماً خاله « سعد بن أبي وقاص » رضي الله عنه يسأله أن يدعو الله ليجعله مستجاب الدعوة فقال عليه السلام :

يا سعد ، أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ...

« والذي نفس محمد بيده . إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يُتقبَّل منه عملٌ أربعين يوماً .

، « وأيما عبد نبت لحمه من سحت ، فالنار أولى به .. » .

فيا أيها الذين آمنوا إن في أموالكم حقاً معلوماً للسائل والمحروم .

الصـــوم ... والحـج

ويبقى من أركان الإسلام بعدما سلف : صوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .. ولقد سبق الحديث عن هذين الركنين ضمن الفصول السابقة بهذا الكتاب من خلال الحديث عن رحلة المصطفى ﷺ .. ولهذا فإننا نكتفي هنا بآية وحديث للصوم وكذا للحج .

يقول الحق سبحانه وتعالى عن الصوم : ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ (البقرة : آية ١٨٣) .

ويقول الرسول ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه .. ومن حرم خيره فقد حرم الخير كله » .

كما يقول الحق سبحانه وتعالى عن الحج : ﴿ **وأذن في الناس بالحـج يأتوك رجالاً** ﴾ (الحج : آية ٢٧) .

ويقول الرسول ﷺ : « من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .. وإن الله يغفر للحاج في كل خطاه » .

ونواصل بعد هذا انطلاقتنا إلى سيرة المصطفى ﷺ وتوجيهاته الكريمة في دروب الحياة العامة .

* * *

الرحـــم وصلتـــه

تعيش الناس هذه الأيام في زحمة الحياة ومشاغل الحياة في تباعد وانقطاع صلة حتى مع الأهل والأرحام في الوقت الذي يُنذَر فيه قاطع الرحم بما يهد الجبال هَدّاً .

فقد روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بِحَقوِ الرحمن فقال لها : مَهْ ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى يارب، قال : « فذاك لك » قال أبو هريرة اقرأوا ان شئتم ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ (محمد : آية ٢٢) .

وفي رواية بهذا الباب للبخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه « ثم قال أبو هريرة » قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم ﴿ **فهل عسيتم** ﴾ .

وروى الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى : ﴿ **أنا الله ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته** ﴾.

ولقد سُئل الرسول ﷺ يوما من أحد المسلمين هذا السؤال :

« يا رسول الله ..

« إن لي قرابة . أصلهم ، ويقطعونني .. وأُحسن إليهم ويسيئون إليّ .. وأحلُم عنهم ، ويجهلون عليّ ..

فقال الرسول للسائل : « إن كنت كما قلت ؛ فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ . ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » .

ويفصح الرسول ﷺ عن ماهية الذي يصل الرحم .. ومن هو فيقول : « ليس الواصل بالمكافىء .. ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها » .

ويتوجه عليه الصلاة والسلام بالحديث إلى أحد أصحابه رضوان الله عليهم فيقول : « ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة .. ؟

« أن تصل من قطعك .. وتُعطي من حَرمك .. وتعفوَ عمن ظلمك » ..!!

كما يقول ﷺ : « من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في عمره ، فليصل رحمه » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رحمه » .

بــر الوالــدين

ولئن كان هذا توجيه النبي ﷺ بالنسبة لذوى الرحم .. فإن له ﷺ بالنسبة للوالدين وحقوقهما ما يؤكد تقاصر كل عمل أمام ماهو واجب على الإنسان لوالديه .

فالحق سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل : ﴿ ووصّينا الإنسانَ بوالديه إحسانا ﴾ (الأحقاف : آية ١٥) كما يقول عز من قائل : ﴿ إمَّا يبْلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقُلْ لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما .. واخفضْ لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرا ﴾ (الاسراء : آيه ٢٣ ـــ ٢٤) . وانطلاقا من هذا فإن الرسول العظيم يرى في عقوق الوالدين ما هو من أكبر الكبائر إذ يقول عليه الصلاة والسلام : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله .. وعقوق الوالدين .. وشهادة الزور وقول الزور .. وكان متكئا فجلس ، وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » .

وفي تعاليم الرسول ﷺ وأحاديثه يكاد يزحم الولاء للوالدين أكثر فروض الدين واركانه كما يقول كاتبوا السيرة .

فذات يوم ذهب شاب إلى الرسول ، حيث جرى بينهما هذا الحوار العظيم :

قال الفتى :

« يا رسول الله ، أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى :

« فقال الرسول : هل من والديك أحد حي ..؟؟

قال : نعم كِلاَهما حي ..

« قال الرسول : وتبتغي الأجر من الله تعالى ..؟؟

« قال نعم ..

« قال الرسول : فارجع إلى والديك ، فأحسن صحبتهما » .

ويتحدث الرسول ﷺ عن حقوق الوالدين حين جاءه سائل يسأله عن أحق الناس بحسن صحبته فيقول :

« **أمك .. ثم أمك .. ثم أمك .. ثم أبوك .. ثم أدناك ، فأدناك** » ...

ويجيب سائلا آخر فيقول :

« ... أمك ، وأبوك .

وأختك ، وأخوك ...

ومُولاك ـــ أي قريبك ـــ الذي يلي ذاك .. حق واجب ورحم موصولة » .

ولقد جاءه ذات يوم من يسأله :

ـــ يا رسول الله ، هل بقي من بر أَبَوَيَّ شيء أبرُّهما به بعد موتهما ؟؟

فأجابه الرسول :

« نعم ، الصلاة عليهما .. والاستغفار لهما . وإنفاذ عهدهما من بعدهما .. وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما .. وإكرام صديقهما » .

فاللهم صلِّ وسلم على المعلم .. وارحم والديَّ كما ربياني صغيرا .

الحيـــاة الزوجيـــة

في كتابه « إنسانيات محمد » يتحدث الكاتب الإسلامي « خالد محمد خالد » عن الحقوق الزوجية وكيف يراها من أوجب الطاعات التي يجب على المسلم أن يؤديها فيقول مفصلاً الحديث الوارد عن النبي ﷺ في هذا الشأن :

.. كان من بين أصحاب النبي صحابي جليل هو « عثمان بن مظعون » رضي الله عنه .. وكان عثمان متبتلا ، غير مشفق على نفسه في العبادة حتى لقد هم ذات يوم أن يخصى نفسه ليتخلص نهائيا من نداء غريزة الجنس .

وذات مرة دخل الرسول على زوجته عائشة فوجد معها بعض النسوة ووقعت عينه على إحداهن ، وكانت رثة الهيئة مكتئبة المحيا . فسأل محمد ﷺ عن أمرها ، فقيل له : إنها زوجة عثمان بن مظعون . وانها تشكو بثها وحزنها ، فعثمان مشغول عنها بالعبادة يقوم ليله ويصوم نهاره .

وذهب الرسول ﷺ حيث لقى ابن مظعون ، فقال له : « أما لك بي أُسوة ؟؟.. قال : بأبي أنت وأمي . وماذا ؟ قال الرسول : تصوم النهار .. وتقوم الليل ؟ قال : انى لأفعل .. قال الرسول : لا تفعل .. ان

لجسدك حقا ، وان لأهلك حقا .. وامتثل عثمان نُصح الرسول وأَمْرَه وقرر أن يؤدي حق أهله ..! والآن انظروا بقية القصة « يقول خالد محمد خالد » : ففي صبيحة اليوم التالي ذهبت زوجة عثمان بن مظعون ، إلى بيت النبي ﷺ عطرة ، نضرة كأنها عروس .. واجتمع حولها النسوة اللاتي كانت تجلس بينهن بالأمس ، رثة بائسة وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء وزينة . قلن لها ما هذا يازوج ابن مظعون ..؟؟ قالت وهي تضحك من قلبها : أصابنا ما أصاب الناس » .

ويعلق الكاتب بقوله :

« بالأمس لم يستطع الرسول على الأمر صبرا حين رأى أمامه زوجة يؤرقها هجر زوجها وتضنيها مرارة الحرمان فخف لنجدتها وذكر زوجها بما لها عليه من حق .

فما أن جن عليها الليل ، ثم طلع عليها صباح يوم بهيْج حتى كانت تزهو فرحة مطمئنة تقول لصاحباتها : « أصابنا ما أصاب الناس » .

أليس عظيماً وقد أحاطت عظمته بكل شيء ؟ أليس إنسانا وقد وسعت إنسانيته كل شيء ؟ هذا الرسول الذي تشغله وتهمه مشاكل الناس إلى هذا الحد وإلى هذه الغاية ..؟ حقا انه لرحمة مهداة » .

الحقـوق العـامـة

وللحقوق العامة .. والخاصة عند رسول الله ﷺ شأن وأى شأن .. وفي ذلك تقول كتب السيرة :

ذات يوم رجع إلى المدينة أحد الولاة وذهب ليقدم للنبي ﷺ الأموال التي جمعها من الزكاة قدم بعضها وقال : هذا لكم .. واحتجز بعضها الآخر وقال : وهذا أُهدِيَ إليَّ ..

وفي التوّ والناس مجتمعون في مسجد رسول الله نهض الرسول وصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فانني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتي فيقول . هذا لكم .. وهذا هدية أهديت إلّي أفلا جلس في بيت أبيه حتى تأتيه هديته ان كان صادقاً ..؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة .

وفي موضع آخر يقول عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ... » ويرسل البشير النذير ﷺ صوته محذراً من الظلم فيقول :

« اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

« اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

« دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » .

« اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة .. » .

كما يقول عليه السلام محذراً الظالم من يوم القصاص : « اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة ، يرى انها ستنجيه فما يزال عبد يقول : يارب ظلمني عبدك مظلمة ، فيقول الله : امحوا من حسناته .. وما يزال كذلك حتى ما يبقي له حسنة .. ويقول عليه الصلاة والسلام : إن الله يُمْلي للظالم فإذا أخذه لم يُفْلِته » وذات يوم صعد الرسول المنبر وراح يخطب الناس قائلا لهم :

« من كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ومن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليقتد منه .. » .

أي عدل .. وأي مثل هذا الذي يضربه الرسول الكريم ﷺ .. ولنقرأ هذه القصة من حديث رسول الله ﷺ كما رواها الاستاذ « خالد محمد خالد » في كتابه انسانيات محمد .. فهي كافية عن أي شرح :

.. قد يتصور الناس ان الظلم المتمثل في اغتصاب الأموال ، مقصور على أموال الأفراد .. كلا ، وان أموال الأمة لأشد عند محمد ﷺ حرمة ، وانه ليجلجل بالنذير في وجوه الذين يعيثون في هذه الأموال يسرقونها ويختلسونها .

إن كل الطاعات والفضائل لتعجز عن محو خطيئة السرقة من مال الأمة .

وقد مر بنا حديث سارق الشملة .. الذي يقول كما ترويه كتب السيرة بالتعليق الذي يليه :

كان للنبي عليه السلام غلام يقال له مدعم ، وفي إحدى الغزوات أصابه سهم وهو يحط رحل رسول الله فمات .. وجاء أصحاب الرسول يعزونه في خادمه ويقولون هنيئا له يا رسول الله لقد ذهب شهيداً ولكن الرسول أجابهم قائلاً :

« كلا ، ان الشملة التي أخذها من الغنائم يوم خيبر ، لتشتعل عليه ناراً .. !!

شملة تساوي بضعة دراهم .. أخذها هذا الغلام خفية أو خلسة يوم خيبر .. ثم هاهو ذا يموت شهيدا .. ولكن استشهاده هذا .. لم يدفع عنه غائلة إثمه القديم ، لأنه كان آثماً إثماً عظيماً باهظاً .. وعدواناً غير مشروع على مال الناس ، مال الأمة !!

ولكنها شملة لا تساوى شيئا ..؟؟

أجل .. ولكن تقديس محمد ﷺ لحرمات الحق ، والعدل ، والأمانة لا تعرف في هذا المجال تفاوتا ولا مفاضلة .

منافع الناس

يعيش الناس هذه الأيام .. وفي كافة البقاع مشاكل تنوء بها الجبال لا يزيلها أو يخفف من وطأتها إلا النزر ليسير من التعاطف والتراحم بالمحبة والتيسير على البعض من البعض .. وفي أحاديث رسول الله ﷺ الكثير مما يجب علينا التأمل فيه والأخذ به طاعة لله ورسوله الذي يقول : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني دخل النار » ومحبة الرسول كما أسلفت تفرض علينا الاقتداء بسيرته واتباع سنته .

يقول الرسول الكريم ﷺ :

« لأن أمشي مع أخ في حاجة ، أحب إليّ من أن اعتكف في مسجدي هذا شهرا .. » .

ويسأله سائل : « يا رسول الله ، أي الناس أحب إلى الله ؟ فيجيب عليه السلام أحب الناس إلى لله انفعهم للناس .. ويحض الناس على التكافل حضا لا ينقطع ، ويرفع خدمة الناس إلى الذروة بين الأعمال الصالحة . يقول عليه السلام : « إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم في حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله ! » .

يقول عليه السلام : « من كان وصلة لأخيه إلى ذى سلطان في مبلغ بر ، أو إدخال سرور أو تيسير عسير ، اعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام ، ورفعه في الدرجات العُلَى من الجنة ».. بل ان الرسول ، ليرى في خدمة الناس نعمة من الله أنعمها على الذين يوفقون لها .

وهو لهذا يحذر من مللها ، والسأم منها حتى لا تزول .. يقول عليه السلام :

« إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد .. يقرهم فيها مابذلوها .. فإذا منعوها نزعها منهم ، فحولها إلى غيرهم .. » .

وإن صنائع المعروف تقى مصارع السوء .

كما يقول عليه الصلاة والسلام وهو يتحدث عن المتحابين في الله :

« إن من عباد الله أناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء . يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى .. » .

« قالوا يا رسول الله ، تخبرنا من هم .. » .

« قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها .. » .

« فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور . لا يخافون إذا خاف الناس ... ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. »

ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ **أَلَاَ إِنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ..** ﴾ (يونس : آية ٦٢) .

صنـــائع المعـروف

وفيما روته كتب السيرة هذا المشهد الذي يعرفنا فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالرحمة بعقبى التعاون والتيسير على الناس : « أتى الله بعبد من عباده : كان قد آتاه مالا . فقال له ماذا عملت في الدنيا ؟؟ فقال يا رب آتيتني مالا ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقي الجواز « أي التسامح » ــ فكنت أُيسر على الموسر . وانظر المعسر . فقال الله تعالى ، أنا أحق بذلك منك .. تجاوزوا عن عبدي ..

يقول « الرسول » في ختام الحديث : وأدخله الله الجنة . ويكرر الرسول النبأ نفسه في صورة أخرى فيقول :

« إن رجلا لم يعمل خيراً قط ، وكان يُداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا ــ فلما هلك قال الله له : هل عملت خيراً قط ؟؟ قال : لا .. الا أنه كان لي غلام ، وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته « يتقاضى » قلت له ، خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا ، قال الله له ، قد تجاوزت عنك ..!!

ويضيف الرسول ﷺ إلى هذا وذاك هذا القول الكريم الذي يجعل من يسر على مُعسرٍ . تحت ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله فيقول :

« من يسر على معسر في الدنيا ، يسر الله عليه في الدنيا ، والآخرة .. والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه ، من أُنظر معسرا ، أو وضع له ــ أي تنازل عن جزء من الدين ــ أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ..

« من أراد أن تستجاب دعوته ، وان تكشف كربته فليفرج عن معسر ..

« أيُّكُمْ يسره أن يقيه الله عز وجَلّ من فيحِ جهنمْ ؟ قلنا : يا رسول الله ، كلنا يسُره قال : من أنظر مُعسراً ، أو وضعَ له ، وقاهُ الله عزَّ وجل من فيحِ جهنمْ »..

المجالــس والســـلام

وحتى في الآداب العامة يوجهنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فيقول :

« لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه .. ولكن توسعوا ، وتفسحوا ، يفسح الله لكم .. » .

ويعلمنا التعامل فيقول :

« إبغضْ بغيضَك هوناً ما ، عسى أن يكونَ حبيبك يوما ما » .

وفي السلوك .. واحترام الآخرين ممن نجالس يقول عليه الصلاة والسلام :

« إذا كانوا ثلاثة .. فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه .. » .

وفي آداب الصحبة يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما » .

ولكن قبل هذا وذاك لابد من بداية .. وعن هذا يقول معلم البشرية ﷺ :

« إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإن أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الأخرى .. ويحدثنا « كِلْدَة بن الحنبل » فيقول :

« بعثني صفوان بن أمية إلى رسول الله ﷺ بهدية .. فدخلت عليه ولم أستأذن ، ولم أسلم ، فقال لي الرسول ﷺ : ارجع فقل السلام عليكم ، أأدخل ؟ » .

وحتى مع الأهل الذين نراهم دائما ، ونعيش معهم ، يوصي عليه السلام ، بالحرص على التحية . فيقول أنس رضي الله عنه :

« قال لي رسول الله ﷺ يا بني .. إذا دخلت على أهلك ، فسلم يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك .. » ، ويسأل رسول الله ﷺ ذات مرة : أي الإسلام خير ..؟؟ فيجيب

« تطعم الطعام .. وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف .. » .

ولقد تفشى الحسد والنميمة في عصرنا بين الناس حتى بات الكل في حالة توجس وهلع ولهذا فإن الرسول ﷺ كان دائماً يحذر من كل ذلك بقوله :

« إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات ، كما تأكل النار العشب » .

« لا يجتمع في جوف عبد ، الإيمان والحسد » .

« ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولاكهانة ، ولا أنا منه .. » .

ويأتي موقف باهر لِيُجَسِّدَ هذه المعاني فيما تنقله لنا هذه الرواية .

« ذات يوم كان يجلس — عليه السلام — مع بعض أصحابه ، فقال لهم « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه .. فصمم عبد الله بن عمرو ، على أن يعرف عمل هذا الرجل الذي شهد له « الرسول » بالجنة وبالخير على هذه الصورة .. فاصطنع حيلة حتى بايته في داره ثلاث ليال .. فلم يجد له تعبدا يفوق الآخرين .. وقبل أن يهمَّ عبد الله بن عمرو بالرحيل عنه . ذكر له مقالة « الرسول » عنه وسأله : ان كان له عمل صالح يُخفيه ، حتى استحق كل هذه المكانة فأجابه الرجل :

« مالى عمل إلا ما رأيت .. أصلي كما يصلي الناس ، وآتي من الطاعات ما يأتون .. غير أني لا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه .. وآخذ مضجعي كل ليلة ، وليس في قلبي حقد لأحد » ..!!

هذا هو النموذج الذي رفعه محمد ﷺ لأصحابه مثلا أعلى تهوى إليه الأفئدة ، رجل لا يمتاز عن الناس بكثير صلاة ، ولا صيام .. إنما بسلامة صدر لا تعرف الحقد ولا الحسد ..؟

النجاة من النار

والنار التي نتجنبها ونتقي منها في الدنيا، هي في الآخرة أشد حراً .. فماذا يعدنا عنها ﴿**يوم ترونها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عما أرضعت**﴾ ؟(الحج : آية ٢) . يقول أبو ذر ، رضي الله عنه :

« سألت رسول الله ﷺ . ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال . الإيمان بالله . قلت يا نبي الله ، مع الإيمان عمل ؟ قال . أن تُعطي مما رزقك الله . قلت يا نبي الله فإن كان فقيراً لا يجد ما يُعطي ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . قلت : فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر ؟ قال : فليُعن الاخرق ، قلت يا رسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع ؟ قال : فليُعن مظلوماً ، قلت ، فإن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما ؟؟ قال ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ؟؟ ليمسك أذاه عن الناس ، قلت يا رسول الله ، أو ان فعل يدخل الجنة ؟ قال . ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذَتْ بيده ، حتى تُدخله الجنة ».

محاربة الفقر

ولمحاربة الفقر الذي قال عنه الإمام على كرم الله وجهه : لو كان الفقر رجلا لقتلته ــ يحض الرسول ﷺ على العمل .

ولْنُصْغِ إلى أنس رضي الله عنه يحدثنا فيقول :

« جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فسأله ..

« فقال النبي : أما في بيتك شيء ..؟

« قال : بلى .. حِلْس ــ أي كساء غليظ ــ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْب نشرب فيه الماء ..

« قال الرسول : ائتني بهما ..

« فأتاه بهما فأخذهما الرسول بيده ، وقال : من يشتري هذين ..؟

« قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

« قال رسول الله : من يزيد على درهم ..؟

« قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين .. فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً وائتني به ، فأتاه به فشد الرسول فيه عوداً بيده ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا أرَيَنَّك خمسة عشر يوماً .

« ففعل ، وجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً . وببعضها طعاماً .

« فقال رسول الله : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة » .

والعمل في تعاليم الرسول كرامة .

« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ».

« وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » .

وتقول كتب السيرة أنه سُئل عليه الصلاة والسلام — أي الكسب أطيب ؟

فقال ﷺ : « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور » .

وإن رسول الله ليزيد هؤلاء بهاءً حين يقول : « إن الله يحب المؤمن المحترف » .

وحين يَلقى واحداً من أصحابه ذات يوم ولا يكاد يصافحه حتى يجد في كفه خشونة غير مألوفة . فيسأله الرسول : « ما بال كفيك قد أمْجَلَتَا » ؟؟

فيجيبه الصحابي : من أثر العمل يا رسول الله .

فيرفع الرسول كفيه على ملأ من أصحابه ـــ ثم يقبلهما ويلوِّح بهما كأنهما راية ، ويقول مباهيا بهما ومُطْرِياً لهما : « كفان يحبهما الله ورسوله » ..!!!

كل هذا من أجل كرامة الإنسان .. ومحاربة الفقر الذي قد يضطره للعوز والمسألة التي نهى عنها الرسول ﷺ .. وهو يوصي الصحابى أبابشر قبيصة بن المحارق بقوله :

« يا قبيصة .. إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة :

رجل تحمَّل حمالة ـــ أي أنفق ماله في سبيل صلح بين فئتين متقاتلتين ، أو في ضمانٍ أو دِيَةٍ ـــ فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك .

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش .

ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من دوي الحِجَى من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش .

« وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت .. يأكلها صاحبها سحتاً » ..

ولهذا قال الرسول ﷺ : « **من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فَلْيَسْتَقِلَّ أو ليستكثر** » .. !

« **واليد العليا خير من اليد السفلى** » .

« والعليا هي المنفقة .. والسفلى هي السائلة » .

ويقول عليه السلام : « .. فاستعِفَّ عن السؤال ، وعن المسألة ما استطعت » .

فهل يعى هذا الذين يجوبون الشوارع والمدن طلباً لما عند الناس لا عن حاجة ولكن طمعاً واستكثاراً ولو عن مذلة .

الولاية والمسؤولية

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما من والٍ إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر .. وبطانة لا تألوه خبالا — أي لا تدخر جهداً في إفساده — فمن وُقِيَ شرها ، فقد وُقِي .. » .

ويقول أيضاً :

إذا أراد الله بالأمير خيراً ، جعل له وزير صدق إن نسى ذكَّرُه .. وإنَ ذكَرَ أعانَهُ .. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوءٍ .. إن نسىَ لم يُذكِّره ... وإن ذَكَر لم يُعنه ... » .

ويحذر الرسول ﷺ من الحيف بالرعية أو غشهم فيقول :

« **ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت ، وهو غَاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة** » .

ويقول أيضاً :

« **ما من أمتي أحد وَلِيَ من أمر الناس شيئاً . لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة** » .

وتتطلب أمانة الحكم عند الرسول نزاهةً مطلقة .

« لعن الله الراشِيَ والمُرْتَشي في الحكم » .

ويقول : « من استعملناه على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة » .

وتتطلب أمانة الحكم عملاً دائباً لخير الناس وتلبية مستمرة لحقوقهم . وأبواباً مفتوحة لآلامهم وآمالهم .

يقول عليه السلام :

« ما من إمام يغلق بابه دُون ذوي الحاجة والخلّة والمسْكَنة إلا أغلق الله أبواب السماء دُون خلّته ، وحاجته ومسكنته » .

ولا بد للحاكم أن يصون الوديعة ويقيم العدل فيكون مع الذين قال عنهم الرسول ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين .. » .

والعدل يفرض على الحاكم عدم المحاباة حتى لمن يُحب من أهل وولد .. فالحق أحق أن يتبع ولقد ضرب رسول الله المثل في أكثر من صورة .

ولنقرأ هذه الرواية كما تحدث بها الإمام على كرم الله وجهه إلى أحد أصحابه .. ثم نُطالع شرح المعلق الذي نقلنا عنه :

« ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول لله ﷺ ، وكانت من أحب أهله إليه ..؟

« قلت بلى ..

« قال : إنها جرَّت ، بالرَّحى ، حتى أثرت في يدها .. واستقتْ بالقربة ، حتى أثرت في نحرها .. وكنست البيت ؛ حتى اغبرَّت ثيابها ..

« فَأْتِي النبي ﷺ بخدم ، فقلت لها : لو أتيت أباك فسألته خادماً ..؟ فأتته ، فوجدت عنده شغلاً فرجعت ، فأتاها من الغد ، فقال : ما كان حاجتك ..؟ فسكتت .. فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله : إنها جرّت بالرّحى ، حتى أثرت في يدها .. وحملت بالقربة ، حتى أثرت في نَحرها ..

« فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك تستخدمك خادماً يقيها حرّما هي فيه ..

« فقال الرسول لابنته :

اتقي الله يا فاطمة ، وأدّي فريضة ربك ، واعملي عمل أهلك .. » ..!!

هنا كانت المحاباة حقاً لا جوراً .. بل هي حق وليست محاباة أبداً .

ففاطمة رضي الله عنها — لم تطلب لنفسها بدعاً من دون الناس .. وإنما طلبت ما هو حق للناس جميعاً .

وفاطمة — كانت ملء قلب أبيها ، فلم يُحب الرسول أحدا من البشر كما أحب ابنته العظيمة البتُول فاطمة عليها السلام .

وعلى الرغم من أن فاطمة طالبت بحق ، فإن الرسول كان قد انتهج لنفسه ولأهل بيته مبدأ فحواه أن يكون وآل بيته آخرَ من يظفرون بعطايا الدنيا حين تجود الدنيا على المسلمين ببعض عطاياها .. وأن يكون وأهلُ بيته ، أول الجياع إذا جاع الناس .. وآخر من يشبع إذا شبع الناس ..!!

فلما ذهبت أحب الناس إليه ترجو خادماً كان لا يزال في ضعاف الناس من لم يظفر بعدُ بخادم .

وإذن فإن دَوْر فاطمة لم يأت بعد .. وقد لايجيء أبداً ...!!

وحين التقى وجهاً لوجه ـــ حبه ومبدؤه ، لم يصطدما ، بل حلَّقا معاً كَجَنَاحَيْ ملاك حامليْن شرف المسئولية إلى ذروة التفوق اللائق بإنسان في مستوى محمد بن عبد الله ..!!

إذا أردنا أن نبصر أعظم تكريم للحب ، وأروع ولاء له ، فمن مثل هذا النهج ، وهذه التعاليم . فليس المهم أن نحب .. ولكن المهم أن يكون حبنا صادقاً وأميناً ، وبعبارة واحدة أن يكون حبُّنا حُبًّا »..

اللهم رحمتك

ونختم حديثنا عن المصطفى ﷺ .. وإن كان في سيرته الكثير .. والكثير جداً مما لم نأت به رغم سموه وأهميته .. وذلك لئلا يتسع البحث وتضيق الصفحات .. بالحديث عن الاستغفار والتوبة .. والرحمة والأخلاق الحسنة فيما وجه به الرسول ﷺ .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعلْ لكم جنات ويجعلْ لكم أنهارا** ﴾ (نوح : آية ١٠ ـــ ١٢) .

يقول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم :

« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كلْ ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

ويقول عليه السلام : « إن للقلوب صدأً كصدإِ النحاس ، وجلاؤها الاستغفار » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« طوبي لمن وُجدَ في صحيفته استغفار كثير » ..!!

ويقسم عليه الصلاة والسلام ــ وهو الذي لم يُعرَف له ذنب قط ــ فيقول :

« والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » .

وعن التوبة يقول عليه الصلاة والسلام :

« التائب من الذنب ، كمن لا ذنب له » .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن الله يبسط يده بالليل ؛ ليتوب مسيءُ النهار .. ويبسط يده بالنهار ؛ ليتوبَ مسيءُ الليل ..

بل أكثر من هذا يقول عليه صلاة الله وسلامه :

« والذي نفسي بيده ، لو لم تُذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

ويقول كاتب السيرة :

ولما كانت التوبة ندماً على الإثم ، ونزوعاً عنه ، وعزماً وثيقاً على عدم العودة إليه ، اقتضى ذلك أن تجيء والحياة مقبلة ، لتمثل نية صادقة من العبد على طاعة الله والتقرب إليه .

أما التوبة التي يلقيها صاحبها في سَكْرة الموت ، فجوابها الحق : هيهات هيهات ..

يقول الرسول عليه السلام :

« إن الله يقبل توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِر » .

أي ما لم يبلغ سكرات الموت ولحظات النهاية ..

وهذا الحديث يكشف عن فضل الله الواسع ، فهو يفتح أمام عبده أبواب رحمته وقبوله حتى النهاية .

أما الرحمة التي يقول عنها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (الأعراف : آية ١٥٦) .

فقد قال عنها رسول الله ﷺ .. وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

« لما خلق الله الخلق ، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش :

إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي » ..

وتروي الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها :

« قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ ، فقالوا : أتُقَبِّلُون صبيانكم ؟؟ فقال ، نعم .. قالوا : لكننا والله ما نُقَبِّل ..! فقال رسول الله عليه السلام . أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة ...؟؟؟ » .

ويضرب محمد ﷺ الأمثلة لقوم يتفكرون ، فيقول :

« احتجبت الجنة والنار ، فقالت النار : فِيَّ الجبارون والمتكبرون .. وقالت الجنة : فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى الله بينهما .. » .

« قال للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء » .

« وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء » .

ولقد كان النبي بين أصحابه يوماً حين رأى امرأة تُلْقِمُ ثديها شفتي رضيع ، وهي تضمه إلى صدرها في حنان مفيض . فقال لأصحابه :

« أترون هذه طارحة ولدها في النار .. ؟

« قالوا : لا والله ، يا رسول الله ..

« فقال عليه السلام : **فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها .. » !!**

ومثل آخر يضربه الرسول الرؤوف الرحيم بقوله :

« أمر الله عز وجل بعبد إلى النار ، فلما وقف على شفتها ، التفت وقال : أما والله يارب ، إن كان ظني بك لَحَسَن ..!!

« فقال الله : رُدُّوه .. **أنا عند حسن ظن عبدي بي** .. »

سبحانك اللهم .. لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وحسن الخلق الذى اتصف به الرسول ﷺ كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ **وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم** ﴾ .

يقول عنه الرحمة المهداة .

« ذهب حسن الخُلق بخير الدنيا والآخرة » .

كما يقول عليه السلام :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن » .

ويقول ﷺ : « إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم » أي الذي يصوم نهاره ويقوم ليله ..!!

فاللهم ارحمنا وَحَسِّنْ أخلاقنا وارزقنا حسن الاتباع والاقتداء بسيرة من أرسلته بشيراً ونذيراً وأمرتنا باتباعه والصلاة عليه . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

الصّديق

أبو بكر

رضى الله عنه

يا ثانِيَ اثنين في غــار يضمكما
هل أشرقت قَبْلُ شمس الله من غار ؟

.. **انطلقنا** في تكوين هذا الكتاب .. بهدف الأهتداء بما نزل به القرآن الكريم من رب العالمين .. والاهتداء بسنة الرحمة المهداة ومن قال في حقه من لم يزل سميعاً عليماً :

﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ماعَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رَحيم ﴾ (التوبة : آية ١٢٨) .

ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي » .

ومن الفصول السابقة روينا من آيات الله .. وسنة المصطفى ﷺ كما نقلها المحدثون ورواة السيرة بعض مايمكن الاعتماد عليه للاهتداء والاقتداء به .

ولما كان الحق سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه الكريم :

﴿ محمدٌ رسولُ اللهِ وَالذين معه أشدَّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم ﴾ (الفتح : آية ٢٩) .

كما يقول عز من قائل في موضع آخر :

﴿ أولئك الذين هَداهُمُ الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ (الزمر : آية ١٨) .

وهؤلاء .. وأولئك هم الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله : « أصحابي كالشموس بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، بل لقد كان أمر الرسول ﷺ واضحاً وجلياً بإتباع سنته والاقتداء بسنة اصحابه .. وبالتحديد « خلفاؤه الراشدون » .. فقال من لا ينطق عن الهوى ﷺ .

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .

وإستمراراً فيما انطلقنا من أجله .. واعتماداً على ذا .. وذاك .. فأننا نواصل إعتمادنا على كتب السيرة في الحديث عن أبي بكر .. وعمر .. وعثمان .. وعلي رضي الله عنهم .. بإعتبارهم الخلفاء الراشدين والهداة المهتدين ومن قال عنهم رب العزة والجلال : ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ .

الصاحب

.. من المؤكد أن كل صحابي إنما اكتسب هذه الصفة المميزة لمعاصرته ومتابعته رسول الهدى عليه الصلاة والسلام .. بينما نال أبو بكر الصديق وحده هذه الصفة من رب العزة والجلال في كتاب تتلى آياته إلى يوم الدين حيث قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **ثانِيَ اثنين إذ هما في الغارِ إذ يقول لصاحبِهِ لا تَحْزَنْ إن الله معنا** ﴾ (التوبة : آية ٤٠) .

ولقد بُعث النبي عليه الصلاة والسلام وعند أبي بكر أربعون ألف درهم فكان يعتق منها ويُقوي المسلمين حتى قدم للمدينة بخمسة آلاف درهم هي كل ما يملك حيث لم يترك لأهله شيئاً .. وذلك ليفعل مثلما كان يفعل بمكة إذ بلغ عدد المسلمين الذين أعتقهم مال أبي بكر لانقاذهم من عذاب المشركين سبعة .. وكان والد أبي بكر يرى أن من الخير لو أنفق ابنه ذلك المال في اعتاق رجال ذوى قوة صالحة لحمايته فيجيبه ابنه الصديق : يا ابت أني أريد ما عند الله .. ولهذا فقد اجمع المفسرون على ان قول الله تعالى في سورة الليل : ﴿ **وسيُجَنَّبُها الأتقى الذي يُؤتِي ماله يتزكّىٰ وما لأحدٍ عنده من**

نعمةٍ تُجْزَىٰ إلا ابتغاءَ وجهِ ربِه الأعلى ولسوفَ يرضى ﴾ (آية ١٧ـــ٢٤) . أنزل في أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه .

.. وكما حظى أبو بكر الصديق رضي الله عنه بذكر القرآن الكريم له .. فقد أفضل عليه معلمه نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام بكثير من الرعاية وذكره بالخير في أكثر من موضع أكتفي منها باليسير .. الذي ينبىء عن أي مستوى كانت مكانة الصديق في الإسلام .

روى الامام البخارى رحمه الله في صحيحه أن رسول الله ﷺ عندما رأى خوف الصديق عليه في الغار يوم الهجرة قال له : « **ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما** »..

وفيه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين قُبَيْلَ وفاته :

« سدوا الأبواب كلها إلا باب أبي بكر » .

وانه قال عليه الصلاة والسلام : « ان من أمَّن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر » .

« وان الله بعثني إليكم فقلتم كذبتَ وقال أبو بكر صدقَ ووآساني بنفسه وماله » .

وقال عليه السلام : « **ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له يداً يكافئه الله بها يوم القيامة** ، وما نفعني مال أحد قط مثلما نفعني مال أبي بكر . ولو كنت متخذاً خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا . ألا وإن صاحبكم خليل الله » . رواه الترمذي .

وان النبي ﷺ صعد أُحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال عليه السلام : « أُثْبُتْ أُحد فانما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدانِ » .

وان عمرو بن العاص سأل رسول الله ﷺ : « أي الناس أحب إليك ؟ فقال : عائشة فقلت : ومن الرجال ؟ فقال : أبوها » ..

ويرى الرسول ﷺ أبا بكر : يجرى في الميدان شاهراً سيفه ليضرب المشركين فيناديه برجاء : « أغمد سيفك يا أبابكر لا تفجعنا بنفسك » ..

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : رآني رسول الله ﷺ وأنا أمشي أمام أبي بكر فقال : « لا تمشي أمام من هو خير منك . إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس وغربت » .

السـباق دائماً

.. **وقبل** ان نمضي في سيرة الصديق رضوان الله تعالى عليه .. نقف على هذه الصورة الباهرة التي تدل على سبق أبي بكر في كل عمل خير .. كما كان السابق في إسلامه ..

صلى النبي ﷺ الصبح ذات يوم فلما قضى صلاته .. سأل : « أيكم أصبح اليوم صائماً ؟» .

قال عمر : أما أنا يا رسول الله فقد بِت لا أحدث نفسي بالصوم وأصبحت مفطراً .

وقال أبو بكر .. أنا يا رسول الله بتُ الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم فأصبحت صائما .

ثم سأل النبي عليه السلام : « أيكم عاد اليوم مريضاً ؟» قال عمر : انما صلينا الساعة ولم نبرح .. فكيف نعود المريض !!

فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله .. اخبروني ان أخي عبد الرحمن بن عوف مريض وجع فجعلت طريقي عليه فسألت عنه ثم أتيت المسجد .

ثم سأل النبي عليه السلام : « فأيكم تصدق اليوم بصدقة ؟» قال عمر : يا رسول الله ما برحنا معك منذ صلينا فكيف نتصدق ؟

فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله دخلت المسجد فإذا سائل يسأل وابن لعبد الرحمن ابن أبي بكر معه كسرة خبز فأخذتها : فأعطيتها السائل .

فقال النبي ﷺ : « ابشر بالجنة » .. ويعلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : « لا جرم ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه » .. كما يقول الامام علي كرم الله وجهه : هو السباق .. والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر » .

وفي رواية أخرى عن عمر رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي فقلت :

اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته . فجئت بنصف مالي فقال ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟» قلت مثله . وجاء أبو بكر الصديق بكل ما عنده فقال ﷺ : « ما أبقيت لأهلك » .. قال : أبقيت لهم الله ورسوله ..

يقول عمر رضي الله عنه : قلت لا أسبقه إلى شيء أبداً » .

ومن سبقه في الخيرات وتواضعه وخدمته للفقراء والضعفاء حتى بعد أن أصبح خليفة رسول الله ﷺ ، ما رُوِيَ من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض مواشي المدينة من الليل . فيستقي لها . ويقوم بأمرها . فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت .

فجاءها غير مرة كي لا يُسبق إليها فرصده عمر فإذا الذي يأتيها هو أبو بكر الصديق وهو خليفة ، فقال عمر : أنت هو لعمري ؟!.. رضي الله عنهما جميعاً ..

اسـم ومسمى

.. **بعد** هذه السطور التي تبرهن بمحتواها على عظمة الصديق وسبقه للجميع في كل موقف نعود مع سيرته .. أو بالأصح تعود بنا السيرة التي انتقى منها أصدق الروايات .. إلى الأيام الأولى في حياة الصديق يوم كان يترقب مع كل مطلع شمس ، ظهور دين الحق الذي سيقضي على عبادة الأوثان في مجتمع ذلك الزمان .

فمن هو الصديق أولاً ؟

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشي التيمي .. وأمه أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب فهي تلتقي مع زوجها في الجد الثاني كعب .. ويلتقيان مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب الجد السادس .

ويقول الكاتب الإسلامي عباس محمود العقاد رحمه الله : عُرف الخليفة الأول بأسماء كثيرة أشهرها أبو بكر والصديق ويليها في الشهرة عتيق وعبد الله .. وقيل انه عرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء .

عُرف في الجاهلية بلقب الصديق لأنه كان يتولى أمر الديات وينوب فيها عن قريش .

وعُرف بالعتيق لجمال وجهه .. من العتاقة وهي الجودة في كل شيء وقيل بل من العتق لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت : اللهم ان هذا عتيقك من النار فهبه لي فعاش فعُرف باسم عتيق .. وقيل غير ذلك انه أحد ثلاثة أبنائهم : عتيق ومعتق ومعيتيق .. سموا بذلك تفاؤلاً بالعيش .. والعتق من الموت ..

وعرف بإسم عبد الكعبة في الجاهلية ثم عبد الله في الإسلام وسمى في الإسلام بالصدِّيق لأنه صدق النبي عليه السلام في حديث الاسراء .. وبالعتيق لأنه عليه السلام بشره بالعتق من النار .

ومن الجائز «يقول العقاد» : انه عُرف بهذه الألقاب على محملها في الجاهلية ومحملها في الإسلام ، ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يحقق هذه التسمية أو هذا التقليب » .

وقد ولد الصديق في السنة الثانية أو الثالثة من عام الفيل وبذا يكون أصغر من النبي عليه السلام بحوالي عامين .

قبل الإســـلام

.. لكي نعرف أي موقف كان لأبي بكر قبل الإسلام لابد أن نعرف حال المجتمع في مكة يومذاك .

الكاتب الإسلامي خالد محمد خالد .. يُصور تلك الفترة بهذه السطور في هذا الفصل وما يليه :

.. مكة .. البلد الحرام الذي تتوسطه الكعبة موطن القداسات منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. تمضى الحياة فيها لافحة مثل مناخها .. راسخة مثل جبالها .. حالمة مثل سمائها .

وأهلها عاكفون على عقائد وتقاليد تسمو أحياناً حتى تبلغ أوجاً بعيداً .. وتسف أحياناً حتى تبعث على السخرية والرثاء .

وحول الكعبة أصنام مبثوثة تطفلت في غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذي ظل قرونا ولبث أحقاباً يمثل راية الله المرفوعة في الأرض تنادي أهل الحنيفية والتوحيد ..

هي كذلك دهراً طويلاً حتى جلبت إليها الأصنام ذات يوم وازدحمت حولها مع الأيام .. حيث صارت مهوى أفئدة قريش وما حولها يعبدها الناس ويتقونها ويتملقونها لتُقَرِّبهم إلى الله زلفى ..!!

فهناك اللآت والعزى ومناة .
وهناك أساف ونائلة وهبل
وعشرات سواهن من الأوثان والأصنام .

وان مواكب العابدين لتسعى ليل نهار إلى تلك الآلهة المجلوبة والمنحوتة ، الآلهة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أحد شيئاً ..!

لكل قبيلة إلهها وصنمها .. وكل طفل يولد لا يلبث حين يدرك الحبو حتى يُقاد إلى ربه ليعرفه ، وليسعى إليه فيما بعد ، ويبثه أمله ونجواه » .

موقف الصديق

.. في هذا المجتمع الذي التقطنا جانباً من الصورة التي رسمها له خالد محمد خالد ، نشأ الصديق .. وترعرع .. وبلغ الحلم .. وشرخ الشباب .. ولكن دون أن ينغمس فيه أو يمارس رذيلة .. بل لقد خالف أهله وازدرى ما كانوا يعبدون .. ولنستمع إليه وهو يروى هذا المشهد بقوله رضي الله عنه :

.. لما ناهزت الحلم أخذ أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام وقال : هذه آلهتك الشم والعوالي فخلاني وذهب فدنوت إلى الصنم وقلت : إنني جائع فأطعمني ! فلم يُجبني فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه ..

وبهذا أثبت الصديق إزْدِرَاءَهُ لما كان يُعبد من دون الله وقد سئل عن سر تجنبه الخمر في الجاهلية فقال : كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عقله ومروءته .

.. وكان كما تقول كتب السيرة ، ممثل قومه تيم في احدى رئاسات المجتمع القرشي يدبر منها أمور الاشتقاق (الديات) فيقضي بما يراه دونما معارضة لرأيه في قريش .. كما كان من أهل الشورى فيهم .. وقد وصفه ابن الدغنة الذي عرض عليه جواره ضنا به أن يفارق مكة فراراً بدينه بقوله : انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر وتُقرى الضيف .

وقد روى ابن عساكر عن طريق عائشة انه لم يقل الشعر قط .. والذي لاشك فيه ان الصديق وهو من فصحاء قريش لا يمتنع عن قول الشعر جهلاً بقيمته وإنما بعداً عن المسلك الذي سار فيه شعراء يمدحون ويهجون ويقولون ما لا يفعلون .

فطبيعة الصديق كانت ترفض الكذب .. وكل مسلك قد يؤدي للشبهات .. ولقد دعاه أحدهم في الجاهلية لأن يصحبه لحاجة يعينه عليها .. فرآه يمر في طريق غير التي يمر منها .. فسأله اين تذهب هذه الطريق ؟.. قال الرجل : ان فيها أناساً نستحي منهم أن نمر عليهم فقال رضي الله عنه : تدعوني إلى طريق نستحي منها : ما أنا بالذي يصاحبك .

ان الصديق لا يريد إلا الصدق .. وكيف لا والعربي الأصيل أصلاً يرفض الكذب .. حتى ولو على الناقة العجماء وقد هاجها الظمأ إذ يقول :

أريد أمنيك الشراب لتهدئي ولكن عار الكاذبين يحولُ

الصديق يتطلع

.. في كتابه « وجاء أبو بكر .. » يقول الاستاذ خالد محمد خالد وهو يصف حال أبي بكر وتطلعه لما يجب أن يكون عليه الإنسان وعلاقته برب الكون :

.. هذا الرجل الذي يشغل بين قومه مكانة مرموقة أهَّلَه لها كفايته وحَسبُه يحمل في ذات نفسه شكا يُربي في قلبه يوماً فيوماً العزوف عن وثنية

قومه وضلالهم وانه ليمر بالناس متحلقين حول أصنامهم وجاثين أمامها فتكسو وجهه سحابة أسف مرير ويسأل نفسه :

أيمكن أن يكون هذا صواباً وهدى ؟

أُناس ينظرون ويسمعون ويعقلون .. يخرون سجداً أمام حجارة مرصوصة لا تسمع ولا تبصر ولا تُبين ؟!

ثم يردد قول زيد بن عمرو بن نفيل :

أرباً واحداً أم ألف رب أدينُ إذا تقسَّمت الأمور ؟؟

.. ولقد أمضى أبو بكر شطر حياته الأولى يطوف بالباحثين عن العقيدة ، المتطلعين لنور الهداية ، المبشرين بقرب بزوغ فجر عهد جديد من أمثال : قس ابن ساعدة وزيد بن عمرو وورقة بن نوفل .. كما كان في رحلاته التجارية إلى الشام واليمن .. يعاود أهل الديانات والكهنة ليرى أي خبر عندهم عن أسباب الخلاص من الشرك والوثنية .

كان يطوف بهؤلاء .. وأولئك .. ويحفظ عنهم لما كان في كلامهم من انغام شجية يطرب لها فؤاده .. ولعل أقرب دليل إلى ذلك هذا الذي ترويه كتب السير .

.. ذات يوم بعد أن تلقى محمد رسالة ربه وآمن معه أبو بكر .. كان الرسول جالساً بين أصحابه يستعيد ذكرى أيام شبابه فقال عليه الصلاة والسلام : « لست انسى قس بن ساعدة ممتطياً جملاً أورق في سوق عكاظ .. وهو يتحدث حديثاً ما أحسبني حفظته .

فقال أبو بكر : انني أحفظه يا رسول الله .. كنت حاضراً ذلك اليوم في سوق عكاظ .. ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول :

أيها الناس : اسمعوا وعوا واذا وعيتم فانتفعوا .. ان من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت ..

إن في السماء لخبراً وان في الأرض لعبراً ..

مِهادٌ موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لن تغور .

ليل داج وسماء ذات أبراج .. يقسم قس ان لِلَّهِ لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه .

مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون .. أرضَوا بالمقام فأقاموا .. أم تُركوا فناموا ؟

ثم أنشد أبو بكر شعر قس بن ساعدة الذي يقول فيه :

في الذاهـــبين الأوليـــــ ـــن من القرون لنا بصائرْ

لـمـــــا رأيت مواردأً للموت ليس لها مصادرْ

ورأيت قـومـي نحوهـــا يسعى الأكابر والأصاغـرْ

أيقـــنت أني لا محـــا لة حيث صار القوم صائرْ

نهاية المطاف

ويمضي أبو بكر في التأمل والبحث .. وإرسال البصر المرة تلو المرة ليرى أي انسان يمكن أن تكون على يديه هداية الأمة .. فلا يرى في محيطه غير الأمين محمد .

محمد بن عبد الله .. الذي كان وإياه في صحبةٍ خيرةٍ من عهد الشباب .. فيشرق على نفسه شعاع من الضوء وقد تذكر ذلك اليوم الذي احتدم فيه الخلاف بين أهل مكة وساداتها عند ما أرادت كل شيعة أن يكون لها شرف رفع الحجر الأسعد إلى مكانه .. ثم ارتضوا أول قادم ليكون الحكم فيهم .. ويأتي محمد بن عبد الله وقد عُرف بين قومه باسم الأمين فما يكاد يَعرف خلافهم حتى يقول لهم : هلموا إليَّ ثوباً .. ! وجيء بالثوب فوضع الأمين الحجر في وسطه ثم نادى : لتأخذ كل قبيلة بطرف من

الثوب .. ثم أرفعوه جميعاً .. حتى إذا اقترب الحجر من موضعه أرساه محمد ﷺ بيده الشريفة .

صورة مشرفة أضاءت دخيلة الصديق فملأت نفسه سعادة وملأت نهاره بالأحلام في الحضر والسفر .. وها هو بالشام وقد أنجز أعماله وبدأ يتأهب للعودة إلى وطنه فإذا به يرى قبل عودته بأيام قليلة هذه الرؤيا .

يرى القمر قد غادر مكانه في الأفق الأعلى ونزل على مكة حيث تجزأ إلى قطع وأجزاء تفرقت على جميع منازل مكة .. ثم تضامَّت هذه الأجزاء مرة أخرى وعاد القمر إلى كيانه الأول واستقر في حجر أبي بكر .

وما أن صحا من نومه .. حتى سارع في صباح الغد إلى أحد الرهبان المتقين الذي أَلِفَهم وقامت بينه وبينهم صلات روحية وقص عليه الرؤيا .. فتهلل وجه الراهب الصالح وقال لأبي بكر : لقد أهلَّت أيامه !!

ويتساءل أبو بكر ؟ من تعني ؟ النبي الذي ننتظر ؟

ويجيبه الراهب : نعم وستؤمن به وستكون أسعد الناس به : .. ومع أول قافلة عائدة إلى مكة .. كان أبو بكر يأخذ طريقه .. ويسمع للحداة وهم يرددون مجموعة من الأناشيد .. فلا يبرح أن يرفع أبو بكر صوته قائلاً :

أيكم ينشدنا قول أمية بن أبي الصلت ؟

ويسأله الحداة : أي نشيد تُريد يا نسابة العرب ؟

فيرد أبو بكر : قول أمية : ألا نبي لنا ! فيصدح صوت الحادي منشداً :

ألا نبيٌّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس مجرانا
فقد علمنا لَو أنَّ العلم ينفعنا ... ان سوف يلحق أخرانا بأولانا
وقد عجبت وما بالموت من عجب ... ما بال أحيائنا يبكون موتانا

وتهيم الابل فتقطع الأرض وثباً .. وقلب أبي بكر يقفز معها .. وهو يواصل استماعه للحادي الذي ينشد تكملة القصيدة :

يا رب لا تجعلنيٍّ مشركاً أبداً ... واجعل سريرة قلبي الدهر إيماناً

اني أعوذ بمن حج الحجيج له ... والرافعون لدين الله أركاناً

مُسلِّمين إليه عند حجهمو ... لم يبتغوا بثواب الله اثماناً

وتصل القافلة مكة .. وعلى أبوابها يلقى الصديق قريشاً وهي تموج بالحدث الذي طالما تاقت إليه نفسه .

إســـلام الصديق

وعند مدخل مكة المكرمة . كما تقول كتب السيرة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل عمرو بن هشام .. وتعانقوا .. وبدأ أبو جهل الحديث قائلاً :

أو حدثوك عن صاحبك يا عتيق ؟!

وأجابه أبو بكر .. تعني محمداً الأمين ؟

قال أبو جهل : نعم أعنى يتيم بنى عبد المطلب

ودار حوار سريع بين الاثنين :

ــ اسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام .

ــ نعم سمعته وسمعه الناس جميعاً .

ــ وماذا قال ؟

ــ يقول ان في السماء إلّهاً أرسله إلينا لنعبده ونذر ما كان يعبد آباؤنا .

ــ أو قال ان الله أوحى إليه ؟

ــ أجل .

ــ ألم يقل كيف كلمه ربه ؟

ــ قال : ان جبريل أتاه في غار حراء . وتألق وجه أبي بكر كأن الشمس قد احتضنته آنئذ بكل ضيائها وسناها وقال في هدوء مجلجل :

ــ **إن كان قال فقد صدق ..!!**

ولقد صوّرت كتب السيرة وقع هذا النبأ العظيم على أبي بكر في صفحات باهية مشرقة .. تكشف عن الموقف العظيم في لقاء أبي بكر الذي ترك داره مسرعاً إلى دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث كان رسول الله ﷺ يقيم معها :

قرع أبو بكر الباب ونادى

وتألق بشر الحياة جميعه على محيا الرسول وقال منادياً يا خديجة « رضي الله عنها » .

انه عتيق يا خديجة .. وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه وجرى الحديث بينهما في مثل سرعة الضوء وصفائه .

قال أبو بكر : أصحيح ما أنبأني به القوم يا أخا العرب :

أجاب الرسول : « وماذا أنبأوك ؟»

قالوا ان الله أرسلك إلينا لنعبده ولا نشرك به شيئاً .

فسأله الرسول : وماذا كان جوابك لهم يا عتيق ؟

فيرد الصديق : قلت لهم : ان كان قال فقد صدق .

وفاضت عينا رسول الله من الدمع غبطة وشكراً .. وعانق صاحبه ومضى يحدثه كيف جاء الوحي في غار حراء قائلاً :

﴿ إقْرَأْ بِاسْمِ ربكَ الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسان من عَلَق . إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكرمُ الذي علَّم بالقلم عَلَّمَ الإنسانَ مالم يَعْلَمْ ﴾ .

وخفض أبو بكر رأسه في خشوع وتقوى تحية لرآية الله التي رآها ترتفع أمامه إلى أعلى السارية متمثلة في هذه الآيات المنزلة .. ثم رفع رأسه وشد بكلتا يديه على يمين رسول الله ﷺ وقال :

أشهد أنك صادق أمين .. أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

وَتكْمُل الصورة من خلال الراوي الذي يقول :

.. هكذا أسلم أبو بكر في هدوء ويقين وقوة .. وسيظل حاملاً لرايته في هدوء ويقين وقوة ..

أسلم الرجل الذي اصطفاه الله ليكون لرسوله الصديق وثاني اثنين وغداً يكون الخليفة ..

أسلم الرجل الذي وان لم يكن نبياً إلا أنه سيكون عوناً للنبي .. ففي زيارته التالية لرسول الله لم يأت وحده . بل كان في صحبته خمسة من أشراف قريش استجابوا لما دعاهم إليه أبو بكر فجاؤوا يبايعون الرسول أولئك هم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيدالله .

ولقد قال رسول الله ﷺ : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له منه كبوة ونظر وتردُّد إلا ما كان من أبي بكر ماعكم « عكم عنه : تأخر » . عنه حين ذكرته له وما تردد فيه ..

أجمع مؤرخو العصر النبوى أن الصديق كان أول الرجال إسلاماً .. بل ان منهم من يقول أنه أول المسلمين .. ولقد ذكر العقاد في عبقرياته أن الصديق كان ثاني اثنين في الإسلام وثاني اثنين في الغار وثاني اثنين في الهجرة وثاني اثنين في تولى أمر المسلمين .

وقد سئل ابن عباس عن أول من أسلم فقرأ قول حسان :

والثانيَ التاليَ المحمود مشهده
وأول الناس ممن صدقوا الرسلا

والصديق رضي الله عنه لم يكتف بالإسلام ومتابعة النبي عليه الصلاة والسلام وإنما جند نفسه وأهله وماله لخدمة هذا الدين وجعل من بيته مركزاً لنشر الدعوة فقد قالت الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما عائشة أم المؤمنين : ما عقلت أبوي إلا وهما يدينان الدين وما مر علينا يوم قط إلا ورسول الله يأتينا فيه بكرة وعشياً .

كما جاء في الأخبار الصحيحة : انه بُعث النبي ﷺ وعند أبي بكر أربعون ألف درهم فكان يعتق منها ويقوى المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ثم كان يفعل ما فعل بمكة .

بل لقد لقي الصديق وهو يناصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أذى قريش الشيء الكثير مثال ذلك ماحدث عندما ألح ذات يوم على رسول الله ﷺ بالخروج لإظهار الدعوة فاستجاب له وخرج مع الصحابة إلى ندوة القوم وقام الصديق يخطب داعياً إياهم إلى الهدى فثاروا به وبالمسلمين وُوُطيء الصديق يومئذ بالأرحل وضُرب بنعلين مخصوفين على وجهه وجبهته حتى سوى أنفه وجهه !.. ونُقل إلى بيته كالميت .. ولبث يومه لايعى حتى إذا تكلم كان أول ما حرك شفتيه سؤاله عن رسول الله ثم أقسم أن لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يراه وحمل إليه ليلاً في دار الأرقم فما أن رآه ﷺ حتى أكب عليه يقبله وأكب عليه اخوانه يقبلونه ونسى أبو بكر آلامه بعد أن اطمأن على رسول الله ﷺ : فيطمئنه قائلاً :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله مابي من بأس الا ما نال الفاسق من وجهي .

ثاني اثنين

عندما أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة بعدما هاجر المسلمون إليها من قبل وبقي أبو بكر إلى جانب صديقه ، أفضل النبي عليه السلام على صديقه بزيارة في داره ليخبره بالنبأ قائلاً :

يا أبا بكر ان الله أذن لي بالهجرة .

فلم يملك أبو بكر إلا أن صاح فرحاً :

الصحبة يا رسول الله ! فيجيبه الرسول الصحبة يا أبا بكر .

وتقص أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نبأ الهجرة فتقول ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر بكى حين أذن الرسول ﷺ بصحبته .. ثم خرج حتى دخلا الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام كان خوف أبي بكر على الرسول خلالها من أذى قريش مفزعاً .. فهدأه الرسول عليه السلام بقوله : « ما بالك باثنين الله ثالثهما » .

ثم نزلت تلك الآية الكريمة بسورة التوبة ونصها : ﴿ **إلاّ تنصُروه فقد نصره الله إذْ أَخْرَجَهُ الذينَ كفروا ثَانِيَ اثنين إذْ هما في الغارِ إذ يقولُ لصاحِبِه لا تَحْزَنْ إن الله مَعَنَا فأَنزل اللّهُ سَكينتَه عَلَيهِ وأَيَّدَهُ بجنودٍ لم تروها وجعل كلمةَ الذينَ كفروا السُّفْلىٰ وكلمةُ اللّهِ هي العُلْيَا واللّهُ عزيزٌ حكيم** ﴾ (التوبة : آية ٤٠) .

ويتحدث الكاتب الإسلامي خالد محمد خالد بنبأ الغار .. وموقف الصديق فيه فيقول :

هذا الغار الحجري ، يستقبل الآن دعوة إبراهيم .. وبُشرى عيسى ، وحفيد إسماعيل .. ويستقبل معه الصَّديق والصِّدِّيق (أبا بكر) أكثر أتباع الرسل كلهم إيماناً ، وأعمقهم يقيناً ..!!

فليتقدم حبيب الله ورسوله من فتحة الغار .. ولكن لا .. ليس بعد .. فإن أمام صديقه وصدِّيقه مهمة يريد أداءها .

فليستاذن رسول الله ﷺ في دخول الغار قبله لوقت قصير .. وليدخل ، مفتشاً حناياه ، ومنقِّبا في ثناياه ، حذار أن يكون في خبئه بعض الحشرات المؤذية .. حتى إذا اطمأن لنظافته مما يُحاذر ويخاف نادى : تفضل يا رسول الله ..

وثوى في الغار أكرم زائرين .. حتى إذا مادت الأرض تحت أقدام المطاردين ، خرجا سالمين . وبزغت من الغار شمس الله ، والجبال تؤوِّب ، وتُهلل ، وتُغني :

يا ثَانِيَ اثنينِ في غـارٍ يَضُمُّكما
هل أشْرَقَتْ قَبْلُ شمسُ الله من غَارِ ؟!!

وتروي أسماء بنت الصديق خبر الهجرة بقولها : لما هاجر رسول الله ﷺ وهاجر أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلالف درهم أو ستة .

وقد أكدت الروايات الصحيحة ان الذي كان يأتيهما بخبر أهل مكة وهما في الغار هو عبد الله بن أبي بكر .. وان اللبن الذي كانا يشربانه هناك من غنم أبي بكر .. وان أسماء بنت أبي بكر كانت تحمل إليهما الطعام وقد لقبت بذات النطاقين لأنها رضي الله عنها شقت نطاقها فربطت بجزء منه فم الوعاء وبالجزء الثاني فم قربة الماء .. وهذا ما يجعل لأبي بكر ميزة ليست لغيره حيث كان هو وأهله وماله عوناً لصاحبه الأمين عليه السلام .

وفي المدينة المنورة .. بعد الهجرة إليها فعل مثلما كان يفعل بمكة وأكثر .. وشهد جميع المواقع مع رسول الله ﷺ .. وكان له فيها دور مميز .. وكان نعم الصاحب والصديق والمستشار الصادق للنبي عليه

السلام .. فلقد آمن بما جاء به وسار معه رحلة الدعوة بكل ما يملك هو وأهله من مال وجهد ..

ولو أردت أن أعدد مواقفه هناك وهناك مع الرسول لضاقت بي الصفحات .. ولكن يكفيني ما أسلفت عنه من ذكر القرآن له والذي وعده الحق سبحانه وتعالى فيه بقوله فى ختام سورة الليل .. ﴿ **ولسوف يَرْضَىٰ** ﴾ (آية ٢١) . وثناء الرسول عليه في أكثر من موضع .

يقول خالد محمد خالد في سطرين اثنين ما يوضح موقف الصديق يوم اختار الرسول عليه السلام الرفيق الأعلى فيقول :

وقف أبو بكر أو بتعبير احجى وقف إيمان أبي بكر يوم وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه .

فلقد أذهل الخطب المسلمين حتى ابن الخطاب الراسخ وقف شاهراً سيفه وهو يصيح :

« ان رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات وانه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات .. ألا لا أسمع أحداً يقول ان رسول الله مات إلا فَلَقْتُ هامته بسيفي هذا » ..

لقد كان موت الرسول مفاجئا للمسلمين رغم سابق مرضه .. ولهذا فقد أُرتج على المسلمين عندما قيل بموته عليه السلام .. ولكن ما هو موقف أبي بكر .. وكيف كان ثباته ..؟ يقول شاهد عيان :

أقبل أبو بكر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء ودخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى في ناحية البيت عليه بُرْدُ حِبَرة فكشف عن وجهه ثم قبله وقال :

« **بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً . إن الموتة التي كتبها الله عليك قد متها** » .. ثم رد الثوب على وجه الرسول .. ثم خرج وعمر يكلم الناس فدعاه للسكوت فأبى عمر الا أن يسترسل في قوله . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس يكلمهم .. فأقبلوا عليه منصتين .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس .. من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسُلُ أفإن ماث أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزى اللّهُ الشاكرين** ﴾ (آل عمران : آية ١٤٤) .

يقول الشاهد : فوالله لكأن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة .. أما عمر فقد وقع على الأرض حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقاً .

أبو بكر
أتعب كل من جاء بعده .. !

ليس بدعاً إذا قلت بأن في كثير من القرارات المكتوبة .. والتوصيات المسجلة .. أو العهود الموثقة .. وعلى مر العصور والأجيال ما يمثل ألوانا من الفرض القهري .. أو الاعتساف الجبري وهو ما يتيح ويبيح للناس خرقه وعدم الاعتماد عليه أو التسليم به .. في الوقت الذي تكون فيه بعض التلميحات . أو المواقف والإيماءات .. وما تدل عليه ما يفرض بداهة اتخاذ القرار المناسب .. في الوقت المناسب وبتسليم لا يُنازِع فيه أحد .. ولعل قضية استخلاف أبي بكر الصديق بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أكبر وأصدق مثل على ذلك .

فلقد كانت مواقف أبي بكر الصديق خلال صحبته لرسول الله عليه السلام تنفرد بميزات ليست لغيره .. كما كان له رضي الله عنهِ من المكانة في الإسلام وعند رسول الله ﷺ ما لم يكن لغيره ، الأمر الذي يجعل خلافته لرسول الله قضية مسلمة يؤكد ذلك قول النبي عليه السلام لعبد الرحمن ابن أبي بكر ـــ بعد أن أمره بإحضار أدوات الكتابة ليوصى :

« اجلس .. أبى الله والمؤمنون أن يُختلف في أبي بكر » .

فلقد كان أبو بكر الصديق .. كما سلف ثاني اثنين في الإسلام وثاني اثنين في الغار وثاني اثنين في الهجرة .

وكان مع رسول الله ﷺ طيلة حياته الصديق الأمين والمعين الصادق حتى قال عنه الرسول عليه السلام : « ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له يداً يُكافئه الله بها يوم القيامة » .

ولقد أنفق رضي الله عنه ماله كله منذ أن أسلم وحتى آخر يوم في حياته لخدمة الإسلام وقضايا المسلمين دون أن يترك لأهله شيئاً، مبتغياً ما عند الله، حتى أجمع المفسرون على أن قول الله تعالى في سورة الليل: ﴿ **وسيُجنَّبها الأتقى الذي يُؤتي ماله يتزكّىٰ وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجْزَىٰ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يَرْضَىٰ** ﴾ (آيه ١٧—٢١) أُنزل في أبي بكر رضي الله عنه.

دلائل قاطعـــة

في الفصل السابق شرحت بإيجاز بعض مواقف أبي بكر مع الرسول عليه السلام وهي أكثر من أن تُحصى .. ومن خلال كتب السيرة التي استمددت منها ما سبق .. سألتقط لهذا الفصل أصدق الروايات وأوثقها .. فيما يتعلق بتولي أبي بكر الصديق أمر المسلمين .. وسيرة ولايته التي كانت امتداداً للعصر النبوى في ترسيخ قواعد الإسلام .. واستمرار انتشاره.

ولنعد الآن .. لقضية استخلاف أبي بكر .. والأدلة التي كانت توحى باختياره إلى جانب ما كان له من سبق إلى الإسلام .. وصحبة في الهجرة .. وبذل في المال حتى قال عمر رضي الله عنه: ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه. وقال علي كرم الله وجهه، « والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر.

في رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي ﷺ أن مؤذنه بلال جاءه يوماً وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام: « مُروا أبا بكر فليصل بالناس ».

وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله ان أبا بكر رجل أسيف — حزين يبكي إذا قرأ القرآن — وانه متى يقم مقامك لا يُسمِع الناس فلو أمرت عمر؟

فقال عليه الصلاة والسلام مرة أخرى : مروا أبا بكر فليصل بالناس ..

فعادت عائشة تقول لحفصة قولي له أن أبا بكر رجل أسيف وأنه متى يقم مقامك لا يُسمِع الناس فلو أمرت عمر ؟

فأعادت حفصة ما قالته لها عائشة رضي الله عنهما فتضجر الرسول عليه السلام من هذه المراجعة وقال : إنكن أنتن صواحب يوسف ثم قال لثالث مرة : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

وروى عن عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبي عليه السلام فإذا عمر في المسجد وأبو بكر غائب فقال : يا عمر قم فصل بالناس فتقدم وكبّر وكان عمر رضي الله عنه مُجهِراً فلما سمع رسول الله ﷺ صوته سأل : « فأين أبو بكر ؟ .. يأبَى الله ذلك والمسلمون .. يأبَى الله ذلك والمسلمون » .. ويفسر هذا قول الامام علي كرم الله وجهه عندما سئل عن أبي بكر فأجاب : امرؤ سماه الله صديقاً على لسان جبريل ومحمد .. كان خليفة رسول الله على الصلاة .. رضيه لديننا .. فرضيناه لدنيانا .

وقد لام عمر رضي الله عنه عبد الله بن زمعة على دعوته له للصلاة بالمسلمين دون أمر من الرسول بقوله : ويحك ما صنعت يا ابن زمعة ؟ والله ما ظننت إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك ولولا ذلك ما أقدمت .

قال بن زمعة : والله ما أمرني رسول الله ﷺ بشيء .. ولكن حين لم أر أبا بكر ، رأيتُك أحق من حضر بالصلاة بالناس .

هذه واحدة من دلائل إيحائه عليه الصلاة والسلام باستخلاف أبي بكر .. يؤيد ذلك ما قاله الامام علي فيما سلف .

أما الثانية .. فهي ما أثبته الامام البخارى رحمه الله عن مطعم بن جبير ان امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه قالت : أرأيت ان جئت فلم أجدك .. كأنها تريد الموت .. فقال : ان لم تجديني فآتى أبا بكر .

والثالثة : ان قتالاً وقع بين جماعة من الأوس فذهب النبي عليه السلام يُصلح بينهم وقال لبلال : « ان حضرت الصلاة ولم آت فمُر أبا بكر فليصل بالناس » .

والرابعة : وان كانت هي الأولى في إمارات استخلافه . إذ كان أول أمير للحج بعث به النبي عليه السلام وهو بالمدينة .. وكان ذلك سنة تسع من الهجرة واتفق — كما تقول كتب السيرة — انه دعا إلى صلاة الصبح فسمع رغوة ناقة وراء ظهره فوقف عن التكبير وقال : هذه رغوة ناقة النبي ﷺ الجدعاء فلعله أن يكون رسول الله . فتُصل معه فإذا علي بن أبي طالب على الناقة فسأله أبو بكر أمير أم رسول ؟

قال علي : لا بل رسول أرسلني رسول الله ﷺ ببراءة — سورة براءة من القرآن — اقرؤوها على الناس فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثا عن المناسك وقرأ عليهم سورة براءة حتى ختمها .. ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ عليهم السورة وبها انتهت المناسك .

دلالات أُخر

هذه الأدلة وهي بعض ما يفرض اختيار أبي بكر لتولى الخلافة وتكفي للحسم في الأمر ولكن الكاتب الإسلامي عباس محمود العقاد يضيف إلى ذلك ما أحسبه منطقياً إذ يقول في كتابه . « عبقرية الصديق » .. بعد إيراد تلك الأدلة أو ما يسميها الامارات :

.. واقترنت بتلك الامارات جميعاً امارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواتراً تدل على رغبة قوية في اجتناب كل ما يُثير العصبية ويُلبِّس الأمر على الجهلاء والمغرضين بين دعوة النبي وطلب السلطان والاستعلاء .

فلا تحسب ــ يقول العقاد ــ ان محمداً عليه السلام دل بعمله وقوله ومضامين رأيه على شي واحد مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر على تنزيه النبوة من مطامع السيادة الدنيوية ومفاخر العصبيات ..فأبغض شيء كان إلى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون : ان النبوة تمهيد لدولة هاشمية أو وراثة دنيوية .. ولهذا اثر عنه انه لم يول أحداً من قرابته ولاية أو عمالة في مكة أو المدينة أو في غيرهما » .

ويمضي العقاد في مرثياته ليقول : بل لهذا اصهر إلى أبي سفيان واتخذ معاوية كاتباً للوحي وامر يوم فتح مكة منادياً ينادي في الناس .. « من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ليمحو من نفوس بني أمية حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ولا يدع في سرائرهم مجالاً للظن بأنها غلبة أسرة على أسرة أو بطن من قريش على سائر بطونها .. وقال عليه السلام : **ان هذا الأمر في قريش لا يُعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين** » ولم يقل في بني هاشم .. أو في بني عبد المطلب .. ولو شاء لقال ..

ولا ريب انه عليه السلام لم يؤثر قريشاً بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البينة التي لا يسهو عنها الهداة عن مصائر الأمم ، فقريش هم أصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدولة الإسلامية ولن تُفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أول الثائرين عليها والمنكرين لذويها .. وفي اعتقادنا أنه علبه السلام ترك أمر الخلافة بغير وصية ظاهرة لأنه علم أنه الخلافة منتهية إلى مثل ما انتهت إليه ولا سيما بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس » .

يوم الذهول

جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن أباه قال حين حضرته الوفاة : ان أستخلف فقد أستخلف من هو خير مني « يعني أبا بكر » وان اترككم فقد ترككم من هو خير مني « يعني النبي عليه السلام » .

وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه انه قال يوم معركة الجمل ان الله لم يعهد إلينا في هذه الامارة شيئاً حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبا بكر فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه » .

ففي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول عام ١١ للهجرة اختار الله رسوله إلى جواره .. وكان ﷺ في ذلك اليوم قد شعر بشيء من العافية من مرضه فخرج من بيت عائشة إلى المسجد وتحدث إلى المسلمين ودعا لأسامة فلما عاد النبي إلى داره عند عائشة استأذنه أبو بكر للذهاب إلى داره بالسنح من ضواحي المدينة (حالياً موقع مسجد أبي بكر ناحية المناخة) فلما طار في الناس نبأ وفاته ﷺ وبلغ الخبر أبا بكر عاد لتوه وشهد ذهول القوم وفزعهم بمن فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي كان يهدد القائلين بوفاة النبي بسيفه ويذكر انه ﷺ سيرجع كما رجع موسى وسيقطع أيدي وأرجل من أسماهم عمر بالمنافقين لقولهم بوفاة الرسول .

وقد شهد أبو بكر ذلك وهو في طريقه من منزله بالسنح إلى دار عائشة حيث الرسول عليه السلام ، ولكنه لم يُلق له بالا وانما انطلق إلى بيت عائشة حيث الفى النبي عليه الصلاة والسلام مسجى في ناحية من البيت فكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول : ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً — ثم خرج إلى الناس وخطب فيهم بما ذكرهم بآيات الله وأعاد إليهم صوابهم بأن الموت حق وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل كما يقول نص الآيات التي تلاها عليهم .

المفكر الإسلامي وشيخ كتاب عصره المرحوم محمد حسين هيكل يقول في كتابه (أبو بكر الصديق) معلقاً على موقف الصديق في هذه الساعات الحاسمة :

نقف هنيهة هاهنا لنصور ناحية من نفسية أبي بكر يدل عليها موقفه هذا أبلغ دلالة فلو أن رجلاً من المسلمين جاز أن يبلغ منه الجزع لوفاة الرسول ﷺ مابلغ من عمر. لكان ذلك الرجل أبابكر فهو صفي النبي وخليله ويقول المصطفى في حديث مروى عنه : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » ..

ومن أثره في كل موقف على نفسه وهو الذي اجهش بالبكاء لقول رسول الله ﷺ : « **ان عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله** » . **وهو الذي قال حين سمع هذه الكلمة والعبرة تخنقه : نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا لكن جزعه لوفاة الرسول لم يُذهله ما أذهل عمر** » .

ويقول هيكل بعد ذلك : وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادتها اجلالاً ومهابة وهي بعد النظر إلى المستقبل .

وهذه القوة النفسية البالغة هي التي كانت سند أبي بكر ساعة فجيعة المسلمين لفقد نبي الله ورسوله .. هي التي كانت سنده في الساعات الكثيرة الصعبة التي مرت من بعد به وبالمسلمين وهي التي وقت المسلمين ووقت الإسلام فتنة لولاها لتعرضوا لمحن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جرائها » .

يوم السقيفة

تذكر كتب السيرة أنه بعد أن أيقن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوفاة الرسول : أتى أبا عبيدة بن الجراح وقال له : ابسط يدك فلأبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله فقال أبو عبيدة لعمر :

ما رأيت لك فهة ـــ الفهة : السقطة والجهلة ـــ قبلها منذ أسلمت أتُبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ، وانهم لفي هذا الحديث إذ جاءهم نبأ اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة .. ان أخرج إلينا فأجاب أبو بكر الرسول « اني منشغل » وكان منشغلاً بتجهيز الرسول عليه السلام .. فرد عمر رسوله ليقول لأبي بكر : انه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره .

وخرج أبو بكر إلى عمر وقد تولاه العجب أي أمر يمكن أن يُدعى إليه فيصرفه عن جهاز رسول الله ﷺ .. قال عمر : أما علمت ان الانصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة وأحسنهم مقالة من يقول : منا أمير ومن قريش أمير . فسارع أبو بكر حين سمع ذلك باصطحاب عمر وأبي عبيدة إلى السقيفة .. وكيف يتردد والأمر أمر المسلمين ومصيرهم .. فذاك واجب عليه لله ولرسوله لا يستطيع أن ينهض به غيره .

وبلغ الثلاثة السقيفة والانصار يتحاورون في الأمر لمبايعة سعد بن عبادة .. ودهش الانصار حين رأوهم . فأمسكوا عن القول وكأنما سقط في أيديهم فسأل عمر عن رجل مزمل بين ظهرانيهم من هو ؟ فأجابوا : هذا سعد بن عبادة به وجع ، وجلس أبو بكر وصاحباه بين القوم والكل في نفسه هواجس عمن سيؤول إليه هذا الأمر .

قال ابن إسحاق : لما قُبض رسول الله ﷺ انحاز الخزرج إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة .. واعتزل علي وطلحة والزبير في بيت فاطمة ما اعتزلوا ولكنهم شغلوا بتجهيز الرسول عليه السلام . وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر ومعهم أسيد ابن خضير في بني عبدالأشهل من الأوس فأتى النبأ إلى أبي بكر وعمر ان أدركوا الناس !!

وفي سطور موجزة يصور الكاتب الإسلامي خالد محمد خالد يوم السقيفة بداية ونهاية في كتابه « وجاء أبو بكر » بقوله :

لم يُسارع أبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه وانما سارع ليكف الفتنة أولاً ثم ليكبح جماح الطائفية حيث وقف من يقول : ياللأنصار . ومن يقول : يا للمهاجرين .

ثم ليسلك مع المسلمين الطريق الأمثل لاختيار الخليفة الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الرهيب الذي كان يملؤه رسول الله ﷺ .

وهناك عند السقيفة هَمَّ عمر ليتكلم في الحشد الثائر .. ولكن أبا بكر أومأ إليه بيمينه واستأذنه في أن يبدأ هو الحديث ليقول :

يا معشر الانصار .. انكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهله .

هكذا بدأ الصديق قوله ثم راح الحديث ينساب من قلبه ومضى يدلي برأيه في من يرشح للخلافة .. انه واحد من اثنين : عمر بن الخطاب الرجل الذي أعز الله به الإسلام وأبو عبيدة بن الجراح الذي وصفه الرسول بأنه أمين هذه الأمة .

واقترب منهما أبو بكر وتوسطهما ورفع ذراعيه بكلتا يديه وقال للناس :

لقد رضيت أحد هذين الرجلين عمر وأبي عبيدة وارتعدت يد عمر كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة .. وغض أبو عبيدة عينيه الباكيتين في حياء شديد .

وصاح عمر : والله لأن أُقَدَّم فيُضرب عنقي في غير إثم أحب إليَّ من أن أُؤَمَّرَ على قوم فيهم أبو بكر .

وكان جلال هذا المشهد أبلغ من كل مقال فما كاد عمر يلقي بكلمته هذه ويتقدم باسطاً يمينه مبايعاً أبا بكر حتى ازدحم الأنصار على

البيعة وكأنما دعاهم من السماء داع .. وتمت البيعة العامة بعد ذلك لأبي بكر .. وكان لعمر رضي الله عنه قولته المعروفة : « ان بيعة أبي بكر فلتة .. الا ان الله وقى شرها » .

هذا ملخص يوم السقيفة التي تجمع عليه كتب السيرة بصرف النظر عن كل خلاف قيل فيه .. والذي يؤكد ما أقول .. انه حتى الامام علي كرم الله وجهه والذي يريد بعض المؤرخين أن يجعلوا من قصة تأخره في المبايعة موضع اختلاف .. قال كلمته الفاصلة عن بيعة أبي بكر ومبايعته ..

« امرؤ سماه الله صديقاً على لسان جبريل ومحمد .. كان خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا » .

وكفى بهذا قاطعاً لكل الأقاويل .. وشاهدي على ذلك ما رواه الطبري ان سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة رسول الله ﷺ قال : نعم .. قيل : فمتى بويع أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال : لا » .

أبو بكر الخليفــة

وبعد أن تمت مبايعة أبي بكر بالسقيفة .. عاد الجميع إلى المسجد وكان الوقت مساء والمسلمون يتلقون الأنباء من بيت عائشة عن جهاز الرسول .

وفي اليوم التالي جلس أبو بكر في المسجد وقام عمر يعتذر عما تحدث به إلى المسلمين بالأمس من أن النبي لم يمت قال : إنني قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله ﷺ ولكنني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا وان الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله فإن

اعتصمتم به هداكم الله كما هداه به وان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا وبايعوا .

وكان أن بايع عامة الناس بعد بيعة الخاصة بالسقيفة .

وعلى الأثر قام أبو بكر رضي الله عنه وأخذ يصعد المنبر .. ولكنه لا يصل إلى حيث كان يقف نبي الله فهو لا يُبيح لنفسه وان كان قد أصبح خليفة الرسول ان يجلس حيث كان الرسول يجلس ..

ومن على المنبر توجه للمسلمين وهم يستمعون إليه بآذان مرهفة فقال بعد ان تلا آيات من الكتاب وحمد الله واثنى عليه وصلى وسلم على رسوله :

(أيها الناس فاني قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيركم فان أحسنتُ فأعينوني وان أساتُ فقوموني . الصدق امانة . والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى حتى ارجع عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) .

بهذه الكلمات المضيئة بنور الإيمان .. المقننة لأصول الحكم في الإسلام .. يقرر أبو بكر ان الحاكم فرد من الأمة ليس هو بالتأكيد خيرها وان طاعته مرهونة بالتزام كتاب الله وسنة رسوله ان أحسن وجبت اعانته وان اساء لزم تقويمه ..

ولقد تولى أبو بكر الخلافة .. وليس عنده من المال ما يغنيه عن العمل وقد صرف ثروته الكبيرة في سبيل الله ونصرة رسوله .. فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد يذهب بها إلى السوق ! يتاجر بها فلقيه عمر وسأله :

أين تريد ؟ قال : إلى السوق قال عمر : تصنع ماذا وقد وُليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فأشار عليه أن يذهب إلى أبي عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله ففُرضت له ستة الآف درهم في السنة » ..

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها انه مكث بالسنح ستة أشهر بعد استخلافه يغدو على رجليه أو راكباً إلى المدينة فيصلى بالناس .. ولقد تعود من قبل وهو في طريقه أن يحلب للضعفاء أغنامهم كرماً منه ورفقاً بهم فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة : اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار فسمعها فقال : بل لعمرى لأحلبنها لكم .. فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها يا جارية أتحبين أن أرغى لك أو اصرح ؟ فربما قالت : أَرْغِ .. وربما قالت : أَصْرِحْ فأي ذلك قالته فعل ..

ولقدَ حدث ذات يوم ان قرع باب إحدى تلك الدور التي كان يحلب لأهلها .. فسارعت إلى الباب فتاة صغيرة وما ان رأته حتى صاحت انه حالب الشاه يا أماه .. وتُقبل الأم فإذا بها وجها لوجه أمام خليفة رسول الله ﷺ الذي لم يشغله ما سمع عن أداء الواجب الذي وضعه على نفسه ألا وهو حلب الشياه للعجائز .. والعاجن بيديه خبزاً للأيتام ..

ولقد تكاثرت بمرور الأيام أعمال الحكومة فانتقل إلى المدينة ورأى أن يُعين نفسه على النفقة بالتجارة حيثما استطاعها فلما حضرته الوفاة أمر أن يُحصى ما أخذه من بيت المال فيُرد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضي الله عنهما :

فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نز الأرض كان حشوها قطع السعف » .

ومما روى عن عفته وزهده ان امرأته اشتهت حلوى واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى . ذلك هو الصديق .. وقد تولى الخلافة .

ولقد كان رضوان الله عليه يتحرى الحلال في طعامه وشرابه وملبسه وجميع نفقته .. فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :

(كان لأبي بكر غلام يُخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه . فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر . فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو ؟! قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة . إلا إنني خدعته فأعطاني بذلك . فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه . روى ذلك الإمام البخاري رحمه الله ، وفي رواية لابن نعيم في الحلية قيل له : يرحمك الله كلّ هذا من أجل هذه اللقمة قال : لولم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به** » . فخشيت أن ينبت شيء في جسدي من هذه اللقمة .

سياسة الاتباع

آمن أبو بكر بمحمد عليه الصلاة والسلام واتبع النور الذي جاء به وحرص على الاقتداء به والطاعة له من يوم أن أسلم إلى أن توفاه الله وأسلم الراية لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولقد قال بعد أن بايعه المسلمون في السقيفة وما بعدها : إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، ويخرج إلى الناس فيسألهم ثم يقول : **الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا** ..

وانطلاقاً من هذه السياسة فقد حرص إثر توليه الخلافة على إنفاذ جيش أسامة ابن زيد الذي كان الرسول عليه السلام قد جهزه قبل وفاته

للزحف إلى تخوم البلقاء بالشام رداً على عدوان الروم ومن تواطأ معهم من العرب .. ويرى الصحابة .. أو بعضهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب أن بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة بعد ما ظهرت بوادر النفاق متمثلة في المرتدين حتى أسامة قائد الجيش نفسه كان يرى عودة الجيش ليقف في مواجهة الأحداث المستجِدة .. لكن أبا بكر (كما تقول كتب السيرة) يستمد منطقه من إيمانه وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكماً أو أصدر الرسول بها أمرا ولقد أمر الرسول عليه السلام قبيل وفاته أن ينفذ بعث أسامة ولهذا تراه يقول للذين خوفوه من الخطر على المدينة بعد مفارقة الجيش لها .

(والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ولو ان الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة . ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة) .

ولما رأى المسلمون إصرار أبي بكر على انفاذ جيش أسامة .. عادوا يحاولون معه وفي المقدمة عمر بن الخطاب أيضاً استبدال أسامة بغيره ممن هو أسن منه وأكثر خبرة بفنون القتال ..

ويأبى أبو بكر انطلاقاً من القاعدة التي قرر بها انفاذ الجيش .. فالذي ولّى أسامة قيادة هذا الجيش هو رسول الله .. ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حيّ .. فكيف لأبي بكر أن يخلع قائداً عينه رسول الله .. ولهذا فما كاد يعرض عمر هذا الرأي حتى وثب الصديق من مكانه وأخذ بلحية عمر رضي الله عنهما وقال :

ويحك يا ابن الخطاب أيوليه رسول الله ﷺ وتأمرني أن اعزله .. ثم نهض الصديق يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكراً فدعاهم للتحرك على بركة الله وسار معهم خليفة رسول الله ماشياً على قدميه إلى جوار أسامة الذي كان ممتطياً ظهر فرسه .. فاستحيا أسامة وَهَمَّ بالنزول داعياً

خليفة الرسول إلى الركوب .. فيثبته أبو بكر بيده في مكانه وهو يقول : والله لانزلت .. ولا أركب .. وماذا عليَّ ان أُغَبِّرَ قدمي في سبيل الله ساعة .. ثم قال لأسامة أصنع ما أمرك به رسول الله ﷺ .. ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ ..

وليس هذا فحسب .. بل لقد أراد أن يُبْقِيَ عمر بن الخطاب إلى جانبه فلم يقرر ذلك لوحده وانما اقترب من أسامة وقال له هامساً :

إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب فاني أجد في بقائه معي خيراً ونفعاً .. وبادر أسامة بالموافقة التي لو لم يعلنها لما وسع الخليفة ان يخالف وقد كان عمر من بين الجيش الذي جهزه الرسول بقيادة أسامة ..

هكذا كان أبو بكر متبعاً ما دام هناك أمر أو حكم ولقد أدرك الناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنفاذ البعثة إذ شاع في الجزيرة خبرها وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لاتمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا وقالوا فيما بينهم : لولم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

حرب الردة

قال محمد بن إسحاق : ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل مكة والمدينة ..

ويُفصل ابن كثير دوافع هذا الإِرتداد فيقول : قلَّ الجند عند أبي بكر بعد انفاذ جيش أسامة فطمِعت كثيرٌ من الأعراب في المدينة وراموا أن يهجموا عليها وجعلت وفود العرب تقدم المدينة يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة ..

ولقد قابل أبو بكر فتنة الردة بأحزم ما تُقابل به من مبدئها إلى منتهاها وعالجها ــ كما تقول كتب السيرة ــ علاجها في كل خطوة من

خطواتها وكل ناحية من نواحيها فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى وتعقبها بالحزم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى النهاية التي تمت لصالح الإسلام والمسلمين ..

كان قرار أبي بكر رضي الله عنه ، ضرْبَ المرتدين بقناعة المقُتدى وهو يقول : **والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف »** .

ويتجمع الصحابة . بمن فيهم عمر الذي عرف بشدته في الحق لمراجعة أبي بكر في قراره وراح عمر يقول لأبي بكر : علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » .

ويرد أبو بكر : ألم يقل الرسول : « الا بحقها » .. ألا إن الزكاة من حقها .. والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .. ثم يوجه حديثه للفاروق ويقول : يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك . أجُبَارٌ في الجاهلية وخوار في الإسلام .. انه قد انقطع الوحي وتم الدين .. أو ينقص وانا حي ؟ ثم خطب في الناس وقال : والله لا أدع أن اقاتل على أمر الله حتى ينجز وعده ويوفى لنا عهده .. قضاء الله الحق وقوله الذي لا خلف له : ﴿ **وَعَدَ اللّهُ الذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** ﴾ (النور : آية ٥٥) .

وسرى روح هذا التصميم الصديقي — كما تقول كتب السيرة — إلى روح عمر سريان الكهرباء في أسلاكها فإذا هم وراء الصديق في كل صغيرة وكبيرة وكأنما كان عمر يعبر عن خلجاتهم جميعاً وهو يقول : **فما هو الا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق** .

ونجحت خطط أبي بكر وعاد المرتدون .. بل وتوسع الإسلام .. وانتشر أكثر بالسياسة الرشيدة للصديق .

ولقد قال أبو رجاء البصري .. وهو أحد ثقات الرواة ..

دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا قلت من المُقَبِّل ومن المُقَبَّل ؟

قالوا : عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين .

ولقد كان عبد الله بن مسعود يصور الحقيقة الكبرى لنتائج تلك المحنة بقوله :

لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نَهْلَك فيه لولا أن منَّ الله علينا بأبي بكر .

نعم لقد كان أبو بكر نعمة ورحمة للمؤمنين ومثوبة للدين من بعد رسول الله .. سواء بموقفه الحكيم يوم السقيفة أو بعث جيش أسامة أو حروب الردة .. أو المعارك التي فتح الله له بها التخوم .. وهذا ما يقول عنه العقاد في كتابه (عبقرية الصديق) .

.. وفي أقل من ثلاث سنوات قصار انجز من تلك المآثر الطوال وفي أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفي سبيلها ما فيه من صعاب ، وقمع الردة وحولها ما حولها من خطر ، ووطىء حدود فارس والروم ولها مالها من هيبة ومنعة : ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل ان تقوم ، ولو انها حسبت لثلاثين سنة .. ولم تحسب لثلاث سنوات قصار .. لجللتها بالثناء والفخار » .

جمــع القرآن

(**رحمة الله على أبي بكر كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف**) هذا ما قاله الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .. ويقوله كل مسلم ولطالما سألت نفسي وأنا أكتب هذا الكتاب أي أعمال الصديق أعظم ؟.. قضاؤه على الردة والمرتدين في بلاد العرب أم فتحه العراق والشام وتمهيده بذلك للامبراطورية الإسلامية العظيمة التي حملت عبء الحضارة الإنسانية قروناً متعاقبة . أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله النبي الأمي هدى ورحمة للعالمين ؟ طالما سألت نفسي ــ يقول المفكر الإسلامي محمد حسين هيكل في كتابه الصديق أبو بكر ــ وفكرت اتلمس الجواب ولم اتردد قط في الإجابة . فجمع القرآن أعظم أعمال أبي بكر لاريب وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين .

ولقد قرأ زيد بن ثابت القرآن كله على رسول الله ففي صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك انه قال : جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد .

ومن هنا جاء تكليف أبي بكر لزيد بتجميع المصحف وكتابته فقد روى الإمام البخارى رحمه الله عن زيد بن ثابت الأنصاري أنه قال :

أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر جالس عنده فقال أبو بكر إن عمر قد جاءني فقال : ان القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب بكثير واني أرى أن تأمر بجمع القرآن .. وانك رجل شاب عاقل لانتهمك .. فقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فأجمعه » ..

قال زيد : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال أبو بكر .. هو والله خير .. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو أبي خزيمة الأنصاري ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ..

ولقد انتقل المصحف بعد أبي بكر لعمر بن الخطاب فلما أُستشهد أُودِع عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما .. وفي خلافة ذي النورين عثمان بن عفان استحضرها واستنسخ منها له وللامصار بعد ان انتشر الإسلام ورأى أنه لابد من توحيد قراءتهم على مصحف واحد .. وذلك ما اقره الامام على الذي قال كما أسلفنا : (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر .. هو أول من جمع كتاب الله) .

استخلاف الفاروق

بعد خمسة وعشرين شهراً .. ونيف من الجهاد المتواصل ـــ كما يقول تاريخ السيرة ـــ في رعاية المسلمين وقيادة الجهاد لاستئصال الردة ولدفع الإسلام إلى العراق والشام واعداد المسلمين للإنطلاق بالدين في دنيا الله الواسعة .. وقبلها عشرون عاماً من الدأب والمصاحبة لرسول الله ﷺ .. اقتربت ساعة النهاية في حياة الصديق رضي الله عنه .. فلقد أصيب بوعكة لم يحتملها أكثر من أسبوعين حسب رواية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وذلك عقب اغتساله في يوم بارد إذ حُمَّ فلزم البيت لا يستطيع الخروج إلى الصلاة حتى وافاه الأجل .

وأبو بكر الذي عُرف بدقة الاستنباط .. يذكر قول النبي ﷺ :

(بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليه دلو فنزعت منه ما شاء الله ثم أخذها ابن قحافة فنزع منها ذَنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف يغفر الله له .

ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن) .

يتذكر أبو بكر هذا الحديث فيجمع إليه نخبة من أهل الرأي ويقول لهم : قد اطلق الله ايمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدتي ورد عليكم أمركم فأمّروا عليكم من أحببتم فانكم أن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي .

وتحاور الصحابة .. ثم رجعوا إليه كما جاء في رواية الحسن البصري يقولون : ان الرأي يا خليفة رسول الله رأيك ..فَاستَمْهَلَهُمْ حتى ينظرَ للهِ ولدينه ولعباده .. ثم يستقر رأيه .. على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن خضير .. وقد سأل أبو بكر الإمام علي رضي الله عنه فقال : **عمر عند ظنك به ورأيك فيه. ان وليته مع انه كان والياً معك نحظى برأيه ونأخذ منه . فامض لما تُريد ودع مخاطبة الرجل فان يكن على ما ظننت ان شاء الله فله عمدت . وان يكن مالاتظن لم ترد إلا الخير » .**

وهكذا أملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وخرج به مختوماً ونادى في الناس أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟.. وقيل ان أبا بكر أشرف من كوته فقال : (أيها الناس اني عهدت عهداً أفترضونه ؟ فقالوا : رضينا ياخليفة رسول الله .. وقام علي فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر ..

وتقوله كتب السيرة انه لما قيل له : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وقد رأيت غلظته . ؟!

أجابهم بقوله : (أقول : **اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك**) .

وكتب في نص الوصية :

(إني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب . فاسمعوا وأطيعوا ، فإني لم آل الله فإن عدل فذاك الظن به ، وعلمي فيه ، وإن بدل فكل امرئ ما اكتسب . والخير أردت ، ولا علم لي بالغيب ﴿ **وسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون** ﴾ الشعراء : آية ٢٢٧) .

ولقد توفي رضي الله عنه ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة . صلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ بين القبر والمنبر . ودُفن إلى جانب قبر الرسول ﷺ وألصقوا لحده بلحده في بيت عائشة رضي الله عنها وكان آخر ما تكلم به .

(رَبِّ توفَّني مُسْلِماً وأَلْحِقْني بِالصَّالحين) .

وأخيــــراً

رحم الله أبا بكر .. فقد كان الأمين في الصحبة .. والأمين في الحكومة .. والأمين في السيرة .. والأمين في المال .. والأمين في الإيمان وكفاه ترضية الله له في قوله تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الذي يُؤْتِي ماله يتزكّى وما لِأَحَدٍ عنده من نعمةٍ تُجْزَى إلا ابتغاءَ وَجْهِ رَبِّه الأعلى وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ .

وثناء الرسول ﷺ .. ودعاؤه له في أكثر من موضع ، من ذلك ما رواه أبو الدرداء بقوله :

كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته وقال يا رسول الله انه كان بيني وبين عمر ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه نادماً وسألته أن يغفر لي فأبى . فقال له الرسول : « يغفر الله لك يا أبا بكر » .

ثم ان عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فلم يجده .. ثم أتى النبي ﷺ وقال يا رسول الله : انا كنت أظلم .. يا رسول الله أنا كنت أظلم فقال الرسول : « ان الله بعثني إليكم فقلتم كذب وقال أبو بكر صدقت وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركون لي صاحبي فهل أنتم تاركون لي صاحبي » .

رحم الله أبا بكر الذي حمل الأمانة .. وسلمها للفاروق الذي انفجر باكياً بعد أن حملت عائشة رضي الله عنها تركة أبيها فور وفاته ومبايعة عمر تنفيذاً لوصية الصديق فما كاد يرى ويسمع حتى ارتفع نشيجه وهو يقول :

يرحم الله أبا بكر .. لقد أتعب كل الذين يجيئون بعده .. رحم الله أبا بكر وعمر وكل من اقتدى بهدى الرسول عليه السلام وسار سيرتهما العادلة .

الفاروق

عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

سلام الله عليك .. يا عمر ..

.. **مثلما** يكون نزول المطر نعمة ترفد الأرض بأسباب الحياة التي تسقي الأنعام .. وتُنبت الزرع .. يكون العدل للإنسان نعمة تورق في ظلاله الحياة .. وتنتشر من خلاله أسباب السعادة الآمنة المطمئنة ..

وربما لا أكون مبالغاً إذا قلت بأن العدل للإنسان .. أو بتعبير أكثر دقة في حياة يعيشها الإنسان .. أكثر أهمية .. من المطر للأرض والزرع .. والضرع ..

فالأرض قد تستعيض عن المطر بمياه الأنهار .. أو الآبار .. أو حتى البحار بعد تحليتها .. بينما الإنسان لا يستطيع أن يجد للعدل بديلًا يوفر له الأمان والطمأنينة والدعة ليعيش حياته مستقراً منتجاً يفيد مجتمعه ويستفيد منه .. ولهذا كان توجيه رب العزة والجلال واضحاً في محكم التنزيل إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إنَّ اللّهَ يأمرُ بالعدلِ وَالإحسانِ وَإيتاءِ ذي الْقُرْبَى** ﴾ (النحل : آية ٩٠) .

كما يقول سبحانه وتعالى في موضع آخر وفي صيغة الأمر أيضاً ﴿ **وإذا حَكَمْتُمْ بينَ الناسِ أن تحكُمُوا بِالعدلِ** ﴾ (النساء : آية ٥٨) .

ويصف رسول الهدى .. وسيد من عدل ، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .. المقسطين الذين يعدلون بين الناس بقوله ﷺ :

« **إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين** » .

والحديث عن العدل .. لا يمكن أن يتم .. أو يكون — بصورة أصح — مالم يكن لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه القسط الأوفى فيه أو منه ..

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه .. وقد استلهم النهج من المعلم الأكبر رحمة الله فينا ورسوله إلى خلقه عليه الصلاة والسلام .. واستبان السبيل من « الصِّدِّيق » رضوان الله عليه .. كان أفضل من عدل بعد معلمه عليه السلام .. وصاحبه الخليفة رضي الله عنه .. ولقد كتب الكثير من كبار المفكرين والدارسين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، سيرة ومنهاجاً كان العدل فيهما ضوء يتألق .. وعلى مر العصور .. وما أحسبني اليوم أضيف جديداً . ولكني سألتقط من على مائدة العدل التي بسطها الفاروق « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه .. بعض المواقف التي قد تصلح لدحض من يفتري بالإنتقاص من عدل عمر رضي الله عنه .

فلقد تحدث إلى بعض شبابنا في العام ١٤٠٥ هـ « وافدٌ » عن عمر وعدله محاولا أن ينال منه .. أو يُقلل من ذروته وما درى أنه كناطح صخرة .. واننا لولا الحياء الذي هو من شعب الإيمان لعرينا له مسلكه .. ومذهبه المتباعد عن مذهب السنة والجماعة . ولكن يكفينا أن يعرف هذا الوافد بأن لا مكان له ولا لمذهبه عندنا .. ولقد قلت بأن الذين كتبوا عن « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه .. وعن سيرته في الإسلام جد كثير .. وفي يقيني أنه رغم ذلك فأن ما خلفه لنا الفاروق رضي الله تعالى عنه من مناهج .. ومواقف سيظل شاغل المفكرين والكتاب إلى أمد بعيد ومن خلال مؤلفات .. ومجلدات واسعة ستتناول تلك المناهج والمواقف لتضاف إلى ما سبق .. وهو كثير أيضاً .. ولهذا تظل الكتابة عن أمير المؤمنين رضي الله عنه في صحيفة سيارة .. وفي مساحة محدودة أو حتى في كتاب بصفحات معدودة — وأنا أفعل هذا الآن — ليست أكثر من قطرة في

واد .. أو نقطة في بحر .. ولذا فأنني أستغفر الله أولًا .. وأستميح أمير المؤمنين ثانياً .. إن لم تسمح المساحة .. ولم يسعفني الأسلوب لأن أقدم شيئاً على مستوى الموضوع ..

نحب عمر

وكلنا في هذا البلد الذي ولد فيه عمر وتربي ونشأ وحكم يحب عمر .. ويهفو شوقاً .. ويتقطع صبابة لسيرة عمر .. وحياة عمر .. وحكم عمر .. وعدل عمر .. وكيف لا ورسول الله ﷺ يقول فيه :

« إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

كلنا يحب عمر .. ويهفو لسيرته .. من القمة للقاعدة .. وهذا وليُّ الأمر فينا خادم الحرمين الشريفين يتحدث في مجلة الحوادث اللبنانية بالعدد ٩٣٦ .. وتهلُّ سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فيتجه بالحديث صوبها .. وقد سأله كاتب الحديث بذا :

« .. وأكبر أولادك . ماذا تُريد له .. وماذا تُريد منه ؟؟

أُريده كأبيه .. كجدّه .. كأعمامه .. كسيوف أسرته كلها مشهورة لخدمة الله والناس . أُريد منه أن ينقل ذلك إلى أولاده من بعده ..

فيُسأل حفظه الله ثانية : هل في كل ذلك ما أرضاك ؟ .. وما يُرضيك عن نفسك ؟

فيقول حفظه الله : رضاي من رضى ربي عليَّ .. وويلي وويل أبي ــ كما كان يدعو الله عمر بن الخطاب ــ إن لم يغفر لي ربي .. أو لم يرض عني .

وهنا .. يتطلع المحاوِر نحو خادم الحرمين الشريفين ويقول : أحس بأنك تصبو صوب عمر أو يهفو بك الشوق إلى ذكراه ؟

وفي صدق بالغ يُجيب ولي الأمر فينا قائلًا :

وهل مثل عمر في عدله وإنصافه ؟ انه أقرب خلفاء المسلمين إلى قلبي .. بل هل مثل عمر في حزمه وحسن إدارته .. انه عبقري » ..

هذا حديث ولي الأمر عن الخليفة العادل رضي الله عنه ، والناس .. كل الناس تشهد بهذا صباح مساء وهي تسلم عليه بعد رسول الله وأبي بكر قائلة : السلام عليك أبا حفص سيدنا عمر بن الخطاب .. السلام عليك يا شهيد المحراب السلام عليك ياناطقاً بالعدل والصواب الخ ..

فهل بعد هذا من شانيء يحاول البهتان .. وأمة محمد عليه الصلاة والسلام لاتجتمع إلا على الحق .

عمر والإسلام

رُوي عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أنه قال : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » .

فلقد مضت بضع سنوات ولما يستجب لما جاء به محمد ﷺ من الحق غير نفر قليل لم يتجاوز عددهم الأربعين . تجمعهم دار الأرقم بعيداً عن أعين المشركين الذين يواصلون التضييق على من يؤمن بالله ويؤذون الضعفاء والفقراء منهم بالبطش والتنكيل .

ولقد عزَّ على رسول الله ﷺ .. وهو الرحمة المهداة .. هذا الحال .. فالتجأ إلى الله تعالى كما روى الترمذي في السنن :

« اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك ، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب » .

واستجاب الله دعاء نبيه .. وكيف لا وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعطِيكَ رَبُّك فَتَرْضَى** ﴾ .

كما رُوي عن الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما عائشة أم المؤمنين : « ما أرى ربَّك ألا يسارع في هواك » .

إستجاب الله لنبيه ﷺ .. فأسلم أحب الرجلين إلى الله .. عمر بن الخطاب .. ولإسلامه رضي الله عنه قصة مؤثرة ومعبرة .. أو هي كما قال العقاد يرحمه الله في كتابه « عبقرية محمد » نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ينفي كل كلام يقال عن الوعيد والاغراء وأثرهما في إقناع الأقوياء .. أو الضعفاء .

إسلام عمر

يقول ابن إسحاق .. في كتاب السيرة :

« .. خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه .. وقد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء . ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر ابن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم .. ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة . فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له ، « من تُريد يا عمر ؟.. »

فقال : « أريد محمداً هذا الصابيء الذي فرّق أمر قريش ، وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله » .

فقال نعيم : « والله لقد غرتك نفسك يا عمر !.. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ »

قال : « وأي أهل بيتي ؟ »

قال : « ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ! وأختك فاطمة بنت الخطاب .. فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما » .

قال : « فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينمة التي سمعت ؟»

قالا له : « ما سمعت شيئاً !.. »

قال : « بلى والله !.. لقد أُخْبِرْتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه » .. وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته : « نعم .. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : « أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد » . وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : « إنا نخشاك عليها » .

قال : « لا تخافي » وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : « يا أخي !.. إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر » . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !» فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : « يا عمر ! والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب .. فالله الله يا عمر !» .

فقال له عند ذلك عمر : « فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلِم »

فقال له خباب : « هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه » فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : « يا رسول الله !.. هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف » .

فقال حمزة بن عبد المطلب : « نأذن له .. فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » .

فقال رسول الله ﷺ : « ائذن له !» فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟.. فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ! » .

فقال عمر : « يا رسول الله !.. جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله » .

قال : « فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم » ، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيُمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم ..» .

هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والإغراء « كما يقول العقاد » : خرج بالسيف ليقتل محمداً ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدراً من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو : ﴿ طَهَ * مَا أَنْزَلْنَا عليكَ القرآنَ لِتَشْقَى * إلاَّ تَذْكِرةً لِمَنْ

يَخْشَى * تنزيلًا مِمّنْ خَلَقَ الأرضَ والسموٰاتِ الْعُلَى * الرحمٰنُ على العرشِ اسْتَوَى * له ما في السموٰاتِ وما في الأرضِ وما بينهما وما تَحْتَ الثَّرَى * وإن تَجْهَرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السِّرَ وأَخْفَى ﴾ (طه : آية ١ـ٧) .

فلا جبن إذاً ولا طمع في إسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة وإنابة .

عزة الإسلام

بعد أن أسلم عمر بن الخطاب وفَرّقَ الله به بين الحق والباطل .. حرص هذا العبقري الخالد أن يكون وعامة الناس من المسلمين سواء بسواء . فذهب إلى رجال قريش وزعمائهم متحدياً على أمل أن يلقى منهم مايلقى فقراء المسلمين من الضرب .. أو الأذى .. وليكون في ذلك عزاء لهؤلاء الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. ولكن الجبابرة من المشركين يُعرضون عنه .. ويتحاشونه مهابة .. فيذهب إليهم وقد تجمعوا حول الكعبة .. ويستثيرهم بما يدفعهم للدخول معه في معركة حامية .. نترك له رضى الله عنه أن يرويها حيث يقول : « وثار إلَيَّ الناس يضربونني وأضربهم فجاء خالي وقال : ما هذا ؟ قالوا : إبن الخطاب ، فقام على الحجر وقال : ألا إني قد أجرت ابن أختي فانكشف الناس عني فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين وأنا لا يضربني أحد فقلت : ألا يُصيبني ما يصيبهم ؟ فجئت خالي وقلت له : جوارك مردود عليك قال : لا تفعل يا أبن أختي قلت : بل هو رد عليك قال : ماشئت فافعل فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله بنا الإسلام » .

فهل من بعد هذا عدل .. وقد عرَّضَ عمر نفسه لينال الذي لحق بإخوانه المسلمين في الوقت الذي كان له من مكانته ومن جوار خاله ما يمنعه من ذلك .. ثم أليس هو القائل : « **كيف يعنيني شأن الناس ! إذا لم يُصبني ما أصابهم** » .

ان عمر قوة .. ولا يريد ـــ وقد أكرمه الله بالإسلام ـــ إلا أن يظهر الإسلام قويا وهذا ما حصل بالفعل .. إذ يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :

« مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر .. كان إسلامه فتحاً .. وكانت هجرته نصراً .. وكانت إمامته رحمة .. لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر » .

والحديث عن عمر .. في إسلامه وأثر ذلك على الإسلام والمسلمين لاينتهي .. كما أسلفت .. ولهذا فإنني أكتفى عن ذلك وهو كثير .. وكثير جداً بما جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله عن رجحانه بالأمة كلها حيث يقول :

عن أبي إمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت الجنة فسمعت فيها خشفة (أي حساً وحركة) بين يدي فقلت : ما هذا قال : بلال ، قال فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارئ المسلمين ولم آت أحداً أقل من الأغنياء والنساء قيل لي : أما الأغنياء فهم هاهنا بالباب يحاسبون ويمعصون (المعص التواء في عصب الرجل) وأما النساء فألهاهن الأحمران الذهب والحرير .. قال : ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية ، فلما كنت عند الباب أُتيتُ بكفة فوُضِعتُ فيها ووُضِعت أمتي في كفة فرجحتُ بها .. ثم أُتى بأبي بكر فوُضِعَ في كفة وجيء بجميع أُمتي في كفة فرجَحَ أبو بكر وجيء بعمر فوُضِع في كفة وجيء بجميع أمتى فوُضِعوا فرجَحَ عمر » .

فهل بعد هذا من منازع في مكانة عمر الذي رجحت به الكفة عن جميع أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؟

مكانة عمر

ومكانة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي تحدث عنها الإمام علي كرم الله وجهه .. قد أشاد بها من قبل ومن بعد الكثير من صحبه وفي المقدمة نبي هذه الأمة عليه صلوات الله وسلامه .

فقد روى البخاري ومسلم رحمهما الله أن رسول الله ﷺ قال :

« بينما أنا نائم إذ رأيت قدحاً قد أُتيت به فيه لبن فشربت منه حتى أني لأرى الريَّ يجري في أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب قال أصحاب الرسول : فماذا أولته يارسول الله ؟ قال : العلم » .

كما قال ﷺ : « قد كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلمون من غير ان يكونوا انبياء فأن يكن في امتي أحد فعمر » .

وكذا قوله ﷺ :

ـــ لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب .
ـــ ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .
ـــ عمر بن الخطاب معي حيث أحبَ ، وانا معه حيث يُحب ، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان .

كما تروي كتب السيرة أن أبابكر الصديق رضي الله عنه قال :

« ما على الأرض رجل أحب إليَّ من عمر .. والله إن عمر لأحب الناس إليّ » .

وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه وهو القائل : من أراد أن يرى القوي الأمين فلينظر إلى عمر »: الا تكون مثل عمر ؟ فقال : لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم .

ويقول الإمام علي بن أبي طالب إلى جانب ما سلف : « خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وخير الناس بعد أبي بكر عمر » ..

وذكر أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عمر يوماً فقال :

« إن موت عمر رقّق الإسلام . ما أحب لي أن تطلع عليه الشمس أو تغرب وأني أبقى بعد عمر » .

ويقول حبر هذه الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما :

« رحمة الله على أبي حفص كان والله حليف الإسلام ومأوى الأيتام ومحل الإيمان ومنتهى الإحسان ونادي الضعفاء ومعقل الخلفاء .. كان للحق حصناً وللناس عوناً قام بحق الله صابراً محتسباً حتى ظهر الدين وفتح الديار .. وذكر الله عزوجل على التلال والبقاع وقوراً لله في الرخاء والشدة .. شكوراً في كل وقت فأعقب الله من يبغضه الندامة إلى يوم القيامة » ..

ويقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :

« لو أن عِلْمَ بن الخطاب وضع في كفة ميزان ووضع عِلْمُ أهل الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم » وقال :

« كان عمر أعلمنا بكتاب الله وأفقهنا في دين الله .

كان إسلامه فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة .

ويقول العباس عم رسول الله ﷺ : « كنت جاراً لعمر بن الخطاب فما رأيت أحداً من الناس أفضل من عمر إن ليله صلاة وان نهاره صيام وفي حاجات الناس » ..

والواقع أنني لو أردت إيراد جميع ماقيل في عمر لضاقت بي الصفحات ولكني أكتفي بما سبق وأختتمه بقولة لمعاوية قال فيها « أما أبو

بكر فلم يُرد الدنيا ولم تُرده وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يُردها وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن » .

نسبه

.. **لا تختلف** كتب السيرة في نسب عمر بن الخطاب .. ولا سنه وإنما تقول عنه بإجماع :

عمر بن الخطاب من بني عدي يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي بن غالب . فهو قرشي ذو مكانة ونسب ، وأخواله من بني مخزوم .

ولد قبل البعثة بسبع وعشرين سنة فهو أصغر من النبي ﷺ بثلاث عشرة سنة .

نشأ كما ينشأ الطفل القرشي على العزة والكرامة والمنعة والفروسية والفصاحة .

كان جسيماً . وإذا مشى كان شديد الوطء على الأرض . جهوري الصوت يفوق الناس طولا كأنه راكب والناس يمشون . أبيض تعلوه حمرة . أصلع أشيب . كان خفيف العارضين ، سبلته كثيرة الشعر في أطرافها صهبة . كان أعسر يسر يعمل بيديه جميعاً .

وكان من فروسيته أنه يمسك أُذني فرسه بيديه ثم يثب حتى يقعده .. كما عرف بفصاحته المعبرة وحجته الداحضة .. وهو ما أهَّله لكي يكون سفيراً لقريش لدى غيرها من القبائل في الحروب أو المنافرة أو المفاخرة .

أما عمله فقد كان يتاجر في الأقمشة وخاصة الحرير الذي اشْتُهِرَ بانتقاء الرهيف منه وتسويقه .. وللمرحوم عمر التلمساني شيخ الإخوان المسلمين بمصر في آخر أيام حياته تعليق على اشتغال عمر رضي الله عنه بالتجارة بالحرير في كتابه « شهيد المحراب » يقول فيه :

« وإن تجارة الحرير تحتاج إلى دقة ورقة وعناية واحتراس وحذر .. وكأنها تمهيد لتجارة زاولها بعد إسلامه فقد أخذ الإسلام في دقة وعناية وإحتراس وحذر فتناوله عالياً ثميناً غالياً لا يدانيه عنده شيء في الوجود » .

هجرته

.. **عندما** أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة .. كان المسلمون يخرجون في جُنْحِ الليل ويتسللون لواذاً إلى المدينة المنورة هرباً من كفار قريش وعتاتها الذين نذروا أنفسهم لمحاربة الله وماجاء به الرسول ﷺ .

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فإنه لم يخرج سراً ولا متخفياً وأعلن ذلك متحدياً قريش ، إذ رُوى أنه لما أراد الهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده سهماً .. واختصر عنزته ومضى قِبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها : فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ثم وقف على الحِلق واحدة واحدة فقال لهم :

شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه أو ييتّم ولده أو يُرَمِّل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي . ثم مضى لوجهه ولم يتبعه أحد .

وكان قد اتفق مع عياش بن أبي ربيعة أن يلتقيا في مكان محدد . فالتقيا وسارا معاً إلى أن وصلا إلى المدينة ونزلا في بني عمرو بن عوف ينتظران قدوم رسول الله ﷺ .

وعندما وصل النبي ﷺ والصديق رضي الله عنه إلى المدينة .. شارك عمر في بناء المسجد ، وآخاه الرسول ﷺ مع عتبان بن مالك .

وظل في صحبة النبي ﷺ وصحبة خليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه خير معين ومستشار .. وقد وافقه القرآن الكريم بما نزل به جبريل من رب العباد في كثير من الآراء التي كان يراها أو يشير بها على الرسول ﷺ .. وأوصل بعض العلماء تلك الموافقات إلى أكثر من عشرين موضعاً في القرآن الكريم .

صاحب هيبة

ولعمر رضي الله عنه مهابة ليست لغيره من أصحاب النبي ﷺ ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : أتيت رسول الله ﷺ بخزيرة طبختها له . فقلت لسودة والنبي بيني وبينها كلي فأبت . فقلت : لتأكلن أو لألطخن وجهك . فأبت فوضعت يدي في الخزيرة ولطخت بها وجهها . فضحك النبي ﷺ فوضع فخذه لها وقال لسودة : لطخي وجهها ، فلطخت وجهي فضحك النبي ﷺ أيضاً . فمرّ عمر فنادى : يا عبدالله ، يا عبدالله ، فظن رسول الله ﷺ أنه سيدخل فقال : « قوما فاغسلا وجوهكما ». فقالت عائشة : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

وعن عبدالله بن جبير أنه سمع عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يحدث قال :

مكثت سنة أريد أن أسأل عمر عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

وعن عمر بن مرة قال : لقي رجل من قريش عمراً فقال : لِنْ لنا فقد ملأت قلوبنا مهابة . فقال أفي ذلك ظلم ؟. قال : لا ، قال : فزادني الله في صدوركم هيبة .

كما روى سعد بن أبي وقاص أنه قال : دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه رافعات

أصواتهن ، فلما سمعن صوت عمر ، انقمعْن وسكتن . فضحك رسول الله ﷺ فقال عمر : يا عدوات أنفسهن تهبنني ولا تهبْن رسول الله ﷺ ؟! فقال رسول الله ﷺ : « يا عمر ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير فجّك » .

وعن السائب بن زيد قال : كنت نائماً في المسجد فَحَصَبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فأتني بهذين الرجلين ، فجئته بهما فقال ممن أنتما ؟ ومن أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ! .

.. وقد هابه الناس لشدته وحرصه على التدقيق والتمحيص لوجه الحق فعن أبي سعيد قال : كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى الأشعري كأنه معذور « أي لحاجة هامة » فقال استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت ، فقال : ما منعك ؟ فقلت : استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت ، وقد قال ﷺ « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » فقال : والله لتقيمنَّ عليه بيِّنة .

أمنكم أحد سمعه من رسول الله ﷺ فقال أبي : فوالله لا يقوم معك إلا أصغر القوم . فكنت أصغرهم فقمت معه فأخبرت عمر أن رسول الله ﷺ قال ذلك .

هذه الشدة ليست مقصورة على الناس .. فهي على نفسه : قالت حفصة مرة لأبيها عمر :

« يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً ألين من ثوبك وأكلت طعاماً ألين وأطيب من طعامك . فقد وسع الله الرزق وأكثر من الخير فقال : إني سأخاصمك إلى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من العيش .. فما زال يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها : والله إن استطعت ،

لأشاركنهما ــ يشير إلى رسول الله ﷺ وأبي بكر في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرضي .

عدل مأثور

.. في كتابه « عبقرية عمر » يقول المفكر الإسلامي « عباس محمود العقاد » يرحمه الله : وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة وفيها دواعي الإغراء بالإعجاب والمبالغة وممن ؟.. من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يُتهمون بقصد السوء وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين .. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه ..

فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم لإفضاء الحقوق وإقامة الحدود وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه .. فإذا سوى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل مأثور يقتدي به الحاكمون ولقد سوى عمر بين ابنائه وسائر المسلمين فبلغ ذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكام وذلك كاف في تعظيم قدره لاحاجة بعده إلى مزيد » .

وهذا الذي يقول به العقاد ليس اجتهاداً ولا تأويلاً .. وإنما هو الرأي فيما سار عليه عمر مع الناس أجمعين بما فيهم أهله وبنوه . ولكي نرى ذلك علينا أن نعود ثانية لكتب السيرة .

كان عمر إذا سن قانوناً .. أو أصدر أمراً جمع أهله وقال لهم ؛

« اني قد نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا وإن هبتم هابوا واني والله لا أُوتىٰ برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني .. فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر » ..

وحين أفاء الله على المسلمين في عهده خيراً كثيراً وامتلأ بيت المال بالمال أشار عليه نفر من الصحابة أن يقوم بإحصاء الناس ورصد أسمائهم في

ديوان حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية في نظام محكم .. فاختار لهذه المهمة عقيل بن أبي طالب وجبير بن مطعم ومخرمة بن نوفل وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش وأكثرهم معرفة بالمسلمين .. وجلسوا يدونون الأسماء بادئين ببني هاشم . ثم بآل أبي بكر ثم بني عدي آل عمر .. فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم وأمرهم أن يُقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم اقترح أسماءهم .. وذكر عائلاتهم وقال : « ضعوا عمر وقومه في موضعهم » وعلم بنو عدي بهذا فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا أنصباءهم والمال وفر وقالوا له ألسنا أهل أمير المؤمنين ؟.. فأجابهم عمر : « **بَخٍ .. بَخٍ بني عدي .. أردتم الأكل على ظهري وأن أهب حسناتي لكم .. لا والله لتأخذن مكانكم ولو جئتم آخر الناس** » .

وتصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم فتذهب إليه ابنته حفصة رضي الله تعالى عنها لتأخذ نصيبها وتقول له مداعبة : يا أمير المؤمنين حق أقاربك في هذا المال فقد أوصى الله بالأقربين فيجيبها جاداً « يا بنية حق أقربائي في مالي .. أما هذا فمال المسلمين .. قومي إلى بيتك » رضي الله عنهم وأرضاهم أحسن الرضا .

الناس سواء

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذي جاء بها ..

ما هذا ؟ قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان وقد أرسلني بها إليك « عتبة بن فرقد » .. وكان واليا على أذربيجان .. فذاقها عمر فوجد لها مذاقاً شهياً .

فعاد يسأل الرسول : أو كل المسلمين هناك يُطعمون هذا ؟ قال الرجل : لا .. وإنما هو طعام الخاصة فأعاد عمر إغلاق الوعاء جيداً وقال للرجل : أين بعيرك ؟ خذ حملك هذا وارجع به لعتبة وقل له عمر يقول لك : إتق الله وأشبع المسلمين مما تشبع منه ..

وروى عبد الرحمن بن عوف قائلا : قدمت المدينة قافلة من التجار فنزلوا المصلى .. فقال لي عمر : هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة ؟.. فباتا يحرسانهم ويصليان ماكتب الله لهما .. فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه وقال لأمه : إتقي الله وأحسني إلى صبيك . ولما عاد إلى مكانه سمع بكاء الطفل ثانية فعاد إلى أمه وقال إتقي الله وأحسني إلى صبيك .. ولما كان آخر الليل سمع البكاء فأتى أمه وقال : ويحك أني لأراك أم سوء مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟

قالت : يا عبدالله قد أبرمتني منذ الليلة (أي أضجرتني) اني أريغه عن الفطام فيأبى .. قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم قال : وكم له : قالت كذا وكذا شهر قال : ويحك لاتعجليه !.

فصلى عمر الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء فلما سلم قال يابؤساً لعمر : كم قتل من أولاد المسلمين ثم أمر منادياً : أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الإسلام ».. وكتب بذلك إلى جميع عماله .

منطق العدل

كان للعباس رضي الله عنه ميزاب شارع (أي بارز ممتد) في مسجد رسول الله ﷺ يسيل ماء المطر منه في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقلعه عمر .. فقال له العباس والذي بعث محمداً بالحق انه هو الذي وضع هذا الميزاب في هذا المكان فنزعته أنت يا عمر ! فقال

عمر : فأنا أعزم عليك لما صعدت عليَّ حتى تضعه في هذا الموضع .. أو قال .. ضع رجليك على عُنقي لترده إلى ماكان ففعل العباس .

ولقد اختلف يوماً مع العباس رضي الله عنهما .. وهو أمير المؤمنين فلا يتحرج في أن يقيم حكماً بينهما طلباً للحق الذي له المكانة العليا عند عمر ..

لقي العباس يوماً وقال له : لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد في المسجد وأن دارك قريبة من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه وأقطع لك أوسع منها .. قال العباس لا أفعل قال عمر : إذن أغلبك عليها .. فأجابه العباس : ليس ذلك لك .. فأجعل بيني وبينك من يقضي بالحق .

قال أمير المؤمنين : من تختار ؟!

قال العباس : حذيفة بن اليمان ،

وبدلا من أن يستدعي أمير المؤمنين إلى مجلسه حذيفة انتقل هو والعباس إليه .. لأنه في نظر أمير المؤمنين قد أصبح صاحب سلطة أعلى من سلطة الخليفة نفسه .. وأمام حذيفة بن اليمان جلس عمر والعباس وقصا عليه الخلاف الذي بينهما فقال حذيفة : سمعت أن نبي الله داود عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس فوجد بيتا قريباً من المسجد وكان هذا البيت ليتيم فطلبه منه فأبى فأراد داود أن يأخذه قهراً فأوحى الله إليه « أن أنزه البيوت عن الظلم لهو بيتي » فعدل داود وتركه لصاحبه .

فنظر العباس إلى عمر وقال ألا تزال تريد أن تغلبني على داري قال عمر : لا .

قال العباس : ومع هذا فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله .

رضي الله عنهما .. فقد كانا مثلا للقدوة في الحكم .. وفي العطاء .. وخلال خلافة عثمان رضي الله عنه .. دخل زياد على عثمان بما بقي عنده لبيت المال « وكان قائماً عليه » فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به .. فبكى زياد ! قال عثمان : ما يبكيك ؟ قال : أتيت أمير المؤمنين و (يعني عمر بن الخطاب) بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر به أن ينتزع منه حتى بكى الغلام وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ فلم أر أحداً قال له شيئاً ! قال عثمان :

إن عمر يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله ولن تلقى مثل عمر .. لن تلقى مثل عمر .. لن تلقى مثل عمر ..

القوي الأمين

ومن عثمان .. إلى عثمان رضي الله عنه .. ننتقل لنرى أي سيرة كان عليها الفاروق رضي الله عنه .. وقد أصبح مسؤولا عن الأمة :

في يوم صائف قائظ يكاد حره يُذيب الجبال أطل عثمان بن عفان من بناية له بالعالية فرأى رجلا يسوق أمامه بعيرين صغيرين والهواء الساخن يغشاه كلفح السموم .. فقال محدثاً نفسه : ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يبرد ! وأمر خادمه أن ينظر مَنْ هذا الرجل العابر من بعيد والذي تخفي الزوبعة والرمال السافيات معالمه ؟

ونظر الخادم من فرجة الباب وقال : أرى رجلا معمماً بردائه يسوق بكرين أمامه .. وانتظر حتى اقترب الرجل فعرفه الخادم وصاح : إنه عمر .. أمير المؤمنين !

فأخرج عثمان رأسه من كوة صغيرة متوقياً سخونة الريح ونادى .

ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

أجاب عمر : بكران من إبل الصدقة تخلفا عن الحمى (المرعى) وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما ..!

قال عثمان : هلُمَّ إلى الظل والماء .. ونحن نكفيك هذا الأمر ..

فقال له عمر : عُدْ إلى ظلك يا عثمان ..!

قال عثمان : عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين :

فقال عمر مرة أخرى : عُدْ إلى ظلك يا عثمان .. ومضى لسبيله والحر يصهر الصخر .

فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً : من أراد أن ينظر إلى القوي الأمين فلينظر إلى عمر .

هذا هو عمر بن الخطاب . أما لماذا لم يترك الأمر لمن يليه أو لمن عند عثمان ممن يكفيه هذا الأمر .. فهو ما توضحه صورة أخرى مع الإمام علي كرم الله وجهه حيث يبسط عمر رضي الله عنه رأيه ومسئوليته التي سيُسأل عنها ..

كان عمر يعدو ويهرول وراء بعير أفلت من معطنه ويلقاه على بن أبي طالب فيسأله إلى أين يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه عمر : بعير نَدَّ من إبل الصدقة أطلبه !.. ويقول له علي : لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك ..! فيجيبه عمر بكلمات متهدجة :

« والذي بعث محمد بالحق لو أن عنزاً ذهبت بشاطىء الفرات لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة » .

مشاركة الرأي

دعا عمر فريقاً من الأنصار المشهود لهم بالحنكة وَنُضْجِ التجربة وفتح باب المناقشة فخشي عمر أن يجامله أحد في رأيه بوصفه أمير المؤمنين في الوقت الذي يريد المشورة العادلة لأنه صاحب الشورى التي يُلزم المسلمين بها .. وقد صور ذلك شاعر النيل حافظ إبراهيم في ابيات من قصيدة يقول فيها :

يارافعاً راية الشورى وحارسها
جزاك ربُّك خيراً عن محبيها
لم يُلْهِكَ النزع عن تأييد دولتها
وللمنيةِ آلامٌ تعانيها
لم أَنْسَ أمرك للمقداد يحمله
إلى الجماعة إنذاراً وتَنْبِيها
ان ظَلَّ بعد ثلاثٍ رأيها شُعبا
فَجَرِّدِ السيفَ وَأَضْرِبْ في هواديها
فأَعْجَبْ لِقَسْوَةِ نَفْسٍ ليس يصرفُها
طعمُ المنيّةِ مُرّاً عن مراميها
رَأْيُ الجماعةِ لا تَشْقَى البلادُ به
رغْمَ الخلاف وَرَأْيُ الفردِ يُشقيها

وقد بدأ عمر رضي الله عنه حديثه للقوم قائلًا :

اني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حُمِلْت من أموركم فاني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقني من وافقني

ولست أريد أن تتبعوا هواي فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريد فما أريد إلا الحق » .

ويدخل عليه حذيفة فيجده مهموم النفس باكي العين فيسأله : ماذا يا أمير المؤمنين ؟

فيجيب عمر : اني أخاف أن أخطيء فلا يردني أحد منكم تعظيماً لي .. فقال حذيفة : والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه .. فيفرح عمر .. ويستبشر ويقول : « الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يُقَوِّمُونَنِي إذا اعوججت » .

ويصعد يوما المنبر ويقول : يامعشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا ؟؟ فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حسام ممشوق : إذن نقول بالسيف هكذا .. فيسأله عمر : اياي تعني بقولك ؟.. فيجيب الرجل : نعم اياك أعني بقولي : فتضيء الفرحة وجه عمر ويقول : رحمك الله .. والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوِّم عوجي .

ومرة ثانية يصعد عمر المنبر ليحدث المسلمين في أمر جليل فيبدأ خطبته بعد حمد الله بقوله : اسمعوا يرحمكم الله . فإذا بواحد من المسلمين هو سلمان الفارسي الذي قال عنه الرسول ﷺ « سلمان منا آل البيت » ينهض قائماً ويقول : والله لانسمع .. والله لانسمع !..

فيسأله عمر في لهفة : ولم يا سلمان ؟

فيُجيب سلمان : ميزت نفسك علينا في الدنيا أعطيت كلا منا بردة واحدة وأخذت أنت بردتين !!

فيجيل الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول : أين عبدالله ابن عمر ؟ فينهض ابنه عبدالله قائلا : ها أنذا يا أمير المؤمنين فيسأله عمر

على الملأ : من صاحب البردة الثانية ؟.. فيُجيب عبدالله : أنا يا أمير المؤمنين ويخاطب عمر سلمان والناس معه فيقول : إنني كما تعلمون رجل طوال .. ولقد جاءت بردتي قصيرة فأعطاني عبدالله بردته فأطلت بها بردتي .. فيقول سلمان وفي عينه دموع الغبطة والثقة والحمد لله .. « والآن قل نسمع ونطع يا أمير المؤمنين » ..

وعمر الذي اعطى هذا الحق للناس لم يجعله وقفا على فئة دون أخرى .. وإنما هو للناس عامة ..

يخطب الناس يوماً فيقول : لاتزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال .. فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول ماذاك لك ؟ .. فيسألها ولم ؟.. فتُجيبه : لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وإنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وآتيتُمْ إحداهُنَّ قِنطَاراً فلا تأخذوا منهُ شيئاً أتأخذونهُ بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ (النساء : آية ٢٠) .

فيتهلل وجه عمر ويبتسم ليقول عبارته المأثورة : « أصابت إمرأة واخطأ عمر » رضي الله تعالى عنه وأرضاه أحسن الرضا .

متى استعبدتم الناس

.. **معروف** نبأ عمر مع حاكم مصر وفاتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه حين وفد على ابن الخطاب من مصر فتى مكروب يقول : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ..

ويستوضحه النبأ فيعلم أن محمد بن عمرو بن العاص قد أوجعه ضرباً لأنه سابقه فسبقه .. فعلا ظهره بالسوط وهو يقول : خذها وأنا ابن الاكرمين ..

وأرسل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً ليكون هذا المشهد الذي يرويه أنس بن مالك كما شاهده :

.. فوالله إنَّا لجلوس عند عمر وإذا عمرو بن العاص يقبل في إزار وَرِدَاءٍ. فجعل عمر يتلفت باحثاً عن ابنه محمد فإذا هو خلف ابيه.. فقال: أين المصري؟ ويعني صاحب الشكوى. قال: هأنذا ياأمير المؤمنين..

قال عمر : خذ الدرة واضرب بها ابن الاكرمين .. فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهي أن يضربه .. فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه وعمر يقول : اضرب ابن الاكرمين !!

ثم قال عمر : أجلها على صلعة عمرو فوالله ماضربك إلا بفضل سلطانه .

قال الرجل : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت وضربت من ضربني .

قال عمر : أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه .. ثم التفت إلى عمرو وقال : يا عمرو .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟.. والتفت إلى المصري وقال له : إنصرف راشداً فإن رَابَكَ رَيْبٌ فاكتب لي .

في بيت المال

ويخرج عمر إلى السوق يوماً في جولة تفتيشية فيرى أبلًا سِمَاناً تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها فيسأل : إبل من هذه ؟.. قالوا إبل عبدالله ابن عمر .. وانتفض أمير المؤمنين كأنما القيامة قامت وقال : عبدالله ابن عمر ، بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين .. وأرسل في طلبه من فوره .. وأقبل عبدالله يسعى وحين وقف بين يدي والده .. أخذ عمر يفتل سبلة شاربه

(وتلك كانت عادته إذا همه أمر خطير) وقال لإبنه : ماهذه الإبل يا عبدالله ؟ فأجاب إنها إبل انضاء (أي هزيلة) اشتريتها بمالي وبعثت بها إلى الحمى (أي المراعى) أتاجر فيها وأبتغي ما يبتغي المسلمون ، فعقب عمر في تهكم لاذع « ويقول الناس حين يرونها .. ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين .. إسقوا إبل ابن أمير المؤمنين .. وهكذا تسمن إبلك ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين ثم صاح به :

« عبدالله بن عمر .. خذ رأس مالك الذي دفعته واجعل الربح في بيت مال المسلمين » ..

وهكذا كان .

وثانية : خرج عبدالله وعبيد الله أبناء عمر في جيش إلى العراق فلما مرا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة رحب بهما وسَهّل وقال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت ثم قال : بلى هاهنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين وأسلفكماه فتبتاعان من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح ففعلا وكتب إلى عمر أن يأخذ منهما المال فلما قدما على عمر قال : أكل الجيش أسلف كما أسلفكما ؟.. فقالا : لا . فقال عمر أديا المال وربحه فأما عبدالله فسكت وأما عبيد الله فقال : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين فلو هلك المال أو نقص لضمناه فسكت عبدالله وراجعه عبيدالله فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً (شركة) فقال عمر : قد جعلته قراضاً فأخذ رأس المال ونصف ربحه وأخذا نصف ربحه فقط .

وقدم بريد ملك الروم على عمر فاستقرضت امرأة عمر ديناراً فاشترت به عطراً وجعلته في قوارير وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم .. فلما تسلمتها فرغتهن وملأتهن جواهر وقالت اذهب بهن إلى امرأة

عمر .. فلما أتاها فرغتهن على البساط فدخل عمر .. فقال ما هذا ؟.. فأخبرته بما كان فأخذ الجواهر وباعها ودفع إلى امرأته ديناراً وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين .

وعاد أمير المؤمنين ذات يوم إلى داره فوجد رقعة سجاد لا تزيد عن متر وبعض متر فسأل زوجه عاتكة أنّىٰ لك هذه ؟ قالت : أهداها إلينا أبو موسى الأشعري .. فقال : أبو موسى ؟! إئتُوني به .

ويجيء أبو موسى تسبقه مخاوفه ولا يكاد يقترب ويلمح السجادة في يمينه والتحفز في وجهه حتى يبادره القول : لا تعجل علي يا أمير المؤمنين .. ولكن أمير المؤمنين يُعاجله ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له : ما يحملك أن تهدي إلينا ؟ خذها فلا حاجة لنا بها .

وكان عمر يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين فتبيعه امرأته فبايعت مرة فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسره بأسنانها فيعلق باصبعيها شيء منه فتمسح اصبعيها على خمارها .. فدخل عمر وقال : ماهذه الريح ؟.. فأخبرته بالذي كان .

قال : طيب المسلمين تأخذينه فتتطيبين به فانتزع الخمار من رأسها واخذ جزءًا من ماء وجعل يصب الماء على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه ففعل ذلك ما شاء الله حتى ذهبت ريحه .. فجعلت امرأته بعد ذلك إذا علق باصبعها شيء مسحت بها التراب .

وقدم عليه مِسْكٌ وعنبرٌ من البحرين فقال : والله لوددت أني آخذ امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أفرقه بين المسلمين فقالت له امرأته عاتكة : أنا أجيد الوزن فهلم أزن لك .. قال : لا .. قالت ولم ؟.. قال أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا (وأدخل اصبعه في صدغيه) وتمسحين عنقك فأصيب فضلا عن المسلمين . رحمه الله ورضي عنه .

اقامة الحد

روى عمرو بن العاص رضي الله عنه .. وقد ذكر عمر وترحم عليه : « ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه أخوف لله من عمر لا يُبالي من وضع الحق على ولد أو والد » ثم قال : والله اني لفي منزلي في مصر إذ أتاني آت فقال هذا عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة يستأذنان عليك فقلت : يدخلان فدخلا وهما منكسران فقالا : أقم علينا حد الله فانا قد أصبنا البارحة شرابا فسكرنا فزبرتهما وطردتهما فقال عبد الرحمن : إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه .. فعلمت . إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني فآخذتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحُلق رأسه وكانوا يحلقون مع الحدود .. ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله عمر إلى العاصي بن العاصي .. عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك عليّ وخلافك عهدي فما أراني إلا عازلك تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفني .. إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك فاصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين وقد عرفت أنه لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه . فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع » .. فبعثت به كما قال أبوه وكتبت إلى عمر أعتذر فيه أني ضربته في صحن داري وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأُقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم .. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر .. فقدم بعبد الرحمن على ابيه فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه فقال : يا عبد الرحمن فعلت وفعلت ؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أُقيم عليه الحد فلم يلتفت إليه فجعل عبد الرحمن يصيح اني مريض وأنت قاتلي فضربه ضربة ثانية وحبسه فمرض ثم مات يرحمه الله » .

رضي الله عن عمر .. وآل عمر فقد كانوا عوناً له على إنزال العدل بهم أسوة بالمسلمين .. حتى وهم على البعد منه .

القضـــاء

من رسائل عمر إلى ولاته .. أنقل رسالة له رضي الله تعالى عنه في القضاء .. ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين .

إلى عبدالله بن قيس ..

سلام عليك ، أما بعد :

فإن القضاء فريضةٌ محكمة وَسُنَّةٌ متبعة فافهم إذا أُدلي إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له .

آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من إدّعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صُلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتابٍ ولا سُنَّةٍ ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادّعى حقا غائباً أو بينة أمرا ينتهي إليه .

فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا في ولاء أو نسب .

فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ البينات والإيمان وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات .

فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته .. والسلام » ..

وبعد هل تراني قُلت شيئاً ؟ كلا .. فان في سيرة عمر .. وعدله مايملأ صفحات الكثير من المجلدات .. وأنا لم افعل سوى نقل فُتَاتٍ من على مائدة عمر التي حفلت بها كتب السيرة ليرى من في نفسه مرض .. أَيَّ انسان كان عمر ..

لقد رأى عمر يوماً كثرة المال الذي وصله من الولاة فقال : « إن قوما يؤدون هذا المال لأمناء » .

فقال له صحابي وأحسبه عبدالرحمن بن عوف : « **والله لو رتعت لرتعوا** » .

رضي الله عن الفاروق عمر بن الخطاب وأرضاه فقد ترك لنا سيرة تظل تضيء بوهج الحق ليهتدي بها الناس إلى يوم الدين ..

وعليك .. سلام الله ياعمر .. !

.. الحق عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه شرعة لاتقبل المهادنة . أو التغاضي .

رجل عرف الحق من خلال القرآن الكريم وتعليمات الرسول ﷺ فارتضاه صاحباً ورفيقاً .

ارتفق الحق في مسيرة حياته كلها منذ أن أسلم .. وإلى أن فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها .

والحق عند الفاروق رضي الله عنه هو الذي يعطي لكل إنسان حقه ويميز كل وقت بحقوقه . ويكشف عن الحقيقة في كل حين وآن . سواء أكانت حلوة أو مرة . هينة لينة أو قاسية مؤلمة .

كله عند عمر رضي الله عنه سواء .. فالحق أحق أن يُتبع .. وكفاه فخراً قول الرسول ﷺ :

« رحم الله عمر يقول الحق ولو كان مراً ، وتركه الحق وماله من صديق » وقول الرسول ﷺ : « أشد أمتي في أمر الله عمر » .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال كما روى الترمذي : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وكما يروي عنه رضي الله عنه أنه أرسل إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم فقال عبد الرحمن : أتستسلفني وعندك المال ؟! ألا تأخذ منه ثم ترده ؟ فقال عمر :

(إني أتخوف أن يصيبني قدري فتقول أنت وأصحابك : اتركوها لأمير المؤمنين حتى تؤخذ من ميزاني يوم القيامة ولكن أستلفها منك لما أعلم من شُحك فإذا متُّ جئت فاستوفيتها من ميراثي) .

رجل لا يريد إلا الحق .. ولا يريد أن يأخذ بغير حق لما لايرى له فيه حق .

وهذا هو ما يشد قلمي ـــ إن صح هذا التعبير ـــ لمواصلة الحديث عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه من خلال بعض مرويات كتب السيرة .. وما تعطرت به الأقلام من ذكراه .

شـــــهادته الصــدق

.. **أذن** النبي عليه الصلاة والسلام يوماً لجارية ان تفي بنذرها لتضربن بدفها فرحاً ان ردّه الله سالماً .. ودخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب .. ثم دخل عثمان وهي تضرب والصحابة مجتمعون .. فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وسارعت إلى دفها تُخفيه .. والنبي ﷺ يقول : « **ان الشيطان ليخاف منك يا عمر** » .

.. وعند استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه شوهد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو يبكي .. فسئل عن ذلك فقال : « **أبكي على موت عمر إن موت عمر ثلمة في الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة** » .

ولما كانت الحرب بين علي وبين معاوية مر رجل من التابعين يقال له سويد بن غفلة برجلين من أصحاب علي (هما بالتأكيد من أصحاب مذهب ذلك الوافد الذي حدث بعض شبابنا بما أشرنا إليه في مستهل الفصل

الأول) ينتقصان أبابكر وعمر فأخبر التابعي علياً بدلك .. فغضب رضي الله عنه غضباً شديداً حتى استدر عرق ما بين عينيه ونودى بالصلاة جامعة .. فصعد المنبر وحمد الله واثنى علبه ثم قال :

(تحَفَّدَتْ عليَّ الجنود ، وَوَرَدَتْ عليَّ الوفودُ عند مستقر الخطوب وعند نوائب الدهر .. ما بال قوم يذكرون سيدي قريش وأبوي المؤمنين بما ليسا من هذه الأمة بأهل وبما أنا عنه منزه ومنه بريء وعليه معاقِب . أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لايُحبُّهما إلا مؤمن تقي ولا يُبغضهما إلا منافق رديء .

صحبا رسول الله ﷺ على الصدق والوفاء يأمران وينهيان . وما يحاقدان فيما يضعان على رأي رسول الله ﷺ .. ولا كان رسول الله ﷺ يرى بمثل رأيهما رأياً ولايُحب كحبهما أحداً .. مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راضٍ ومضيا والمؤمنون عنهما رآضون وأمر رسول الله ﷺ أبابكر بصلاة المؤمنين فصلى بهم سبعة أيام في حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام .. فلما قبض الله عز وجل نبيه ﷺ واختار له ما عنده ولاه المؤمنون أمرهم وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان ثم أعطوه البيعة طائعين غير كارهين .

أنا أول من سن ذلك من بني المطلب وهو لذلك كاره ، يودُ لو أحدنا كفاه ذلك . وكان والله خير من اتقى ، أرحمه رحمة وأرأفه رأفة وأثبته ورعا وأقدمه سنا وإسلاماً .. شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورقة وبإبراهيم عفواً ووقاراً فسار فينا سيرة رسول الله ﷺ حتى مضى على ذلك .

ثم ولى عمر الأمر من بعده فمنهم من رضي ومنهم من كره فلم يفارق الدنيا حتى رضي به من كان كرهه فأقام الأمر على منهاج النبيِ

ﷺ وصحابه يتبع آثارهما إتباع الفصيل أمه . وكان والله رفيقاً رحيما وللمظلومين عزاً ورحماً وناصراً لا يخاف في الله لومة لائم ، ضرب الله بالحق على لسانه ، أعز بإسلامه الإسلام ، وجعل هجرته للدين قواما ، ألقى الله له في قلوب المنافقين الرهبة .. وفي قلوب المؤمنين المحبة ، شبهه رسول الله ﷺ بجبريل فظاً غليظاً على الأعداء ، وبنوح عليه السلام حنقاً مغتاظاً . الضراء على طاعة الله آثر عنده من السراء على معصية الله . فمن لكم بمثلهما رضي الله عنهما ورزقنا المضي على سبيلهما فإنه لا يُبلغ مبلغهما إلا اتباع آثارهما والحب لهما ..

ألا من أحبني فيحبهما ومن لم يُحبهما فقد أبغضني وأنا منه بريء ولو كنت تقدمت إليكم في أمرهما لعاقبت على هذا أشد العقوبة ولكن لا ينبغي أن أعاقبه قبل التقدم ، ألا فمن أُنبئت به يقول هذا بعد اليوم فان عليه ما على المفتري ، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ولو شئت لسميت لكم الثالث وأستغفر الله لي ولكم) .

رضي الله تعالى عنهم .. فقد كانوا رجالاً أكفاء يعرف بعضهم قدر بعض .

بيـــان الحكـم

ولكي نعرف كيف حكم عمر .. وبأي ميزان عدل لابد أن نستعيد خطبته بعد أن ولى أمر المسلمين .. وصعد إلى المنبر .. ولكن درجة دون الموضع الذي كان يقف فيه أبو بكر رضي الله عنهما .. وقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي عليه السلام :

(بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ألا من قال هذا فقد صدق فاني كنت مع رسول الله ﷺ عبده وخادمه وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته

من اللين والرحمة وكان كما قال الله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضى فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .. ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه أخلط شدتي بلينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد ..

ثم اني قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضْعِفَتْ ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، وأما أهل السلامة والقصد فأنا ألينُ لهم من بعضهم لبعض ولست أدعُ أحداً يظلم أحداً ويتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض حتى يُذعن للحق وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .. ولكم عليَّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم عليَّ أن لا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ولكم عليَّ إذا وقع في يدي لا يخرج مني إلا في حقه ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسد ثغوركم ولكم عليَّ ألا ألقى بكم في المهالك وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم ..

فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم .. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

بهذا الخطاب بدأ عمر رضي الله عنه خلافته والذي لاشك فيه أن هذا الخطاب ليس هو كل شيء في سيرة عمر .. ولكنه المدخل المضيء لسبر أغوار الحكم الذي سار عليه وعدل به ..

أبــو العيــال

في البيان (الخطبة) الذي بدأ به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال إنه : « أبو العيال إذا غاب الرجال في البعوث .. حتى يرجعوا » .. ولهذا نترك لكتب السيرة أن تحدثنا عن بعض مواقفه مع العيال وأهليهم ..

ذات يوم أمر بكتابة عهد لبعض الولاة يُريد تعيينه .. فأقبل صبي فجلس في حُجره وهو يُلاطفه ويقبله فسأله المرشح للولاية : أتُقَبِّلُ هذا يا أمير المؤمنين ؟ ان لي عشرة أولاد ما قَبَّلْتُ أحداً منهم ولا دنا أحدهم مني فقال له عمر : (وما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك .. انما يرحم الله من عباده الرحماء) .. ثم أمر بكتاب الولاية أن يُمزق وهو يقول : انه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ..

وكان كلاب بن أمية الكناني في غزوة فاشتاق إليه أبوه الهرم وحزن لغيابه واتصل نبأه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة فلما عاد ودخل عليه سأله ما بلغ برك بأبيك ؟ قال : كنت أكفيه أمره وكنت أعتمد (إذا أردت أن أحلب لبناً) أغزر ناقة في إبله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستعر ثم اغسل اخلافها حتى تبرد ثم احلب فأسقيه ..

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح في مشيته ضعيفاً بصره محنياً ظهره فسأله : كيف أنت يا أمية ؟ قال : كما ترى يا أمير المؤمنين .. ثم جاء عمر بلبن حلبه كلاب ففطن الرجل . وقال وهو يدني الاناء إلى فمه : لعمر الله يا أمير المؤمنين إني لأشم رائحة يدي كلاب من هذا الاناء ! فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به فوثب إليه إبنه وطفق الأب الذي لم يكد يراه حتى أخذ يضمه ويقبله .. وبكى عمر .. وأمر كلاباً أن يلزم أبويه ما بقيا له وله عطاؤه كأنه يُجاهد في سبيل الله ..

ولقد بلغ من حنانه على الأطفال أن يُساعدهم عند الحاجة .. حدث سنان بن سلمة أنه كان في صباه يلتقط البلح في أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو في مكانه فلما دنا منه عمر أسرع قائلاً : يا أمير المؤمنين : إنما هذا ما ألقت الريح ! قال عمر : أرني أنظر فإنه لا يخفىٰ علّى .. فنظر في حجره ثم قال : صدقت .. ولكن الصبي لم يقنع بهذا بل طلب من أمير المؤمنين ان يحرسه إلى بيته حيث قال :

يا أمير المؤمنين أترى هؤلاء الآن ؟ وأشار إلى الصبية الهاربين .. ثم أضاف .. والله لئن انطلقت لأغاروا عليّ فانتزعوا ما معي .. فمشى معه حتى بَلَّغَهُ بيته .

وكان عمر في غياب الرجال في البعوث ينزل إلى الأسواق وينادي الزوجات اللاتي غاب أزواجهن قائلاً : أذكرن لي حاجاتكن .. ومن كانت لها في السوق حاجة فلتذكرها لي أو لترسل معي خادمها ان كان لها خادم فأني أخاف أن تُخدعن في البيع والشراء) .. ثم يمضي إلى السوق ووراءه سرب طويل من الخدم .. وهناك يشتري بنفسه الحاجات .. ويضعها بيده في السلال أو يحملها بنفسه لمن ليس عندها خادم أو خادمة ..

في إحدى الليالي .. وقد خرج عاسّاً .. يسمع سيدة تشكو بثها وحزنها وتقول :

تطاول هذا الليل وأزوَرُّ جانبهْ
وليس إلى جنبي خليل أُلاعبُهْ
فوالله لولا الله لا ربَّ غيره
لزلزل من هذا السرير جوانبُهْ
مخافة ربي والحياء يَصدُّني
وأُكرِمُ بعلي أن تُنال ركائبُهْ

ثم قالت : أهكذا يهون على عمر وحشتنا وغيبة رجالنا عنا ؟.
فيستبين عمر أن زوجها مجند في أحد جيوشه .. وعند الصباح يذهب إلى إبنته حفصة رضي الله عنها ويسألها : يا حفصة .. كم تصبر المرأة عن زوجها ؟.. فتجيبه أم المؤمنين رضي الله عنها : تصبر شهراً وشهرين وثلاثة .. وينفذ مع الشهر الرابع صبرها .. فيسُن قانوناً على الفور بألا يغيب جندي متزوج في الجهاد أكثر من أربعة أشهر .. ويُرسل إلى زوج تلك المرأة ويعيده إليها على الفور ..!

خـدمة مشـتركة

ومع عناية عمر ورعايته .. نمضي مع كتب السيرة التي تقول :

بينما عمر يعس ذات ليلة إذ مر برحبة من رحاب المدينة المنورة فإذا هو ببيت شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه فسمع أنين إمرأة ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه فسلم عليه ثم قال :

من أنت ؟ قال : رجل من أهل البادية جئتُ إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله .

قال عمر : ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت ؟

قال الرجل : انطلق رحمك الله إلى حاجتك .

قال : ذاك ما هو ؟ (أي ومع ذلك خبرني) .

قال : إمرأة تمخض .

قال : هل عندها أحد ؟

قال : لا .

فأنطلق أمير المؤمنين حتى أتى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت الإمام علي : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟

قالت : وما هو ؟
قال : إمرأة عربية تمخض ليس عندها أحد .
قالت : نعم .. ان شئت .
قال فخذي معك ما يصلح المرأة لولادتها .. من الخرق والدهن .. وجيئيني ببرمة (قِدْر) وشحم وحبوب ..

فجاءت به فقال : إنطلقي .. وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى بيت الشعر .. فقال لها : أدخلي إلى المرأة وجاء ليجلس مع الرجل وقال له : أَوْقِدْ لي ناراً .. ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة .. فقالت أم كلثوم زوجة عمر : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام !

فلما سمع الأعرابي .. بأمير المؤمنين .. كأنه هابه .. فجعل يتنحى عنه فقال له عمر : مكانك كما أنت .. ثم حمل البرمة ووضعها على الباب ثم قال : أشبعيها .. ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر وأخذها ووضعها بين يدي الرجل وقال كل ويحك فانك قد سهرت من الليل وقال لأم كلثوم رضي الله عنها أخرجي .. ثم قال للرجل : إذا كان غداً فأتنا نأمر لك بما يُصلحك .

فلما أصبح أتاه ففرض لابنه في الذرية .. وأعطاه .

وأخـرى

.. وعن أسلم (خادم عمر) قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم .. حتى إذا كنا بصرار (على بعد ثلاثة أميال من المدينة) إذ نار تؤرّث (أي تُشعل) قال : يا أسلم إني أرى هاهنا ركباناً قصَّر بهم الليل والبرد انطلق بنا .

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان ، وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال عمر :

(السلام عليكم يا أهل الضوء .. وكره أن يقول يا أصحاب النار .. فقالت المرأة وعليكم السلام .

فقال : أأدنو ؟

قالت : أدنُ بخير أو دعْ . فدنا منها وقال : ما بالكم ؟
قالت : قصَّر بنا الليل والبرد .
قال : وما بال الصبية يتضاغون ؟
قالت : الجوع .
قال : وأي شيء في هذا القدر ؟
قالت : ماء أسكِتُهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر !
فقال : أي رحمك الله ، وما يُدري عمر بكم ؟
قالت : يتولى أمرنا ثم يَغفلُ عنا .

يقول أسلم : فأقبل عليَّ عمر فقال : إنطلق بنا .. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عِدْلاً من دقيق وكبة شحم وقال : إحمله عليَّ .
قلتُ : أنا أحمله عنك .
قال عمر : أأنت تحمل وزري يوم القيامة لا أُمَّ لك !

فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول ، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذُرّي عليّ وأنا أُحُرُّ لك (أي أعمل لك حريرة) .

وجعل عمر ينفخ تحت القدر (يقول أسلم) فرأيتُ الدخان يخرج من خلال لحيته حتى إذا طبخ لهم أنزلها وقال إبغني شيئاً .. فأتته بصحن فأفرغها فيها فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي أبسطه حتى يبرد) فلم يزل حتى شبعوا وترك عندهم فضل ذلك وقام وقمت معه .

فجعلت المرأة تقول : جزاك الله خيراً . كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين .

فيقول : قولي خيراً إذ جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله .

ثم تنحى ناحية عنها . ثم استقبلها فربض مربضاً .. فقلت له : لك شأن غير هذا ؟ .. ولكن لا يكلمني حتى رأيت الصبية ينامون في هدوء فقام يحمد الله ثم أقبل عليّ قائلاً : يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا انصرف حتى أرى ما رَأيت !! »

رحم الله عمر ورضي الله عنه .

سواء

وعمر الذي طبخ للمرأة وصبيانها الحريرة ما كان طعامه بأفضل من ذلك .. بل لقد عمل لها أكثر مما كان يأكل هو .. ولننظر .

بينما عمر قد وضع بين يديه طعاماً إذ جاء الغلام فقال : هذا عتبة ابن فرقد بالباب .. فقال : إئْذَنْ له فلما دخل عُتبة رأى بين يدي عمر طعامه وهو خبز وزيت !

قال عمر : إقترب يا عتبة وأصبْ من هذا .. فذهب عتبة يأكل فإذا هو بطعام جشب (خشن) لا يستطيع ان يسيغه .. فقال : يا أمير المؤمنين ! هل لك في طعام يُقال له الحُوّاري (لُباب الدقيق) ..

فقال عمر : ويلك ويسع المسلمين كلهم ؟ .. قال عتبة لا والله ..

فقال عمر : ويلك يا عتبة أفأردت أن آكل طيباتي في حياتي الدنيا وأستمتع بها ؟!

وعن جابر بن عبد الله قال : رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي فقال : ما هذا يا جابر ؟ قلت أشتهيت لحماً فأشتريته فقال عمر : أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر ؟ ما تخاف الآية : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا** ﴾ .

ودخل على بنته حفصة فقدمت إليه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال : أدمان في اناء واحد ؟ لا آكله حتى ألقى الله عز وجل .

وأُتي له بلحم سمين ولبن فأبى أن يأكلهما وقال : كل واحد منهما أدم .

وحين زار الشام ، جيء له بطعام طيب ، مختلف ألوانه ، وبدلاً من أن يُقبل عليه ، وينعم بمذاقه ، رَمقه بعينين باكيتين وقال :

كُلُّ هذا لنا ، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير) !!

وزاره يوماً حفص بن أبي العاص وكان عمر جالساً إلى طعامه فدعا إليه حفصاً ولكن حفصا رأى القديد اليابس الذي يأكل منه عمر فلم يشأ أن يُكبد نفسه عناء إزدراده ولا أن يجشم معدته مشقة هضمه فاعتذر شاكراً .. وأدرك أمير المؤمنين سر عزوفه عن طعامه فرفع بصره نحوه وسأله : ما يمنعُك عن طعامنا ؟ .. ولم تنقص الصراحة حفصاً إذ قال : انه طعام جشب غليظ واني راجع إلى بيتي فأصيب طعاماً ليناً قد صنع لي .. فقال عمر :

« أتُراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى فيُلقى عنها شعرها وآمر برقاق البر فيُخبز خبزاً رقاقاً وآمر بصاع من زبيب فيُلقى في سعن وقربة تقطع من نصفها وينبذ فيها أو يستقى بها حتى إذا صار مثل عين الجمل صُب عليه الماء فيُصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا ؟

فقال له حفص وهو يضحك : إنك بطيب الطعام لخبير فاستأنف عمر حديثه قائلاً :

والذي نفسي بيده لولا أن تنقُص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وَأَرْفَهَكُمْ عيشاً ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه . ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها . وأني لأستبقى طيباتي . لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طيباتِكُمْ في حياتِكُمُ الدُّنيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا** ﴾ (الأحقاف : آية ٢٠) .

القوى الأمين

.. **وعمر** الذي قال فيه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه من أراد أن يرى القوى الأمين فلينظر إلى عمر .. لم يكن يهاب غير الله .. ولا يرى الفضل إلا لأهله .. مهما كانت منزلتهم الإجتماعية .. فعمر يلتزم بالقول الكريم الذي يقول : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات : آية ١٣) .

.. ولنقرأ عن الكاتب الإسلامي عباس محمود العقاد وهو يصف رعاية عمر للسابقين إذ يقول :

.. ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما راعوا قدره .. إلا أنه كان مُفضلاً في هذا كما كان مُفضلاً في جميع محامده وحسناته فانه رعى أقدارهم وهو مستطيع الا يرعاها وقليل منهم من كان قادراً أن يعمل غير ما عمل ويقول غير ما قال :

جمع منهم مجلس المشورة لا يُبرِم أمراً ولا يَنقُضهُ إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصحهم وسابِق علمهم من مأثورات النبي وأحاديثه .

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعاً له فجنبهم ولاية الأعمال قائلاً لمن راجعه في ذلك : أكره أن أدنسهم بالعمل .. فسبق الدساتير العصرية بحسن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره .. هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلي عملاً من أعمال الحكومة فهما في الدولة وظيفتان لا تجتمعان .

وقدم صغارهم على أعظم العلماء من رؤوس القبائل وقروم الجزيرة العربية فحضر بابه سهيل بن عمر بن الحارث بن هشام وأبو سفيان ابن حرب في جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين (أي ليس لهم مثيل بين السادة الكبار) وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران ولكنهما شهدا بدراً وصحبا رسول الله ﷺ فأذن لهما قبل عِلية القوم ! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه : لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟.. أما صاحبه فكان حكيماً فقال : إني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضاباً اليوم فأغضبوا على أنفسكم دُعي القوم إلى الإسلام ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وَتُرِكْتُمْ ؟

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال .. ولا أمِن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل » .

وعمر الذي صنع بأبي سفيان وسهيل هذا (كما حَدَّثَ العقاد) .. نراه .. وبرواية العقاد أيضاً في مواطن أخرى يعرف لأهل الفضل .. فضلهم : فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة وكان لهم التفضيل في كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام من رحم وقرابة .. وفضَّلهم عمر على أقرب الناس إليه في اللقاء والحفاوة فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين ابن علي رضي الله عنه فذهب إليه الحسين فلقي عبد الله بن عمر في الطريق فسأله من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لي فرجع الحسين

ولم يذهب إليه ثم لقيه عمر معاتباً وسأله : ما منعك يا حسين أن تأتيني ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت .. فعز ذلك على عمر وقال له : وأنت عندي مثله وأنت عندي مثله ؟ وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟

وكسا أصحاب النبي فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآهما : الآن طابت نفسي ..

وسافر عمر إلى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة .. وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه في قضائه متحرجاً من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله . إستفتاه بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني واخذهم إلى علي فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت إليَّ ؟ قال عمر : أنا أحق بإتيانك .

وكان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ولا يلقاه باحثاً مسترسلاً في الحديث إلا قال معجباً متبسطاً : غص غواص وقلما سئل في أمر وابن عباس حاضر إلا قال يُشير إليه : عليكم بالخَبير بها ..

وتقديره للمكانة أمر لا يعدل به شيء حتى ولو كان الأمر يتعلق بحفيدة الرسول ﷺ وقد أصبحت زوجته فقد جاءته مروط (جمع مِرْط وهو كساء للنساء). للناس فقسمها بين أهل المدينة وبقي منها مرط جيد ، فقال له بعض من حضر : يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك . يريدون أم كلثوم بنت علي رضوان الله عليهما فقال عمر :

(أم سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله ﷺ . وكانت تزفر (أي تحمل) للناس قرب يوم أحد) .

وكان يقول عن المال وتوزيعه :

(ما أجد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق له من أحد ووالله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً . ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى . وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته .

والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه) .

إحيـاء المـوات

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر : (من أحيا أرضا ميتة فهي له .. ثم رأى أناساً يضعون أيديهم على الأرض الميتة ولا يستغلونها فأعلن أنه ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين .

والاقطاع نوع من احياء الموات ذلك أن الأرض الميتة (كما تقول السيرة) التي لم يحيها أحد ولم يملكها مسلم ولا معاهد وليست أرض جزية ولا يُجر إليها ماء جزية يكون للإمام أن يقطعها شخصاً بعينه .. أي يخصه بحق إحيائها واستثمارها .. وقد أقطع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأبو بكر وعمر .

وكان عمر يشجع الناس على استقطاع الأرض الفلاة بغية اعمارها .. ولقد خرج رجل من أهل البصرة من ثقيف يقال له نافع أبو عبد الله فقال لعمر : إن قبلنا أرضا بالبصرة أرض الخراج فان رأيت أن تعطينيها أجعلها مرعى لخيلي فأفعل ، فكتب عمر إلى أبي موسى : إن كانت كما يقول فاقطعه إياها .

وله رضي الله عنه في هذا المجال موقف مشهود خلال خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقد رُوي أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس جاءا إلى أبي بكر رضوان الله عليه فقالا : يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة ، ليس فيها كلأ ولا منفعة . فإن رأيت أن تُقطِعنا لعلنا نحرثها أو نزرعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فقال أبو بكر لمن حوله :

ما تقولون فيما قالا إن كانت أرضاً سبخة لا يُنتفع بها ؟ قالوا : نرى أن تقطعهما إياها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم . فأقطعهما إياها . وكتب لهما كتاباً بذلك وأشهد عمر وليس في القوم .

فانطلقا إلى عمر يُشهدانه فوجداه قائماً يدهن بعيراً له بالقطران فقالا : إن أبا بكر قال : أشهد بما في هذا الكتاب فيُقرأ عليك أو تقرأ ، فقال : أنا على الحال الذي ترياني . فإن شئتما فاقرءا ، وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ فأقرأ عليكما قالا : بل نقرأ ، فقرءآ . فلما سمع ما في الكتاب تناوله من أيديهما ثم تفل عليه فمحاه فتذمرا وقالا مقالة مشينة . فقال عمر رضي الله عنه :

(إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذٍ ذليل وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا فأجهدا جهدكما . لا رعى الله عليكما إن رعيتما) .

فأقبلا إلى أبي بكر يعلنان تذمرهما . فقالا : والله لا ندري أنت الخليفة أم عمر ؟! .

فقال أبو بكر رضي الله عنه :

(**لا بل هو لو شاء كان**) .

وتُضيف كتب السيرة : وجاء عمر وهو مغضب فقال لأبي بكر :

(أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين .. أرض هي لك ؟ أم للمسلمين عامة)؟!

فقال : (بل للمسلمين عامة)

فقال : ما حملك على أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين .

قال أبو بكر : استشرت هؤلاء الذين حولى فأشاروا عليَّ بذلك .

فقال عمر : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك فكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضي ؟

فقال أبو بكر : قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا مني ولكن غلبتني .

ويعني يوم السقيفة .. عند ما قال لعمر هات يدك نبايعك ورد عليه عمر :

(بل إياك نبايع فأنت أفضل مني) .

قال أبو بكر : (أنت أقوى مني يا عمر) .

فال عمر : (إن قوتي لك مع فضلك) .

وسارع فمدّ يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره .

عمـــر والولاة

كان عمر حريصاً على مباشرة مسئولياته بنفسه .. وكان عند تعيينه والياً يتابعه حتى يبرىء ذمته .. وكان يقول لأصحابه :

أرأيتم إذا استعملت عليكم خيرَ من أعلم ثم أمرته بالعدل أيبرىء ذلك ذمتي ؟

يقول أصحابه : نعم .

فيقول : كلا .. حتى أنظر في عمله .. أعمِل بما أمرتُه أم لا ؟

ويقول : أيما عامل لي ظلم أحداً وبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته !

ويقول لخالد بن عرفطة :

إن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني الله من أمرهم فان رسول الله ﷺ قال :

من مات غاشاً لرعيته لم يُرح رائحة الجنة .

وكان عمر عند اختياره للولاة يبحث عن القويّ الأمين .. ثم إذا عينه أخذ بيده وقال له :

« إني لم أستعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم ولكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم وتحكم فيهم بالعدل . ثم يعدد له النواهي التي ينبغي عليه أن يتجنبها :

لا تركب دابة مطهمة .

لا تلبس ثوباً رقيقاً .

لا تأكل طعاماً رافهاً .

لا تغلق بابك دون حوائج الناس .

لا تقبل هدية من أحد » .

وما أروع كلمته عندما قال لأصحابه : دلوني على رجل أكِل إليه أمراً يهمني ، قالوا : فلان . قال : لا حاجة لنا فيه . قالوا : فمن تريد ؟ قال :

« أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميراً بدا وكأنه أميرهم . وإذا كان فيهم وهو أميرهم بدا وكأنه واحد منهم » .

وفي العام الذي لقي الله فيه ، « كما تقول كتب السيرة » كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس ويبلوَ أخبارهم . ولقد قال يوماً لأصحابه :

« لئن عشتُ إن شاء الله ، لأسيرن في الرعية حَوْلاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تُقطع دوني .. أما ولاتهم فلا يرفعونها إليّ . وأما هم فلا يصلون إليَّ .. أسير إلى الشام فأقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين .. والله لَنِعْمَ الحولُ هذا » !!

لقد كان العدل دبدن عمر ومحور جميع خطواته .. ولهذا يجعل العدل دائماً هدفه وموضع اهتماماته .

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس ويتمسك الآخر برأيه ويقول لأمير المؤمنين : « اتق الله عمر » . وبكررها مرات كثيرة .. فيزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلاً : صهْ فقد أكثرت على أمير المؤمنين .!

ولكن أمير المؤمنين يقول له : « دعه فلا خير فيكم إذا لم تقولها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

تلك سياسة عمر .. وهذا منهج الحكم الذي سار .

القضــاء والعــدل

.. **والعدل** الذي هو نبراس عمر رضي الله عنه وديدنه في كل عمل يأتيه . لا يتحقق إلا عن طريق القضاء النزيه .

فنزاهة القضاء هي الطريق الصحيح للعدل في الأحكام .. ويوم تغيب النزاهة . لا شك أن العدل مضيع .

ولقد كتب الفاروق رضي الله عنه لأبي مرسى الأشعري موضحاً منهج القضاء العادل في رسالة تقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس .. سلام عليك ..

أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسُنة متبعة فافهم إذا أُدْلي إليك ، وأنفذ إذا تبيّن لك ، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له .

آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ..

البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر ..

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً ..

ولا يمنعنَّك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق : فإن الحق قديم لا يبطله شيء . ومراجعة الحق خير لك من التمادي في الباطل ..

الفهمَ ، الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سُنة ، وَاعْرِفِ الأشباه والأمثال ، ثم قِسِ الأمور عند ذلك ، واعمَد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى .. واجعل لمن ادَّعى حقاً غائباً أو بينة ، أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك . وأجْلى للعمى . وأبلغ في العذر ..

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حدّ ، أو مجرّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولّى منكم السرائر ، ودَرأ عنكم الشبهات .

ترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، وإياك والقلق . والضجر . والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر . ويحسن الذخر فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين

للناس فيما يعلم الله خلافه منه . شانه الله وهتك ستره وأبدى فعله . فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

عدل هو الحق .. وذكاء مفرط .. وقوة إبلاغ تُبهر الناس ليس في عصره .. ولكن في كل عصر .. وإلى أن تقوم الساعة .

في كتابه « بين يدي عمر » .. يعلق الأستاذ خالد محمد خالد بفقرة قصيرة على الذكاء الخارق .. والبساطة البارعة في التعبير فيقول :

وحتى حين كان يُعبر عن أفكاره في تبسُّط ودُعابة ، كانت الحكمة الذكية تملأ الكلمات والحروف ..

يمر يوماً بدار جديدة في أطراف المدينة ، فيسأل : دارُ مَن هذه ..؟ فيقولون : دار فلان . وفلان هذا واحد من ولاة عمر ..

فيقول : أبتِ الدراهمُ إلا أن تُخرج أعناقها ..!!

ويبصر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته . ويطردها ويقول : « إنها لا تبكي بشجونكم ، إنما تبكى بدراهمكم » ..!!

ويسأل أحد أولاد هرم بن سنان الذي خلّده بشعره ، زهير ابن أبي سلمى ، فيقول له أنشدني بعض مدح زهير أباك . فينشده .

فيقول عمر : إنْ كان ليُحسن فيكم القول ..
يجيبه الرجل : ونحن والله . إن كنا لنحسن له العطاء ..
فيقول عمر : قد ذهب ما أعطيتموه .. وبقي ما أعطاكم ..!!
ذكاء ثاقب يعبر عن نفسه بكلمات ثاقبة ..!!

وبعد ، فالذكاء البشري يقترن غالباً بالطموح الشديد . والسعي الدائب وراء المزيد في أمجاد الدنيا والعلوّ فيها .

وهنا نلتقي بأبهى خصائص ذكاء ابن الخطاب .

لقد كان ذكاء رُهبانياً ، لا يعمل في خدمة صاحبه ، وإنما يعمل لله ومع الله ، في سبيل الحق والخير والرحمة ..!!

أجل ، كان ذكاءَ رجلٍ أوَّاب ــ مِن الله مأتاه .. وإلى الله مَردُّه .. وفي سبيل الله نشاطه ، وتوقّده ، ورُؤاه ..!! » .

الــوداع

وعندما دنت ساعة الفراق .. ودُعي إلى لقاء ربه كان شاغله الوحيد هو تسليم الأمانة لمن يصونها .. وحدث أن اقترب منه المغيرة ابن شعبة قائلاً : أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين .. انه عبد الله بن عمر .. وهنا ينتفض عمر ويقول :

« لا أرب لنا في أموركم .. اني ما حمدتها (يعني الخلافة) فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ان كانت خيراً فقد اصبنا منه وان كانت شراً فبحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد .. ألا إني قد جهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافا لا وزراً ولا أجراً اني لسعيد » .

ويأتيه صديقه الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما فيقول له عمر :

« يا عبد الرحمن ، لقد لِنْتُ للناس حتى خَشيتُ الله في اللين ، ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة ، وأيمُ الله لأنا أشد منهم فَرقاً وخوفاً ، فأين المخرج ..؟؟ » .

يقول هذا ، وينتحب باكياً .

فيقول عبد الرحمن بن عوف ، وهو يتملّى هذا المشهد الفريد :
« أُفٍّ لهم من بعدك » ..!!

ويوم وقع اختياره على الستة الأجلاء ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد .. وحضر عنده منهم علي وعثمان وسعد رضي الله عنهم جميعاً .. أخذ يوصيهم وهو لا يقوى على الكلام فيقول :

« يا علي إذا وُليت من أمور الناس شيئاً فأني أعيذك بالله أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس » .

« يا عثمان إذا وُليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس » .

« يا سعد إذا وليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس » .

وعمر الذي ملأ الدنيا بسيرته العطرة يقول لأحد صبيان المدينة وعيناه تفيضان بالدمع « أدعُ لي يا بُني فانك لم تذنب بعد » .

ولحظة استقباله الموت يقول لابنه عبد الله :

« يا عبد الله خُذ رأسي عن الوسادة وضعه فوق التراب لعل الله ينظر إليّ فيرحمني » .

.. وحتى .. وهو .. في هذه الحالة لاينسى الوصية التي هي لخاصة المسلمين وعامتهم فيقول :

« أوصيكم بكتاب الله فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه وأوصيكم بالمهاجرين .. والأنصار .. والأعراب .. »

ويوصي الخليفة الذي سيأتي من بعده أياً كان من المرشحين الستة فيقول :

أُوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم .

وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وغيظ العدو ، وجباة المال . أن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضي منهم .

وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم ..

وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهده وأن لا يُكلفوا إلا طاقتهم وأن يقاتل مَنْ وراءهم » .

« ونادى — يا عبد الله بن عمر انظر ما عليَّ من الدين فإن وفى به مال آل عمر فأدِّه له من أموالهم وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فإن لم تفِ أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم . فأدِّ عني هذا المال ، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل : يقرأ عمر عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين بأمير . وقل : يستأذن عمر أن يُدفن مع صاحبيه » . فمضى وسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها تبكي فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت : أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل .. قال الذي تحب يا أمير المؤمنين فقال عمر — كما روى البخاري في صحيحه — « الحمد لله ما كان شيء أهم إليّ من ذلك » .

وكأنه خشي رضي الله عنه أن تكون موافقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حياءً أو مجاملة له وهو يعاني من ألم الطعنة التي وجيء بها فأوصى أن يُسْتَأْذَنَ له مرة ثانية من عائشة رضي الله عنهما فقال :

« يا عبد الله بن عمر انظر إذا أنا مِتُّ فاحملني على سريري ثم قف بي على الباب ، فقل يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي فأدخلني ، وإن لم تأذن لي فأدفني في مقابر المسلمين » .

.. ولم يكن للصديقة بنت الصديق رضوان الله عليهما .. حبيبة رسول الله ﷺ أن تنكث أو تحنث بما وعدت .. فكان أن لحق الفاروق رضي الله عنه بجوار المصطفى ﷺ وجوار صاحبه أبي بكر .. ويكون السلام عليهم مستمراً .. وإلى يوم الدين .

رحمك الله يا عمر .. ورضي عنك وجزاك عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

.. وإنه لحق ، قاله الرسول عنه : « لم أر عبقرياً يفرِي فَرِيَّه » .. وعليك .. سلام الله يا عمر ..

ذوالنّورین

عثمان بن عفّان

رضی اللہ عنہ

عثمان .. أحيا أمتي وأكرمها .. ! !

.. **إختلف** الناس .. واختلف الرواة .. فاختلف المؤرخون واختلف المتلقون من بعدهم بشأن الحقبة الأخيرة . من حكم الخليفة الراشد عثمان ابن عفان رضي الله عنه لما طرأ فيها من خلاف في الرأي واختلاف في التوجه لا شك أن مصدرهما نشوء جيل جديد من المسلمين في ديار الفتح الإسلامي الذي عم بقاع الأرض .. أو دخول فئات مستجدة إلى دنيا المسلمين ممن انكسرت شوكتهم بانتصار المسلمين .. إلى جانب ما أصابه هؤلاء وأولئك من ثراء عريض كان من عطاء الفتوحات الإسلامية التي قادها أو شارك فيها من بقى من الأجلاء من صحابة رسول الله ﷺ .. إذ قضى الكثير منهم رضوان الله عليهم نحبهم لكبر السن أو استشهاداً في سبيل الله .. وتفرق الباقون في شعاب الأرض .. ولم يبق منهم إلى جانب الخليفة غير القليل الذين آثروا البقاء ، مجاورة لمثوى المصطفى ﷺ .. أو رغبة في إعانة الخليفة عند إحتياجه لهم . أو زهداً في الدنيا وما فيها رضي الله عنهم جميعاً .

إختلف الناس .. ولا يزالون مختلفين فيما حدث في أواخر عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه .. وما نشأ عن ذلك من تصدع .. ولكننا ونحن نحاول أن نستضيء بجانب من سيرة الخلفاء الراشدين الهداة المهتدين الذين قال عنهم من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فانه يكفينا أن نعرض الموجز لعطائهم مما تضمنته كتب السيرة الإسلامية . خاصة وأنّا لم نقصد أو نهدف بما نكتبه في هذه الفصول تاريخاً أو إصدار حكم . فكتب التاريخ كثيرة وهي ملأى بالكثير من الروايات .. وأما الحكم فهو

لله أعدل الحاكمين وصدق الحق إذ يقول في محكم كتابه الكريم : ﴿ **تِلْكَ أُمةٌ قد خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانوا يَعْمَلُون** ﴾ (البقرة : آية ١٣٤) .

.. ثم أين نحن من أولئك الذين نصر الله بهم الإسلام وجعلهم سنداً لرسوله .. فبشرهم عليه الصلاة والسلام بالجنة ونعيمها ! وكان من دعائه ﷺ : « اللهم إني راض عن عثمان فأرض عنه » .

عثمـان والإسـلام

.. **ولد** عثمان في السنة السادسة لعام الفيل .. فكان يصغر النبي ﷺ بست سنوات .. ويلتقي نسبه لأمه وأبيه .. مع النبي عليه الصلاة والسلام بعبد مناف .

والدته أروى بنت كريز . وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ .

ووالده عفان بن العاص بن أمية .. وينتهي نسبه إلى عبد مناف .. وقد كان واحداً من العَبْشَمِيِّين ذوى الثراء المشتغلين بالتجارة .. ولما توفى عفان في إحدى خرجاته التجارية إلى الشام خلف لابنه عثمان مالاً وفيراً فزاد في إنمائه بمواصلة العمل التجاري فاتسع ثراؤه .. وكثر كرمه فأحبته عشيرته حتى كانت المرأة من قريش وهي تداعب طفلها تقول له :

أحبـــك والرحمـــن حـب قريـش لعثمـان

وقد كان عثمان رضي الله عنه كما يقول بن اسحاق : أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر » وتقول كتب السيرة في تفصيل ذلك :

بعد أن أسلم أبو بكر الصديق أخذ يدعو أصحابه الذين يتوسم فيهم الخير . وكان أول من دعاه إلى الإسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه .

قال أبو بكر لعثمان :

« ويحك يا عثمان والله إنك لرجل حازم ، ما يخفى عليك الحق من الباطل . هذه الأوثان التي يعبدها قومك ، أليست حجارة صماء لا تَسمع ولا تُبصر ولا تضُر ولا تنفع ؟؟!! » .

قال عثمان : بلى والله إنها لكذلك .

قال أبو بكر :

« هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه فهل لك أن تأتيه وتسمع منه » .

قال عثمان : نعم .

ومرّ رسول الله ﷺ فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ بأمر عثمان واستجابته ورضاه فتوجه رسول الله ﷺ إلى عثمان وقال له :

« يا عثمان أجب الله إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه » .

فلم يملك عثمان نفسه حين سمع كلام رسول الله ﷺ إلاّ أن قال :

« **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله** » .

وكان عثمان من السابقين للإسلام . بل الرجل التاني الذي أسلم بعد أبي بكر . ثم جاء بعد عثمان إلى رسول الله ﷺ أبو عبيدة ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والأرقم ابن أبي الأرقم .. وتتابع الناس واستجابوا لرسول الله ﷺ على خوف واكتمل عددهم إلى الأربعين . فكان عثمان ممن سبقوا ، ومن الذين تحملوا في سبيل الله وصبروا . فبشرهم رسول الله ﷺ بالجنة وفازوا .

بعد أن أسلم عثمان أصبح داعية للإسلام ووضع ماله لخدمة الإسلام ولم يبالِ بشيء .

فأسلمت أمه بعده بقليل ، وأسلمت أخته آمنة بنت عفان وأخته أم كلثوم ثم أسلم باقي إخوته وأقربائه متأخرين .

ثم أن رسول الله ﷺ بعد إسلامه زوَّجه بنته رقية فكانا خير زوجين وكان رسول الله ﷺ يوصي ابنته فيقول لها :

« **أكرميه فإنه من أشبه أصحابي بي خُلُقاً** » .

كما تضيف كتب السيرة أنه لما ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج إلى بدر لملاقاة قافلة أبي سفيان رغب عثمان في الخروج مع الجيش ولما كانت زوجته رقية مريضة وفي شدة ، فقد أمره رسول الله ﷺ أن يبقى في المدينة ليطببها فاستجاب عثمان لما أمره به النبي ﷺ .. وعندما جرت المعركة ونصر الله المسلمين ذلك النصر المؤزر عادوا إلى المسلمين بفرحة النصر وبما غنموه من المشركين .. ليستقبلهم المسلمون في المدينة وفي مقدمتهم عثمان رضي الله عنه بفرحة وسرور .

لكن فرحته لم تتم فقد توفيت زوجته بنت رسول الله ﷺ قبيل مجيء البشير بالنصر ، وعندما تلقوا البشارة كانوا ينفضون أيديهم من التراب الذي أهالوه عليها .

وعندما قسم رسول الله ﷺ الغنائم جعل لعثمان سهما منها واعتبره كمن شهد الغزوة فنال الأجر والغنيمة . ولم يكتفِ رسول الله ﷺ بما قسم له من الغنيمة وإنما زوَّجه ابنته الثانية أم كلثوم إكراماً له .

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ لقي عثمان على باب المسجد فقال :

« يا عثمان هذا جبريل يقول لي عن الله عزّ وجلّ أني قد زوجتك أم كلثوم على مثل ما زوجتك رقية وعلى مثل صحبتها » . وأخرج ابن عدي عن عائشة رضي الله عنهما قالت : لما زَوَّج النبي ﷺ ابنته أم كلثوم لعثمان رضي الله عنه وعنها قال لها : « إن بعلك أشبهُ الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد » وعن سعيد بن المسيِّب قال : لما ماتت رقية جزع عثمان ، وقال :يا رسول الله ، انقطع صهري منك ؛ فقال له النبي ﷺ : إن صهرك مني لا ينقطع ، وقد أمرني جبريل أن أزوجك أختها بأمر الله ، ولو كُنَّ يا عثمان عشراً لزوجتكهن واحدة بعد واحدة » .

وهذه خصيصة ــ كما تقول كتب السيرة ــ لم تكن لغير عثمان من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أجلها كان يُلقب بذي النورين ؛ وقد ذكر بدر الدين العيني في شرحه على صحيح البخاري : أنه قيل للمهلَّب بن أبي صُفرة : لِمَ قيل لعثمان « ذو النورين » ؟ فقال : لأنا لا نعلم أحداً أرسل ستراً على بنتي نبي غيره .

عثمان المهاجر

في كتابه : « وداعاً عثمان » يقول الكاتب الإسلامي خالد محمد خالد .. عن عثمان بن عفان « المهاجر » .. وكيف أن الهجرة كانت في روحه ودمه من بعد أن ارتضى الإسلام دينا وكان من السابقين إليه :

« لقد كانت (الهجرة) أول واجب يفرضه هذا الدين .. ولا نعني الهجرة بمعناها الجغرافي إلى الحبشة .. ثم إلى المدينة .. بل نعني الهجرة بمعناها الروحي .. معناها العميم والعميق .. الهجرة من حياة إلى حياة .. ومن وُجود إلى وجود .. الهجرة التي تعني التنازُل عن القديم بكل مقدساته وأمجاده ، والسفر إلى الله بزادٍ جديد ..!!

فَلْيحمل المهاجر إذن إيمانه ، ولْيمضِ على بركة الله ..!!

إن إسلام « عثمان » كان مبكراً ، فهو أحد الخمسة ، أو السبعة الأوائل الذين سَبَقُوا إلى الإسلام . وكان الرسول يومئذ يدعو إلى الله في إسرار وخُفْيَة .. وحتى « دار الأرقم » التي كان يلتقي فيها بأصحابه مُسْتَخْفِينَ من قريش لم تكن قد وُجِدتْ بعد ، وهكذا نزل « عثمان » إلى ميدان الدعوة بكل مخاطرها في وقت تَندرُ فيه النصرة ، ويَعزُّ النصير ..

وهذا أول منازل هجرته ..

لقد ترك حياته المستقرة الممتلئة الآمنة ، إلى فراغ مجهول تتهدده المحاذر والأخطار ..!!

ولقد وضع خُطاه على دَرْب غير مطروق ، تاركاً النَدِيَّ الذي كان يموج بالصُّحبة المؤنسة والحياة المرِحَة الحافلة ..!!

ولا يطول به الوقت ، حتى تكون قريش قد شحذت أنيابها ، وراحت أحقادها تتلمَّظ بهذه العشيرة المؤمنة التي يقودها رسولها في طريق الهدى والنور .

ويتلقى « عثمان بن عفّان » رضي الله عنه من تلك الأحقاد الضارية ما يضاهي مكانته السالفة في قومه ، ويتولى أمر تعذيبه عمه ــ الحكم بن أبي العاص ــ فيوثقه بالحبال وبالسلاسل ، ويصرخ في وجهه :

ــ أترغَبُ عن مِلَّة آبائك إلى دين مُحْدَث ..؟؟ والله لا أحُلُّ وثاقك أبداً حتى تدعَ ما أنت عليه من هذا الدين ..

ويجيبه « عثمان » في إصرار « المهاجر » الذي عرف طريق الله ، وثبَّت فوق مشارفِهِ خُطاه :

والله لا أدع دين الله أبداً .. ولا أفارقه .

فيوالي عمه تعذيبه .. ويوالي عثمان إصراره فتواصل قريش إيذاءه وايذاء المسلمين الأولين رضي الله عنهم .

ورأى الرسول الرحيم ألاَّ قِبَلَ لأُكثر أصحابه بهذا الأذى فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة حيث كان على رأسها يؤمئذ ملك عادل تُنشد المرحمة في جواره والأمن في رحابه .

وكان عثمان رضي الله عنه أول مهاجر إليها ومعه زوجته رقية رضي الله عنها .

ووقف الرسول عليه الصلاة والسلام يودعهما بنظرته الحانية وقلبه الودود .. وهو يقول :

« إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد نبي الله لوط .

وإنه ليعود إلى مكة .. ثم يهاجر إلى المدينة لحوقاً برسول الله ﷺ وقد أذن الله بالهجرة إليها مرتفقاً أبا بكر الصَّدِيق الصّدِّيق رضي الله عنه .. فتزداد روحه تعلقاً بالهجرة في أعمق مضامينها وأسمى مفاهيمها إذ كانت كلمات الرسول التي وصفته بأنه أول مهاجر إلى الله » تهز أشواقه وتشحذ تصميمه على أن يحيا ويموت مهاجراً إلى الله .

ولقد نجح وظفر في تصميمه بانتصار عظيم . فعندما حاصر الثوار داره يريدون عزله .. أو إغتياله تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأي .. وهذه المشورة : يا أمير المؤمنين لقد نزل بك ما ترى وانني أشير عليك بثلاث اختر إحداهن .

« إما أن تخرج فتُقاتلَهم ، فإن معك قوة وعدداً . وأنت على الحق وهم على الباطل ..

« وإما أن نفتح لك من خلف الدار باباً تخرج منه في غفلة منهم حيث تحملك رواحلك إلى مكة فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها ..

« وإما أن تلحق بالشام . فإن بها معاوية » .

ويجيب الخليفة العظيم بكلمات لا نلمح فيها دهاء ولا مناورة ، ولا حرصا على الحياة ..

إنما نلمح فيها « ضمير المهاجر » وخلُقه وتصميمه ..

قال رضي الله عنه مجيباً صاحبه :

« أمَّا أن أخرج فأقاتلهم ، فوالله لن أكون أول من يَخْلُفُ رسول الله في أمته بسَفْك الدماء ..!!

« وأما خروجي إلى مكة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول يوما : يُلْحَد رجل من قريش بمكة ، يكون عليه نصف عذاب العالَم ، ولن أكون هذا الرجل ..!!

« وأما خروجي إلى الشام لأن فيها معاوية ، فلا والله .. ولن أُفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ما حييت .. » !!

أية روعة ، وأي جلال ..؟؟

لقد نفذ بصدق ضميره وبإخلاص قلبه إلى جوهر الإسلام فعرفه معرفة اليقين .

عرف أن الإسلام في جوهره هجرة كاملة إلى الله » .

شخصيـة عثمـان

ما سعدت .. ولا تشرفت بتلاوة القرآن الكريم وجاءت الآيات الكريمة من آخر سورة الفرقان إلا تجسدت أمامي شخصية عثمان رضى الله عنه إذ يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللهُ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللهِ مَتَابًا ۝ وَٱلَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَامًا ۝ ﴾ (الآيات : ٦٣ — ٧٦) .

ومن الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ في فضل عثمان رضي الله عنه .

قال رسول الله ﷺ :

« اللهم إني رضيت عن عثمان فارض عنه » .

« غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

« عثمان أحيا أمتى وأكرمها » .

« عثمان في الجنة » .

« عثمان حَيِيٌّ تستحيى منه الملائكة » .

« عثمان رفيقى في الجنة » .

« عثمان ولي في الدنيا والآخرة » .

« رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك » .

« يا عثمان إنك سَتُبْلَى بعدي فلا تقاتلن » .

وفي الفصول التالية عن حياته .. ومواقفه .. وسخائه .. سنرى كيف حظى عثمان رضي الله عنه بهذه المكانة التي كافأه الرسول ﷺ بما أثنى عليه بما سلف وغيره كثير .

سخاء وكرم

تقول كتب السيرة انه عندما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأتهم مشكلة الماء ، وكان بها عين تفيض بماء عذْبٍ طيب المذاق ، تُدْعى « بئر رومة » ويملكها رجل يهودي يبيع ملء القربة بِمُدٍّ ...

وتمنى رسول الله لو يجد بين أصحابه من يشتريها حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن .. ثم قال عليه الصلاة والسلام :

« من يشتري بئر رومة وله عين في الجنة ؟؟ » .

وسارع « عثمان » رضي الله عنه إلى تحقيق رغبة الرسول ، فعرض على اليهودي صاحب البئر أن يبيعها له ، فأبى .. فساومه « عثمان » على نصفها . واشترى النصف باثني عشر ألف درهم .. على أن تكون لليهودي يوما ولعثمان يوما .. فكان المسلمون يستسقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين ..!! وهكذا وجد اليهودي نفسه ، وقد خسر سوقه التي كانت رائجة ، فعاد يعرض على « عثمان » أن يشتري منه النصف الثاني ، فاشتراه .. وفاضت البئر بمائها العذب تروي أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب ..!!

وعندما كثر الداخلون في دين الله بالمدينة ، وصار المسجد يضيق بهم ، تمنى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشتري الرقعة المجاورة له كي تُضم إلى المسجد ، ويزداد بها رحابة واتساعا .. ومرة أخرى ، لم يكن هناك غير « عثمان » ، تلقّف رغبة الرسول في حبور وغِبطة ، وذهب إلى أصحاب ذلك المكان ، واشتراه منهم بثمن باهظ قدَّره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً .

وعندما فتح الله مكة لنبيه وعاد إليها ظافراً كريماً .. رأى أن يوسِّع المسجد الحرام ، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا لغرض توسعته فاعتذروا بأنهم لايملكون غيره ، وليس لهم مال يشترون به سواه .

ومرة ثالثة ــ كان هناك « عثمان » ، فلم يكد يبلغ النبأ مسامعه حتى سارع إلى صاحب الدار الواسعة العريضة واشتراها منه بعشرة آلاف دينار ..

وفي العام التاسع الهجري ولّى « هرقل » الامبراطور الروماني وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية مُتلمِّظاً برغبة شريرة في العدوان عليها والتهامها ..

لقد كان الدين الجديد برسوله العظيم ، ورجاله الشجعان البواسل قد ملأوا حياته وحياة « بيزنطة » كلها قلقاً وخوفا .

وكان الامبراطور يومئذ مُنْتَشِياً بنصره على فارس ومن ثم قرر أن يسير بجيشه إلى هذه الأمة الجديدة في بلادها وديارها .

وفعلا أمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف .

وترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ ، فنادى في أصحابه بالتهيؤ للجهاد .

كان الصيف حاراً يصهر الجبال ، وكان ذلك في زمن عسرة الناس وشدة الحر وجدب البلاد ، وحَضَّ عليه السلام أهل الغنى على النفقة في سبيل الله فجاء أبو بكر بماله كله . وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبد الرحمن بن عوف بمال كثير .

أما عثمان فقد أنفق نفقة عظيمة لم يُنفق أحدٌ مثلها حيث قدم تسعمائة وأربعين بعيراً ثم أتمها إلى الألف فتبرع بستين فرساً .

وروى حذيفة ما شاهده حينئذٍ فقال :

جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف دينار صبها بين يديه ، فجعل الرسول ﷺ يقلبها بين يديه ويقول :

« غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال :

« ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم . اللهم أرْضَ عن عثمان ؛ فإني عنه راض » !!

ولم تقف مكارم عثمان رضي الله عنه على حد أيام الرسول ﷺ بل كان الكرم والسخاء يجرى في عروقه مجرى الدم .. فكان يُعتق كل جمعة عبداً ويُحرر رقبة ويشتري العبد من سيده بأي ثمن ويهبه حريته مبتغياً وجه ربه الأعلى .

وكما تقول كتب السيرة التي إستمددنا منها ما سلف : أنه لا يكاد يبصر التجار يهمون بالاستغلال واحتكار الأرزاق أو بيعها بثمن باهظ ؛ حتى يُرسل قوافله لتعود محملة بما يفسد عليهم احتكارهم ويُصيب استغلالهم بخيبة أمل قاتلة .

وإذا جاءت رواحله من اليمن أو من الشام محملة بالخيرات ، وتواكَبَ حوله تُجار المدينة وما حولها ، دخل معهم في مساومات شائقة ، ما أجمل أن نطالع الآن إحداها ، يرويها لنا ويحدثنا بها « ابن عباس » رضي الله عنهما فيقول :

« قحط الناس في زمان أبي بكر ، فقال الخليفة لهم :

إن شاء الله لا تمسون غدا ، حتى يأتيكم فرج الله ..

« فلما كان صباح الغد ، قدمت قافلة لعثمان ، فغدا عليه التجار ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ..

وسألوه أن يبيعهم قافلته ..

« فسألهم : كم تُربحونني ..؟

قالوا : العشرة اثني عشر ..

قال : قد زادني ..

قالوا : فالعشرة خمسة عشر ..

قال : قد زادني ..

قالو : من الذي زادك ، ونحن تجار المدينة ..؟؟

قال : إنه الله .. زادني بكل درهم عشرا ، فهل لديكم أنتم مزيد ..؟ فانصرف التجار عنه ، وهو ينادي : اللهم إني وهبتُها فقراءَ المدينة بلا ثمن ، وبلا حساب » ..!!

وروي أنه جاءت قافلة وفيها دقيق وسمن وعسل لعثمان رضي الله عنه فرغب أن يُطعم رسول الله ﷺ منها فأتى بحمل بعير إليه فدعا له بالبركة .. ثم دعا بقدْر فنصبت على النار وجُعل فيه الدقيق والسمن والعسل وطبخوا حتى نضجوا ثم دعا عليه السلام أصحابه للطعام وهم في غبطة وسرور بما قدمه عثمان وبما أهداه له .

وكان سخاء عثمان رضي الله عنه وجودُه خليقة من خلائقه ، لا يتعمل ولا يتكلف ، ولا يستكثر في باب المروءة ومواساة الإخوان شيئاً ، فقد رُوِيَ أنه كان له على طلحة بن عبيد الله — وكان من أجواد الإسلام — خمسون ألفاً ؛ فقال له طلحة يوماً : قد تهيَّأْ مالك فاقبضه ؛ فقال له عثمان : « **هو لك معونة على مروءتك** » .

الحيــاء خلقــه

في حديث عن الرسول ﷺ أنه قال :
« أرحم أمتي أبو بكر » .
« وأشدها في دين الله عمر » .
« وأشدها حياء عثمان » .

ويقول معاصروه رضي الله عنهم وعنه : أن من أشهر صفاته الحياء الذي زينه الله به .. وأنه كان يصوم الدهر . ويقوم الليل إلا هجعة من أوله .

وكان من حيائه أنه لا يُوقظ أحداً من أهله ولا خدمه ليُعينه في وضوئه .. فكان هو يسعى بنفسه ويجلب الماء فقيل له : لو أمرت بعض الخدم لكفوك : فقال : لا .. الليل لهم يستريحون فيه .

ورُوِيَ عنه رضي الله عنه أنه من شدة حيائه كان لا يضع ثوبه عنه إذا اغتسل . ويمنعه الحياء أن يقيم صلبه فلا يستوي قائما عند الاغتسال حتى ولو كان وحده في البيت .. وقد رُوِيَ عنه رضي الله عنه أنه قال : ما تغنيت وما تمنيت ولا مسست ذكرى بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ .

بل إن ثمَّةَ واقعة تُرينا أكثر من سواها ، كيف كان حياء « عثمان » عظيما ، وكيف كان طاقةً زاخرة لا تفرض احترامها عليه وحده ، بل وتتمتع باحترام رجل في مستوى رسول الله ﷺ ذاته ..

والواقعة ترويها لنا أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها ، فتخبرنا أن « أبا بكر » استأذن يوما على رسول الله وكان الرسول مضطجعاً وقد انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه ، فأذِن لأبي بكر فدخل ، وأجرى مع الرسول حديثا ثم انصرف ..

وبعد قليل جاء عمر فاستأذن فأذِن له ، ومكث مع الرسول بعض الوقت ثم مضى .

وصادف أن جاء بعدهما عثمان ، فاستأذن .. وإذا الرسول يتهيأ لمقدمه فيجلس بعد أن كان مضطجعا ، وَيُسْبل جلبابه فوق ساقه المكشوفة ، ويقضي عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف .

وبُعَيْد انصرافه ــ تسأل عائشة الرسول عليه السلام قائلة : « يا رسول الله . لَمْ أرك تهيأت لأ بي بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان ؟؟

فقال عليه الصلاة والسلام :

ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة .

وفي رواية :

إن عثمان رجل حَيِيٌّ وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليّ في حاجته .

وما أكثر الأحاديث الواردة في ذلك من رسول الله ﷺ مدحا له وإقراراً لحيائه :

« عثمان أحيا أمتي وأكرمها » .

« عثمان حَيِيٌّ تستحيي منه الملائكة » .

والرحمة سجيته

تقول كتب السيرة أن الرسول ﷺ قال لعثمان رضي الله عنه عُقْبَ وفاة زوجته أم كلثوم التي تزوجها من بعد ما انتقلت إلى رحمة الله زوجته رقية التي هي أختها رضي الله عنهما :

« لو أن لنا ثالثة لزوَّجناك إياها » .

بل إن الحديث لَيُرْوَى بصيغة أخرى تقول :

« لو أن لي أربعين بنتاً لزوجتهن عثمان واحدةً بعد واحدة » .

فما المزايا وما الشَّمائل التي أَهَّلَتْ « عثمان » لكل هذا الحَدَب وهذا الإيثار من رسول الله العظيم ؟؟..

إنها شمائل كُثُر ، تَعْبَقُ بالخير ، والمروءة .. ويفوح منها عبير الرحمة حيث نَلْقاها أو حيث نَلقاه ..

والرسول الذي مَنَّ الله به على عباده قائلا :

﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عليهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عليكُمْ ، بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ** ﴾ (التوبة : آية ١٢٨) .

هذا الرسول الرؤوف الرحيم ، لم يكن يستهويه من بين شمائل البشر شيء مثلما تستهويه الرحمة ، ومثلما يستهويه التَّبَتُّل الصادق إلى الله ، والإخبات الوثيق إليه .

ولقد كان حظ « عثمان » من الإخبات والرحمة عظيماً وجزيلا . إنه أوَّاب رحيم ..

صوَّام النهار ، قوَّام الليل . يتفجّر قلبه رحمة وحنانا .

أوَ من أجل هذا قال الرسول يوما :

« **لكل نبي في الجنة رفيق** » .

« **ورفيقي في الجنة عثمان ..** » .

لقد كان في العبادة واحداً من أفذاذها المعدودين ، وبطلا من أبطالها المبرزين .

ولقد سئل الإمام علي كرم الله وجهه عن عثمان رضي الله عنه فقال :

كان عثمان أوصلنا للرحم وأتقانا للرب . وقال رضي الله عنه : أنا وطلحة والزبير وعثمان كما قال الله تعالى : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا في صُدُورِهِمْ من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلين** ﴾ . وسأله سائل عن عثمان بعد قتله فقال له : إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين .

والعبادة إيمانه

كان عثمان رضي الله عنه لا يفتُر من العبادة في الرخاء قبل الشدة . أو بالأصح في الرخاء والشدة على السواء .. تقرباً إلى الله ليس بالصلاة أو القرآن وإنما بكل ما يقربه إلى الله زلفى .

وتقول كتب السيرة أنه :

كان يدخل إلى المسجد بعد صلاة العشاء فيُصلي إلى الفجر وقد روى من رآه ــ وكان كثيراً ما يُرى ــ أنه كان يختم القرآن كله في ركعة واحدة . ولم ينقطع عن صلاته وتهجده حتى وقت الشدة والفتنة . كان يقوم الليل كله بالقرآن ومن المعروف أنه عندما قتل كان المصحف بين يديه .

وصيامه كان متميزاً حتى قيل عنه إنه كان يصوم الدهر كله . وعندما قتل كان صائما رغم الشدة والابتلاء والمحاصرة فلم يفتر عن القيام والصيام وقراءة القرآن .

ومن عبادته أنه كان زاهداً رغم غناه .. وما إنفاقه الكثير وتبرعه إلا دليلا على الزهد وحب الآخرة وإيثارها على الدنيا وزخارفها وأموالها .

وتتألق روح العابد الأواب (كما يقول كاتبوا السيرة) في قدرته على الزهد والبساطة ، فكثيراً ما كان يطبقها على حياته وهو الذي تتدفق عليه الأموال وينفقها عن طيب خاطر وسخاء كريم باليمين وبالشمال .

فيحدث عن ذلك (شرحبيل بن مسلم) قائلاً :

كان عثمان يطعم الناس طعام الامارة .. ويأكل هو الخل والزيت » !!

كما يتحدث عبد الله بن شداد فيقول :

رأيت عثمان يخطب يوم جمعة وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم أو خمسة دراهم . وإنه يومئذ لأمير المؤمنين » !!

ويضيف كاتب السيرة :

هذا سلوك عابدٍ أوَّاب ، أضْوَى شهوة الطعام لديه حتى « بَشِمَتْ » بالصيام !!

وأذل نخوة الجاهلية في عروقه . حتى عَزَّت نفسه بروعة الإسلام !!

ومن أي النواحي جئته ، أَلْفَيْتَ جلال العابد يبهر مُحَيَّاك ..

يغضب على خادم له يوما فيعرك أذنه حتى يُوجِعه .. ثم سرعان ما يَقُضُّ ضميرُ العابد مَضجعه ، فيدعو خادمه ويأمره أن يقتصّ منه فيعرك أذنه .. ويأبى الخادم ويُولّي مُدْبِراً . لكن « عثمان » يأمره في حزم ، فيطيع ..

« اشدد يا غلام ؛ فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » !!!

إنه العابد الأواب ، نلقاه هنا كما نلقاه في كل مقام ..

وندخل مسجد المدينة ، فنرى رجلا مهيبا جليلا قد نام فوق حصاه ، ورداؤه تحت رأسه ، ثم ينهض من نومه فنرى أثر الحصا في جنبه .. إنه هو أيضا .. العابد الزاهد الأواب عثمان بن عفان .. أكثر قومه مالاً وثراء ونعمة ، في الجاهلية وفي الإسلام ..!!

إن هذا ليذكرنا برأي « عبد الله بن عمر » فيه .. فلقد كان رضي الله عنه يقرأ الآية الكريمة :

﴿ أمَّنْ هو قانِتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً يَحذَرُ الآخرة ويرجو رحمَةَ رَبِّه ﴾ (الزمر : آية ٩) .

ثم يقول : هو « عثمان بن عفان » ..!!

ورُوي عن عثمان أنه قال :

لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لأخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير » .

عثمان في الجنة

كان عثمان رضي الله عنه كما أثبت كُتاب السيرة أنه ثالث ثلاثة في الإسلام كله ، هم أفضل الناس وخيرهم بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنهم أعظم المؤمنين أعمالاً في تأييد الدعوة ، ونشر الدين ، وإقامة عمود الشريعة المطهرة ، وتأسيس بنيان الدولة الإسلامية ، والجهاد في سبيل الله ، وكانوا أخص الناس برسول الله ﷺ ، وأقربهم إلى قلبه ؛ كانوا وزراءه وأعوانه على تأدية رسالته ، خلطهم بنفسه وصاهرهم ، فكانت لهم الزلفى عنده ؛ روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

« كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ؛ ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم » .

وقد وضع عثمان هذا الموضع الرفيع في منازل الإسلام ومراتب رجالاته ما كان له من جلائل الأعمال وشريف المناقب وكريم الخلال ، مما جعله حرياً بهذه المنزلة السامية في تقدير سادة الأمة وخيارها في حياة النبي ﷺ ، وهو يرى هذا التقدير ويزكيه على عثمان رضي الله عنه وَحَبْوه بما حبا به الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، من منزلة القرب والاختصاص تأكيداً لعقيدة المؤمنين ومحبتهم لذي النورين .

جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

صعد النبي ﷺ أُحُدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم ؛ فقال : « أُثْبُتْ أحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » وعن الترمذي أن عثمان يوم الدار أشرف على الناس فقال لهم : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير مكة ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض فركضه برجله ، فقال : « اسكن ثبير فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » قالوا : اللهم نعم ، قال عثمان : الله أكبر ، شهدوا ورب الكعبة أني شهيد ثلاثاً .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى الأشعري « أنه توضأ في بيته ثم خرج ، فقال : لألزمنَّ رسول الله ﷺ ، ولأكونن معه يومي هذا فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا : خرج ، وَجَّهَ[1] ههنا فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس[2] ، فجلست عنا الباب ، وبابها من جريد ، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ فقمت إليه فإذا هو قد جلس على بئر أريس وتوسط قُفَّها[3] ، وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر ، فسلمت عليه ثم انصرفت ، فجلست عند الباب ، فقلت : لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم ، فجاء أبو بكر فدفع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أبو بكر ، فقلت : على رِسْلك ؛ ثم ذهبت فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن ؟ فقال : إئذن له وبشره بالجنة ، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر : ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك

---

(١) المشهور في الرواية وجه بتشديد الجيم أي توجه « وضبطه بعض العلماء باسكان الجيم أي قصد هذه الجهة .

(٢) أريس — كأمير — بستان بالمدينة قرب قباء ، وفي هذه البئر سقط خاتم للنبي ﷺ من عثمان .

(٣) القف : حافة البئر .

بالجنة ؛ فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفِّ ودلَّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ ، وكشف عن ساقيه ؛ ثم رجعت فجلست ، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً ـــ يريد أخاه ـــ يأت به ، فإذا إنسان يُحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رِسْلِك ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت : هذا عمر يستأذن ؟ فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فجئت عمر فقلت : أذِنَ ويُبشرك رسول الله ﷺ بالجنة ، فدخل مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ، ودلَّى رجليه في البئر ، ثم رجعت فجلست فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً ـــ يعني أخاه ـــ يأت به ، فجاء إنسان فحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ؛ فقلت : على رِسْلِك وجئت النبي ﷺ ، فأخبرته فقال : ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه ! فجئت فقلت : ادخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تُصيبك ، وفي رواية أخرى : فقال : اللهم صبراً ، فدخل فوجد القف قد ملئ فجلس وجاههم من الشق الآخر » .

وفي هذا الحديث معجزة عظمىٰ لسيدنا رسول الله ﷺ بهذه الإشارة الحكيمة إلى ما كان سيقع لعثمان رضي الله عنه من البلاء العظيم ؛ فقد حقق الله إخبار نبيه وقبل دعوة عثمان رضي الله عنه فرزقه صبراً لم يرزقه أحداً من أهل البلاء حاشا النبيين ! قال الأُبّي في شرحه لصحيح مسلم : هو تسليم لقضاء الله تعالى ، ولعله الذي منعه من الدفع عن نفسه لإعلام رسول الله ﷺ أن ذلك سبق به القدر ، وهو من معجزاته عليه الصلاة والسلام .

ومما يشرح ذلك ما رواه ابن عبد البر في الإستيعاب عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أدعوا لي بعض أصحابي ؛ فقلت : أبو بكر ؟ قال : لا ، فقلت : ابن عمك عليّ ؟ قال : لا ، فقلت : عثمان ؟

قال : نعم ، فلما جاء قال لي بيده ؛ فتنحيت ، فجعل رسول الله ﷺ يساره ولونُ عثمان يتغير ، فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تُقاتل ؟ قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً وأنا صابر نفسي عليه » .

أول سـفير

لقد قام عثمان بن عفان رضي الله عنه بدور عظيم في نصرة رسول الله ﷺ كما رأينا في ما استعرضنا من بعض جوانب سيرته .. ولعل من أبرز المواقف البطولية التي أهَّلته لذاك صدق عقيدته وقوة عزيمته وعراقة أصوله .

فعندما أذَّن النبي ﷺ . كما تقول كتب السيرة بالحج وساق معه الْهَدْيَ إعلاماً أنه لا يقصد مكة غازياً وإنما يريدها متعبداً . وترامت الأخبار إلى قريش فجن جنونها . وانتهضت لمنع المسلمين من دخول مكة عليهم عنوة ، وسَفَرت الرسل بين رسول الله ﷺ وبينها ، فلجَّت قريش وعاندت ، ولكن رسول الله ﷺ ، وقد جاء عابداً لربه ، سلماً لقومه لم يشأ أن يأخذ قريشا بعنادها وبغيها عليه وعلى المسلمين ، فرأى أن يرسل إليها أحد خاصة أصحابه ذوي المكانة عندها ، علَّها تفهم عنه قصد المسلمين على حقيقته ، وتُخلي بينهم وبين بيت ربهم ، يؤدون نسكهم ، ثم يقفلون إلى مدينتهم وهنا تتجلى مكانة عثمان بن عفان رضي الله عنه في شرفه وعزته بين قومه ، وفي نبله وجلال موضعه من إخوانه المؤمنين .

روى ابن هشام في السيرة قال : « دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ؛ فيُبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء به ، فقال عمر : يا رسول الله ، إني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها منى : عثمان بن عفان ؛

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعظماً لحرمته .

.. فلم يتردد عثمان رضي الله عنه ولم يأبه بقريش ولا مكائدها .. وإنما انطلق سفيراً لرسول الله ﷺ إلى قومه من قريش ، يحمل إليهم راية السلام ، ويؤدي إليهم رسالة رسول الله ﷺ ، وأرادت قريش أن تتملق عثمان ، وغفلت أو تغافلت ، بل جهلت أو تجاهلت ، خصائص الإيمان الذي غرسه محمد رسول الله في قلوب أصحابه ؛ وعلى شَبَاتِها سالت أنفس فلذات أكبادها من قبل ؛ فقالت لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف ؛ فأجابها عثمان جواب المؤمن الراسخ إيمانه ، الصادق في عقيدته ، الذي لا يستفزه هذا الملق الرخيص ، فقال : « ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ » وأبلغ أشراف قريش « أننا إنما جئنا لنزور البيت العتيق ، ولنعظم حرمته ، ولنؤدي فرض العبادة عنده ؛ وقد جئنا بالهدي معنا ، فإذا أتممنا نسكنا ونحرنا هدينا رجعنا بسلام » .

فأبت قريش إلا البغي والعناد ، واحتبست عثمان بمكة حتى طال لبثُه بها على رسول الله والمسلمين ، وترامى إليهم أن قريشا غدرت بسفيرهم إليها ؛ فقال النبي ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » وأخذ النبي ﷺ في مبايعة أصحابه ، فتمت بيعه الرضوان من أجل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

قال ابن عبد البر في كتاب الإستيعاب : « وأما تخلف عثمان عن بيعة الرضوان بالحديبية ، فلأن رسول الله ﷺ كان وجَّهه إلى مكة في أمر لا يقوم به غيره ، من صلح قريش على أن يتركوا رسول الله ﷺ والعمرة ، فلما أتاه الخبر الكاذب بأن عثمان قد قتل ، جمع أصحابه فدعاهم إلى البيعة ، فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ ، وبايع رسول الله ﷺ عن عثمان بإحدى يديه الأخرى ؛ ثم أتاه الخبر بأن عثمان لم يقتل ، وما كان سبب بيعة

الرضوان إلا ما بلغه ﷺ من قتل عثمان وروينا عن ابن عمر أنه قال : « **يد رسول الله ﷺ لعثمان خير من يد عثمان لنفسه** » .

مـع الصـديق

وفي خلافة الصديق رضي الله عنه .. سار عثمان رضي الله عنه كالعهد به صاحباً وأميناً ومستشاراً صادقاً حتى أن أبا بكر رضي الله عنه عندما غشيته نوبة الوفاة التي انتقل إثرها إلى الرفيق الأعلى .. دعا عثمان رضي الله عنه لكتابة .. العهد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فأملى عليه مستهل العهد حتى « إنى استخلفت عليكم من بعدى .. » وأخذته غشية .. فما كان من عثمان رضي الله عنه إلا أن كتب « عمر بن الخطاب » ولما أفاق أبو بكر ثانية قال : « إقرأ عليَّ ما كتبت » فقرأ عليه ذكر عمر ، فكبر أبو بكر ، وقال : أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك ، فيختلف الناس ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ، والله إن كنت لها لأهلاً ، ثم أمره أن يتم الكتاب ، فقال : « فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون** ﴾ (الشعراء : آية ٢٢٧) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ثم أمره بختم الكتاب ، وخرج به مختوماً ؛ فقال عثمان للناس أتُبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم .

مـع الفـاروق

أما مكانة عثمان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فهي مكانة الوزير من الخليفة ، وإن شئت فقل هي مكانة عمر من أبي بكر في خلافته ، وقد صنع الله لأبي بكر بوزارة عمر لخلافته ما يصنعه لخير أهله ، وصنع لعمر بوزارة عثمان لخلافته ما يصنعه لخير أهله ، فقد كان

أبو بكر أرحم الناس بالناس ، وكان عمر أشدهم في الحق ، فمزج الله رحمة الصديق بشدة عمر ، فكانت منهما خلافة الصدق وسياسة العدل ، وقوام الحزم . وكان عثمان رضي الله عنه أشبه بالصديق في رحمته ، وكان عمر على سَنَنه في شدته ، فلما تُولى بعد أبي بكر جعل الله له في وزارة عثمان لخلافته عوضاً من رحمة الصديق ورفقه ؛ فكان منهما تلك الأمثال المضروبة في أنظمة الحكم وسياسة الأمة أحكم سياسة وأعدلها .

وقد عرف الناس هذه المكانة لعثمان في الخلافة العمرية ، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء يلوذون بعثمان لمكانه منه ، وقد سجل التاريخ آثاراً خالدة لعثمان في خلافة عمر ، فهو الذي أشار على عمر بإحصاء الناس في سجلات ودواوين يرجع إليها في أرزاقهم وأُعطياتهم ؛ وذلك لما اتسعت الفتوحات وكثرت الأموال جمع عمر ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ليستشيرهم في هذا المال ؛ فقال عثمان : أرى مالاً كثيراً يسع الناس وإن لم يُحصَوا حتى يُعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر فأقر عمر رأي عثمان ، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدواوين .

وعثمان رضي الله عنه هو الذي أشار على عمر بجعل السنة الهجرية تبدأ بالمحرم وذلك أنهم لما اتفقوا بعد مشاورات على جعل مبدأ التاريخ الإسلامي هجرة النبي ﷺ ، لأنها فرقت بين الحق والباطل ـــ تعددت الآراء في أي الأشهر يُجعل مبدأ للسنة ، فقال عثمان : أرخوا من المحرم أول السنة ، وهو شهر حرام ، وأول الشهور في العدة ، وهو منصرف الناس من الحج ؛ فرضي عمر ومن شهده من الصحابة رأي عثمان ؛ واستقر عليه الأمر ، وأصبح مبدأ تاريخ الإسلام .

رضي الله عنهم جميعا فقد كانوا هداة مهتدين .

عدل .. ورحمة .. وجهاد .. !

.. لم تكن الخلافة مطمعاً .. ولا غاية .. أو تشريفاً .

الطمع كان في رضاء الله عز وجل .. وقد قال الرسول ﷺ : « اللهم إني راض عن عثمان فأرض عنه » ودعاء الرسول عليه الصلاة والسلام تفتح له أبواب السماء كما أن الحق سبحانه وتعالى وعد نبيه الكريم ﷺ في محكم التنزيل بقوله في سورة الضحى : ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ (الضحى : آية ٥) .

والغاية .. بلا شك هي الجنة وقد ثبت في أكثر من حديث أن عثمان رضي الله عنه من أهل الجنة .. بل ان رسول الله ﷺ يقول بلسان فصيح في حديث صحيح « عثمان رفيقي في الجنة » .

وأما الشرف .. فهو مصاحبة الرسول ﷺ والسعادة بمعايشته .. والاقتداء بهديه ورعايته وتوجيهه عليه الصلاة والسلام .. وقد حظى ابن عفان بشرف الصحبة .. وشرف النسب والمصاهرة بإبنتي رسول الله ﷺ .. وكان مما قاله النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه بعد انتقال زوجتيه إلى الرفيق الأعلى : لو كانت لنا ثالثة لزوجناكها .

.. واليوم وقد بلغ عثمان رضي الله عنه السبعين من العمر .. فلم يعُد له من مطمع .. أو غاية .. أو شرف غير ما فاز به .. ولكنه وهو يرى الفتنة تطل برأسها وقد قُتل الفاروق رضي الله عنه .. وأطلت إليه الخلافة .. وتطلع إليه المسلمون لم يجد بداً من احتمال المسؤولية .. وتولى المهمة .

في صحيح البخاري رحمه الله فصل معنون لبيعة عثمان رضي الله عنه قال فيه :

« باب قصة البيعة والإتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه » ثم ذكر بعد ذلك حديثاً طويلاً اشتمل على ذكر مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وعلى قصة بيعة عثمان بالخلافة على يد مجلس الشورى ألَّفهُ عمر من ستة نفر هُمْ أحق الناس بهذا الأمر » .

وقد استمد كتاب السيرة من ذلك الحديث فصول رواياتهم في بيعة عثمان وخلافته .. ومما جاء فيها :

أبى أمير المؤمنين « عمر » وهو يجود بأنفاسه الطاهرة أن يستخلف أحداً .

وحين ألَحَّ عليه بعض أصحابه كي يختار بنفسه من يخلفُه استمسك بإبائه ورفضه ، وقال لهم :

« أأحمل أمركم حيًّا وميتا ..؟ ودِدْتُ أن يكون حظي منكم الكفاف ، لا عليَّ ولا لي ..

« ألا إني إن أسْتَخْلِف ، فقد استخلَفَ من هو خير مني — يعني أبا بكر — وإن أترك ، فقد ترك من هو خير مني — يعني رسول الله — والله حافظ دينه » .

وولَّى روحه الضارعة شطر الله الرحيم العليم ، يسأله أن يُلهمه الرشد ، وأسبل جفنيه وأعمل فكره .. وعلى الفور لاح له من الله نور . وكأنما تذكّر ذلك اليوم البعيد القريب ، وقد أرهفوا السمع لرسولهم الكريم يعظهم ويناديهم قبل وفاته بأيام :

« أيها الناس ..

« إن أبا بكر لم يَسُؤْني قط ، فاعرفوا له ذلك ..

« أيها الناس ..

« إني راضٍ عن عمر ، وعلي ، **وعثمان** ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن مالك ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك » .

علي ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن .. ما أجلَّها من ذكرى ، تعود الآن في أوانها .

فليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم الرسول كل هذا التكريم . عاقبة الأمر الذي يشغل الأمير المحتضِر .. وليضع في أعناقهم مجتمعين ، الأمانة التي حملها طوال سني خلافته في مثل عزم المرسلين ؛ وهكذا جمعهم حوله ، ووجَّه إليهم الحديث :

« إني نظرت فوجدتكم القادَة ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قُبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم ما استقمتم .. « فإذا أنا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأت اليوم الرابع ألا وعليكم أمير منكم .

« وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً ، ولا يكون له من الأمر شيء ... » .

كان « طلحة » غائبا عن المدينة . فاجتمع بقية الصِّحاب الذين وضع « عمر » الأمانة في أعناقهم قبل رحيله .

واقترح عليهم « عبد الرحمن بن عوف » أن يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقه في الترشيح ليكون صوته مُرَجِّحاً إذا قام خلاف .

وبادر هو فخلع نفسه وتخلى عن الترشيح ، فقال الزبير : وأنا أتخلى عن الترشيح .

وقال سعيد : وأنا أتخلى عن الترشيح وأجعل أمري إلى عبد الرحمن .

وبذلك انحصر الترشيح في اثنين ــ عثمان وعلي ــ وَوُكِلَ عبد الرحمن في الاختيار والترجيح بناء على اتفاق الجميع .

وبدأت مهمة عبد الرحمن وكانت صعبةً وشاقةً ، لكن لا بد منها وكان أمامه ثلاثة أيام فقط ليعلن ما يصل إليه .

ولقد كان عبد الرحمن موفقاً في مهمته وقد قام بها حق القيام ، ولم يترك أحداً إلا شاوره حسب طاقته .. شاور الكبار والصغار وحتى النساء وكان يخرج متلثما في طرقات المدينة لكي لا يعرفه أحد ويسأل ويستشير ويقول : « من ترى الخليفة بعد عمر ؟؟؟!! » .

وكان أول من استشار في بدء مهمته علي بن أبي طالب فقال له :

أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ــ أي لم تكن من المرشحين ــ من كنت ترى أحق بهذا الأمر ؟؟!!.

قال : « عثمان » .

ثم استشار عثمان وقال له مثل ما قال لعلي فأجابه عثمان رضي الله عنه : « علي أحق بهذا الأمر » .

ثم استشار الزبير فقال له : عثمان ، ثم استشار سعداً فقال له : عثمان ثم انطلق إلى الناس وأخذ يستشيرهم بدءاً من الأنصار والمهاجرين والشيوخ وانتهاء بضعفاء الناس والولدان .

فكوَّن حصيلة واستقر على رأي ولم يفصح به لأحد لأنه لا يزال في طور المشاورة وفي الليلة التي أعلن النتيجة فيها أتى إلى « مِسْوَرِ بن مَخْرَمة » بعد هجعة من الليل فأيقظه وكان من الصحابة الكرام. فقال له:

« ما لي أراك نائما ولم أذُق في هذه الليلة كثير غمض، انطلق فادع لي فلانا وفلاناً وسمى له بعض الأسماء ».

فناجاهم طويلا ثم قاموا من عنده فخرجوا .. ثم دعا علياً فناجاه طويلا، ثم دعا عثمان فناجاه طويلاً حتى فرق بينهما أذان الصبح، ثم خرج.

فلما صلّوا الصبح — وكان الإمام صهيباً بأمر من عمر بن الخطاب خلال فترة المشاورة — صعد عبد الرحمن بن عوف المنبر متقلداً سيفه وعليه العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ وكان المسجد قد إمتلأ بالناس فتكلم وقال:

« أيها الناس إني قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم فلم أركم تعدلون عن هذين الرجلين — علي وعثمان — فقم إلي يا علي.

فقام إليه فأخذ عبد الرحمن يده وقال له:

هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟

فقال علي: أبايع على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي.

فأرسل يده ثم نادى: قم إليّ يا عثمان فأخذ بيده وقال له:

هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟

قال عثمان: « اللهم نعم ».

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد ...

اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان .

كانت أول يمين شَدَّت بالبيعة على يمينه ، يمين « علي بن أبي طالب » ... وتتابع المسلمون جميعاً يُبايعون ..

وهكذا حمل « عثمان » أثقال الخلافة .. حملها وهو على وَشْك أن يستقبل السبعين من عمره .. تُرى هل كان بها حفيًّا وعليها حريصاً ..؟؟

فيما نعلم من طبائع البشر ، فإن سن السبعين ليست السِّنَّ المناسبة للطموح ، ولا السِّنَّ التي تتفتّح فيها الشَّهياتُ لمتاعب السلطان ؛ فكيف وصاحب هذه السِّنِّ رجل يسيطر الحياء على حياته . والحياء يدفع أصحابه دائماً إلى الظِّلال ..؟؟!!

ثم كيف وصاحب هذه السِّنِّ رجل يتلقى المسؤولية على وَقع نذير رهيب يتمثل في اغتيال خليفة تحدَّت الجريمة عدله وورَعَهُ وبأسه ونفوذه العظيم الرحيب ..؟؟!!

أغلب الظن — كما يقول كاتب السيرة — أن « عثمان » رضي الله عنه تلقى البيعة وهو يرتجف .. ولعلّها تُشير إلى هذا المعنى ، تلك الرواية التي تحدثنا أن الخليفة بعد تَلَقِّيه البيعة من أهل الشورى توجَّهَ إلى المنبر وعلى محيَّاه اكتئاب ..

ولعلّ هذه الخشية لجلال المسئولية ، هي التي أمسكت لسانه عن الإفاضة في أول خطبة ألقاها .. فاكتفى بأن حذّر الناس من الدنيا وغرورها .. ورغَّبهم في الآخرة وحُبورها ..

ولولا ضغط الموقف وثقل المسئولية لأفاض .. فما كان رضي الله عنه عاجزاً عن الحديث ولا عَيِيًّا ..

يروي عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قوله :

« ما رأيتُ أحداً ، كان إذا حَدَّث أتمَّ حديثا ولا أحسن من عثمان إلا أنه كان رجلاً يهابُ الحديث » ...

ومن الطبيعي أن يكون هيابا للحديث ، ما دام يتحكم فيه هذا القَدر المفيض الهائل من الحياء .

فإذا انضاف إلى حيائه الشديد وطأة المسئولية الفادحة ؛ فإن خطبته السريعة العاجلة يومذاك تعطينا أول صُوَرة من صور المجابهة المضنية التي ستقوم بين الخليفة الشيخ ، ومسؤولياته الثِّقال الجسام » .

المعضلــة الموروثة

كان أول ما واجه الخليفة عثمان بن عفان إثر مبايعته موضوع عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذي إقتنع بأن مقتل أبيه لم يكن جريمة فردية أرتكبها أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة من تلقاء نفسه . بل كان نتيجة لمؤامرة اشترك فيها الهرمزان الفارسي وجفينة أحد نصارى الحيرة وكان اقتناعه بذلك عن بينة كما تقول كتب السيرة :

.. فقد شهد عبد الرحمن بن عوف أنه رأى السكين التي طُعن بها عمر مع الهرمزان وجفينة عشية الحادث الذى روّع المسلمين ، وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال : « قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه الهرمزان وجفينة وهم نجّى فلما بغتهم ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب في وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر » ، ونظر الناس فوجدوه الخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر . عند ذلك ثار ثائر عبيد الله فتقلد سيفه ، ثم بدأ بالهرمزان وجفينة فقتلهما ، وانطلق إلى دار فيروز فقتل ابنة له صغيرة تدّعى الإسلام .

حدث هذا قبل أن يُبايع عثمان وثار له الناس ، وتوعدوا عبيد الله وحبسوه . فلما بويع عثمان لم يكن له من القضاء في أمر عبيد الله بد . يذكر الطبري رواية عن شعيب عن سيف عن أبي منصور أنه قال : « سمعت القماذيان يحدث عن قتل أبيه ــ الهرمزان ــ قال : كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض ، فمرّ فيروز بأبي ومعه خنجر له رأسان فتناوله منه ، وقال : ما تصنع بهذا في هذه البلاد ؟ فقال : أبس به ، فرآه رجل ؛ فلما أُصيب عمر قال رأيت هذا الخنجر مع الهرمزان دفعه إلى فيروز ، فأقبل عبيد الله فقتله ؛ فلما ولى عثمان دعاني فأمكنني منه ــ أي من عبيد الله ابن عمر ، ثم قال : يا بني هذا قاتل أبيك وأنت أولى به منا فاذهب فاقتله ؛ فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي إلا أنهم يطلبون إليّ فيه . فقلت لهم : إلى قتله ؟ قالوا : نعم . وسبّوا عبيد الله . فقلت : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا ، وسبّوه . فتركته لله ولهم ، فاحتملوني ، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم » .

هذه رواية الطبري . وهي تجعل العفو عن عبيد الله من عمل القماذيان ابن الهرمزان . وهذا قول يخالف المشهور ، فأكثر الرواة يذكرون أن عثمان جلس بعد بيعته إلى جانب المسجد فجيء بعبيد الله بن عمر من محبسه ليحاكمه ، فلما مثل بين يديه قال عثمان للحاضرين : « أشيروا عليّ في هذا الذي قتل في الإسلام ما قتل » . وأجابه على بن أبي طالب : « ما من العدل تركه ، وأرى أن تقتله » .

وقال بعض المهاجرين : « قُتل عمر بالأمس ويُقتل ابنه اليوم ؟؟!! » .

فقال عمرو بن العاص :

« يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك ، فقد كان هذا الحدث ولا سلطان لك على المسلمين » .

نظر عثمان نظرة تأمل وتفكير ...

صحيح إن القتل وقع عمداً من قبل عبيد الله بن عمر ، لكن لشبهة أخذت عليه قلبه وعقله ، وقد يكون لها من الواقع نصيب فالهرمزان خدع المسلمين مرات في الحروب فقد عاهد ثم غدر ثم عاهد ثم غدر إلى أن قُبض عليه وجيء به إلى عمر . وخدع عمر أيضا في قصة معروفة حيث قال لعمر وهو يظهر الخوف والجزع : أخاف أن أقتل وأنا أشرب هذا الماء الذي في يدي .

فقال له عمر : لا بأس عليك حتى تشربه .

عندئذ أراق الهرمزان الماء في الأرض وقال لعمر : لا حاجة لي في الماء وإنما أردت أن أستأمن .

فقال له عمر : خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم . فأسلم الهرمزان مكانه .

أما جفينة فنصراني من حران ليس بعيدا عنه أن يكون متهماً وكذلك ابنة أبي لؤلؤة مجوسية وكلاهما لا يُقتل بهما مسلم .

وشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر جاءت فقوَّت الشبهة وكلمات بعض المهاجرين ما زالت ملء سمعه : أَيُقْتَلُ عمر بالأمس ويقتل إبنه اليوم ؟؟!! لذلك فكر عثمان في حل ثم اهتدى إليه فقال للصحابة المجتمعين :

أنا ولي المسلمين .

وقد جعلتها دية وأحتملها في مالي وأنا أُرضي وليّ المقتول ...

وانتهت المشكلة المثارة وُدفع المال وعفا أهل القتيل وسارت الأمور بسلام .

رعاة لا جباة

.. بفضل الله ورحمته فليفرحوا .. هكذا كان حال لسان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول وهو يشهد إنتهاء المشكلة بما منَّ الله عليه من توفيق . ثم توجه لمسؤوليات الخلافة وتنظيم الأوضاع بما عاهد عليه وارتضاه عند مبايعته من أهل الشورى وفي مقدمتهم الإمام عليّ وبقية الصحابة رضي الله عنهم والناس عموماً ..

تتفق الروايات ـــ كما يقول كاتبوا السيرة ـــ على أن أول ما صنع عثمان أن زاد في عطاء الناس عما كان في عهد عمر ، زاد في عطاء كل واحد من جند المسلمين مائة درهم على ما فرضه عمر لهم ، وكان عمر قد جعل لكل مسلم في كل ليلة من رمضان درهماً من بيت المال يفطر عليه ، ولأمهات المؤمنين درهمين ، فأقر عثمان ذلك وزاده ، ثم إنه اتخذ في المسجد سماطاً للمتعبدين والمعتكفين وأبناء السبيل والفقراء والمساكين ، بذلك استبشر الجند واستبشر الناس ورأوا فيه فألاً حسنا بمستقبل يكونون فيه أطيب حياة وألين عيشاً ، وليس لأحد أن يؤاخذ به عثمان والأموال تتدفق على المدينة من أرجاء الامبراطورية ، فلا تضيق بما وسع أمير المؤمنين على المسلمين .

وليُطمئن الناس إلى أن ما ألفوا من عدل في عهد عمر لن يعبث به عابث ، كتب عثمان إلى عماله :

« أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . وإن صدر هذه الأمة خُلقوا رعاة ولم يُخلقوا جباة . وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنُّوا بالذمة

فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

هذا كتاب صوّر به عثمان سياسته في الرعية وما يجب على عماله أن يأخذوها به . وهي سياسة كلها السداد والحكمة . فهو يأمر هؤلاء العمال أن يرعوا الناس بالرفق وأن لا يرهقوهم جباية واستغلالا ، وأن يأخذوا من المسلم ومن الذمى ما عليه وأن يعطوا المسلم والذمى ماله عدلا بغير بغى ، وأن يفوا بما يقطعونه للعدو من عهد حتى تذهب حميته فلا يثير الناس بالمسلمين . تلك أعدل السير في نظر عثمان . إليها يطمئن الجميع فيسود الأمن ويستتب النظام ، وتستقر الأمور في نصاب ، لا يدع لشاكٍ أن يشكو ظلماً أو هضماً .

كان لعمال الخراج من الاستقلال عن الولاة ما خشى عثمان معه أن يظلموا الناس فيبهظوهم بما لا يجب عليهم أداؤه ، أو أن يستغلوا مناصبهم لفائدتهم وفائدة ذويهم فيثيروا النفوس ويسيئوا إلى نزاهة الحكم . لذلك كتب إلى عمال الخراج يقول :

« أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

لم يرد عثمان أن يفهم الناس من كتبه إلى الولاة وإلى عمال الخراج أنه أعفى العامة من الواجبات الملقاة عليهم ، أو أنه حين زاد في عطائهم يدعوهم إلى التمرغ في متاع الدنيا ورفه العيش . لذلك أذاع فيهم كتاباً ، قال فيه :

« أما بعد ، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ؛ فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن . وقد قال رسول الله : الكفر في العجمة ، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » .

وهذه الكتب الثلاثة إلى الولاة وإلى عمال الخراج وإلى العامة تصف مجملا من سياسة عثمان في إدارة الشئون الداخلية لبلاد الدولة كلها . ولكن عثمان لم يكن ليغيب عنه أن الإمبراطورية الناشئة لما تستقر إلى حال من الطمأنينة يستريح الخليفة إليه ، وأن الفرس والروم لن تهدأ نفوسهم بعد الذي أصابهم في عهد عمر ، وأنهم لابد ينتهزون أول فرصة للثورة بالمسلمين حيثما وجدوا في الحكم العربي ضعفاً عن مقاومتهم . ولم يكن هذا الأمر ليغيب على من كان أقل من عثمان بصراً بالأمور ، واحتياطاً لما قد يحدث .

لذا فقد كتب عثمان إلى أمراء الأجناد في مختلف بلاد الدولة من غرب مصر إلى شرق فارس يقول :

« أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، ولقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان عن ملأ منا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله مابكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه » .

هذه هي السياسة التى رسمها عثمان وأذاعها في الأمصار أول ما بويع وتستطيع أن تضيف إليها أنه أقر الولاة في ولاياتهم ، لم يعزل أحداً منهم » .

جهــاد عثمــان

.. قتل عمر وتولى عثمان رضي الله عنهما .. وجند الإسلام في أرجاء مختلفة من أرض فارس وبرقه وجنوب مصر وعلى استعداد دائم لمواجهة الأعداء في قتال نظامي حيناً ، وفيما يشبه حرب العصابات أحياناً ، فلم يكن لعثمان أن يغفل هذا الأمر ، ولم يكن له بد من أن يعيره أعظم جانب من التفاته . ذلك أن الحوادث لم تطاوع عمر أن يقف بالفتح الإسلامي في حدود يعقد الصلح مع خصومه الفرس والروم على احترامها ، فاضطر لمتابعة الفتح حتى قتل ولا يزال جنده متحصناً بأطراف فارس وأطراف مصر . وما كان لخليفة أن ينقبض عن ذلك أو تتعرض الامبراطورية كلها للانتقاض من أطرافها . والاحتياط لهذا الأمر هو عبء جسيم واجهه الخليفة الثالث لأول ما بويع .

وكان الفرس والروم يعرفون من شئون العرب ما جعلهم يزيدون في هذا العبء فداحة . فقد فكروا في الانتقاض لأول ما جاءتهم الأنباء بمقتل عمر وبيعة عثمان . فتمردت ولايات كانت أذعنت لسلطان العرب وصالحتهم فنقضت صلحها ومنعت الجزية التي صالحت عليها ، لم يكن للخليفة بدّ من رد هذه الولايات إلى حمى الطاعة ، وأن يفرض عليها جزاء أقله ما صالحت عليه في عهد عمر مخافة أن تنقض غيرها من الولايات صلحها وتعلن الثورة والعصيان . فإذا وقع ذلك تفاقمت الأمور وتعذرت ملافاتها » .

وتضيف كتب السيرة .. حدث أول انتقاض من هذا النوع في أذربيجان وأرمينية ، ثم هاجم الروم الشام ، ثم نقضت الاسكندرية عهدها واستعانت بالروم فأعانوها . أما وقد تتابعت هذه الأحداث وأمثالها فلابد من قمعها والقضاء عليها في مهدها . وقد فعل عثمان ، فأدى ما فعل إلى

امتداد الفتح ، وإلى اتخاذ المسلمين قواعد حربية لحماية الامبراطورية ، وإلى إنشائهم قوة بحرية إلى جانب قواتهم البرية .

وكان من أول ما اتخذ الخليفة رضوان الله عليه من إجراء أن جهز الجيوش إلى العراق والشام ومصر . وتهيأت القوات البحرية مما ستكشف عنه أقصر الروايات التي تضمنتها كتب السيرة .

جيــش العــراق

قسم الجيش في العراق إلى معسكرين :

معسكر الكوفة ، معسكر البصرة .

وكلاهما توجه إلى قتال الفرس حسب موقعه ومهمته .

أما معسكر الكوفة : فقد كُلف ببلاد الري وأذربيجان ...

وأما معسكر البصرة : فقد كُلف بما يقابله من أهل الفرس في اصطخر وخراسان ونيسابور ...

كان قوام جيش الكوفة أربعين ألف مقاتل . ويغزو فيهم كل عام عشرة آلاف فيصيب الرجل منهم غزوة كل أربعة أعوام هذا في الأحوال العادية أما عند الحاجة فقد يزحف كله إلى الموقعة وقد يذهب قسم منه مدداً إلى البلدان كما سنرى .

كانت أذربيجان قد صالحت حذيفة بن اليمان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تمردت في عهد عثمان فكلف عثمان الوليد بن عقبة ــ وكان هو الوالي على الكوفة ــ أن يرسل لها من يخضعها فاختار الوليد قائدا لذلك وهو سلمان بن ربيعة الباهلي وأرسله على رأس جيش ثم تبعه بنفسه على رأس قوة أخرى . فسارع أهل أذربيجان لمصالحتهم على

شروط حذيفة رضي الله عنه ومكث الوليد فيها وأخذ يرسل السرايا ويشنّ الغارات على ما حولها لاستتباب الأمن ثم جهز سلمان ووجهه إلى أرمينية فذهب سلمان مع قوة كبيرة إلى أرمينية وأخضعها إلى طاعة الدولة الإسلامية وعاد منها محملاً بالغنائم ثم عاد الوليد إلى الكوفة مع قائده سلمان ومع الجنود .

وما أن وصل الوليد إلى الكوفة حتى جاءه كتاب من عثمان يقول له فيه :

أما بعد .. فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أن الروم أجلبت[1] على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة . فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي ، والسلام .

فجمع الوليد الناس وحثّهم على الخروج لمساعدة أهل الشام على الروم ... ولم تمض ثلاثة أيام حتى خرج ثمانية آلاف طائعين مختارين وانطلقوا بقيادة سلمان بن ربيعة . وكان على جند الشام حبيب بن مسلمة الفهري فانضم إليه سلمان وقاتلوا الروم قتالاً شديداً وانتصروا عليهم وفتحوا كثيراً من حصونهم وعاد أهل الكوفة إلى بلادهم .

ثم إن عثمان رضي الله عنه عزل الوليد وولى مكانه سعيد بن العاص على الكوفة وما إن استلم سعيد حتى خرج غازياً بنفسه على رأس جيش كبير وتوجه إلى خراسان لعلمه أن أهلها قد نقضوا الصلح الذي تمّ في عهد عمر بن الخطاب وبخروجه هذا وإسراعه سبق أمير البصرة عبد الله ابن عامر الذي كُلف بها من قبل عثمان .

---

(١) أجلبت : اجتمعت وجمّعت الجيوش .

وكان مع سعيد بن العاص جمع من الصحابة منهم حذيفة بن اليمان والحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير وغيرهم . وعندما رأى أهل خراسان الجيش سارعوا إلى مصالحته والعودة إلى ما كانوا عليه .

ثم توجه سعيد إلى طبرستان وقاتل أهلها قتالاً شديدا وصلى مع أفراد الجيش صلاة الخوف ... وظل سعيد ومن معه يحاصرون الحصون حتى نزلوا على حكمه وبادروا إلى الصلح فصالحهم ...

هذه بعض الأعمال التي قام بها معسكر الكوفة .

أما معسكر البصرة ، فقد كان الفرس الذين يقابلونهم قد نقضوا الصلح الذي تم على عهد عمر وقتلوا أميرهم عبد الله بن معمر .

وكان الوالي على البصرة عبد الله بن عامر بعد أبي موسى الأشعري وما إن سمع عبد الله بمقتل بن معمر حتى استنفر الناس فنفروا معه وفي مقدمتهم عثمان بن أبي العاص الثقفي فالتقى الجمعان باصطخر وتغلب المسلمون عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ودخلوا اصطخر عنوة فرضخت للمسلمين ثم تابع عبد الله الفتوح لكنه ما أن غادر اصطخر مع جنوده حتى عادوا إلى التمرد والثورة فرجع إليهم وقاتلهم وقتل مثل ما قتل في المرة الأولى إلى أن استسلموا مرة ثانية وهي المرة الأخيرة وألقوا بعدها عصا الطاعة ، وكتب إلى عثمان بانتصاره فشجعه وثبته . فسار الجيش وتوجه إلى نيسابور فسارع أهلها إلى الصلح ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان وما جاورها فقاتل وانتصر على أهلها .

ثم علم ابن عامر من الأخبار التي جاءته أن جموعاً من الفرس تهيأوا للقتال وبدأوا يحرضون من صالح المسلمين على نقض العهد فوجه ابن عامر

الأقرع بن حابس التميمي مع قسم من الجيش وأكثرهم من قومه من بني تميم وأوصاهم بقوله :

يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تصلح أموركم وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم . ولا تغُلّوا[1] يسلم لكم جهادكم .

فسارع الأقرع بن حابس بجنده حتى لقي المشركين فقاتلهم وظفر بهم .

وقُتل يزدجرد آخر ملوك الفرس بعد هربه أثناء المعارك وكان الذي قتله واحد من الفرس طمعاً بجواهره وذهبه الذي أخذه معه أثناء الفرار .

جيش الشــام

كان معاوية بن أبي سفيان أميراً على دمشق في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وعندما استلم عثمان الخلافة أقرّه على إمارة دمشق .

وعندما توفي أخوه يزيد الذي كان والياً على الأردن ضم عثمان الأردن إلى ولاية معاوية . ثم ضم له فلسطين بعد وفاة أميرها علقمة ثم ضم له حمص بعد استعفاء أميرها ومرضه . وبذلك صارت الشام كلها تحت إمرة معاوية .. وكان الروم يقومون بمناوشات ضد المسلمين فتجهز لقتالهم وانطلق بالجيش إلى عمورية وفي الطريق وجد الحصون بين طرطوس وأنطاكية خالية فوضع فيها الحرس من أهل الشام والجزيرة ثم جاءه الأمر من عثمان بن عفان أن يُرسل حبيب بن مسلمة إلى أرمينية فانطلق حبيب إلى مهمته . وفي الطريق الطويل صالحه أهل بعض البلاد ودفعوا له الجزية . وجاءت إلى حبيب أخبارٌ بأن أحد قواد الروم قد جمع ثمانين ألفاً لحربه

---

(١) لا تغُلّوا : لا تأخذوا شيئا من الغنائم قبل قسمتها .

والقضاء عليه فكتب إلى معاوية يستمده فكتب معاوية إلى عثمان بالأمر والطلب فوجه عثمان إلى الكوفة وطلب من واليها الوليد بن عقبة أن يمد أهل الشام ، فأرسل الوليد ثمانية آلاف مقاتل وعلى رأسهم سلمان بن أبي ربيعة . والتقى المدد وانضم أهل الكوفة إلى أهل الشام وقاتلوا الروم وسيطروا على البلاد لكن ظل الخطر محدّقاً بالمسلمين من جهة البحر . فلننظر كيف خاضوا هذه التجربة وكيف غامروا في القتال في البحر وكيف انتصروا ؟؟ » .

القتـال البحـري

.. لم يكن عند المسلمين خبرة في البحر ولا بقتاله وليس لديهم جرأة على ركوبه ...

وكان معاوية قد استأذن عمر بن الخطاب فلم يأذن له وشدد في المنع واعتبر ركوب البحر والحرب فيه تغريراً بالمسلمين وإلقاءهم إلى الهلاك .

وعندما استلم عثمان وألحّت الحاجة على معاوية لحماية الحدود البحرية للمسلمين طلب معاوية من عثمان السماح له بركوب البحر وألح عليه في ذلك وشرح له الأسباب ، ورغّبه في ذلك فأذن له عثمان وقال له :

خيِّر الناس في الخروج معك ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو في البحر طائعا فاحمله وأعنه .

فدعا معاوية الناس إلى الغزو في البحر ولم يكره أحداً على الخروج وعقد اللواء لعبدالله بن قيس الحاري فكان أول قائد بحري في الإسلام . فجهز عبد الله السفن والعدّة الحربية وانطلق في البحر وغزا أكثر من خمسين غزوة لم يُهزم في واحدةٍ منها .

وفي سنة ثمان وعشرين غزا معاوية قبرص وكان معه كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت وغيرهم وكان مع عبادة زوجته أم حرام بنت ملحان وهي التي بشرها رسول الله ﷺ بقوله الذي رواه البخاري بهذا النص : أن رسول الله استيقظ من نومه وهو يضحك فقالت له أم حرام بنت ملحان : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج[1] هذا البحر ملوكاً على الأسرة . قالت : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها ..

وبذلك تحققت نبوءة النبي ﷺ فركب المسلمون غزاة في سبيل الله وكانت منهم أم حرام بنت ملحان .

وتابع معاوية في البحر طريقه إلى قبرص وقد جاءه المدد من مصر بقيادة عبد الله بن أبي السرح مع جنود أقوياء أشداء فاشترك الأسطول المصري مع الأسطول الشامي في الغزوة فصالحهم أهل قبرص وأقروا بدفع الجزية للمسلمين واتفقوا معهم على شروط لصالح المسلمين .

وعاد معاوية وابن أبي السرح كل إلى بلده ظافرين غانمين . وفي سنة إحدى وثلاثين للهجرة جمع الروم قواهم وخرجوا يتحدون المسلمين في خمسمائة سفينة فنهض عبد الله بن أبي السرح وجهز مائتي سفينة واختار جيشاً من الشجعان وأبحر بالسفن والجنود والتقى بالروم وكان قائدهم قسطنطين بن هرقل ودنا المسلمون من أعدائهم ودعوهم لينزلوا إلى الأرض الصلبة ليقاتلوهم فأبوا فربطوا سفنهم بسفنهم ثم قفز المسلمون إلى سفن أعدائهم وبعض الأعداء قفزوا إلى سفن المسلمين وبدأ القتال الشديد وثبت المسلمون وذهب منهم شهداء وذهب من الأعداء أضعاف ما قتل من المسلمين حتى صُبغ الساحل بالدماء وطفت جثث القتلى فوق الماء ...

---

(١) ثبج : وسط وثبج الشيء : وسطه .

وانتهت المعركة[1] بانتصار المسلمين وهرب من بقي من الروم وهرب قسطنطين بعد أن أثخنته الجراح .

وهكذا خاض المسلمون المعارك وسط البحار وانتصروا على اعدائهم وأثبتوا أنهم أهل للنصر في أي مجال » .

جيش مصر

.. **كان** عمرو بن العاص والياً على مصر من قِبَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم أقره عثمان بن عفان عندما استلم الخلافة وعندما تمرد أهل الاسكندرية بتحريض من الروم سار إليهم عمرو مع جموع المسلمين والتقوا بهم فاقتتلوا وهُزم جيش الروم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى استسلم أهل الاسكندرية واستتب الوضع فيها وعادت إلى دولة الإسلام .

ثم وجه عمرو بن العاص وجهه شطر أفريقية للغزو والجهاد وهيأ جيشا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح فسار عبد الله حتى بلغ أفريقيا فقاتل وانتصر وغنم وعاد إلى مصر وهو يتمنى أن ينشر الإسلام في أفريقيا وأُعتبر خروجه هذا وانتصاره بمثابة استطلاع أوَّليٍّ لأفريقيا وتعرف على أحوالها ، ومداخلها .

ثم استأذن عبد الله في غزو أفريقيا فشجعه عثمان وقال له :

« إن فتح الله عليك غداً أفريقيا فلك خمس الخمس من الغنائم نفلاً » .

وسار عبد الله مرة ثانية بالجيش وكان قد هيأ جيشين آخرين وأمرهما بالخروج معه فتوغلوا في أفريقيا ولقوا جموعاً فيها فاقتتلوا وصبر المسلمون

---

(١) سميت هذه المعركة بذات الصواري .

حتى فتح الله عليهم سهولها وجبالها ودخل كثير من أهلها في الإسلام وحسنت طاعتهم ...

وقسم عبد الله الغنائم بين الجند وبعث بقسم منها إلى دار الخلافة في المدينة وأخذ هو خمس الخمس نفلاً كما وعده عثمان بن عفان .

ثم لما اعترض الجنود على هذا النفل اشتكوا إلى عثمان فطلب منه أن يعيد ما أخذه من خمس الخمس فلبى الطلب وأعاده .

ثم عزل عثمان عمرو بن العاص وولى عبد الله بن أبي السرح مصر فطلب عبد الله من عثمان أن يسمح له بمتابعة فتح أفريقيا وطلب منه أن يمده بجنود تساعده على المهمة فأرسل له عثمان جنوداً فيهم كثير من المهاجرين والأنصار فانطلق عبد الله في أفريقيا وكان الروم قد اجتمعوا بقيادة واحد منهم يقال له جرجير فالتقى المسلمون والروم واقتتلوا فلم يتغلب فريق على فريق وطال الوقت وطال القتال وكان الجيش يقاتل إلى الظهيرة ثم يتوقف عن القتال للاستراحة ثم يعود في صباح اليوم التالي .

وطلب عبد الله المدد من عثمان بعد أن استبطأ عثمان النصر وأرسل عثمان المدد بقيادة عبد الله بن الزبير ومعه كثير من الأنصار والأبطال . فسار عبد الله بن الزبير حتى وصل إلى ابن أبي السرح وشاهد كيفية القتال وكيف يستريح الجيش عند الظهر ففكر بطريقة ثانية واهتدى إلى مفتاح النصر فعرض على ابن أبي السرح الطريقة وملخصها أنه يقسم الجيش إلى قسمين قسم يحارب به إلى الظهيرة ، وقسم يحارب به من الظهيرة إلى المساء فوافق على الفكرة ونفذها في اليوم التالي .

وبدأ القتال وعند الظهيرة رجع جيش الروم كعادته وهو موهون القوى متعب لكنه فوجىء بجيش المسلمين يتابع القتال وفوجىء به وهو يتوغل في معسكره في وقت الراحة فلم يستطع الجنود المقاومة فانهزموا وقتل

جرجير بيد عبد الله بن الزبير وتم للمسلمين الفتح ثم بث ابن أبي السرح السرايا لمتابعة المنهزمين والاطمئنان وأرسل البشائر إلى عثمان بن عفان بالنصر وكان المبشر هو عبد الله بن الزبير . وعاد ابن أبي السرح إلى مصر بعد أن أقام بأفريقيا سنة وثلاثة أشهر بعد أن ولي عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس بأمر من عثمان .

هذا قليل من كثير مما حدث من الفتوحات التي تمت في عهد عثمان رضي الله عنه في العراق والشام ومصر وفي البحر نقلاً عن أوثق المصادر ... لكن الناس نسوا ما قام به عثمان رضي الله عنه وما اهتم به ، وما تم في عهده من الفتوح بسبب الفتنة الكبرى التي حدثت كما أرادها الذين أشعلوها .

حفظ المصحف

يُرْوَي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال :

« لو أن قلوبنا طهُرتْ ما شبعنا من كلام ربنا . وانني لأكره أن يأتي عليّ يوم لا أنظر في المصحف » وما مات رضي الله عنه حتى خُرق مصحفه من كثرة ما كان يُديم النظر فيه .

وتقول كتب السيرة : أن ما كان عليه عثمان رضي الله عنه من صدق الإيمان هو الذي أدى به إلى جمع الناس على قراءة واحدة للقرآن ، وإلى إحراق ما سوى مصحف عثمان من المصاحف . فقد كان حذيفة بن اليمان يقاتل مع المسلمين في أرمينية وأذربيجان في السنة الثانية أو في السنة الثالثة من خلافة عثمان . وكان قد اجتمع في هذا القتال خلق من أهل الشام ممن يقرءون على قراءة المقداد بن الأسود ، وأبي الدرداء ، وجماعة من أهل العراق ممن يقرءون على قراءة ابن مسعود وأبي موسى الأشعري ، وآخرون حديثو عهد بالإسلام كانوا يفضلون قراءة على قراءة ، وبالغ كل فريق في

تفضيل قراءتهم ، ودبَّ الخلاف لذلك بينهم وعظُم اختلافهم وتشتتهم ، حتى إن الرجل ليقول لصاحبه : إن قراءتي خير من قراءتك ، وبلغ حداً كاد يكون فتنة . فقد اختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ورأى حذيفة خلافهم وانتشار الكلام السيء بينهم ففزع وفر راجعاً إلى المدينة ودخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! . قال عثمان في ماذا ؟ قال حذيفة : في كتاب الله ، إني حضرت هذه الغزوة وقد صحبت ناساً من العراق والشام والحجاز . ثم وصف له ما تقدم من اختلافهم في القراءة وأردف : وإني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى . ورأى عثمان الخطر ، فجمع الناس يشاورهم في الأمر . فسألوه رأيه فقال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة . فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بَعْدَكُم أشد اختلافاً . وأقره أهل الرأي فبعث إلى حفصة يسألها أن ترسل إليه مصحف أبي بكر لننسخه في المصاحف . ذلك أن مصحف أبي بكر كان عند الصديق في حياته ، ثم عند عمر بن الخطاب ، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهم جميعاً .

وأمر عثمان زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب المصحف ، وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموى ، بحضرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي ، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة مضر ؛ لأن القرآن نزل على رجل من مضر ، فلما أتموا كتابته على قراءة واحدة أمر عثمان فكتب لأهل الشام مصحفاً ، ولأهل مصر مصحفاً ، وبعث إلى البصرة مصحفاً ، وإلى الكوفة مصحفاً ، وأرسل إلى مكة مصحفاً وإلى اليمن مثله .، وأقر بالمدينة مصحفاً . وقد إطمأنت الأمة لهذه المصاحف ولا يزال الناس يسمونها المصاحف العثمانية لأنها كتبت بأمر عثمان وإن لم تكتب بخطه .

ولما أرسلت هذه المصاحف إلى الأمصار وأوجب الخليفة القراءة بما فيها أمر أن يُجمع ما سواها من المصاحف فجُمع وأُحرق . وقد أثار هذا الأمر من جانب عثمان ثائرة كثيرين ، بينهم قوم من الصحابة والتابعين ، وآخذوا عثمان بأنه صنع ما لم يصنعه أبو بكر وعمر . وروى عن ابن مسعود أنه تعنَّتَ لما أُخذ منه مصحفه فحُرق ، وتكلم في تقدم إسلامه على زيد ابن ثابت ، وأمر أصحابه أن يغلُّوا مصاحفهم ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يومَ القيامة** ﴾ (آل عمران : آية ١٦١) ، فكتب إليه عثمان يدعوه إلى اتباع الصحابة فيما أجمعوا عليه من المصلحة في ذلك جمعاً للكلمة وحسما لكل شقاق .

ولا شبهة في أن ما صنعه عثمان من جمع الناس على قراءة واحدة قد كان الحكمة عين الحكمة ، لأنه بصنيعه هذا قد أبقى للقرآن صفاءه كما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ . وصحيح قول علي بن أبي طالب : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع بين اللوحين » . لكن عثمان لم يكن أقل من أبي بكر أجراً لما صنع تلافيا للاختلاف وحسماً للخلاف . وليس ينقص من أجره أن اختلف الناس وأن لآمه بعضهم لحرقه كل المصاحف إلا مصحفه . فلو أنه لم يفعل لبقى النزاع وما انحسم الشرّ .

ولقد سئل علي بن أبي طالب في إحراق المصاحف فقال : « لو لم يصنعه هو لصنعته » . وبالغ قوم مع ذلك في التثريب على عثمان لحرق المصاحف فوقف عليّ في الناس فقال :

« أيها الناس ، إياكم والغلو في عثمان تقولون حرق المصاحف ، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل ما فعل » .

وفي هذا بلا شك دحض للمفترين من غلاة الشيعة الذين يقولون إن لعلي أو عند علي مصحفاً غير المصحف العثماني .. كما أن الإمام علياً كرم الله وجهه قد تولى الخلافة من بعد عثمان رضي الله عنه فلو كان يعرف خلافاً أو إختلافاً في المصحف لما ارتضى ذلك . وحاشاه أن يخون الله ورسوله فيقبل بقاء مصحف مغلوط . وما دام أنه ارتضى مصحف عثمان رضي الله عنه وقال ما سبق : لو لم يصنعه هو لصنعته فإن هذا تكذيب لكل افتراء بوجود مصحف مختلف عن مصحف عامة المسلمين خاصة وأن عثمان إنما نسخ مصحفه عن المصحف الذي كتب في عهد أبي بكر رضي الله عنهما .

سياسة الانفتــاح

تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة والناس فَرِحةٌ به وبعهده بل إن المؤرخين ــ كما يقول كتاب السيرة ــ ليُجمعون على أن السنوات الست الأولى من خلافته كانت محل الرضا عنها والطمأنينة إليها والاغتباط بازدياد الرخاء أثناءها من جانب العرب ، ومن جانب من اطمأنوا لحكم المسلمين ، من غير العرب . ويذهب أكثر المؤرخين إلى أن الرضا والطمأنينة كانت أكثر شمولا في هذا النصف الأول من عهد الخليفة الشيخ مما كان في عهد عمر . لذلك لم يكن لأحد من بني هاشم أو من غيرهم أن يتشكو أو يثير ثائرة . فقد كان عثمان لينا في غير ضعف ، عادلا عدل عمر من غير أن يكون باطشاً بطشه أو قاسياً قسوته . فقد رأيت أنه استفتح عهده بأن زاد في عطاء الناس ووسع عليهم ، فزاد ذلك في طمأنينتهم ورضاهم .

وما كان عثمان ليُغير شيئاً من نظام الحكم الذي وضعه عمر حين دوَّن الديوان وأقام القضاء ونظم المسالح ووضع بها الجند ، وما كان له أن يخرج عن نظام الشورى الذي جرى عليه النبي ﷺ وتابعه عليه أبو بكر

وعمر . لذلك سارت الأمور لأول عهده هادئة مستقرة ، ورجع الناس إلى مواطنهم بعد أن بايعوه وكلهم الرجاء الصالح في أن تستقر الامبراطورية الناشئة وأن تزداد على الأيام سعة وتزيد العرب رضا عن الحياة وتمسكاً بالدين الذي أعزهم وأعلى كلمتهم .

لم يكتف عثمان أول عهده بأن زاد عطاء الناس عما كان عليه في عهد عمر زيادة أرضت الكافة والخاصة ، بل أفسح لكبار المسلمين الذين أقاموا بالمدينة في حريتهم وأتاح لهم بذلك أن يستمتعوا بأنعم الحياة على نحو كان عمر يأباه عليهم . فقد منع عمر أعلام المهاجرين من قريش من الخروج في البلدان إلا بإذنه وإلى أجل ، وكثيراً ما رفض الإذن بتاتاً . وكان الرجل منهم يستأذنه في الغزو وهو ممن حُبس بالمدينة من المهاجرين فيقول له عمر : « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يُبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك » . فعل عمر هذا بالمهاجرين ولم يكن فعله بغيرهم من أهل مكة . وكانت حجته في ذلك خشية أن تغرى المهاجرين الدنيا وأن يستكثروا من الأموال في البلاد المفتوحة فيطغوا ، فيكونوا لغيرهم مثلاً سيئا يضر بالدولة الناشئة . فلما ولي عثمان لم يأخذ المهاجرين بالذي كان يأخذهم به عمر ، لأنه رأى قريشاً ملت هذه الشدة في آخر عهد الفاروق . لذلك خلى عثمان عن المهاجرين وأباح لهم من الحرية في التنقل في أنحاء الامبراطورية ما كان محظوراً عليهم ، فانساحوا في الأقطار ورأوا الدنيا ورآهم الناس واضطربوا في البلاد وأخذوا من أنعم الحياة بالنصيب الوافر ، فحبّب ذلك إليهم حكومة عثمان وآثروا خفضها ولينها على ما اضطرهم إليه عمر من زهد وتقشف ..

لم يفكر أحد في مؤاخذة عثمان بما في هذه الإباحة من مخالفة لسنة الخليفتين من قبله . فالناس إنما يثورون بالحاكم ويلتمسون المنطق الذي يسوغون به ثورتهم حين لا يُرضي مطالبهم وأهواءهم أكثر مما يثورون به

إذا تردد الرأي في تصرفاته بما يحقق المصلحة العامة وما لا يحققها . ذلك شأنهم في كل أمة وكل عصر . وقد كان للمسلمين في رقعة الامبراطورية الفسيحة لأول عهد عثمان ما يكفل لمن شاء منهم ما شاء من رخاء ورفه عيش . وقد منعهم عمر من المتاع بهذا الرخاء وطال بهم هذا المنع فملت نفوسهم هذه الشدة ولم يبق لها ما يسوغها . أما وقد أباح لهم عثمان ما ترضاه نفوسهم فهم عن عثمان راضون وإن خالف سنة الخليفتين من قبله . فإنما أملت تصرفات أبي بكر وعمر في هذا الأمر أحداث لم يبق لها على الزمان وجود .

لم يكن عثمان يستطيع أن يلزم الناس من التقشف والزهادة ما كان يفرضه عمر عليهم ، ذلك لأن عمر كان متقشفاً شديد القسوة بنفسه ، وكان يرى من الواجب عليه أن يَشعُر بشعور الضعيف والبائس والمحروم . وكان يقدر على احتمال هذه القسوة بنفسه لما حباه الله من صحة وقوة . ولأنه كان يوم ولي أمر المؤمنين في الخمسين من عمره . وكان صلباً شديد المراس فلم يكن لأحد من رعيته أن يلومه إذا هو طالب غيره أن يحذو حذوه ، وأن يتأسى بسيرته . أما عثمان فكان في ذلك كله نقيض عمر . ولي الأمر وقد ناهز السبعين أو جاوزها . وقد كان ، حتى في شبابه وفتوته ، يحب لين العيش ، يطعم أطايب الطعام ويلبس فاخر الثياب ويتختم ويشد أسنانه بالذهب . وكان له من سعة المال ما يدفع عنه ، بعد أن ولى الأمر ، كل شبهة في الأخذ لنفسه من أرزاق المسلمين . أما وذلك شأنه فلم يكن في وسعه أن يمنع المهاجرين أو غير المهاجرين من أن يمشوا في مناكب الأرض وأن يأكلوا مما رزقهم الله حلالاً طيباً » .

قال المسعودي في المروج :

« وفي أيام عثمان إقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة ، وابتنى دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية

وما عُلم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية ؛ وبلغ ثمن ملك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلّف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخِططاً كثيرة ، وكذلك طلحة ابن عبيد الله التميمي ، ابتنى داره بالكوفة في الكُناسة المشهورة في هذا الوقت بدار الطلحيين ، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة ، وبناها بالجص والآجر والصاج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري إبتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وبلغ بعد وفاته الربع من ماله أربعة وثمانين ألف دينار ؛ وقد ذكر سعيد بن المسيِّب أن زيد بن ثابت حين مات خلَّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار ؛ وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجُرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، كما جعلها مجصصة الظاهر والباطن وهذا الباب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه فيما تُملِك من الأموال ، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة » .

ورواية المسعودي هذه « كما يقول كاتبوا السيرة » تَذكُر أعلاماً من أجلاء الصحابة الذين لا ترتفع الشبهة إليهم ، لفضلهم ، وتقواهم لِلهِ تعالى ، وعرفانهم بحقوق هذه الأموال ، وتَوفِيتِهم لتلك الحقوق ، وما كان هذا الثراء الغامر ، والمال الفياض ليُغيِّر من طهارة نفوسهم شيئاً ؛ ولقد كان لكثير من الصحابة ممن ذكر المسعودي وممن لم يذكر مثل هذا الثراء العظيم في حياة رسول الله ﷺ ، فكان أعظم عون على نشر الدعوة الإسلامية والجهاد في سبيل الله ولكن النظرة الحائرة إنما تكون فيمن ملك من المال ما ملأ به يديه ، واتسعت به الدنيا ، ولم يصقل الإيمان نفسه ، ولم تهذبه التقوى من مسلمة الفتوحات ، وأعراب البادية وجفاتها ، وأبناء الأمم المترفة من الدخلاء على الإسلام أو الذين في نفوسهم مرض ممن فُتحت بلادهم ،

أو المنافقين الذين كانوا يسعون في الأرض فساداً بما يثيرونه من أسباب الفتن أو يحاولون تحوير مقاصده وأهدافه الخيرة التي كان عثمان يرمي إليها ورضى بها صحابة رسول الله ﷺ .

ويقول كاتبوا السيرة :

ومن عجيب الأمر وغامض الحكمة أن هذه الصفات التي كانت دعائم محبة لعثمان في قلوب الناس ؛ هي نفسها التي كانت نوافذ الأحداث الكارثة والعظائم القاصمة ، فوداعة عثمان ولينه وتعطفه ورأفته وحلمه ، جاءت بعد قسوة عمر وشدته ، فعمر بن الخطاب يخفق رأس سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وأحد أعضاء مجلس الشورى المرشحين لمنصب الخلافة ، لأن سعداً زاحم الناس وتخطى إلى عمر ، فأراد عمر أن يُريه أن سلطان الله لا يهاب أحداً ؛ ولين عثمان وحلمه أطمعا جهجاها الغفاري في أن يأخذ من يد عثمان وهو على المنبر عصا رسول الله ﷺ التي كان يخطب عليها ، فيكسرها ؛ وحلم عثمان رضي لعبد الرحمن بن عوف أن يرد هبته وهو خليفة المسلمين بغير إذنه ؛ ذكر الطبري : أن إبلا من إبل الصدقة قدم بها على عثمان ، فوهبها بعض ولد الحكم بن أبي العاص ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره » .

هذا فعل الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مع عثمان رحمه الله في حين لم يكن يجرؤ أحد أن يخالف عمر رضي الله عنه فقد روى الطبري في تاريخه :

أن عمر رضي الله عنه جاءه مال ، فجلس يقسمه بين الناس فازدحموا عليه ، فأقبل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يزاحم الناس حتى خلَص إليه ، فعلاه عمر بالدّرة ، وقال : أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض ، فأحببت أن أُعْلِمك أن سلطان الله لن يهابك .

وذكر ابن الجوزي : أن عمر قدم مكة ، فأقبل أهلها يسعون ؛ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن أبا سفيان ابتني دارا فحبس عنا مسيل الماء ليهدم منازلنا ، فأقبل عمر ومعه الدّرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً ، فقال عمر : إرفع هذا ، فرفعه ثم قال : وهذا ، وهذا ؛ حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال : « الحمد الله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه » .

رحم الله عمر وعثمان .. ورضى عنهما وعن الصحابة جميعا فقد اجتهدوا ونصحوا لله ولرسوله وللمؤمنين .

أفطر معنا غداً .. يا عثمان .. !!

.. يقول الحق سبحانه وتعالى فى محكم كتابه : ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كتاب** ﴾ كما يقول عز من قائل : ﴿ **وما كان لِنَفْسٍ أن تموت إلا بإذن اللّهِ كتاباً مُؤَجَّلاً** ﴾ (آل عمران : آية ١٤٥) .

..« ولقد بشر الرسول صلوات الله وسلامه عليه عثمان بن عفان بالجنة على بلوى تصيبه .. ولهذا فانا ونحن نصحب الخليفة الثالث فى المرحلة الأخيرة من سيرته التى انتهت بقتله لا نريد أن نخوض فى كثير من المرويات المختلف عليها أو التفاصيل المزعومة فكل تلك أسباب افتعلها المشاكسون لإشعال نار الفتنة المقدرة . بعد أن دخل المفسدون فى صفوف المسلمين والشباب منهم خاصة . وكثر الدخلاء من العجم والمنافقين عالم الإسلام وهم يحملون الحقد فى نفوسهم عليه وعلى أبطاله . وهو ما أنبأ عنه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى أكثر من حديث وأكثر من مناسبة .. تأكدت فى البداية بأغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. ثم بقتل عثمان .. ثم باغتيال الإمام عليّ رضى الله عنهم جميعاً .

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنهما :

« أشرفَ النبيّ ﷺ على أُطُم ــ أي مُرتَفَع ــ من آطام المدينة وقال : هل ترون ما أرى .. ؟

قال أصحابه الذين كانوا معه : لا ..

قال : فإني لأرى مَواقِعَ الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » .. !!

ويقول عبد الله بن عمر .. رضي الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ :

« إذا مشت أمتي المطَيْطاء ــ أي الخُيلاء ــ وخدَمتْها أبناء الملوك ، فارس والروم ، سُلِّط شرارها على خيارها » ..

ويعلق شارح للحديث على ذلك فيقول :

والرسول بهذا ، يُشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم ، ويُهيِّئ نفوسهم لتأخذ جِذْرَها ، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما سلّحها به الإسلام من فضائل وثبات ..

ويقول الكاتب الإسلامى خالد محمد خالد فى كتابه « وداعاً عثمان » :

.. والحق أن الفتن التي تعرض لها الإسلام والمسلمون في عهد الخليفة « عثمان » والتي فرضتها حركة التاريخ عليه فرضا ، دون أن تكون له يد في إزجائها ، ما كان في وُسع أحد أن يدفعها ؛ فإن امتدادها لم يكن عملا فردياً ، بل صار عملاً جماعيًّا شاركتْ فيه جميع القُوى التي خضَد الإسلام شوكتها .

فاليهود الذين أُجْلُوا عن المدينة ، وشتَّتهم غدرهم في البلاد ..

والإمبراطورية الرومانية التي فَرَطَ الإسلام عِقدها ، وكنس نفوذها بعيداً عن البلاد التي كانت تحتلّها وتستعمرها ، ودفعها داخل حدودها الضيقة ..

والإمبراطورية الفارسية التي صُنع بها مثلما صنع بالروم ، والتي خسرت كل مصالحها وكُنوزها وأساطين قادتها العسكريين ..

كل هؤلاء . لم تجف دماء أحقادهم على الإسلام وعلى دولته الناهضة في شموخ عظيم . ولم يهدأ نَعيب الثأر في أنفسهم إلا ريثما تواتيه الفرصة . في يوم راحوا يُعِدُّون له ، ويتهيَّأون ..

ولقد جاءتهم الفرصة في مقتل « عمر » أمير المؤمنين .

من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيراً من البلاد التي كانت الإمبراطوريتان قد خسرتاها في حروبهما السابقة مع الإسلام .

ولم يكن تمرداً داخليًا من أهل تلك البلاد الذين كانوا ـــ كما أسلفنا من قبل ـــ قد فرحوا بمقدم الإسلام إليهم فرحاً عظيمًا ، حتى الذين لم يعتنقوه منهم .. إنما كان تحريضاً من الروم والفرس لبعض العناصر التي أفقدها الإسلام نفوذها وسلطانها ، كما كان في حالات أخرى هجوماً مباشرًا من جيوش الروم والفرس على تلك البلاد ..

وكما تحرَّك هؤلاء من الخارج ، فقد تحرَّك اليهود من الداخل .. ولم يكن عَبثاً ولا صُدْفة أن يَفِدَ من اليمن إلى المدينة في عهد « عثمان » يهودي اسمه ـــ عبد الله بن سبأ ـــ وكُنيتُه ـــ ابن السوداء ـــ حيث انتحل الإسلام .. ثم انتحل الغيرة الشديدة على قِيَمِه وحُرُماته ..

وفي المدينة ألْقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبأ ..

سمع نقداً بريئاً يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء ، فراح يتتبعه . ليجمع من شتاته صحيفة اتهام !!

ومضى يدرس في صمت ودهاء كل جوانب الحياة في المدينة ، ويفحص مواطن الضعف والقوة ، ويتسمَّع أخبار الأقاليم والأمصار ، ويتبين أقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة ..

حتى إذا جمع مادّته ، وعرف طريقه ، وأتمَّ رسم خُطّته ، شرع على الفور في العمل والإنجاز ..!

وأدرك ـــ ابن سبأ ـــ أنه لكي ينشر الاضطراب في الدولة والأمة ، عليه أن يوجه مُبادرته الأولى إلى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة

للمسلمين ؛ ولكي يتيسر له ذلك ، لابد أن يرفع في وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهي الخليفة في جلاله وأسبقيته ..

هنالك بدأ نفثاته المسمومة بهذه العبارة :

ــ (إن لكل نبي وصياً ، وإن « عليًّا » وَصيٌّ « الرسول » . ولقد وثب « عثمان » على أمر هذه الأمة ، وأخذ الحق من صاحبه) .. !!

وراح يُزكّي دعوته هذه ، بطائفة من الأحاديث التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أطْرَى بها « عليًّا » وزكّاه ؛ مثل قوله عليه السلام .

« مَن كنتُ مولاه ، فَعَلِيٌّ مولاه » .

وتمضى كتب السيرة فتقول : إن ابن السوداء لم يكتف بما بثه فى المدينة من سموم وما أثاره من فتن وإنما انتقل من المدينة إلى البصرة وأخذ يدعو بدعوته تلك ويقول :

« عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد ... » .

« عجباً لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يُقْصَوْن عن أمركم » .

فبلغ أمير البصرة أمره وكان عليها عبد الله بن عامر فاستدعاه وسأله من أنت ؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك .

فقال له : أنه بلغني عنك من الكلام كذا ، وكذا .. فاخرج عني .

فخرج عنه إلى الكوفة وبدأ يتحرك فيها ثم أُخرج منها عندما عرف خبره ... فذهب إلى مصر . وفي مصر أخذ يبيض ويُفرخ وتبعه على رأيه

أقوام ممن فسد دينهم واتبعوا أهواءهم ، أو انساقوا وراء ما طغتهم على جهْلٍ منهم .

واستطاع أن يكوِّن في كل بلد جماعة تقول بأقواله وصاروا يكتبون لبعضهم الكتب ويضمنونها قصصاً عن مظالم ومفاسد كلها كذب وبهتان وغايتهم في ذلك تصوير الشر والفساد ليهوِّلوا الأمور ويثيروا الشعب ويعبئوا القلوب على كره الخليفة وولاته .

فكانت هذه الكتب تتسرب وتُقرأ على عامة الناس فيقول أهل البلد إنَّا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ... وذاع في كل مكان أن المفاسد والبلايا قد عمت ... وأصبح أصحاب كل قطر يتصورون بأن الأقطار الأخرى تعاني من الظلم والفساد وسوء الحال إلا قطرهم ، لأنهم لا يرون شيئاً من ذلك .

ووصلت الأخبار السيئة إلى المدينة وإلى الصحابة وإلى عثمان بن عفَّان فجمع عثمان مَنْ في المدينة من أهل الرأي وشاورهم في الأمر فوصلوا إلى رأي وهو أن يرسل عثمان إلى الأقطار أشخاصاً ليتحقق من الشائعات والمظالم والمفاسد المنتشرة ...

فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وآخرين إلى بعض البلاد ....

فقام هؤلاء الرجال بجوْلة واسعة وحققوا واختلطوا بالناس ثم عادوا وقدَّموا لعثمان رضي الله عنه ما رأوه وما لمسوه وكانت خلاصته :

« انه لا يوجد مما يقال من المظالم والمفاسد شيء يذكر ولا من المساوىء الموهومة أثر يَلْفِتُ النظر ... وليس هناك ما يستوجب عزل أمير من الأمراء ... » .

ومن الملاحظ أن الجميع عادوا بهذه الصورة وجاءوا بوقت واحد تقريباً ما عدا عمار بن ياسر فقد تأخر عنهم ثم عاد بعد ذلك .

ولقد شعر عثمان وشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد استماعهم لتقارير الرجال المرسلين أن هناك مؤامرات ودسائس تُحاك في الخفاء . فضاعف عثمان جهوده لقطع الطريق على المتآمرين وأرسل إلى ولاته في كل قطر رسالة وأمرهم أن يقرؤوها على الناس ومضمونها :

« أما بعد ، فإني طلبت من عُمَّالي أن يوافوني كل موسم وقد أمرت الناس منذ وُلِّيت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يُرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته . وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم . وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقواماً يُضربون وآخرين يشتمون .. فمن ادَّعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي . أو ليتصدق فإنَّ الله يجزي المتصدقين » .

فلما قُرئت الرسالة في الأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان بالخير .

ولقد أتى الناس في موسم الحج وجاء الأمراء واجتمع بهم عثمان وسألهم عن أوضاع الناس وعن رأيهم في الشائعات وأدلى كل أمير برأيه . وكانت نصيحة أكثرهم أن يستعمل الشدة مع هؤلاء المفسدين . ولم يرفض عثمان رأيهم لكنه ــ وهو الخليفة الراشد ــ لا يأخذ الناس بالشبهة . ويميل إلى سياستهم بالرفق والحجة والإقناع وكان يخشى من الشدة أن تفتح أبواب الفتنة وهو يشفق منها أن تُفتح على يديه أو بوجوده على قيد الحياة . لذلك قال لهم :

« إنَّ رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ...

كفكفوا الناس وهَبُوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم ... وإذا تعوطيت[1] حقوق الله فلا تَدْهنوا[2] فيها ».

ثم ودع الأمراء وساروا إلى بلادهم ..

وقبل أن يغادر معاوية ــ وكان من بين المستشارين ــ عرض على عثمان رضى الله عنه رأيه بقوله :

.. انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجُم عليك من لا قبل لك به . فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا ؛ فقال له عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي ؛ فقال له معاوية : فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك ؟ فقال عثمان : أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم ، وأضيق على أهل الهجرة والنصرة ؟ فقال معاوية : والله يا أمير المؤمنين لتُغتالنّ أو لتُغزين ؛ قال عثمان رضي الله عنه : حسبي الله ونعم الوكيل .

وكان ابن سبأ قد أقنع أتباعه بأفكاره وأوصاهم أن ينفذوا ما يريدون تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأقنعهم كذلك أن يسيروا إلى المدينة ليحاجوا عثمان في المظالم ــ على زعمهم ــ ويذكروا له أخطاءه التي لفقوها ويحملوه على الاعتراف بها والتنازل عن الخلافة ، فإن تاب ولم يتنازل عن الخلافة خرجوا إلى الناس وزعموا أنه لم يتُب واستحلوا دمه في ذلك فيتولى الخلافة من هو أحق منه . وكان قد أقنع أهل مصر بأن عليا أحق بالخلافة ، وأقنع أهل الكوفة بأنَّ الزبير أحق بالخلافة ، وأقنع أهل البصرة أن طلحة أحق بالخلافة . فإذا تمّ قتل عثمان اختلف الناس فيما بينهم فتبقى الفتنة قائمة بين المسلمين .

---

(١) تعوطيت حقوق الله : انتهكت حقوق الله .

(٢) لا تدهنوا : لا تلينوا .

هذه هي خطة ابن السوداء قاتله الله وقاتل الله اليهود فإنهم منبع الكيد والخبث والمكر .

وهكذا خرج من كل قطر من الأقطار الكبيرة ما يقارب ألف شخص لهذا الغرض واتجهوا إلى المدينة في موعد واحد متقارب ليلتقوا وينفذوا ما يريدون .

وقبيل وصولهم إلى المدينة أرسل كل جماعة منهم وفداً إلى صاحبهم فأرسل أهل مصر إلى علي وأرسل أهل البصرة إلى طلحة وأرسل أهل الكوفة إلى الزبير وكانت غاية الوفود أن يستأذنوا لهم من عثمان ليطالبوه برفع المظالم وبعض الأمور الأخرى .

لكن هؤلاء الصحابة ردوهم وطردوهم وعرفوا مقصدهم وأنهم لا يريدون إلا الفتنة .

وتذكر بعض الروايات أنهم جادلوهم وأقنعوهم وردوا على جميع الافتراءات مما جعلهم يرجعون إلى أصحابهم ومن ثم إلى بلادهم وتذكر بعض الروايات أن عثمان خرج بنفسه إلى هؤلاء الناس ودعاهم إلى الاحتكام إلى كتاب الله .. فاحتكموا وردَّ عليهم كثيراً من التُهم الباطلة وأقنعهم بذلك ... وأقرّهم على أخطاء يسيرة وقعت ... وعاهدوه على أن لا يشُقّوا عصا الطاعة ولا يفارقوا الجماعة ».

ثم غادروا أماكنهم باتجاه بلدانهم كل حسب جهته وظن المسلمون فى المدينة أن الأمر قد إنتهى وأن الفتنة قد إنكمشت .. ولكن أنّى للمسعور أن يهدأ قبل أن يفترس ضحيته ... ويا أمان الخائفين .

مؤامرة وخداع

.. **عاد** الذين سمعوا من عثمان ومن الصحابة رضوان الله عليهم .. ولكنَّ مَنْ وراءَهم لم يُرضهم ذلك .. إذ تقول كتب السيرة في أقصر الروايات :

بعد أن ردَّ الصحابة وردَّ عثمان على افتراء المفسدين ، وأظهروا قناعتهم وغادروا المدينة ، واطمأن أهلها وتفرقوا .. حدثت المفاجأة!..

وهي أن تلك الوفود من الأقطار الثلاثة «وكما تقول كتب السيرة» عادوا إلى المدينة مرة ثانية ، وارتاع أهل المدينة عندما سمعوا التكبير والصياح وصلصلة السلاح والتهديد والوعيد .. ولزموا بيوتهم . وانطلق علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة ، وطلحة ومعهم بعض الناس وقالوا للمفسدين :

ما شأنكم ؟!

ولماذا عدتم بعد ذهابكم ؟؟!!

ــ (وكانوا خلال تفاوضهم السالف ذكره مع عثمان قد شكوا إليه الوالي عبد الله بن أبي السرح فأجابهم إلى طلبهم وعزله وولى بدلًا عنه محمد ابن أبي بكر كما اقترحوا عليه وانطلقوا إلى بلادهم) ــ

فقال أهل مصر لعلي ومن معه : لقد أمر عثمان بقتلنا وذلك أننا بعد أن سرنا ثلاثة أيام في طريقنا إلى مصر شاهدنا غلاماً أسود على بعير يبتعد تارة ويقترب أخرى ، فقلنا : إن لهذا الغلام لشأناً فأمسكناه وسألناه فأجابنا : أنا غلام أمير المؤمنين وجَّهني إلى عامله بمصر .. فقلنا هذا عامل مصر معنا . فقال : ليس هذا الذي أريد فأخبرنا بأمره محمد بن أبي بكر . فبعث في طلبه فأتينا به إليه فقال له : بم أرسلت إلى العامل ؟ فقال : برسالة ففتشناه فوجدنا الرسالة وفيها :

إذا جاءك محمد وفلان وفلان فاحْتَلْ لقتلهم وأبطل كتابهم وقِر على عملك حتى يأتيك رأيي .

وعندما قرأنا الكتاب وعرفنا أنه أمر بقتلنا رجعنا لنقتص منه فقد خان الله ورسوله وخان العهد الذي أعطاه لنا بل أمر بقتلنا .

وقال أهل البصرة عندما سُئلوا عن عودتهم : جئنا لننصر إخواننا أهل مصر .

وقال أهل الكوفة كذلك : جئنا لننصر إخواننا أهل مصر .

فقال علي رضي الله عنه ومحمد بن مسلمة لأهل البصرة والكوفة :

كيف علمتم بما لقي إخوانكم أهل مصر وكل منكم يمشي في طريق ؟؟!!

إن هذا أمر أُبْرم في المدينة .. واتُّفق عليه بليل .

وإذ بهم يردون على عليٍّ رضي الله عنه ومن معه ويقولون لهم :

اجعلوه كيف شئتم .. لا حاجة لنا في هذا الرجل .. ليعتزلنا !!

ولم تطل المحاورة كثيراً فقد ذهبوا إلى عثمان جميعاً ليسألوه عن الكتاب .

ولما وصلوا إليه وسألوه قال :

« والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت ولا وجهت إلى مصر غلاماً .. » .

وعثمان مصدق فيما يقول لذلك مالوا إلى طريقة جديدة وهو أنهم اتهموا مروان بن الحكم وطلبوا من عثمان أن يُسلِمهم مروان لأنه هو الذي كتب الكتاب سراً ووضع الختم عليه .. بزعمهم .. فرفض عثمان تسليم مروان لأنه خشي عليه أن يقتلوه .

فهاج الثائرون وتجمعوا حول البيت .

وقصة الكتاب « كما يقول كاتبوا السيرة » باطلة من أساسها وإنما هي أحد احتمالين :

الإحتمال الأول

أن لا يكون هناك بريد ولا غلام وإنما هي أكذوبة افتروها ليُحققوا ما يريدون واتفقوا عليها وهم في المدينة ثم خرجوا منها وعادوا وتصايحوا في طرقاتها ليحكموا الخطة وليثبتوا الإشاعة وليكون لهم ما يبرر أي تصرف يتصرفونه .

الإحتمال الثاني

أن يكون هناك بريد وكتاب وفيه ما فيه من الأمر بالقتل .. لكن ذلك الكتاب لم يكتبه غير المفسدين أنفسهم .. وقد زوروا الختم والتوقيع وأثبتوه على الكتاب لتتم الرواية .. وسرقوا جملًا من إبل الصدقة .. وأغْرَوْا غلاماً لعثمان أو لمروان .. ليحمل الكتاب ويمشي في طريق الركب ليراه الناس فتتم التمثيلية بإخراج رائع .

يقترب الغلام ويبتعد .

وعند سؤال الغلام يقول : أنا لأمير المؤمنين أرسلني لعامله على مصر برسالة .

وليس المقصود العامل الذي معكم وإنما عبد الله ابن أبي السرح بالذات .

فتشوا الغلام ..

وجدوا الرسالة وفيها قتل محمد ومن معه من رؤساء القوم .. ومن ثم رجوع القوم واتهام عثمان بالخيانة ورجوع أهل البصرة والكوفة لنصرة أهل مصر فمن أخبرهم ..؟؟!! وكيف علموا بما جرى ؟؟!!

إن القصة من أساسها ملفقة ويظهر كذبها من تفاصيلها . وكأنهم اتفقوا على العودة بعد الذهاب لتنفيذ ما يريدون واخترعوا هذه القصة ونفذوها ليحملوا ابن أبي بكر ومن معه من المُغَرَّرِ بهم على الهياج أو على الأقل على عدم الدفاع عن الخليفة إذا أرادوا فعل شيء به . فاجْتمعوا حول بيت عثمان وأخذوا يحاورونه ثم طلبوا منه أن يعتزل الخلافة ويتخلى عن المسئولية .

فقال لهم عثمان بعد أن فكر بالأمر: « لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله » .

لكنهم كرروا الحوار وشددوا في الكلام وأحس الصحابة بالخطر فنهضوا لحماية عثمان وحملوا السلاح وأرسلوا إليه ليستأذنوه في ذلك .

فهل قبل عثمان الحماية ؟

وهل قبل عثمان رفع السلاح في وجوه هؤلاء المفسدين المعتدين ؟؟؟

وكيف تم الحصار ؟؟»

بداية النهاية

لقد استطاع أهل الفتنة أن يبثوا مزاعمهم بين الناس حتى فيما يختص بالتاريخ الذي صاحب فيه عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ وبلغ من رضائه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اللهم انني راض عن عثمان فأرض عنه » « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » وغير ذلك من الأحاديث الثابتة .

حتى عن تلك الفترة حاول الذين في قلوبهم مرض أن يدسوا على عثمان رضي الله عنه ويزوِّروا تاريخه لعامة الناس .. وللذين لم يشهدوا تاريخ تلك الفترة ولم يسعدوا بصحبة الرسول ﷺ .

روى البخاري في صحيحه قال :

« جاء رجل من أهل مصر ، حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال : من هؤلاء القوم ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبد الله بن عمر ، قال : يا ابن عمر ، إني سائلك عن شيء ، فحدثني عنه ، قال : هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد ؟ قال : نعم ، فقال : هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم ، قال : هل تعلم أنه تغيَّب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم ؛ قال : الله أكبر . قال ابن عمر : تعال أُبَيِّنْ لك ، أما فِراره يوم أحد فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفر له ؛ وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه » وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى ، هذه يد عثمان فضرب بها على يده ، وقال هذه لعثمان ، ثم قال ابن عمر : اذهب بها الآن معك ».

وجاء في مشكاة المصابيح برواية الترمذي عن (عبد الله بن سلام) أنه دخل على عثمان وهو محصور فسلم عليه ورد عليه ، وقال ما جاء بك يا عبد الله بن سلام ؟ قال جئت لأثبت حتى أستشهد أو يفتح الله لك ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قاتلوك ، فإن يقتلوك فذاك خير لك وشر لهم ، فقال عثمان : أسألك بالذي لي عليك من الحق لما خرجت إليهم خير يسوقه الله بك أو شر يدفعه الله بك ، فسمع وأطاع فخرج عليهم ، فلما رأوه اجتمعوا وظنوا أنه جاءهم ببعض ما يسُرون به ، فقام خطيباً وقال في جملة خطبته :

إنه لم يُقتل نبي فيما مضى إلا قُتل به سبعون ألف مقاتل ، ولا قتل خليفة قط إلا قُتل به خمسة وثلاثون ألف مقاتل فلا تعجلوا على هذا الشيخ

بقتل ، فوالله لا يقتله رجل منكم إلا لقي الله يوم القيامة ويده مقطوعة مسلولة ، واعلموا أنه ليس لوالد على ولد حق إلا ولهذا الشيخ عليكم مثله » ، فقاموا وقالوا : كذبت اليهود ، فقال كذبتم والله ما أنا بيهودي ، وإني لأحد المسلمين يعلم الله بذلك ورسوله والمؤمنون ، وقد أنزل الله في القرآن : ﴿ **قُلْ كَفَى باللّهِ شهيداً بيني وبينكم ومن عنده عِلْمُ الكتاب** ﴾ (الرعد : آية ٤٣) ﴿ **قل أرأيتُمْ إن كانَ من عند اللّهِ وكفرتُمْ به وَشَهِدَ شَاهِدٌ من بني إسرائيلَ على مثله فآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ (الأحقاف : آية ١٠) فقاموا ودخلوا على عثمان فذبحوه ، فخرج عبد الله بن سلام فقام على راحلته فقال : « يا أهل مصر يا قتلة عثمان ، قتلتم أمير المؤمنين ، أما والله لا يزال عهد منكوث ودم مسفوح ومال مقسوم » .

وعن جابر : « أتى النبي ﷺ بجنازة رجل ليُصلي عليه ، فلم يصل عليه ، فقيل يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا ، قال إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله » .

وعن ابن عمر : « أن النبي ﷺ ذكر فتنة وقال يُقتل هذا فيها مظلوماً يعني عثمان » هما للترمذي .

وعن عائشة : « رفعته : يا عثمان : إن ولاك الله هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمّصك الله فلا تخلعه ، يقول ذلك ثلاث مرات ، قال النعمان بن بشير : فقلت لعائشة مامنعك أن تعلمي الناس بهذا قالت أُنسيته والله » .

ثبات الإيمان

.. **نسي** المتمردون ومن صنع الفتنة كل ذلك وتجرهموا على الله ورسوله والخليفة الذي ارتضاه المؤمنون الصالحون ..

وأخرج الثوار « كما يقول كاتبوا السيرة » ورقتهم الأخيرة ، ورفعوا عَقَائِرَهَم في جرأة ضارية « إما اعتزال عثمان ، وإما قتله » ..

وفي ثبات مذهل ، رفض الخليفة أن يعتزل ..

لماذا ؟ أحرصاً على مجد المنصب وجاهه ..؟؟

ألا فَلْنَسأل طبائع البشر ، مُذ وجد أبو البشر « آدم » حتى يومنا هذا .. أيمكن لرجل جاوز الثمانين ، أن يستبدَّ به طموح تحيط به الأخطار والمهالك على هذا النحو المزَلْزِل الرهيب ..؟؟!!

لقد رفض « عثمان » إذن أن يعتزل ، لأنه « رجل مسؤليات » من طراز فريد ..!!

كما رفض النجاة من سيوف قاتليه ، إذا كان ثمن هذه النجاة قطرات دم تُسْفَح من مسلم بريء ..!!

يدخل عليه « زيد بن ثابت » وقد رأى الثوار يتنادون لحصار داره فيقول له :

« يا أمير المؤمنين .. هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : **إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين** ..»

فيجيبه الخليفة الرحيم : « أما القتال ، فلا ..» !!

ويصيح في الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح :

« إن أعظمكم عني غَناءً ، رجل كفَّ يده وسلاحه » ..!!

ويرى أبا هريرة شاهراً سلاحه في اهتياج شديد ، فيدعوه إليه ويقول له :

« أيسُرُّك أن تقتل الناس جميعاً وأنا معهم ..؟

« أما إنك والله لو قتلت رجلا واحداً ، لكأنما قتلت الناس جميعاً » ..!!

وحين يعلم أن عُصْبة كبيرة من شباب المسلمين وعلى رأسهم الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، قد أخذوا مكانهم لحراسته ، وشهروا سلاحهم ، يتفطر قلبه أسى ، ويدعوهم إليه ويتوسل إليهم قائلا :

« أُناشِدكم الله وأسألكم به ، ألَّا يُراق بسببي مِحْجَنَ دم » ..!!!

وهذا خُلُق كان مخبوءاً تحت ستار تواضعه وحيائه ، وما كنا سنراه متألقاً كرابعة النهار ، إلا في أزمة كهذه .. ومحنة كهذه .. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم ..!!!

لقد ذَكَرَ وَصِية كان الرسول قد أوصاه بها :

« يا عثمان ..

« إذا الله كساك يوماً سربالًا ، وأرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه لظالم » ..

ولقد كساه الله « سربال الخلافة » ..

وها هم أولاء المتمردون الظالمون ، يريدون بقوة السلاح الأثيم في أيديهم ، أن يكرهوه على خَلْعِهِ ..

أفيرْضَخُ لهم ..؟؟

أفَيُسلم مصاير الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابة مفتونة ..؟؟

لا ..

ولكي يستوثق من سلامة موقفه وسداده ، أرسل إلى رجل من خيار أصحاب الرسول يستشيره ، ذلكم هو .. « عبد الله بن عمر » رضي الله عنه ..

وَلْنُصْغ لـ « نافع » مولى « ابن عمر » ، ينقل إلينا الحوار الذي دار بين الخليفة ، وعبد الله ..

الخليفة : إن هؤلاء القوم يريدون خلعي ، فإن أَجَبْتُهم تركوني ، وإن أبيتُ قتلوني . فما ترى ..؟؟

— ابن عمر : أرأيتَ إن خلعتَ نفسك ، تبقى في الدنيا مخلَّداً ..؟

— الخليفة : لا ..

— ابن عمر : أرأيت إن لم تخلع نفسك ، هل يزيدون على قتلك شيئاً ..؟؟

هل يملكون الجنة والنار ..؟؟

— الخليفة : لا ..

ابن عمر : إذن ، فلا تَسُنَّ هذه السنة في الإسلام ، ولا تخلع قميصاً ألبسكه الله ..!!

وإنا لنكاد نرى الفرحة تترقرق في مُحَيَّا الخليفة . وهو يستمع لهذه الكلمات ، يَشُدُّ أَزْرَهُ بها صحابي جليل مثل « عبد الله بن عمر » ..!!!

ولكنه إذا كان قد وَطّد عزمه على التضحية بحياته في سبيل كرامة الدولة وكيانها ، فإنه لم يتقاعس عن بذل كل جهد مستطاع لإقناع المتمردين بإلقاء سلاحهم ، والتخلي عن إباقِهم ..

وفي ذلك ، كان يلجأ إلى « الإمام علي » كرم الله وجهه كثيراً بل دائماً ..

والحق أن « الإمام » تحمل في تلك الفتن فوق طاقته .. وكانت الرياح الهُوج التي يثيرها المتمردون من جانب ، ومروان من جانب آخر ، تتحدَّى زورقه المستبسل الوديع ، وتعصف بمحاولاته النبيلة .. بيد أنه لم

ييأس ، وظل يغالب العاصفة ، ويُغَطِّي بحواره المقنع زئيرها ، ولكن الفتنة كانت قد جاوزت كل حدود التعقل ، واحتلَّت أعصابا متوترة إلى أقصى درجات التوتر ، فلم يعد للحكمة ولا للإقناع مكان »..

ويضيف كاتبوا السيرة :

لقد أحكم المتمردون حصارهم القاسي حول دار الخليفة ، فمنعوه زُوَّاره .. ومنعوه الماء .. الماء الذي تتفجر به « بئر رُومة » التي اشتراها من خالص ماله في أوائل أيام الهجرة إلى المدينة ، وجعلها هدية منه للمسلمين !!!

ولم يَكْفِ بعض زعماء الفتنة ما أنزلوه بالخليفة من أحزان ، حين توقّحوا عليه بشتائم بذيئة على مَلأ من الناس ..!!

ولم يكفهم تهجُّم أحدهم عليه ، وهو فوق منبر رسول الله يتهيّأ لإلقاء خطبة الجمعة ..!!

لقد غَرّهم حِلْمُه ، وَأَغْرَتْهمْ مُصَابرته ..

ظنُّوا .. وكان ظنَّ السّوء .. أن وراء هذا الحلم وهذه المصابرة ، حرص الخليفة على الخلافة ، وعلى الحياة ، ولم يعلموا ، أو لعَلَّهم علموا وتجاهلوا ، أن وراء حلمه ومصابرته ، إدراكه الثاقب للمصير الفاجع الذي سيحيق بالأمة وبالدولة ، إذا هُمَ تَسَوَّرُوا حُرمات السُّلْطَة ، واغتالوا حياة الخليفة ..!!

ولقد قال لهم ذلك من قبل :

« .. إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمري ..

أما والله لَئِنْ فَارَقْتُهم لَيَتمنَّوْن لو أن عمري طال فيهم كل يوم بسنة .. وذلك مما يَرَوْن من الدماء المسفوكة » ..!!

كان إدراكه الثاقب لهذا المصير الذي تحققت فيه نُبوءَتُه ، هوالذي يحمله على المصابرة .. بل وعلى التوسُّل ، كي يتخلى الثوار عن فتنتهم ، ولكن زعماء الفتنة الذين عملوا لها طويلًا ، لم يكن يُرضيهم إلا تفجير الأحقاد الناسِفة ، لتسقط الدولة كلها كِسَفاً ..

والآن وقد أحكموا قبضتهم على زمام الموقف ، فإنهم راحوا يتهيأون للضربة الأخيرة ، فحاصروا دار الخليفة استعداداً لإنزالها ..

وطال الحصار ، ثم طال .. حتى صار أهل المدينة من طول إيلافهم له يروحون ويغدون ويحيون حياتهم العادية في رتابَتِهَا المألوفة ..

كانوا جميعاً أقرب إلى اليقين بأن شيئاً ما سوف يحدث . فتنجلي الأزمة ويرحل الثوار .

لم يكن أحد يتوقع رغم ضراوة التمرد أن يداً ستمتد إلى حياة الخليفة فتغتالها .

إنه شيخ في الثمانين من عمره ، بل جاوز الثمانين ..
وإنه من المؤمنين الأوائل المبَكِّرين ..
وإنه صِهْرُ رسول الله ..
وخليفته ..
والمبشَّر بالجنة ..
ومجهِّز جيش العسرة ..

والباذل ماله بغير حساب في سبيل الله ، ورسوله ، ودينه .. فَمَن ذا الذي لا يرعى كل هذه الحرمات ، مهما يختلف مع الخليفة في أمر أو في أمور ..؟؟!!!

من ذا الذي يحمل في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ثم يجد التهوُّر الذي يدفعه لمواجهة « عثمان » بسلاح قاتل رجيم ..!!

الحق أن اغتيال الخليفة رضوان الله عليه ، كشف تماماً عن حقيقة المؤامرة وحقيقة بعض زعمائها الواغلين .. كما كشف عن تلك الكثرة المخدوعة من الناس الذين لم تكن النوايا الحسنة تنقصهم بَيْد أنهم خُدِعوا ، وَغُرِّرَ بهم ، فساروا وراء حفنة من المتربصين بالإسلام سوءاً وأيَّ سوء..!!

قلنا : إن القلق العصبي حين يبلغ ذروته القصوى لا يجد أصحابه سبيلا للتخلص منه ، سوى مواجهة المخاوف التي سبّبته ..

ولقد سارت المجابهة القاسية حتى بلغت هذا المدى ، ولم يعد بُدٌّ من أن يتهيأ المسرح لمشهد الختام ..

في دار الخليفة كان يَقْبَعُ « مروان » مع نفر من أتباعه المسلحين .

وعلى أبوابها ، ثُلَّة كريمة من الصحابة ، خَفُّوا بسلاحهم لافتداء الخليفة .. فيهم الحسن والحسين ابنا « علي » أرسلهما أبوهما العظيم ليحرسا منافذ الدار .. وفيهم عبد الله بن الزبير .. وعبد الله بن عمر ، وآخرون ..

وخارج الدار ، وَحَوَالَيْها من كل جانب ، صفوف عريضة من الثوار المَدَجَّجِين ، تَؤُزُّهم أزًّا عنيفاً تلك الأنباء التي جاءتهم بأن معاوية أرسل قوة من جيش الشام .. وهي على مقربة من المدينة في الطريق إليها ..!!

وليس هذا فحسب بل لقد اقترب بعض الصحابة من عثمان وعرضوا عليه أن يقاتلوا المحاصرين ليفرقوهم عن البيت فمنع عثمان القتال وقال :

أعزم على كل من رأى أنَّ عليه سمعاً وطاعة إلا كَفَّ يده وسلاحه .

وكلف ابن عمر أن يبلغ الناس بأمره . وجاءه زيد بن ثابت — كما أسلفنا — فقال له :

« إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين » .

قال عثمان « لا حاجة لي في ذلك .. كفوا .. » .

ولقد رابط معه في الدار الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وبعض الشباب من الصحابة فكان عثمان يرغب من الجميع أن لا يقاتل أحد من أجله ولا يريد أن يريق أحد دمه في سبيله ولا يريد أن يريق أحد دم أحد من المحاصرين .

وأصر عثمان على موقفه في منعهم من القتال وهو يرجو أن يسمع المحاصرون كلامه ونصحه وتنتهي الأزمة بلا دماء ولا قتال .

وطلب عثمان من الحسن والحسين ومن معه أن يضعوا أسلحتهم ويلزموا بيوتهم وأغلب الظن أنه قدَّر أنهم إذا بقوا عنده ورآهم المجرمون ازدادوا عناداً وتمرداً وظنوا أن عثمان أبقاهم عنده لإثارتهم وإغاظتهم .. » .

افطار في الجنة

.. **كان** هذا الوضع في المدينة ثوار تعج بهم الأسواق .. وأحفاد رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام يحاولون دفع الشر أو الدفاع عن الخليفة رضي الله عنه والذى أصبح ذلك اليوم في عالم آخر إذ تقول كتب السيرة :

أما الخليفة ، فقد طلع عليه صباح ذلك اليوم وهو في عالم آخر ، لا يكاد يعنيه شيء من كل هذه الدنيا القائمة حوله والقاعدة ..

لقد تلقى دعوة إلى الجنة .. وهو اليوم في شُغْل بها عن كل شيء عداها ..!!

ففي الأمسية السالفة وبعد أن صلَّى من الليل ما صلَّى .. وقرأ من القرآن ما قرأ .. وألقى نفسه بين يدي ربه ضارعاً مبتهلا ، أوى إلى فراشه ونام .. وفي منامه رأى الرسول ﷺ يقول له :

« **أَفْطِرْ عندنا غداً ، يا عثمان** » !!

ما أبهجها من كلمات ، بَعَثَتْهُ في خَلْقٍ جديد !!!

وإنها لَرُؤيا حق ..

و « عثمان » أكثر الناس يقيناً بصدقها ..

وإذن ، فليس أمامه سوى وقت قصير لكي يتهيأ لموعد المصطفى ، ورحلة الخلود ..!!

سيترك للناس دنياهم ..!!

وَسَيَدَعُ للثوار تلك الجدران الأربعة التي يحاصرونها ، مُنطلقاً في عرسه العظيم إلى رحاب الله ، وجوار محمد ..!!

أصبح ذلك اليوم صائماً .. فقد كان منذ أسلم يقضي أكثر أيامه في صيام ، وكل لياليه في قيام ..

ودعا جميع الذين في داره ، وأمامها ، ممن يحملون السلاح دفاعاً عنه ، أن يُلقوا سلاحهم ، ويغادروا الدار مشكورين ، وفي رعاية الله ..

لكنهم أَبَوْا جميعاً أن يتركوا مواقعهم حوله ومعه ، لا سيما الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر ..

بيد أن أمر الخليفة وإلحاحه ، ظلا يُهيبان بكل حامل سلاح أن يلقي سلاحه ..

« إن أعظَمكُم عني غَنَاءً ، رجل كفَّ نَفْسَه ، وسلاحه » ..!

« أناشدكم الله ، ألا تُهْرِقُوا بسببي دما » ..!!

وترامى إلى سمعه هرج شديد خارج الدار . فقد أقبل من أهل المدينة ناس كثيرون ، اشتبكوا مع المتمردين ، وراحوا يحاولون إبعادهم عن دار الخليفة .. وأطل الخليفة على الجمع الحاشد من شرفة داره ، ونادى المتمردين بكلمات أخيرة ، أراد أن يبرىء ذِمَّته :

« أيها الناس ، لا تقتلوني ..

.. فوالله ، لئن قتلتموني ، لا تتحابون بعدي أبداً .. ولا تُصَلُّون جميعاً بعدي أبداً ..» !!!

وعاد إلى حجرته ، فصلى ركعتين .. ثم حمل مصحفه بيديه ، وراح يقرأ .. ويقرأ .. متأنِّقا بين آياته المحكمات ، وروضاته اليانعات ..!!

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة ، وخشوا أن تدور عليهم الدائرة ، فأمروا بمهاجمة الدار ..

لكن الثُّلَّة الطاهرة تحت إمرة الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر .. أبْلَت في صدهم بلاءاً مُعجزاً ، حتى ردتهم عن الأبواب صاغرين ..

هنالك ازداد حقدهم ضراما ، وركبتهم كل شياطين الجريمة ، فنظروا ، فإذا دار مجاورة لدار الخليفة قريبة المنال ، فقرروا أن يتسوروها ، ويتسللوا إلى مكان الخليفة منها ..

واختاروا من بينهم نفراً يقوم بالمهمة على عجل ، ونادوا « محمد بن أبي بكر » ليصحَبَهم ..

وما هي إلا دقائق معدودة ، حتى كانت الخطة قد أُنجزت ، وفجأة رأى الخليفة أمامه أولئك المتسوِّرين ، ورأى « محمد بن أبي بكر » يتقدمهم ، ويمسك لحية الخليفة بيده ويهزها متوعداً ..

وفي هدوء القدّيسين ناداه الخليفة :

« يا ابن أخي ..!!

« دَعْ لِحْيَتِي ، فوالله لقد كان أبوك يُكرمها .. ولو رآك في مكانك هذا ، لاستحيا مما تصنع » ..!!

ودارت الأرض بمحمد .. وارتدت يده في خشوع وندم ..!!

وانطلق مسرعاً خارج الدار يسوق أمامه أولئك الذين كانوا قد تَسَوَّرُوها معه ..

وعلى بابها الفسيح ، وقف يذود المهاجمين ..!!

وجن جنون ذلك النفر من زعماء الفتنة ، وهزهم موقف « محمد » هذا ، كما لم يهزهم موقف آخر .. وتراءى لهم مصيرهم الأسود ، فشدوا على الدار المجاورة شدة واحدة ، ومن فوق سورها القريب قفزوا كالذئاب الجائعة المسعورة ، واقتحموا على الخليفة خَلْوَته :

وكان آنئذ قد بلغ في تلاوته ، هذه الآية الكريمة :

﴿ الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً ، وقالوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل ﴾ (آل عمران : آية ١٧٣) ..!!

لم يُبالِ بهم ، ولعله لم يُحسّ بتقحُّمهم ، فقد كانت غبطةُ روحه ، وأنْسُه بآيات ربه ، وفرحته بمأدبة الجنة التي دُعي إليها ..

كان كل ذلك يحجب عنه أشباح الشياطين ..!!

واستمرَّ في قراءته .. بينما اندفع الجناة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء ..

لم يُقاوم ، ولم يتحرك من مجلسه ، ولم يتخلَّ عن مصحفه ..

ولم يزد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الآثمة كفه فأصابتها في صميمها :

« والله إنها لأوَّلُ يَدٍ خطَّتِ المفصَّل .. وكَتَبَتْ آي القرآن » ..!!

وحين رأى دماءه تتفجر ، فتُضمِّخ أوراق المصحف ، طواه حتى لا تطمس الدماء بعض آياته ، ثم ضمَّه وهو يُسْلِمُ الروح إلى صدره ..

وحين تمدّد جثمانه الطهور ساكنا سُكون الموت ، كان كتابُ الله لَصِيقَه .. وَصَدِيقَهُ ..!!

وَمَنْ أَوْلَى بذلك منه ..؟؟

أليس هو الذي وَحَّده ، وحفظه ، وافْتداه ..؟؟!!

كان الاغتيال الخاطف لحياته قد تم بين العصر والأصيل .

وإذن ، فأمام روحه وَقْتٌ كافٍ لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار ، في الجنة ، عند الغروب ..!!

فَلْتَعْرُج إلى بارئها .. ولْتذهَب إلى ضيافته في حُبور عظيم » .

إن رسول الله هناك ينتظر على شوق .. وينتظر معه صاحباه ، الصِّدِّيق ، والفاروق .. ليفطر معهم . كما جاء في الحديث .

رضي الله عن عثمان

لقد انتقل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى لحوقاً بسيد ولد آدم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وبصاحبيه الصديق والفاروق ، وكان ذلك في يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة عام خمسة وثلاثين .. فقد جاء في كتاب « مشكاة المصابيح » ضمن الأحاديث في مناقب عثمان رضي الله عنه ما نصه :

عن « يحي بن بكير » « كانت الشورى فاجتمع الناس على عثمان لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمسة وثلاثين ، وسنه ثمان وثمانون سنة ، وكان يصفر لحيته ، وولايته اثنتى عشرة سنة » .

وعن الزبير قتل النبي ﷺ يوم الفتح رجلا من قريش صبراً ، ثم قال لا يقتل قرشي بعد هذا اليوم صبراً إلا رجل قتل عثمان بن عفان فاقتلوه ، فإن لم تفعلوا تقتلوا قتل الشاء .

رحم الله سيدنا عثمان ورضي عنه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .. فقد بذل روحه .. كما بذل عمره وماله جهاداً في سبيل الله ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين .

الإمام عليّ

كرم الله وجهه

البطولة المبكّرة .. !!

إذا كان الحديث عن المبادرة إلى الإسلام .. فهو أول المسلمين من الشبان .

وإذا كان الحديث عن البطولة .. فهو البطل الذي غامر بروحه ليبيت في فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وسيوف القبائل مشرعة على الباب للفتك بالنائم .

وإذا كان الحديث عن الشجاعة .. فهو المقدام الذي كانت له الضربة الأولى والقاصمة في بدر .. وأحد .. وجميع المعارك التي خاضها مع الرسول ﷺ .

وإذا كان الحديث عن الفقه وعلوم الدين .. فهو العالم الذي يقضي بالحق حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب وهو من نزل القرآن في أكثر من موضع مؤيداً رأيه يقول : لولا علي لهلك عمر .

وإذا كان الحديث عن الزهد فهو الذي كان يبيت طاوياً من الجوع أياماً ثلاثة وصدقته تتفرق على المسلمين أربعين ألف دينار أو يزيد في كل يوم وليلة .

وإذا كان الحديث عن البلاغة .. فهو امامها الذي لم يولد من بعده من يضارعه .. وتظل خطبه وعباراته نهجاً يقتدى به الأفذاذ كما هو منهج يهتدي به طلاب العلم .

وإذا كان الحديث عن الجنة وأهلها .. فهو في مقدمة المبشرين بها ، إذ روى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال :

« أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة » . رضي الله عنهم جميعاً .

فمن هو صاحب هذه الصفات .. وهذه الأوليات التي جاءت مبكرة .. وهو أصغر الصحابة رضوان الله عنهم سناً ؟

انه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه .

وكما تحدثنا .. أو بالأصح .. نقلنا عن سلفه من الخلفاء الراشدين من خلال كتب السيرة بعض جوانب من حياتهم العظيمة فسنسلك ذات الطريق مع الإمام لنستضيء بعطائه الكريم في إيجاز لا يحفل بالتفاصيل المطولة .. بمقدار ما يهتم بالصحيح والثابت من الروايات سيما وأنّا كما قلنا من قبل، لا نؤرخ. وإنما نُقدم عملاً يستفيد به الذين زحمتهم الحياة بمشاكلها ومشاغلها عن مطالعة المراجع وأمهات الكتب التي تزخر بتاريخ هؤلاء العظماء الذين قال في حقهم سيدنا رسول الله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .

جذور شامخة

والحديث عن الإمام علي كرم الله وجهه .. لا يمكن أن يبدأ بتاريخ ولادته .. أو إسلامه .. أو مكانته من الرسول ﷺ .. أو خلافته .. وإن كان في ذلك عظيم المجد وفاخر الشرف .. وإنما لابد عند الحديث عنه من ذكر المنبت والجذور التي جاء من أصلابها . وكان لها من المواقف الباهرة في مساندة الرسول ﷺ والدفاع عنه وحمايته على الرغم من بقائها على ما كانت عليه من جاهلية موروثة ما يستحق التقدير .

فالإمام كرم الله وجهه .. هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن مناف وهي أول هاشمية ولدت

لهاشمي ، وقد أسلمت وهاجرت إلى المدينة ، وماتت ودفنها النبي ﷺ فهو هاشمي الأب والأم ويكفيه فخراً أنه ابن عم رسول الله ﷺ .

ولد قبل البعثة بعشر سنوات في بيت أبي طالب الذي انتهت إليه زعامة بني هاشم بعد وفاة عبد المطلب جد الرسول ﷺ .

فمن يكون ذلك السيّد الماجد ــ عبد المطلب ..؟

تقول كتب السيرة :

إنه الرجل الذي بلغ في قريش وفي العرب جميعاً منزلة لم يكَدْ يبلُغها أحد .

وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم في مواسم الحج كل عام ، فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال ، الرجل الذي حفرها وتفجَّرت على يديه البرَّتيْن مياهها .

ومَن عَساهُ يكون ، غير عبد المطلب ..؟

لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم ، هاتفاً هتف به في رؤيا حق يقول له :

ــ احفر طَيْبَة .

واستيقظ من نومه ، لا يدري ما تعبير رؤياه ..

بيد أن الهاتف زاره في الليلة التالية ، وقال له :

ــ احفر بَرَّة .

واستيقظ كذلك دون أن يدري ماذا يُراد منه ، وماذا يراد له ..

وفي الليلة الثالثة نودي مرة أخرى في منامه :

ــ احفر زَمْزَم ..

قال : وما زمزم ..؟؟

أجابه الهاتف :
(لا تَنزفُ أبداً ، ولا تُذَمّ ..
تسقى الحجيجَ الأعظم !!)
ودُلَّ على مكانها ..

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه « الحارث » وذهبا حيث راحا يغوصان في الأرض بمعاولهما ، فتفجرت مياه النَّبع المبارك الخالد الذي كانت الأقدار الرحيمة قد مَنَحَتْه إسماعيل وأمّه وسط الصحراء اللاَّهبة في الدهر البعيد ، ثم طمرته الصخور والرمال !

إن عبد المطلب ، أو « شَيْبة » كما كان اسمه الحقيقي ، لرجل فذّ ، من طراز باهر ، بقدر ما هو نادر ..

وهل يكون الجدُّ الأوّل لرسول الله . ثم الجدُّ الأول لعلي بن أبي طالب إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها ..؟؟

لقد كان ذِكرهُ يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذًى وعبيراً ..

ومن كثرة محامده دعاه الناس .. « شيبة الحمد » ..

وكانوا يصفونه بأنه : الرجل الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال .

وكان غزير الحكمة .. شجاعاً غير هياب .. فعندما غزا أبرهة بجيش لجب مكة المكرمة ليهدم الكعبة .. وتبين لعبد المطلب أن لا طاقة لأهل مكة بمقاومة هذا الجيش الجرار الذي تتقدمه الفيلة .. أمر قومه بالتوجه للشعاب والجبال .. ولما طلب أبرهة أن يتحدث إلى زعيم مكة تقدم إليه عبد المطلب وقال له :

أما الإبل فهي لي .. وأما البيت فله رب يحميه ..

ومن عند أبرهة توجه للبيت الحرام وهناك يأخذ بحلقتي باب الكعبة ويناجي الله في إيمان الواثق بنصره .

« لَا هُمَّ إن المرءَ يمنعُ رَحْلَهُ ، فامنعْ رِحالك » .

ولكن ، ماذا لو تركت الأقدار « أبرهة » يهدم البيت ، وأين يذهب عندئذ إيمان عبد المطلب بالله ..؟

هنا يبزغ عمق إيمانه ، وأصالة حكمته ، وهو يستكمل مناجاة الله قائلاً :

« إن كُنتَ تارِكَهُمْ وكَعْبَتنا ، فأَمْرٌ ما بَدا لَك !؟

أجل .. فحتَّى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب ، وما يُحاذره من أبرهة وجيشه ، وهدمهم بيت الله الحرام ..

حتى إن حدث ذلك ، فإن إيمان « عبد المطلب » بالله لن يَزِلَّ ولن يَخبو ..

.. ويستجيب الله .. فيمنع بيته بأن يُرسل على أبرهة وجنده طير الأبابيل التي ردَّت كيدهم وجعلتهم كعصف مأكول ..

وكم مِن مرة انحجبت الأمطار عن قريش ، وكاد القحط يقتلهم فيذهبون إلى شيخهم « عبد المطلب » الذي يخرج بهم صفوفاً ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال ، حيث يضرع إلى الله كي يُنزل المطر ، مبتهلاً بهذه الكلمات :

« اللهم هؤلاء عبيدك ، وأبناءُ عبيدك ، وقد نزل بنا ما ترى ، فأذهِبْ عنا الجدْب ، وائِتنا بالمطر والخصب) ..!

فلا يلبثون إلا قليلاً .. ثم تجيء الأمطار كريمة رحيمة ، تُنبت وتحيي ، وتُنعش ..

الحق أنه إيمان عجيب .. إيمان هذا الرجل الفريد في عصر كانت الوثنيةُ دينه وصلاته ..!!

إن عبدالمطلب ، لَيَرى الله في كل نعمة يُؤتاها ، وفي كل خطوة يخطوها ..

عندما بُشر بمولد حفيده « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره ، وذهب به مُسرعاً إلى الكعبة حيث صلى لِلَّهِ صلاة شكر وحمد .. وراح يقول :

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلامَ الطّيبَ الأردانِ
قد ساد في المهد على الغلمان أُعيذه بالله ذي الأركانِ
حتى أراه بالغ البُنيان

ولقد دلته شفافية رُوحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم .. فأحبَّه حباً ما أحبَّ مثله أحدًا .. وراح يعامله في طفولته معاملة صديق !!

وفي كل مناسبة ، كان يأخذ يد ابنه « أبي طالب » ويضعها في يد حفيده « محمد » عليه الصلاة والسلام ، ويقول لأبي طالب في إحساس مَن يكاد يرى الغيب المقبل رَأْيَ العين ..

« يا أبا طالب » ..

« سيكون لابني هذا شأن فاحفظْه ، ولا تَدعْ مكروهاً يصل إليه » !!

ولقد حفظ أبو طالب العهد ، ورعى ابنَ أخيه ، ووصيّة أبيه ، رعاية تليق برجولته ، وبأرومته ، وبعظمة سجاياه »

والد البطل

.. أصاخ السمع أبو طالب لوصية أبيه .. وأفنى حياته في الدفاع عن رسول الله ﷺ .. والذود عنه ومناشدة قومه بنصرته وإتباعه حتى اللحظة التي كان يودع فيها الحياة ..

على فراش الاحتضار .. والموت يكاد ينزع روحه من بين أضلاعه .. يخطب قومه فيقول في كلمات كأنما أراد أن تكون آخر عهده بهم وبالدنيا :

يا معشر قريش .. أوصيكم بتعظيم هذا البيت « الكعبة » فإن فيه مرضاة الرب وقوام العيش .

صِلُوا أرحامكم ، ولا تقطعوها ، فإن صلة الرحم مَنْسَأَةٌ في الأجل ..

اتركوا البغي ، فقد أهَلَكَ القرون من قبلكم ..

يا معشر قريش ..

« أجيبوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات ..

وعليكم بصدق الحديث . وأداء الأمانة ..

ألا وإني أوصيكُم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، والصادق في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ..

ولقد جاءنا بأمر قَبِلَه الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ..

وأَيْمُ الله لكأنّي أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدّقوا كلمته ، وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ..

ولَكأنِّي به وقد مَحَضَتْه العربُ وِدادَها ، وأعطته قِيادَها ..

والله ، لا يسلُك أحد سبيله إلا رشَد ، ولا يهتدي بهديه إلا سَعد ..

ولو كان في العمر بقيَّة ، لكَففتُ عنه الهَزاهِز ، ولدفعتُ عنه الدواهي » ..

ثم يضع عينيه على الأهل والأقربين من بني هاشم ويتوجه إليهم بوصية يخصهم بها :

وأنتم يا معشر بني هاشم أجيبوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا .

وعند ما أدركت الوفاة أبا طالب .. قال رسول الله ﷺ في أسىً :

« ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » ..

ثم هز رأسه الشريفة وأضاف ..

« يا عم .. ما أسرع ما وجدت فقدك » ..

فلقد كان أبو طالب طيلة حياته كَلِفاً بحماية الرسول ﷺ ويوم راجعته قريش ليمنع ابن أخيه من الاستمرار في دعوته وله ما يشاء ، ورد عليه الرسول ﷺ بذلك القول العظيم :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه » .

ازداد أبو طالب عزة وشموخاً ونفح قريش بقصيدة يقول فيها :

ولَقد عَلمتُ بأن دين محمد
من خير أديان البريَّة دِينا
واللهِ ، لَن يصلُوا إليك بِجَمعهم
حَتى أُوَسَّدَ في التراب دفينا

ولقد كان يجلس ذات يوم في سقيفة له ، عندما أقبل عليه الرسول ﷺ حزيناً آسفاً ..

وتَحرَّاه الأمر . فعلم منه أن قريشاً أَغْرَتْ به سفيهاً من سفهائها فألقى عليه رَوْثاً ودماً وهو ساجد في الكعبة يناجي ربه ، وخالِقَه .. !!

فنهض من فوره ، حاملاً سيفه بيمينه ، متأبطاً ذراع النبي بيساره حتى إذا وقف على المتآمرين ، ورآهم يتململون حين بَصُروا به مقبلاً ، صاح فيهم :

« والذي يُؤمن به محمد ، لئن قام منكم أحد ، لأعاجِلَنَّه بسيفي » .

وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ثم يقذف به على وجوههم جميعاً .. وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جُرذان ..!!

ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول ﷺ منالاً وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه ..

لقد أحب أبو طالب في ابن أخيه كل الفضائل التي كان يعشقها ويقدسها ، والتي رأى الرسول ﷺ يرفع لواءَها في ولاء منقطع النظير ..

ولقد عبَّر عن حُبه ذاك بإرادته الصُّلْبة في تلك المواقف التي رأينا طرفاً منها .. كما عبَّر عنها بموهبته الفنِّية في شعره البليغ :

لقد علموا أَنَّ ابنَنا لا مُكَذَّبٌ
لدَيْنا ، ولا يُعْنَى بقول الأباطلِ

حليمٌ ، رشيدٌ ، عادلٌ ، غير طائش
يُوالي إلهَاً ، ليس عنه بغافلِ

وأبيضُ ، يُستَسْقَى الغمام بوجهه
ثمالُ اليتامَى عصمةٌ للأراملِ

لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكايدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بدّاً من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم ..

وذلك حين يئست من ثَنْي الرسول عن دعوته ، ومن ثَنْي أبي طالب عن مناصرته ، فقرر زعماؤها مقاطعة بني هاشم وبني المطّلب .

وفعلاً ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، وأقاموا معه في شِعْبِهِم .. ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورَق الشجر اليابس ليدرأوا به غوائل الجوع .

وأبو طالب كالطوْد شُموخاً ورُسُوخاً ، يرفُض كل مُساومة تحاولها قريش ، ويُسلط عليهم موهبته الشعرية فينْفَحُهم بالقصيد تِلْوَ القصيد ..

أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفَر الثَّرى
ويصبح مَن لم يَجْن ذنباً كذي الذنْبِ
ولا تَتبعوا أمر الوُشاة وتقطعوا
أواصِرَنا بعد المودة والقُربِ
فلَسْنا وربِّ البيت نُسلم أحمداً
لِضَرَّاءَ من عَضِّ الزمان ولا كَرْبِ
ولما تَبِنْ منا ومنكم سَوالفٌ
وأيْدٍ أُتِرَّتْ بالقُساسِيَّةِ الشُّهْبِ

إن أبا طالب إذا آمن بشيء ، كان إيمانه قوياً صُلباً .. نفس الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده « عليٌّ » بل وبنوه أجمعون ..

ولقد آمن « أبو طالب » بحق الرسول في أن يقول كلمته ، ويبلغ دعوته .. فإن كانت حقّاً ، فمِن حَق الحق أن ينتصر ويسود ..

وإن كانت باطلاً سيذهب جُفاء ..

ولقد رأى أن يقف مع الحق .. وليس مع ابن أخيه .. إنه يقف مع الداعي إلى العدل .. مع الصادق الأمين .. ولذلك لم يتأخر ثانية عن الذهاب إلى قريش فى ناديها عند ما أخبره الرسول ﷺ أن الله سلط الأرض على الصحيفة فأكلتها ولم يبق منها إلا إسم الله .

ذهب أبو طالب إلى قريش .. وهو مؤمن بصدق ما أنبأه به الرسول ﷺ .. وقال لهم :

يا معشر قريش .. إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا .. فَهَلُمَّ إلى صحيفتكم فإن تلك كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا وأنزلوا عما فيها .. وان يك كاذباً دفعته إليكم .

ورضيت قريش .. وقامت إلى الصحيفة فإذا هي كما قال محمد عليه الصلاة والسلام .. فأسقط فى أيديهم وخرج الناس من المقاطعة .. وباءت المؤامرة بالفشل .

لقد سمع الإمام بهذا .. ورأى غيره مما كان من فعل جده .. ومواقف أبيه .

وعلى رأس هذه المبادىء كلها الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه .

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقاً ..

وورث ولاء جَدِّه عبدالمطلب ، ومن قبل جده « هاشم » لما كانا يريانه حقاً .

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحُماة الفضائل ، وسدَنة الخير .

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذي إليه يلجأون ، وعليه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقوته الخارقة وفضله الرحيم كان

على الدوام مشحوذاً ... فكيف بولاء « علي » وقد عرف حقيقة الله واهتدى إليه..!؟

ولكن : كيف عرف ..؟ وكيف اهتدى ..؟؟ تعالَوْا لِنرى .. »

في بيت النبوة

« تقول كتب السيرة » :

قيل إن عليًّا ولد داخل الكعبة سمته أمه حيدرة[1] عندما ولد ــ وكان أبوه غائباً ــ فلما عاد من سفره غيَّر اسمه وسماه علياً .

كان علي أصغر إخوته ، وهم : جعفر وعقيل وطالب لكنه فاقهم قوَّةً ومكانةً وشرفاً لتربية الرسول ﷺ له ولزواجه من ابنة رسول الله ﷺ . أما سبب تربية الرسول ﷺ فقد أصابت قريشاً أزمة شديدة وقحط وقلة .

وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فأحب رسول الله ﷺ أن يُخفف عنه هذه الأزمة فذهب إلى عمه العباس وقال له :

« يا عماه إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا فلنخفف من عياله فآخذ من بنيه رجلاً وتأخذ رجلاً فنكفيهما عنه » .

فال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

« إنَّا نُريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه » .

---

(١) اسم من أسماء الأسد .

فقال لهم أبو طالب :

« إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما » .

فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه وأخذ العباس جعفراً وبقيا عندهما حتى شبا ودخلا في الإسلام وبذلك أصبح علي رضي الله عنه واحداً من أسرته .

رسول الله يرعاه كما يرعى أبناءه ويربيه كما يربيهم ويكرمه كما يكرمهم . فنال بذلك شرف الرعاية النبوية الكريمة مِمَّا جعله ينشأ خير منشأ ويدرج في صباه على خير الفضائل وأحسنها . لذلك لا عجب إنْ نما في طفولته نمواً مبكراً في فهمه وعقله فأدرك وهو لم يتجاوز العاشرة معنى النبوة وفرق بين الحق والباطل وبين عبادة الله وعبادة الأصنام وأعلن وهو في هذه السن أنه مع رسول الله ﷺ وعلى دينه وأصبح يعبد الله ويصلي مع رسول الله ﷺ .

وقد روى أنس رضي الله عنه كما جاء في مشكاة المصابيح :

قال بُعث النبي ﷺ يوم الاثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء .

وعن ابن عمر لما آخى النبي ﷺ بين أصحابه جاء عليّ تدمع عيناه ، فقال يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فسمعته ﷺ يقول : « أنت أخي في الدنيا والآخرة » . رواهما الترمذي .

وعندما بدأت أيام الرسالة الأولى .. بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها — كان هناك ثلاثة يلحظون التغير الهائل الذي أخذ يرسم سيماه على حياة الرسول .

هم :

خديجة — زوجته .

وعلي — ابن عمه .

وزيد — خادمه .

ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضاً .

سأله « علي » وهو ابن عشر سنين لا غير :

ــ ماذا أراك تصنع ..؟

وأجاب الرسول :

ــ « إني أصلي لله رب العالمين » .

وسأل عليّ :

ــ ومن يكون رب العالمين ..؟

وعلّمه الرسول وهداه :

ــ إنه إلٰه واحد .. لا شريك له .. له الخَلْق ، وبيده الأمر .. يُحيي ويُميت .. وهو على كل شيء قدير ..

ولم يتردد الغلام المبارك ، فأسلم .. وكان أول المسلمين .. بينما كانت خديجة رضي الله عنها أول المسلمات .

ومن ذلك اليوم ، وهو مع النبي لا يفارقه ، يصلي معه ، ويُصْغي إليه ، ويراه وهو يتهيَّأ لِتَلقِّي الوحي ..

وكم من آية ، وآيات ، كان هو أول من يسمعها وهي لا تزال حديثة العهد بمنَزِّلها ومُوحِيها .

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول يُقبلون عليه مؤمنين :

أبو بكر الصديق .. فعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وابن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ..

فأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وأبناء مظعون ، وخبَّاب ، وسعيد ابن زيد ، وعمّار ، وعمير ، وابن مسعود الذين كُتِبَ لهم حظ السبق إلى الإسلام ..

وفي الأيام الأولى لدعوة النبي ، رأى أبو طالب ولده ـــ علياً ـــ يصلي خِفيةً وراء الرسول ﷺ .

وكانت هذه أول مرة يعلم فيها أن إبنه الصغير السن . قد اتبع محمداً ..

وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يُبصره مُصلياً .

ولما أتمَّ صلاته ذهب تلقاء والده وقال له في صراحة وثبات ليسا بطارئين عليه :

« يا أَبَت ..

« لقد آمنتُ بالله ، وبرسوله ، وصدَّقتُ ما جاء به ، واتبعتُهُ » .

فأجاب أبو طالب :

« أَمَا إنَّه لا يدعوك إلا إلى خير ، فالْزَمْه » .

ليس ذلك فحسب ..

بل إنه رأى النبي يوماً يُصلي ، وقد وقف « عَليٌّ » إلى يمينه .

ولمح من بعيد ولده « جعفراً » فناداه ، حتى إذا اقترب منه قال له :

(صِلْ جِناحَ ابن عَمِّك ..

وصَلِّ عن يَسارِه) !!

سعةُ أفق ، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفْساح الطريق للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتثْبِتَ صدقها وأحقيتها .

وفي نور الآيات المنزَّلة ، والتي كان الوحي يجيء بها تباعاً ، قضى « علي بن أبي طالب » بواكير حياته النضرة ، يبهره نورها .. ويهزُّه هديرها ..

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رَأْيَ العين ، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها ..!

ويسمع آية النار ، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار .. ولولا جلال الصلاة وحُرمتها لَولّى هارباً من لفح النار الذي يُحسُّه ويراه ..!!

أما إذا سمع آية تصف الله في عظمته ، وجلاله ، أو آية تعاتب الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم ، وجحودهم فضلَه ونعمتَه .. فعندئذ يتحول الغلام الراشد إلى ذَوْبِ تُقًى وحياء !!

لقد أُشرب قلبُه جمال القرآن ، وجلاله ، وأسراره .. هذا الذي كان يشهد نزوله آية ، آية حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق :

« سَلُوني ، وسَلُوني عن كتاب الله ما شئتم ..

فو الله ما من آية من آياته إلّا وأنا أعلم أنزلَتْ في ليل ، أم في نهار » !!

وحتى كان كما وصفه « الحسن البصري » رضي الله عنه :

« أُعطَى القرآن عزائمَه ، وعِلْمه ، وعَمَلَه .. فكان منه في رياضٍ مونقة وأعلامٍ بيِّنة » !!

الفـداء العظـيم

.. **تكاثر** المسلمون في مكة .. وتصاعد أذى قريش .. فهاجر من هاجر إلى الحبشة .. ثم هاجر المسلمون من بعد ذلك إلى المدينة المنورة .. وعلي كرم الله وجهه في صحبة رسول الله ﷺ بمكة .

ولما أذن الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلى المدينة المنورة مصطحباً معه الصديق رضي الله عنه ، لِما همت به قريش من

اغتيال الرسول في داره .. كان لابد من عمل تغفل به قريش عن خروج الرسول عليه الصلاة والسلام .

.. وفي ذلك تقول كتب السيرة :

إن خُطَّة الهجرة كما رسمها الرسول ، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه في البيت رجل تَشغلُ حركتهُ داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركي قريش ، وتخدعهم بعض الوقت عن مَخْرَج الرسول عليه السلام ، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر ، وخلّفا وراءهما من متاهات الصحراء مسافةً تتشتَّت فيها مطاردة قريش إذا هي خرجت في طلبهما ..

ولكن : ما مصير هذا الذي سيخلُف الرسولَ في داره ، ويخدع قريشاً كلها عن مخرجه..؟؟

ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة ، وترى كَيدَها الذي عبَّأت فيه كل قواها ، يرتد لا هزيمة ما حقة فحسب .. بل وسخريةً تضحكُ منها ولْدانها ، وخزياً يجثم فوق جبينها ..؟

إن مصيره مفروغ منه ..

إنه القتل ، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفِّيًا وفَتْكا !!

والحق أنها ستكون نهايةً مُوحِشة . فالرجل الذي سُيكتب عليه أن يحمل هذه التضحية ، لن يُقتل فحسب .. بل هو سيُقتل في بلدٍ مُوحش ، قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يملأون فجاجه دَويًّا بالقرآن كدَويِّ النحل .

في هذا البلد الموحش سيُقتل وحيدًا .. دون أن يجد من إخوانه من يُشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت .. أو يودِّعه — ولو من بعيد أيضاً —

بنظرة عطف ومحبة .. أو يتسلَّل في جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلماً .!!

على أنّ مهمة « عليّ » رضي الله عنه ، لم تكن قاصرة على المبيت مكان الرسول والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة .. بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية .. ذلك هو قيامه بردِّ الأمانات والودائع التي كان الرسول يحتفظ بها لذويها من أهل مكة .

لقد تلقّى « عليّ » من الرسول كل هذه الودائع وتلقى منه أسماء أصحابها .. وكان عليه أن يذهب إليهم داراً داراً .. وفرداً فرداً .. ويعطي كل إنسان أمانته ، دون أن يُنيلَ قريشاً منه فرصةً تحولُ بينه وبين إنجاز مهمته كلها .

ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه ، وحفظه الله ورعاه ، وصدق وعد الرسول ﷺ حين قال له وهو يُودِّعه :

« لن يَخْلُص إليك شيء تكرهه منهم » .

وبعد أيام ثلاثة ، قضاها الفتى الوثيق بمكة ، يرد الأمانات إلى ذويها ، ركب الصحراء مهاجرًا إلى الله ورسوله ..

وحدَه ، خرج مجتازاً نفس الطريق التي خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصديق ، وتطلبهما بكل جهد وثمن ..

وحدَه ، خرج « عليّ » في رباطة جأش تجلُّ عن النظير .. وفي إيمان مُطلق جعل عزمه يتألق مضاءً وتهلُّلا .!!

وبعد أيام وليال ، كان هناك في « قباء » ينزل مع « الرسول » في نفس الدار التي أُعدت له عليه السلام . دار كلثوم بن هِدم ، أخي بني عمرو بن عوف » .

وبعد أيام ، ينتقل مع الرسول ﷺ إلى المدينة .. دار الهجرة .. وعاصمة الإسلام .. وليلحق بمن سبقه من المؤمنين .. ليبدأوا في بناء الحياة الجديدة .. في الجو الآمن ويعلنوا الدعوة إلى الله ويرفعوا راية لا إلٰه إلا الله ..

وفي المدينة المنورة نزل الرسول ﷺ حيث بركت الناقة في بيت أبي أيوب .. وكان أصحابه ينزلون في بيوت الأنصار رضي الله عنهم جميعاً .. لكن نزولهم هذا كان له قصة ترويها كتب السيرة فتقول :

عندما وصل المهاجرون إلى المدينة ووصل رسول الله ﷺ صار الأنصار يتسابقون لدعوة إخوتهم إليهم ويلحون في الدعوة حتى كان المهاجر يحتار في أمره من يلبي ؟؟! ولمن يستجيب ؟!!

فوجد عليه السلام أن أفضل طريقة لإرضاء الجميع هو تطبيق المبدأ الإسلامي الخالد الذي عجزت البشرية ولا تزال تعجز عن إيجاد بديل له .. ألا وهو الإخاء . فأمر رسول الله ﷺ أصحابه وقال لهم : « تآخوا في الله أخوين أخوين » .

وبدأ رسول الله ﷺ بنفسه فأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : « هذا أخي » .

وتآخى حمزة عم الرسول ﷺ مع زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل ، وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ ، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت ، وطلحة بن عبيد الله و كعب بن مالك وغيرهم وغيرهم ..

ونزل كل مهاجر في بيت أخيه .

وكان هذا الإخاء هو الذي أذهب وحشة الغربة وعوضهم عن مفارقة أراضيهم وديارهم وأموالهم خير عوض ..

المصاهرة الشريفة

في الحديث أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما خطبا فاطمة عليها السلام فقال عليه الصلاة والسلام : إنها صغيرة . فخطبها علي فزوجها منه » هكذا في مشكاة المصابيح .

ولقد ذكرت كتب السيرة أنه في السنة الثانية من الهجرة وبعد أن تم بناء المسجد وبناء الحجرات وإرسال السرايا وانتصار المسلمين في بدر .. تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بالصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها .

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت الرسول ﷺ .

وفي رواية أن رسول ﷺ قال :

« إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة » .

وأخذ عليه السلام المهر منه وأمر أن يُجهزوا فاطمة ودعى الناس للخطبة . وأعلن عليه السلام بها . ثم دعا عليه السلام لهما بالخير والبركة .

وعاش علي وفاطمة قرب رسول الله ﷺ وكرّم عليٌّ زوجته بنت رسول الله ﷺ كل التكريم وكان عليه السلام يكرّمهما كل الإكرام . ولقد أنجبت فاطمة من علي الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم .

ولم يتزوج علي وهي عنده حتى توفيت .. وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ بستة أشهر .. وكان عمرها ثلاثين سنة أو ينقص قليلاً .

رضي الله عن الإمام وزوجه وابنيهما سيِّدَيْ شباب أهل الجنة .. كما جاء في الحديث الشريف .

بطل الشجعان .. وإمام الزاهدين

.. قلنا إذا كان الحديث عن الشجاعة .. فالإمام علي كرم الله وجهه بطلها .. وإذا كان الحديث عن الزهد فالإمام صاحبه ورفيقه ..

وفي هذا الفصل نتناول من كتب السيرة جانباً من مواقف البطولة الشجاعة .. والزهد المكين اللذين تحلى بهما الإمام علي كرم الله وجهه .. مع ما تميز به من شمائل كثر سيأتي الحديث عنها لاحقاً إضافة إلى ما سبق ..

تقول كتب السيرة :

ذات يوم ، والرسول بالمدينة ، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن ، وراح الرسول يتلوها على أصحابه وهم منصتون :

﴿ وما مُحَمدٌ إلَّا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبله الرسل . أَفَإنْ مات أو قُتلَ انقَلبْتُم على أعقابكم ، ومَن يَنقَلِبْ على عَقِبيهِ فَلنْ يضُرَّ الله شيئاً ، وسيَجْزِي الله الشاكرين ﴾ (آل عمران : آية ١٤٤) .

وأحدثت الآية في أفئدة الصحابة ردَّ فعل قويّا ، وظن بعضهم أنها تنعى إليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ..

وصاح « عليّ بن أبي طالب » :

« والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .
ولَئن مات أو قُتِل . لأقَاتِلنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت » ..!!

وطوال عمر « عليّ » في حياة الرسول وبعد وفاته ، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته ، وإنها لتلحُّ على وُجدانه إلحاحاً دائبًا وعجيباً ..!!

في غزوة بدر الكبرى .. وهي الغزوة التي أعز الله بها المسلمين بالنصر المؤزر .. كان علي رضي الله عنه أول من سماه الرسول ﷺ لمبارزة المشركين .. فعندما التقى الجيشان وبرز ثلاثة أبطال من قريش للمبارزة وطلبوا أكفاءهم من رسول الله ﷺ .

فنظر رسول الله ﷺ في أصحابه وقلب وجهات الرأي فيمن يختار لهؤلاء الأبطال ثم وقع اختياره على الأبطال الثلاثة :

قم يا علي .

قم يا حمزة .

قم يا عبيدة بن الحارث .

والتقى أبطال المسلمين بأبطال المشركين .

التقى علي مع الوليد بن عتبة فتصاولا لكن علياً لم يصبر على صاحبه فقتله من الجولة الأولى وكذلك حمزة لم يصبر على صاحبه شيبة بن ربيعة فقتله ..

أما عبيدة فضعف قليلاً أمام عتبة بن ربيعة فما كان من علي وحمزة إلا أن مالا مع صاحبهما عبيدة فقتلا خصمه عتبة وعادوا جميعاً إلى رسول الله ﷺ مرفوعي الرؤوس فقد قتلوا الفرسان الثلاثة وكان ذلك بداية النصر ..

وفي معركة أُحد صاح حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة من يبارز ؟

فلم يجبه أحد .

ودفع رسول الله ﷺ الراية إلى علي وقال له : قدّم الراية . فتقدم علي بالراية وهو يقول : أنا أبو القصم .

فناداه طلحة :

هل لك يا أبا القصم في البراز من حاجة ؟؟

قال علي : نعم .

وبرز له وبدأ بالمبارزة .

فاختلفا ضربتين فضربه علي فصرعه ثم انصرف عنه فلم يجهز عليه .

فقال له أصحابه :

أفلا أجهزت عليه .

قال : استقبلني بعورته فعطفتني عنه الرحم .

ثم استلم راية المشركين عثمان بن أبي طلحة فتقدم منه علي فصرعه ..

وتابع أبطال المسلمين في قتالهم حتى انتصر المسلمون وهرب المشركون ..

وظنّ الرماة أن المعركة قد انتهت فنزل أكثرهم لجمع الغنائم وفطن خالد بن الوليد ــ وهو على شركه في ذلك الوقت ــ إلى مكان الرماة وقد لاحظ فراغه ، فطن إلى الموقع الذي كان يحمي المسلمين فالتفّ ورجع إليه وانقضّ على المسلمين من خلفهم .

وحدثت المصيبة ..

اضطرب المسلمون ولم يعرفوا من أين جاء البلاء وأشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل . وترك ساحة المعركة بعض المسلمين حزناً على مقتل الرسول ﷺ وتوجهوا إلى المدينة وقد عفا الله عنهم بنص القرآن الكريم واستبسل بعضهم وقاتل حتى قُتِلَ . أما علي رضي الله عنه فكان بجانب الرسول ﷺ يقاتل عن يمينه وشماله ووقع رسول الله ﷺ في الحفرة التي حفرها أبو عامر الراهب المشرك والتف المسلمون حوله ليخرجوه ونادى المشركون عندئذٍ قتل محمد ﷺ .

فما كان من علي إلا أنْ مدَّ يده للرسول ﷺ فأمسكها عليه السلام ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً . وظل بجانبه حتى هدأت المعركة وسار معه إلى شعْب الجبل وجاءت فاطمة زوجته وجعلت تغسل الدم عن وجه رسول الله ﷺ وعلي يصبّ الماء لها حتى انتهت رضي الله عنها . وعندما عادوا إلى المدينة ناول رسول الله ﷺ ابنته فاطمة سيفه وقال لها : اغسلي عن هذا دمه فوالله لقد صدقني ، وناولها علي سيفه وقال لها :

وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم .

وفي رواية أن علياً يوم أحد كسرت يده فسقط اللواء من يده فقال رسول الله ﷺ :

« ضعوه في يده اليسرى فإنه صاحب لوائي في الدنيا والآخرة » .

ولقد قاتل قتال الأبطال وجرح جراحات كثيرة بالغة حتى أن الدم كان لا يرقأ من عمق الجراح ومع ذلك فعندما نادى رسول الله ﷺ للخروج إلى حمراء الأسد في اليوم الثاني من وصولهم إلى المدينة ، جهز علي نفسه وأعدّ عدّته فأعطاه رسول الله ﷺ اللواء ودفعه في مقدمة الجيش إلى حمراء الأسد وهناك أقاموا ثلاثة أيام لإرهاب العدو ولكي لا يفكر بالرجوع إلى المدينة ..

وفي معركة الخندق خرج له عمرو بن ود العامري وكان بطلاً مشهوراً لا يقوم له أحد . وكان يعدل ألف فارس . وقد اقتحم ثغرة في الخندق مع عكرمة بن أبي جهل ومجموعة من الأبطال . فتصدى لهم علي مع بعض المسلمين ووقف علي أمام عمرو وجهاً لوجه وقال له :

« يا عمرو إنك كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه) .

فأجاب عمرو : .... أجل .

قال علي :

« فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام » .

قال عمرو : لا حاجة لي بذلك .

قال علي :

« فإني أدعوك إلى النزال » .

قال عمرو : لِمَ يا ابن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك .

قال علي :

« لكني والله أحب أن أقتلك » .

فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، ونزل عن فرسه ثم هجم على عليّ فتلقاه عليٌّ بعنفوان أشد وتنازلا وتصاولا ولم تطل اللحظات حتى كان علي قد ضرب عَمْراً الضربة التي صرعته ونزعت روحه من بين جنبه وولّى أصحابه هاربين يلتمسون الثغرة للتهرب والنجاة .

رجل يحبه الله

في أول السنة السابعة للهجرة أمر رسول الله ﷺ بالتجهيز لغزو يهود خيبر لأنهم هيجوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ في غزوة الخندق ولأنهم تحالفوا مع الأعراب ضد المسلمين ..

وكانت خيبر مؤلفة من حصون منيعة عالية واجتهد اليهود في حمايتها وتحصينها .

ووصل الرسول ﷺ إليها بغتة فالتجأ أهلها إلى الحصون خائفين وأغلقوا الأبواب عليهم . وبدأ المسلمون بحصار خيبر وأمام حصنها المنيع ارتدَّت أول يوم ـــ كتيبة قوية يقودها أبو بكر الصديق ـــ ..

ثم ارتدت ـــ في اليوم الثاني ـــ كتيبة أخرى ، يقودها عمر ابن الخطاب .

لم يجزع الرسول ، فما كان هو بالجازع أبدًا ، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال :

« لأُعْطِينَّ الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . يفتح الله على يديه » .

يقول : « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه : « ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم ، رجاء أن أكون مَن يحبُّه الله ورسوله » ..

أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم .. وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذي سيعطيه الرسول الراية ، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب .

واكتملت أعدادهم ، واستوتْ صفوفهم .. واشرأبت الأعناق مُتمنِّية راجية .

وشقَّ السكونَ صوتُ رسول الله ﷺ يقول :

« أين عليّ بن أبي طالب » ؟؟

كان « عليّ » هناك وسط الزحام ..

لم يخطر بباله يومئذ أن يكون هو الرجل الذي وعد الرسولُ أصحابه ، وجعله بُشْرَىٰ الفتح القريب .

لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب يسير ، هو أنه في ذلك اليوم كان يشكو رمداً في عينيه ، لا يمكنه من العمل الصعب الذي تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود .

ولكنه لبَّى نداء الرسول من فوره :

ـــ ها أنذا ، يا رسول الله ..

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه ، فتقدم البطل .. ورأى الرسول ما بعينيه من وجع واهتياج ، فبلَّل أنامله المضيئة بريقه الطهور ، ومَسَّ بها عين البطل .. ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى . وهزَّها ثلاثاً ، ثم غرسها في يمين علي ، وقال :

ــ خُذ هذه الراية ، فأمْضِ بها حتى يفتح الله عليك ..!! دقائق ، لعلها لا تجاوز خمساً .. ولكنها تمثل حياة كاملة لا مُنتهى لأبعادها ، ولا غاية لأمجادها ..!!

حمل البطل الراية ، وتقدم كتيبته يُهرول هَرْولة .. وأمام باب الحصن نادى :

« أنا عليّ بن أبي طالب » ..!!

أجل .. فإنه لَيعرف تماماً ما لهذا الاسم في أفئدة أعداءِ دينه من رهبة ، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان ..

وتلقَّى « عليّ » ضربة قوية لم تُصبه بسوء ، لكنها أطارت تِرْسه من يده .

ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ، فصاح :

ــ « والذي نفسي بيده ، لأذوقَنّ ما ذاق « حمزة » أو لَيفتحن الله لي » ..!!

رأى سليل بني هاشم نفسه ، ولا دِرْعَ معه .. فاندفع نحو باب من أبواب الحصن . ولا يدري الناس عندها ماذا حدث ..؟؟

كل ما يذكرونه أن علياً صاح : الله أكبر ..

والحصن مفتوح بين يديه » .

وقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله في مسنده فيما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ويقول :

خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ برايته يوم تبوك فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده ، فتناول علي باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل بيده حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ .

فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أنا ثامنهم نجتهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

وصدقت نبوءة الرسول ﷺ عما قال لابن عمه وحامل الراية .

خذ الراية .. فامض بها حتى يفتح الله عليك .. إذ هجم المسلمون على الحصن وعلت أصواتهم من شرفاته وقد فتح :

الله أكبر :. خربت خيبر ..

أدرك سعداً

.. وفي يوم فتح مكة .. وهو اليوم المشهود .. كان زعيم الأنصار سعد ابن عبادة رضي الله عنه يحمل الراية على رأس كتيبة كبيرة من المسلمين .. ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة ، حتى استجاشته ذكريات عداء قريش للرسول ﷺ ولصحبه ..

فصاح قائلاً وسط النشوة التي تستخفُّ الأحلام : « اليومَ يومُ الملحَمة .. اليوم تُستحلُّ الكعبة » ..

قالوا : وسمعه بعض الصحابة فروَّعهم هذا النداء .

وسارع « عمر بن الخطاب » إلى النبي علي السلام ونقل إليه كلمات سعد ، وقال معقِّبًا عليها :

ـــ يا رسول الله ، ما نأمَنُ أن يكون لسعد في قريش صَوْلة ..

وعلى الفور ، نادى الرسول « عليًّا » وقال له :

« أدْرِكْ سعدًا ، وخُذ الراية منه ، فكُن أنت الذي تدخُل بها » .

« عليّ » الذي شهد كل الأذى الذي صبّته قريش على ابن عمه ورسوله .

« عليّ » الذي يحمل طاقة زاخرة فوَّارة تحرّك الجبال ..

« عليّ » وهذا يومه ، حيث يُتوقّع منه بأسُ المقاتل ، وزهو المنتصر .. يختاره أعرف الناس به لمهمة قَهرِ الزَّهو ، ونسيان الثَّأر ، مُهمة دخول مكة المفتوحة ، في تواضُعٍ ، وإخبات ، وسلام ..!!

ومشهدٌ آخر ، يُعرفنا بجمال هذه البطولة ، وإنسانيتها ، وما كانت تتمتع به من أناة ، ومَعدَلة .

فبعد فتح مكة ، أرسل الرسول إلى من حولها من القبائل سَرايا تدعوها إلى الله في غير قتالٍ لها ، أو حربٍ معها .

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد أسلم على رأس هذه السرايا .. حيث أمره الرسول ﷺ أن يسير بأسفل تهامة داعياً لا مقاتلاً .

وعند قبيلة بني خزيمة بن عامر تصرف أحد رجالها تصرفاً أثار خالد الذي تسرع تجاهه فأعمل السيف فيه وفي بعض عشيرته .. ونمى الخبر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .. فغضب وحزن .. ثم رأى أن يبادر بارسال مبعوث سلام .. فكان علي هو ذلك الرسول المختار .. إذ دعاه الرسول ﷺ .. وقال له :

« يا علي .. أخرج إلى هؤلاء القوم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » .

ثم أعطاه من المال ما يكفي لدية القتلى ومراضاة أهلهم .. فقام بذلك بما أرضى الله ورسوله .

أخلفني في أهلي

لـم يتخلف علي رضي الله عنه عن غزوة من الغزوات مع رسول الله ﷺ وإنما كان من السبّاقين . إلا في غزوة تبوك حيث أمره رسول الله ﷺ أن يقيم في المدينة . فلم يخرج في الغزوة ..

ومع ذلك « وكما تقول كتب السيرة » فقد سمع من المنافقين كلاماً لم يتحمله ، فأخذ سلاحه ثم خرج إلى رسول الله فلحقه وهو في الطريق ولما وقف بين يديه قال :

« يا رسول الله : زعم المنافقون إنك إنما خلّفتنى . أنك استثقلتني وتخففت مني » .

فقال عليه السلام :

« كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي . فارجع فأخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبيَّ بعدي » .

فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره .

ـــ وفي غزوة حنين كان من الذين ثبتوا حين ولّي الناس ودافعوا عن رسول الله ﷺ بما أوتى من قوة وشجاعة .

ـــ وفي سرية فدك أرسله رسول الله ﷺ على رأس قوة عدة مرات وهي التي سميت بالسرايا ، أرسله إلى بني سعد بن بكر بفدك مع مائة رجل لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر ..

فسار علي إلى فدك وكان يسير في الليل ويكمن في النهار حتى اقترب منها فوجدوا رجلاً من بني سعد فأمسكوه وطلبوا منه أن يدلّهم على القوم وهو آمن . فدلّهم على موضعهم فداخلهم الرعب فتفرّقوا وأخذ المسلمون أنعامهم خمسمائة بعير وألف شاة وعادوا إلى رسول الله ﷺ .

وفي سرية الفُلْس

وأرسله عليه السلام إلى صنم طيء ليهدمه وهو الذي يسمّى الفُلْس وأرسل معه مائة وخمسين رجلًا فذهب هو ومن معه إلى الفُلْس فهدموه وشنّوا الغارة على القوم وأخذوا الغنائم والسبي وعادوا إلى رسول الله ﷺ وكان من بين السبي أخت عدي ابن حاتم . وقد أطلق سراحها رسول الله ﷺ بعد أن عَرَّفَتْهُ على نفسها وأنها ابنة حاتم طيء .

— وفي سرية إلى اليمن أرسله عليه السلام فلما وصل هو ومن معه إلى القوم تجهزوا للمواجهة وصفهم عليٌّ صفًّا واحداً وكان رسول الله ﷺ قد أوصاه ان يعرض عليهم الإسلام ولا يقاتلهم حتى يقاتلوه ..

فناداهم قبل أن يبدأ بقتالهم وبعد أن صف أصحابه وجهزهم للقتال .. دعاهم للإسلام وأنذرهم وحذرهم فأسلموا على يديه جميعاً — وهؤلاء هم « همدان » — وكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم فخرَّ رسول الله ﷺ ساجدًا ثم جلس فقال « السلام على همدان » ..

وتتابع أهل اليمن على الإسلام .

ورجع علي رضي الله بعد أن علّمهم وأخذ منهم زكاة أموالهم وأحضر معه وفدًا منهم ..

هذه صور ونماذج لجهاده وبطولاته في معية الرسول ﷺ .. وسنرى بعد أن نستعرض جوانب من زهده كيف كانت بطولاته الإسلامية

المتسمة بتعاليم القرآن المهتدية بتوجيهات معلمه ومعلم الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ ..

غـرِّي غيري

إن « الإمام » كرم الله وجهه « وكما تقول كتب السيرة » كان يعرف تماماً قيمة الذي هداه ربه إليه .. وكان من الذين يؤمنون بأن الخير مثوبة نفسه . فالذي يُوَفَّق للخير وللحق يكون جاهلاً بقيمة الحق والخير ، إذا هو طلب من الدنيا مثوبةً وأجراً نظير فعله الخير وحَمْله راية الحق .

وهكذا حمل « علي » إسلامه بين جنبيه ، وتحت ضلوعه ، وفي أعماق روحه ، ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل فُنونها وزينتها .. وكلما تراءت له مباهجها صدها بعبارته المأثورة :

(يا دنيا ؛ إليك عَنِّي .. يا دنيا ، غُرِّي غيري)

وذات يوم .. والفاروق أمير المؤمنين . قال له الإمام رضي الله عنهما جميعاً : « يا أمير المؤمنين : إن سرك أن تلحق بصاحبيك ــ يعني رسول الله وأبا بكر ــ فاقصر الأمل ، وكُلْ دون الشبع ، وأقصر الإزار وارفع القميص واخصف النعل ، تلحق بهما » .

هذه الكلمة إن دلّت على شيء فإنما تدل على نفسه الزاهدة وسلوكه في الحياة .. ولقد عاش رضي الله عنه كذلك .

فكان يلبس الخشن من الثياب ، ويتعفف عن أموال المسلمين ، ويقتصر على حاجته الضرورية عندما يأخذ .

قال أبو سعيد الأزدي :

رأيت عليًا في السوق وهو يقول : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي . فجاء به ، فأعجبه فأعطاه ثمنه ثم لبسه فإذا هو يزيد عن أطراف أصابعه ، فأمر به لقطع ما زاد عن أصابعه .

فيسأله أصحابه أن يُعطِيَ نفسه ومنصبه بعض حقهما فيقول :

« هذا الثوب . يصرف عني الزَّهْو .. ويساعدني على الخشوع في صلاتي .. وهو قدوة صالحة للناس ، كي لا يسرفوا ويتبذَّخوا » ..!!

ودخل عليه رجل في أيام البرد فوجده يرعد من البرد وهو يلبس دثاراً بالياً فقال له :

يا أمير المؤمنين .. إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال ، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع ..

فقال علي :

« ما أرزؤكم من مالكم .. وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من المدينة » .

وجاءه يوماً أحد أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء فقال :

الله أكبر . ثم أتى بيت المال وهو يقول :

« يا صفراء يا بيضاء غُرِّي غيري » .

وأخذ يوزع المال حتى لم يبقَ فيه دينار ولا درهم ثم أمر بنضحه بالماء وصلى فيه ركعتين .

ودخل مرة على بيت المال فرأى فيه شيئاً فقال :

« لا أرى هذا هنا وفي الناس حاجة إليه » .

فأمر به فقسم ، وأمر بالبيت فكنس ونضح بالماء وصلى فيه ركعتين .

ومما يدل على زهده أنه كان كثير الصدقة ففي حقه نزلت الآية الكريمة ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ (الدهر : آية ٨) .

فقد تصدق ثلاثة أيام متواليات على المسكين واليتيم والأسير رغم حاجته الشديدة وضيقه في معيشته .

وقد روى الدارقطني أن رسول الله ﷺ امتنع عن الصلاة على ميت لوجود دين عليه . فقال علي رضي الله عنه : أنا أوفي ما عليه من الدين . فتقدم الرسول عليه السلام وصلى على الميت وقال لعلي :

« جزاك الله خيراً . فكّ الله رهانك كما فككت رهان أخيك ..

إنه ليس من ميت إلا وهو مرتهن بدينه » .

وإنه ليُحدِّث المسلمين عن الإسلام الذي آمن به ، وجعله كتاب حياته ، فيقول :

« تعلّموا العلم ، تُعْرَفوا به ، واعملوا ، تكونوا من أهله ..

ألَا وإن الدنيا قد ارتحلتْ مُدْبرة وإن الآخرة قد أتت مُقبلة .. ولكل واحدة منهما بنون .. فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً ، والتراب فراشاً ، والماء طيباً ..

ألا وإن من اشتاق إلى الآخرة ، سلاَ عن الشهوات ..

ومن أشفق من النار ، رجع عن المحرمات ..

ومن طَلب الجنة ، سارَع إلى الطاعات ..

ومن زهد في الدنيا ، هانت عليه مصائبها ..

ألا ، وإن لِلّهِ عباداً ــ شُرورُهُم مأمونة .. وقلوبهم محزونة .. أنفسهم عفيفة .. وحوائجهم خفيفة .. صبروا أياماً قليلة لِعُقْبَى راحة طويلة ..

إذا رأيتهم في الليل ، رأيتهم صافِّين أقدامهم .. تجري دموعهم على خدودهم .. يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم ..

وأما نهارهم فَظِماء ، حُلَماء ، بررَةٌ ، أتقياء ، كأنهم القدَاح .. ينظر إليهم الناظر فيقول : مَرْضَى وما بهم من مَرَض ، ولكنه الأمرُ العظيم ..!! » .

الأمر العظيم ..!!

ذلك هو شغله الشاغل .. ينام على هديره .. ويصحو على زئيره ..!!

دين الله الذي حمل أمانته ، وقرأ كتابه .. ويومُ الله ، الذي سيقف فيه بين يديه غداً ، لينظر جزاءه وحسابه ..!!

أوَ مِن أجل هذا ، لا ينام « علي » ولا يستريح ..؟؟

أجــل ..

من أجل هذا ، يقضي ليله ونهاره في عبادة تُضْني جسمه الأيِّد الوثيق .

ومن أجل هذا ، يدعُ الدنيا وراءه ظهرياً ، فيأبى وهو خليفة للمسلمين ، أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة . ويؤثر عليه الأرض الخلاء .. والدار المهجورة ..!!

ويُلحّون عليه كي ينزل قصر الإمارة هذا . فيجيبهم :

« **لا ..**

قصر الخبال لا أنزله أبداً » !!

.. وقد روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه أنه قال :

« لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع ، وإن صدقة مالي لتبلغ أربعين ألف دينار » .

وفي رواية أخرى للإمام أحمد أيضاً : « وإن صدقتي اليوم لأربعون ألفاً » .

وكثيراً بل وفي كل حين وآن .. كان يردد وبشجن قول الله تعالى :

﴿ تلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نجعلُها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبَةُ للمتقين ﴾ (القصص : آية ٨٣) !!

إن الآخرة عند الإمام .. هي الدار .. هي الأبد .. وما أهل الدنيا في شتى العصور والدهور إلا سائرون فوق جسر .. كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية حيث الجنة ، أو النار . ألا فَلْنُصغ لحديثه :

« إن المضمار اليوم ، وغداً السِّباق .. ألا وإنكم في أيامِ أمل ، من ورائه أجَل ..

فمن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خاب عمله ..

ألا فأعملوا لله في الرَّغْبَة كما تعملون له في الرَّهبة ..

ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبها ! ولم أرَ كالنار نام هاربُها .

ألا وإنَّ من لم ينفعه الحق ، ضَرَّه الباطل ..

ومن لم يَسْتَقِم به الهُدى ، حادَ بِهِ الضلال .

ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ..

وإن الآخرة وعدٌ صادق ، يحكُم فيها مَلكٌ قادر ..

وإن أخوفَ ما أخافُ عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ..

فإن اتّباعَ الهوى ، يَصُدُّ عن الحق ..

وإن طولَ الأمل ، يُنْسي الآخرة » !!

فلتأت الأحداث والأهوال عاصفةً ، تقتلع الجبال من حول الإمام ، فإنه لن يتبع الهَوى أبداً .

« فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحق » !

ولتبذُل الدنيا له كل نفسها وزينتها ، وبهجتها ، وإغرائها ، فإنه لن يربطها به أمل ولا رجاء ..

(فإن طول الأمل ، يُنسي الآخرة) ! وهو — رضي الله عنه — لا يريد أن يتوه عن الحق ، ولا يريد أن ينسى الآخرة .

فالحق حياته .. والآخرة داره ..

عَلى أن زهد ابن أبي طالب في الدنيا ، وعزوفَه عنها كما هي الحقيقة .. وكما يقول كاتبوا السيرة : ليس زُهد الهاربين من تبعات الوجو ومسئوليات الحياة .

إنما هو زهد يُشكِّله إسلامه ، الذي يجعل المسئولية العادلة دينا ، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادةً وقُربى ..

وهنا نلتقي بـ « علي » يصحح المعايير والموازين إذْ لا يكاد يسمع رجلاً يذم الدنيا مَذَمة العاجز المتواكِل حتى يقول :

(الدنيا دارُ صِدْقٍ ، لمن صَدَقَها ، ودار نجاةٍ ، لمن فَهِمَ عنها ، ودار غنًى وزادٍ ، لمن تَزوَّدَ منها ..

مَهبطُ وحي الله ..

ومَسجد أنبيائه ..

ومَتْجَرُ أوليائه .. رَبحوا فيها الرحمة ، واكْتَسبوا فيها الجنّة » ..!!

أجل .. هذه هي دنيا المسلم ، كما يفهمها ربيب الوحي ، وسابق المسلمين ..

دار عمل ، لا لهو .. يكدح فيها الإنسان لينتىء لنفسه مصيراً سعيداً يوم يقومُ الناس لرب العالمين ..

وهي دار صدق ، لمن عاش فيها صادقاً مع مسئولياته وتبعاته .. ودار نجاة ، لمن سار فيها على دَرْب النجاة ..

وبهذا الفهم السديد للدنيا ، رَبحهَا « علي » ورَبح بها مصيره وأُخْرَاه ..

فهي بالنسبة له ، لم تكن دار لعب ولهو أبدًا .

مُنذ طفولته الباكرة ، حمل الإسلام في قلبه . وحمل معه كل أعباء الرجال .

ولقد قطع حياته وقضى أيامه على الأرض في كفاح موصول ، ونضال لم يعرف الراحة يوماً ..!!

وعاش كما وصفه الرسول عليه السلام :

« مُخْشَوْشِنٌ في سبيل الله » .

مَقَتَ الترف من كل نفسه ، ونأى عنه بكل قوته وعزمه .

ذلك أنه فهم الإسلام وعاشَه ، وتعلم منه أن الترف مَشْغَلَةُ الفارغين العاطلين .

والإنسان الذي يعيش مع مسؤوليات كبار كتلك التي يفرضها الإسلام الحق على أبنائه الحقيقيين وأهله إنما يكون حظه من الصدق والتوفيق مضاهياً حظه من البساطة والتخشن » .

باب العلم .. وإمام الفقهاء .. وسيّد البلغاء

كثيرة هي الأحاديث التي تروى فضل الإمام وغزارة علمه .. وتضلعه في الفقه .. وبلاغته السامية ..

وكثيرة هي المواقف التي برهن فيها الإمام كرم الله وجهه .. أنه باب العلم .. وإمام الفقهاء وسيد البلغاء من بعد معلمه ومعلم الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ .

ولقد روى النسائي بسنده كما جاء في مشكاة المصابيح عن علي رضي الله عنه أنه قال : (كانت لي منزلة من النبي ﷺ لم تكن لأحد من الخلائق ، آتيه بأعلى سحر فأقول : السلام عليك يا رسول ﷺ ، فإن تنحنح . انصرفت إلى أهلي وإلاّ دخلت عليه » .

وعن أنس : بعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي بكر ، ثم دعاه فقال : لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذه إلا رجل من أهلي ، فدعا علياً فأعطاه إياها .

وعن جابر : دعا رسول الله ﷺ علياً يوم الطائف فانتجاه ، فقال الناس لقد طال نجواه مع ابن عمه ، فقال ﷺ : « ما انتجيته ولكن الله انتجاه » .

وعن ابن عباس : أن النبي ﷺ أمر بسد الأبواب إلا باب علي . رواه الترمذي .

وفيما ذكره كاتبوا السيرة : أن أبلغ وصف له وأجمع كلمة قيلت في حقه ما ذكره ضرار العدائي حينما طلب منه معاوية ذلك .

إذ قال ضرار : « كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .. يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير العبرة طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصُر ومن الطعام ما خَشُن .

كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن مع تقريبه إيَّانا ، وقربه منَّا ، لا نكاد نكلمه هيبة له .

يعظم أهل الدين ، وَيُقَرِّبُ المساكين ، ولا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد أني رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم[1] ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول :

« يا دنيا غُرّي غيري ، إليَّ تعرضتِ ، أم إليَّ تشوفتِ ، هيهات قد طلقتكِ ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمركِ قصير ، وخطركِ قليل ..

آه ! آه ! من قلّة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق » .

وكل ما سنذكره من صفاته ، وأخلاقه ، وعلمه ، إنما هو تفصيل لهذه الكلمة الجامعة التي قيلت في وصفه بين يدي معاوية بعد وفاة علي رضي الله عنه .

وقد أقرّ معاوية هذه الصفات وترحم عليه رغم ما ثار بينهما من حروب وخلافات ..

---

(١) السليم : الذي لدغته حيَّة .

إمام الفقهاء

ولا عجب « كما يقول كاتبوا السيرة : فقد أخذ من معين النبوّة ومن فم رسول الله ﷺ منذ أن تفتح وعيه على الدنيا . إنه عاش في بيته يسمع منه في كل حين . ويتلقى كلماته في كل وقت .

ولقد شهد له الصحابة رضوان الله عليهم بذلك ..

كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن وكان يقول عنه : « علي أقضانا » .

وكان ابن عباس يقول :

« إذا حَدَّثنا ثقة عن علي بفتيا لا نعدوها » .

أخرج الحاكم وصححه عن علي قال :

« بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قلت : يا رسول الله بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء . فضرب صدري بيده ثم قال : « اللهم اهدِ قلبه ، وثبِّت لسانه ، فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين »[1] .

ولعل سبب علمه إضافةً إلى صحبة الرسول ﷺ ما ذكره هو بنفسه .

فقد أورد السيوطي عن ابن سعد ..

قيل لعلي مالك أكثر أصحاب الرسول ﷺ حديثاً . قال :

« إني كنت إذا سألته أنبأني وإذا سكت بدأني » .

(١) أخرجه ابن ماجة .

ولقد أخرج الإمام أحمد في المناقب عن ابن عباس حينما سأله الناس أي رجل كان علياً ؟؟!! قال :

كان مملوءاً حكمة وعلماً وبأساً ونجدةً مع قرابته من رسول الله ﷺ ، وأشهر ما أُثِرَ عنه في فهمه وعقله وذكائه كان في القضاء .

فعندما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن : وجد أربعةً وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد : سقط رجل فيها فتعلق بآخر وتعلق هذا بآخر حتى تساقط الأربعة فجرحهم الأسد وماتوا من جراحته فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون فقال علي :

« أنا أقضي بينكم فإن رضيتم فهو القضاء وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضي بينكم :

اجمعوا من القبائل التي حفروا البئر ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة .

فللأول ربع الدية لأنه كان سبباً في هلاك الثلاثة الذي هلكوا معه فسقط من ديته بمقدارهم وبقي له الربع .

وللثاني ثلث الدية لأنه أهلك اثنين بعده .

وللثالث نصف الدية لأنه أهلك واحداً بعده ..

وللرابع الدية الكاملة لأنه هلك بصنع من قبله ولم يهلك بصنعه أحد .

فأبوا ولم يرضوا بهذا القضاء ، وأتوا رسول الله ﷺ فقصُّوا عليه القضية .. فأجاز قضاء علي [1] .

---

(١) أحمد في المناقب .

وفي عهد عمر جيء بامرأة حامل قد اعترفت بفجورها فأمر عمر برجمها ..

فتلقاها علي : ما بال هذه ؟؟!

فقالوا : أمر عمر برجمها .

فردها علي وقال له : هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها ولعلك انتهرتها أو أخفتها ؟؟!! قال عمر : قد كان ذلك . فقال علي :

« أوما سمعت رسول الله ﷺ قد قال : « لا حَدَّ على معترفٍ بعد بلاء . إنه من قُيِّدَ ، أو حُبس ، أو تُهدِّدَ فلا إقرار عليه .. فخلي سبيلها ..

وفي قصة أخرى أنه رأى المرأة قد أُخذت للرجم فأعادها وقال لعمر :

« إن كان لك سلطان عليها فما لك سلطان على ما في بطنها » .

فقال عمر : (كل أحد أفقه مني) .
فضمنها علي حتى وضعت غلاماً ثم رجمت .

ورُوى أن رجلين أتيا امرأة فاستودعاها مائة دينار وقالا : لا تدفعيها إلى أحد منّا دون صاحبه حتى نجتمع فلبثا حولاً ، ثم جاء أحدهما إليها وقال : إن صاحبي قد مات فادفعي إليّ الدنانير .. فأبت .. فحاول مع أهلها فلم يزالوا حتى دفعتها إليه . ثم لبثت حولاً آخر ، فجاء الآخر فقال : أدفعي إليّ الدنانير .

فقالت : جاءني صاحبك وزعم أنك قد متّ فدفعتها إليه . فاختصما إلى عمر ..

فقال عمر : .. ما أراكِ إلا ضامنة .

فقالت : أنشدك الله أن تقضي بيننا وارفعنا إلى علي بن أبي طالب .

فرفعهما إلى علي ..

وعندما سمع علي بالقصة عرف أنهما مكرا بها فقال :

« أليس قلتما لا تدفعيها إلى واحد منّا دون صاحبه ..

قال الرجل .... بلى .

قال علي : « فإن مالك عندنا .. اذهب فجيء بصاحبك حتى ندفعها إليكما » .

وما أكثر ما روي عن قضائه وذكائه وفراسته في ذلك ..

ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يقول : « سلوني إلا علياً» .

كان يقول : « وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، في سهل أم في جبل » .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحيلون عليه من يتوجه إليهم بسؤال عن مسألة من مسائل العلم :

قال أُذينة العبدي :

أتيت عمر فسألته : من أين أعتمر ؟

قال : ائتِ علياً فاسأله .

وجاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة فقال : سل علي بن أبي طالب ، فهو أعلم .

وعن عائشة أنها سُئِلت عن المسح على الخفين فقال : « ائتِ علياً فسله ».

وأجمل ما روى عنه في قضائه وفي رأيه حينما رفعت إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر ، فأراد عمر أن يرجمها فقال له علي :

« ليس لك ذلك : إن الله تعالى يقول :

﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثلاثونَ شَهْراً** ﴾ (الأحقاف : آية : ١٥) وقال تعالى : ﴿ **وفصَالُهُ في عامين** ﴾ (لقمان : آية ١٤) . فالحمل ستة أشهر والفصال في عامين . فترك عمر رجمها وقال : (**لولا علي لهلك عمر .**)

ولقد كان علي كرم الله وجهه أعلم أهل المدينة بالفرائض وتوزيع الميراث كما شهد بذلك عبدالله ابن مسعود . وكان يسأل عن المسألة وهو على المنبر فيجيب السائل عن مسألته على البديهة . »

في هذه الأحكام .. وهي ليست إلا قليلاً من النماذج .. يسطع العلم الغزير . ويتجلى الفقه المبدع .. وتسمو البلاغة البيانية .. وسنرى الآن كيف هو رضي الله عنه مع الشيخين وحديثه إلى أبي بكر وما فيه من فكر .. ورأي .. ومواقفه مع الفاروق وما جاء فيها من فقه .. ومع عثمان وما كان له من إيثار وتضحية وفداء ..

فعندما انتقل الرسول ﷺ .. وبويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة كما شرحنا آنفاً .. لم تأت مبايعة الإمام عليّ عاجلة . فقد شُغل يوم المبايعة بتجهيز رسول الله ﷺ .. ثم ترادفت الأيام . فإذا بالإمام عليّ كرم الله وجهه يسرع إلى أبي بكر ليبايعه وهو يقول :

« يا أبا بكر ..

إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك ، ولا نفاسةٌ عليك لخير ساقه الله إليك ..

ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقًا أخذتموه » .

كما عبَّر عن هذه المزايا تعبيراً أجمع وأروع حين وقف يرثي « أبا بكر » بعد وفاته ، فيقول :

« رَحمكَ الله أبا بكر ..

كُنتَ والله أوّل القوم إسلامًا ..

وأخلَصَهم إيماناً ..

وأشدَّهم يقينًا ..

صدَّقتَ رسول الله حين كذبه الناس ..

ووَآسيْتَه حين بَخلوا ..

وقمت معه حين قعدوا ..

كنت والله للإسلام حِصْنًا ، وللكافرين ناكبًا ..

لم تَهِنْ حُجَّتُك ..

ولم تضعُف بصيرتُك ..

ولم تَجْبُن نفسك ..

كنت والله كما قال الرسول فيك .

ضعيفًا في بدَنِك ..

قويًا في دينك ..

متواضعًا في نفسك ..

فلا حَرمنا الله أجْرَك ..

ولا أضلَّنا بعدك » ..!!

أجل ، كان الرجلان اللذان تحرَّك بينهما « بندول » الاختيار بُعيد وفاة الرسول من طراز رفيع ، رفيع ، رفيع ..

وكان الفاروق وهو الذي قام بالدور الأول في اختيار أبي بكر في نفس المقام من الرفعة والعظمة ..

ويكفي أن يُذكر اسمُ أيٍّ منهم « أبو بكر » أو « عمر » .. أو « عليّ » .. حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والتُّقى ، ليس له نظير !!

ولقد سعى « أبو سفيان » إلى « الإمام عليّ » أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقه في الخلافة ويقول :

« إن شئت لأملأنَّها عليهم خيلًا ورجلًا ، ولأسدَّنها عليهم من أقطارها .

ولكن الإمام الزاهد ، الورِع ، الفاهم ، يردّه في كل مرة ويَدْحَضُه :

« يا أبا حَنْظَلة ..

إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا

ولا مِن شِيَمِنا ..

ولقد سدَدتُ دونها باباً ، وطويت عنها كَشْحًا) .

أجَل .. فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحق . لا يُخرج الأبرار من دائرة الحق ، والفضل ، والأمانة ..

إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها ، ومن ثمَّ تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه ، بُعدها عما يتفقون عليه !!

وهكذا طوى ــ الإمام ــ عنها كَشحا ، وأغلق دونها باباً ، وتفرَّغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لوليِّ الأمر ..

فالمشكلات كلها ، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلا عَليّ ..

ولطالما كان الخليفة « أبو بكر » يسعى إليه ويقول له :

«.أفْتِنَا يا أبا الحسن » ..!!

ولطالما كان الخليفة « عمر » يستنجد بفقهه وبذكائه وببصيرته ، ثم يقول : (لولا عَليٌّ ، لَهَلَكَ عُمر) ..!!

ولطالما كان الخليفة « عثمان » يَأرِزُ إليه ، ويستعين به ويستنصحه .

ولقد جاء بنفسه إلى عثمان رضى الله عنهما في بداية الحصار وعرض عليه أن يقاتل دونه . فلما رفض أبقى عنده ولديه الحسن والحسين .

وعندما علم بمقتل عثمان ذهب إليه وضرب ولديه الحسن والحسين وغضب منهما لظنّه أنهما قد قصرا في حمايته والدفاع عنه .

وباستشهاد الخليفة « عثمان » دُعي « الإمام عليّ » ليتسلم الرُّزْءَ الكبير ــ منصب الخلافة !!

وهكذا جاءته أخيراً .. مُثخنةً بالجراح ، مُثقلة بالمتاعب ، معبَّأةً بالعواصف ..!! »

خلافة .. تفرضها المسؤولية .. !!

.. في رحاب البيت الحرام .. في مكة المكرمة .. وفي اليوم الخالد العظيم .. يوم أن جاء نصر الله والفتح .. وتسلَّم المسلمون الكعبة مطهرة وقد تم لهم تحطيم الأصنام وإزالة آثارها من جوف الكعبة وما حولها .

في هذا اليوم الذي اندحر فيه الشرك .. وقام عز الإسلام .. حمل الإمام علي « كما تقول كتب السيرة » مفتاح الكعبة ، وتوجه تلقاء الرسول ﷺ وهو جالس وسط أصحابه في المسجد الحرام وقال له :

« يا رسول الله .. اجعل لنا الحجابة مع السّقاية صلى الله عليك » .

فإذا الرسول يبسط إليه يمينه ، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادي : (أين عثمان بن طلحة) ؟؟ .. وكانت وظيفة حِجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل ..

حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً ، أدناه الرسول منه ، ووضع مفتاح الكعبة في يده وقال له :

« هَاكَ مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بِرٍّ ووفاء ..!! » .

ثم يلتفت صوب ابن عمه علي ويقول له :

« إنما أُعْطِيكم ما تُرزَءُون لا ما تَرْزَءون » ..!!

أي أن حظكم في هذه الحياة الدنيا . المسئولية مع الشظف .. لا شيء دون ذلك ، ولا شيء فوق ذلك ..

أما بقيَّة الدنيا ، من منصب ، أو جاه ، أو مال فلا ينبغي لكم أن تنافسوا في شيء من ذلك أحداً ، ولا أن تَرْزَأُوا فيه مخلوقاً .!!

لقد أدرك الإمام ذلك مبكراً .. ولهذا ظل دائماً في خدمة الإسلام بكل موقع تضعه الأقدار فيه .. كما رأينا .. ويوم تجمهر الثوار حول دار عثمان رضي الله عنه لخلعه .. عرضوا على الإمام عليّ الخلافة .. فما كان منه إلا أن نهرهم وردهم على أعقابهم .. أما وقد أنفذ الثوار جريمتهم وقتلوا الخليفة غيلة . فإن أمانة المسؤلية .. أو مسؤلية الأمانة تفرض عليه أن لا يرفض .

أليس هو القائل يوم نَزَلت الآية الشريفة : ﴿ **وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ أَفَإنْ مَاتَ أو قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكُمْ** ﴾ (آل عمران : آية ١٤٤) .

« والله لا ننقلبِ على أعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قُتِل .. لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت » ؟؟

ولقد صدق الإمام كرم الله وجهه .. فستدفع به الأحداث للقتال دون الإسلام حتى يقتل شهيداً .

ولكن كيف قبِل الخلافة .. ولماذا ؟

الأمـــانة

.. **قُتـل** الخليفة .. وماجت المدينة بمن فيها حتى الثوار الذين نفذوا الجريمة تزلزلت الأرض تحت أقدامهم من هول فعلتهم .. وعدم تقبل أحد لتسلُّم أمانة الحكم .

ومن الذي يتسلَّمُها . وقد تجرأ المنافقون والمشاركون على قتل صاحب رسول الله الذي بذل ما له وعمره في خدمة الإسلام ورسوله ﷺ حتى استحق أن يكون رفيقاً له في الجنة وبنص الحديث ؟

لنرى ما تقول كتب السيرة في أقصر الروايات :

لقد قصد الثوار الإمام كرم الله وجهه إثر فراغهم من إقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه ، وأيديهم لم يجفّ عنها دم الخليفة الشهيد الذي اغتالوه في بشاعة مفزعة .

ورفض « الإمام » بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم في بأسهم المتقد يتقامأون ، ويتخاذلون ، وينصرفون عنه في خزي وهوان .!

ذهبوا إلى « طلحة » فرفض ، وإلى « الزبّير » فرفض .. وإلى « عبد الله بن عمر » فرفض ، وإلى « سعد بن أبي وقاص » فرفض ..

ومن ذا الذي يقبلها ، وقد رفضها الإمام علي .؟؟

والحق أن رفض « علي » لها هو الذي حتّم عليه آخر الأمر قبولها ..

ذلك أنه برفضه هذا ، ذاد عنها كل الرجال حتى الطامعين فيها .. ولم يجرؤ أحد ، وقد رأوا « ابن أبي طالب » يرفضها احتجاجاً على اغتيال الخليفة الشرعي « عثمان » نقول : لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقّى مسؤليتها ..

ولكن لا بد للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمرُّ والمكان شاغر ، تشكل خطراً قد يُودي بمصير الأمة كلها والإسلام كله .

ولقد أدرك ذلك سريعاً جميع الناس بالمدينة ــ أهلها .. والثوار الطارئون عليها ..

الساخطون على مقتل « عثمان » والمشتركون فيه ..

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذي سيحل بالأمة في أقطارها القريبة والنائية إذا لم يُمسك بالزمام على الفور ، رجل مقتدر يستطيع أن يوقف جموح الفتنة ، ويرأب ذلك الصَّدْعَ العريض ..

وهكذا عاد « الثوار » إلى الإمام يُلحُّون ويرجون ..

وقَبْل الثوار ، تقدم الراشدون من أهل المدينة يبايعون « علياً » على الخلافة ..

وبهذه البيعة التي كانت — يومئذ — الطريقة التي يخُتار بها الخليفة ، صار « الإمام عليّ » خليفة للمسلمين .

لم يكن بين أصحاب رسول الله الأحياء يومئذ ، من يفوق « الإمام » في كفاياته الهائلة التي تجعله جديراً بمكانه في الخلافة ..

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على « الإمام » وعندما قبلها ، تشكل أي مغنم من مغانم الحياة .. بل كانت تشكِّل عبئاً ، لحامله الوَيل كل الويل ، إن لم يُعِنْهُ الله ..

وكان الواجب الكبير الذي ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذ ، بذل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة ، وذلك بالوقوف في ولاءٍ وصدقٍ وإيثار وراء « المنقذ » الذي تقدم ليحمل مسئولية الموقف كله ، وليدْرأ عن الإسلام ودولته وأمته أخطاراً لو قُدِّر لها أن تبلغ مداها ، لأتت على البناء كله من قواعده » .

الولاء للحق

.. لـم يجد الإمام بدأً من حمل الأمانة وأداء واجبات مسؤلياتها بالوقوف إلى جانب الحق .. ومع الحق مهما صاحب ذلك من كبد وعنت . أو هزائم وانتصارات . لأن الانتصار للحق كما عرف .. وكما تعلم في مدرسة الرسول ﷺ هو الغاية التي تهون في سبيلها كل المتاعب .

بهذا الروح .. وبوفائه وولائه له ، بدأ ابن أبي طالب مهام خلافته كما تقول كتب السيرة .

لقد بدأ يرد طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذي كان يسير عليه الخليفة الأول « أبو بكر » .

وكان الصديق رضي الله عنه .. يعطي المسلمين بالسواء من تقدم أو من تأخر في إسلامه .

ولما جاء الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. قال : لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه .. فجعل للسابقين الأولين ميزة في العطاء عن اللاحقين .

وكان « الإمام عليّ » أمْيَلَ إلى نهج أبي بكر ، مُفسراً رأيه ، بأن الدولة لا تعطي المسلمين مَثوبة دينهم وَثمن إيمانهم ، فمثوبة الدين والإيمان عند الله .. إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا ، ومن ثم فلا داعي للتمييز بينهم أو التفضيل .

كما أن التفاوت في العطاء من شأنه أن يخلق فرص تراكم الثروات لدى بعض الأفراد .. مما يشكل مع الزمن فتنة في الدين وفساداً في الدنيا ..

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر ، لم تدَعْ صرامته ويقظته أيَّ مجال لتراكم الثروة ، فقد كان حسبه أن يعلم أن « فلاناً » من ولاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه ، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويرده جميعاً إلى بيت مال المسلمين .

ولكن في خلافة « عثمان » وكان المسلمون قد بلغوا من الجُهد أقصاه بسبب ذلك الشَّظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهم في جلال باهر أميرهم العظيم « عمر بن الخطاب » .

كما وجدوا في الخليفة الجديد « عثمان » من الطيبة والتسامح ، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون .

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب ، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتُقاه .. فقد وجدت من بعض المسلمين ، لا سيما الذين اسلموا بعد الفتح ، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول ، أناساً كثيرين ، أستسلموا لعَرَض الحياة الدنيا ، وفتنتها ، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التي يرسمها الإسلام للمسلم ، وخاصة في أيامه الأولى ..

ولقد صار لكثير منهم ضياع ، وتجارة عريضة ، وثروات وقصور وبذخ ، لا سيما ذلك النفر من الأمويين الذين استغلوا ظروفاً معينة ، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها .. » :

منهج الحق

جاء « الإمام علي » فقرر أن يرد العطاء إلى نهج أبي بكر .. وهو يعلم علم اليقين أن ذلك سيُغضب بعض الصحابة الكبار الذين أيدوه ، ولا يزال في حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم .

ولكن ابن عَمِّ الرسول لا يعرف المساومة في الحق ، فليقف إلى جانب الحق ، وليكن ما يكون ..!!

هذه واحدة ...

والثانية التي نادت إليه المتاعب ، وفعلَها في ولاءٍ للحق وثيق ، هي أن نفراً من ولاة الخليفة الراحل « عثمان » لم يكونوا في رأي « عليّ » أهلا لهذه الولاية . ولقد كانوا السبب المباشر في الفتنة الرهيبة التي أودت بحياة الخليفة « عثمان » .. لذلك بدأ « الإمام » في الساعات الأولى لخلافته يصدر

أوامره بعزل هؤلاء ، واضعاً مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين ، ومن الاستقامة ، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة ، وملاذ المسلمين .

عَزلَ أولئك ، وولى هؤلاء .. وكان ضمن المعزولين « معاوية » الذي كان يومئذٍ والياً على الشام بأسرها .

وكان « معاوية » قد طَال بالشام مُكْثُه ، وكان يُعِدُّ لطموحه البعيد كل احتياجات الغد المترقب ، ومن ثمَّ أتمّ هناك بناء جيش قوي . وتألَّفَ الناس بالأموال وبالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلق ، المنيع ..

كان أمير المؤمنين « علي » يعرف هذا جيداً .. كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يَرْجُونه أن يرجئ عزل ولاة « عثمان » وخاصة معاوية ، حتى يعطوه البيعة ، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة وحتى يُمكِّن « الخليفة » لسلطانه ، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء ..

ولكن « ابن عمِّ الرسول وتلميذه الصَّدوق » لا يعرف المساومة في الحق ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء في مكانه يوماً واحداً ..

ويذهب إليه ابن عمه « عبد الله بن عباس » يرجوه أن يرجئ أمر « معاوية » بعض الوقت ، وستأتي قريباً فرصةُ عَزْله ..

لكن الإمام الراشد يرفض ــ رغم كل العواقب ــ أن يتحمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية في مكانه والياً للمسلمين ، ولو ساعة واحدة من نهار ، قائلا عبارته المأثورة :

« لا والله ، لن يراني الله مُتَّخِذَ المضلِّينَ عَضُدا » ..!!

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته ، لم يضيع وقته هدراً ..

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار :

عثمان بن حنيف ، إلى البصرة ..

وعمارة بن حسان ، إلى الكوفة ..

وعبد الله بن عباس ، إلى اليمن ..

وقيس بن سعد بن عبادة ، إلى مصر ..

وسُهَيْل بن حُنيف إلى الشام ..

ولقد تسلم الوُلاة عملهم في سلام ، إلا سهيل بن حُنيف ، وآلي الشام الذي عُيِّن مكان معاوية ، فإنه لم يكد يصل أرض « تبوك » المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد .

ولما رجع إلى المدينة ، حاملا هذا النبأ إلى الإمام ، لم يُفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع ..

قميص عثمان

.. لم يخلع الإمام علي كرم الله وجهه معاوية وحده .. وإنما فعل ذلك بكثير من الأمراء الذين استجابوا لما ارتآه الخليفة لصالح المسلمين .. ولهذا كان رفض معاوية تسليم الولاية لسهيل بن حُنيف إنفاذاً لأمر أمير المؤمنين طعناً في الحق الذي ارتآه الإمام . وهو الذي لم يتعود قط على امتداد حياته العظيمة أن يكون هناك خيار بين المبادىء التي تفرضها العقيدة والإيمان ، والمصالح التي تولدها الأهواء والمنافع .

وذلك لسبب يسير ، هو أنه لم تكن له مصالح أبداً ..

كانت حياته رسالة .. وكان عمله وسلوكه تعبيراً وافياً عن هذه الرسالة ..

وهاهو ذا يتصرف الآن وفق هذا الإدراك لقيمة الحق ولقداسته .

لقد عزل « والياً » لا يراه أهلا لمكانه ، ورفض هذا الوالي تنفيذ أمر خليفته ، ورئيس دولته .

إذن ، فليتحمل مسئولية موقفه وتمرُّده ..

هنالك كتب إليه الإمام :

« .. أما بعد ،

فقد بلغَك الذي كان من مُصاب عثمان ، واجتماع المسلمين عليَّ ومبايعتهم لي ، فادخل في السِّلْم أو ائْذَنْ بحرب » .

كان يرجو أن تردع هذه الكلمات « معاوية » ، ولكن رد « معاوية » كان عجيباً .. فقد قال لرسول الخليفة : « عُد أنت إلى حيث جئت ، وسأرسل بجوابي مع رسول من عندي » .

وجاء المبعوث برسالة معاوية .. في ورقة طويلة .. عريضة ليس فيها من كلام سوى هذا السطر الواحد ..

« من معاوية بن أبي سفيان ، إلى علي بن أبي طالب !!!»

وارتسمت على شفتي « الخليفة » إبتسامة مريرة ، والتفت صوب مبعوث معاوية الذي كان قد نهض وراح يتكلم قائلا :

« أيها الناس، اسمعوا منى وافهموا عنى ..

« إني قد خلّفتُ بالشام خمسين ألفاً ، خاضِبِي لِحَاهُم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان ، رافعيهِ على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلَته أو تلْحَقَ أرواحهم بالله » ..!!

هذه إذن : رسالة « معاوية » .

وهذه خُطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد .

قميص عثمان ..!! »

فتن متلاحقة

تقول كتب السيرة :

لقد سارت الأحداث على النحو الذي ساعد معاوية ، بينما زاد الأمور صعوبة وتعقيداً تجاه « الإمام » .

فالسيدة « عائشة » رضي الله عنها ، وكانت قد خرجت إلى « مكة » معتمرة قبل مقتل « عثمان » قد جزعت لمقتله أشد الجزع .

و « الزبير » و « طلحة » من كبار أصحاب رسول الله ، وقد تركهما « الإمام » يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك . على الرغم من نصيحة بعض أصحاب « الإمام » له كي يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما .

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله رضي الله عنهما .. ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البصرة ، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان ..

وكان « الإمام علي » قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة معاوية التي مرَّ بنا ذكرها ، وقال الإمام :

« إن لأهل الشام وَثْبَةً أُحب أن أكون قريباً منها » ..

ولكنه ، وهو في طريقه إلى العراق ، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة ..

أيُّ رُزْءٍ هذا ، وأي ابتلاء ؟!

ألا يُترك ثأر « عثمان » للدولة تقوم به ، وتقتصُّ له في الوقت المناسب والفرصة الملائمة ..؟؟

لم يكن لدى « الإمام » ريب في اقتناع « السيدة عائشة » ، و « طلحة » و « الزبير » ، رضي الله عنهم جميعاً ، ببراءته الكاملة من دم عثمان .. ففيم إذن خروجهم ..؟

إن النبأ السَّاري يقول : إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان في البصرة ، وليستعينوا بصالحي البصرة وبقية أهل العراق ممن آسَفَهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين ائتمروا على حياته وخاضوا في دَمِه ..

ولكن هناك « دولة » على رأسها رجل مسئول لم تكن ذِمَّته ، ولا أمانته ، ولا ورَعه ، ولا شدَّته في الحق حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا ..

أفلا تترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل ، تُسوي هي ، ويسوي حاكمها مسألة عثمان ..؟

وإذا وقف فريق من الأمة يطالب بدم عثمان ، وفريق آخر يَدْحض ويقاوم هؤلاء المطالبين ، واشتبك الفريقان في معارك مسلحة فأين الدولة آنئذ .. أتجلس في شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة ..؟ وما مصير الإسلام كدين ..؟ وما مصير المسلمين كأمة ..؟

دارت على ذلك كله خواطر « الخليفة » واتخذ قراره سريعاً فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوي زمامه شطر البصرة .. وعندما شارفوا تُخومها نزلوا هناك بمكان يسمى « ذاقار » ..

مسؤوليات القدوة

.. **وسرعان** ما تحققت نبوءة عثمان وصدق حَدْسه . فإن موكب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لم يكد يستقر حتى وقع صدام مروع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوْا أن يسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا في مقتل عثمان ..

إنها إذن الحرب الأهلية التي حاذرها الإمام ..

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها ..

أليس هو رئيس الدولة ؟؟ فإما أن يكون كفواً لفرضِ احترام القانون والدولة .. وإما أن يدع مكانه لآخر من الأكفاء ..

وليس هناك يومئذ أكفأ من أبي الحسن ، وإن العظائم كُفْؤها العظماء !

لقد إعتاد « الإمام » دائماً أن يتصرف تصرُّف « القُدْوَة » .. فهو في كل حركاته ، وقراراته ، وأعماله يلتزم واجبات القدوة ..

وهو الآن وقد واجهته الفتن في موج كالجبال ، لن يلقاها بمسؤليات « الخليفة » فحسب .. بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات « القُدوة » !!

أجل .. بمسئوليات « القدوة » الذي ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقاً عاماً ، وقانوناً عاما لعصور مقبلة ، وأجيال وافدة ..

ولن نجد في حياة « عليّ » بكل عظمتها وعطائها ، أروع ولا أجزل من مواقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التي واكبت خلافته من أول ساعة إلى أن لقىَ رَبَّه .

هنا نلتقي بمُعلمٍّ كبير ، ليس من طرازه سواه .. « مُعَلِّم » لم يكن يعنيه النصر على خصومه ، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه .

إنما كان يعنيه — لا غير — أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مُشرِّفة لمسلم من الرعيل الأول ، سمع دَوِيَّ الوحي ، وصلى وراء محمد ﷺ ..!!

أجل .. صورة مشرفة لمسلم رباه القرآن ، وقدوةً صالحة لمواكب المسلمين القادمين مع الغيب القريب والبعيد ..!!

هذا هو الذي كان يعنيه .. وبعد ذلك ، ليكن ما يكون .. نصر ، أم هزيمة .. خلافة ، أم عزل .. حياة ، أم موت ..

لا شيء بعد القدوة الصالحة ، ترنو له النفس ، أو تحوِّم حوله الرغبـــة !!!

عندما جاءته أنباء الصدام في البصرة ، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته ، فلما وفدوا عليه ، زلزلوا الأفق بصياحهم ، وملأوه بسيوفهم المشرعة ، وراحوا يتعجلون « الإمام » ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير ..

وهنا تجلَّت فطنة الإمام ونور بصيرته ، فلقد استبان من الحماسة المشبوبة لأهل الكوفة ، أنهم كانوا على وشْك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة ، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التي هبَّتْ هناك في وجه طلحة والزبير ..

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك في الثورة على الخليفة الراحل « عثمان » ، فإن في أهل الكوفة من اشترك أيضاً . والآن وقد رأوا أنفسهم في مَهبِّ العواصف ، فقد تنادوا بالنصرة ، وتلاقوا على الحمِيَّة ..

فوضْعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملا حكيماً وحصيفاً ..

رأى « أمير المؤمنين » حماسة أهل الكوفة ، فأراد أن يهديهم سواء السبيل ، وراح يعلمهم أن الحق يُدرَك بأسباب كثيرة آخرها امتشاق الحسام .. وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالا ، فلا بد أن يكون مشروعاً وعادلًا .. وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد في إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام ..

هنالك دعا ــ القعقاع بن عمرو ــ وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين ، وطلحة ، والزبير ..

وفي البصرة بدأ « القعقاع » بمحادثة « أم المؤمنين » ، ثم جاء « طلحة » و « الزبير » فعقدوا اجتماعاً طال فيه الحوار .

وَندعُ « ابن كثير » المؤرخ الكبير ، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار .

القعقاع : يا أم المؤمنين ، ما جاء بك إلى هذا البلد ؟

أم المؤمنين : الإصلاح بين الناس ..

القعقاع : وأنتما ــ طلحة والزبير ــ ما جاء بكما ؟

طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس ..

القعقاع : فأخبروني كيف يكون هذا الإصلاح ؟

طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان ، وقتل قاتليه ..

القعقاع : لقد قتلتما قتلَته من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتلهم أصوب نهجاً منكم بعد قتلهم ، لأنكم قتلتم ستمائة ، فغضب لهم ستة آلاف ..!

.. وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو ــ حرقوص بن زهير ــ فلا تقدرون على إدراكه ، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه .. أفلا تعذرون ــ أمير المؤمنين علياً ــ إذا هو أخَّر قتل قتلة ــ عثمان ــ إلى أن يتمكن منهم ؟ إن الكلمة في جميع أقطار الإسلام مختلفة ، وإن خلقاً كثيرين من ربيعة ومُضَر ، قد تجمعوا ليشعلوها حرباً ضروساً ..! »

أم المؤمنين : وما ترى يا قعقاع ؟؟

القعقاع : أرى أن تُؤْثِرُوا العافية ، وتُعطوا البيعة ، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولا ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له » !!

وانتهى الحوار ــ كما يحدثنا ابن كثير ــ باقتناعهم بمنطق القعقاع ، واتفاقهم على أن يجيء الإمام عليّ إلى البصرة ليتم لقاء السلام .

ومما يروى هنا أن الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . سمعت في المنطقة التي تسمى بالحوأب وهي طريقها إلى البصرة نباح الكلاب ــ وتذكرت حديث رسول الله ﷺ وهو يقول :

« كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب »[1] .

فأرادت العودة إلى حيث أتت .. ولكن من معها من الناس حرضوها على الاستمرار .. وليقضي الله أمراً كان مفعولًا .

شـرف القتـال

عندما رجع « القعقاع » إلى « الخليفة » وأنبأه بما كان ، طار فؤاده فرحاً ، ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذ أسعد منه ولا أهنأ ..

لقد حُفظت دماء المسلمين فلن تُراق .. وليس مثل ذلك شيء يفيء على روح « الإمام » السعادة والغبطة .

ورحل أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى البصرة بمن معه من صحبه وجنده دون أن يكون معهم أحد ممن أعان على قتل عثمان رضي الله عنه ولو بشطر كلمة .

وفي البصرة .. حيث الموعد .. حط الإمام ورجاله رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح ..

ولكن ، كانت هناك عيون لا تنام ، ومؤامرات لا تغفو .. والله وحده يعلم حقيقة القوَى المخبوءة التي حرضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات ، وغيرت إتجاه الرياح !!

---

(١) في مسند أحمد ص ٥٢ ج ٦ .

التاريخ يُحدثنا ــ فيما يحدث ــ أن قتلة « عثمان » حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح ، معتقدين أنه سيتم على حساب رءوسهم ودمائهم حيث قالوا :

« إن تم الصلح فسوف يتفقون علينا ، ويفرغون لنا » .

.. ثم اتفقوا أن يفسدوا هذا الصلح وهذا الاتفاق بترتيب الهجوم في آخر الليل على معسكر طلحة والزبير وعائشة سراً ليظنوا أن علياً غدر بهم فيردوا الهجوم فيظن عليّ أن طلحة قد غدر بهم . ونفذوا عند الفجر ما اتفقوا عليه .

على أية حال ، فإن فجر اليوم الذي ضرب موعداً لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل من قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذي يقوده طلحة والزبير ، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون ..

ونهض الجميع إلى سيوفهم .. ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبْس وتفنيد المؤامرة ، ووقف الفتنة ، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة ..

وهكذا الْتقَى الجيشان في موقعة « الجمل » على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُنقذ به السلام !!

مضى القتال حامياً عنيداً ..

ومع كل رأس يميل ، أو معصم تُبتر ، أو ساق تقْطع .. بل مع كل قطرة دم تسيل ، كان قلب « الإمام » ينخلع ويذوب ..

لقد كان يُسْكِرُه الكرُّ والفرُّ في صراعه مع المشركين .

أما اليوم ، والقاتل والمقتول أبناء دين واحد ؟ وهو الخليفة المسئول عن هذه الأمة بكل دمائها وأرواحها ، فمن يُجيره من هذا الموقف ..؟؟ مَنْ يجيـــر ..؟؟

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به ، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس ..!

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل « عليّ » وبعضهم الآخر مع « طلحة والزبير » ..؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعليّ معاً .. حيث يسوُّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أية صورة ، فيقف جَرَيان تلك الدماء الغالية .

هنالك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ، ونادى : إليّ يا طلحة .. إليّ يا زُبيْر !!

وخرجا إليه .. وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان .

وصاح في « طلحة » صيحة احتشد فيها كل ما ورَّثه آباؤه من شرف ونخوة :

« يا طلحة .. أَخَبأْتَ عُرسَك في البيت وجئت بعُرسِ رسول الله تقاتل بها » ..؟؟!!

وزأر الأسد زئيراً هزّ أرجاء الأفق ، وسقط المطر فجأة .. وكأنما هي دموع السماء هزّتها روعة الكلمات وأساها ..!!

ثم التفت صَوْبَ الزبير ..

« وأنت يا زُبَيْر ..

أتذكر يوم ــ كذا ــ عندما رأيتني مُقبلًا على رسول الله فضحكت لي .. فسألك الرسول : أتحبه يا زبير ؟؟ فقلت : نعم .. فقال لك ! أما إنك لتقاتِلَنّه وأنت له ظالم » ..

كانت الكلمات « وكما يقول كاتبوا السيرة ممن نقلنا عنهم » تحتشد في فمه ثم تنفرج عنها ثناياه في مثل ألَقِ الشمس وعنفوان القدَر :

وصاح « الزبير » :

« أجَلْ ..

ولقد ذكّرتني بما كنت قد نسيت » .

وألقى سيفه إلى الأرض ، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلل الأرض أمامه .

وعاد « عليّ » إلى صفوف جنده ..

وغادر « طلحة » أرض القتال .. وغادرها « الزبير » ..

غادراها بعد أن سمعا من « الإمام » ما سمعا ..

وبعد أن علما أن « عمّار بن ياسر » يقاتل في جبهة الإمام عليّ . وتذكّرا ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار :

« تقتُلك الْفِئَةُ الباغية » !!

بيد أن الأضغان المريبة لم تدعهما ليذهبا بسلام .

فأما الزبير فقد تربصت به في الطريق عصابة آثمة قتلته ..!

وأما طلحة ، فلم يكد ــ مروان بن الحكم ــ الأموي يعلم عزمه على الانسحاب من القتال حتى تربص به ورماه بسهم أنهى حياته .!

لم يبق لجيش البصرة من قائديه أحد ..

لقد ذهب عنه طلحة ، والزبير .. بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم .

هنالك لم يجد الراغبون في استمرار القتال سوى « أم المؤمنين » في هودجها فوق ظهر الجمل الذي كانت تمتطيه مشرفة على القتال ..

ورأى الإمام أن خُصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها .

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة ، منوطان بنهاية هذا الجمل .

وأُشير عليه ، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه .. وأوصى بعض أصحابه وجنده ، أن يكونوا على أقرب قرب مستطاع من الجمل ، حتى إذا عُقر وسقط ، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم ، وتلقّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء .

وجاء علي بن أبي طالب إلى هودج عائشة فقال لها : كيف أنت يا أمه ؟

قالت : بخير .

قال : يغفر الله لك .

فقالت : يغفر الله لك .

ودعا إليه « محمد بن أبي بكر » فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أعدت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة في أمْن ، وإكرام ، وسلام .

ثم وقف « الإمام » بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :

« لا تتّبِعوا مُوالياً .. ولا تُجْهِزُوا على جريح .. ولا تنتهبوا مالا .. ومن ألقى سلاحه فهو آمن .. ومن أغلق بابه فهو آمن » ..

يقول المؤرخون : « فكان أتباع الإمام يمرون بالذهب والفضة ، فلا يعرض لهما أحد » ..

لقد نفذوا أمر الإمام في مرارة وضيق . أو هكذا كان شأن بعضهم على الأقل .. مما جعلهم يسألون الإمام :

كيف حلّ لنا قتالهم ، ولم يَحِلَّ لنا سَبْيُهم وأموالهم .؟

فأجابهم الإمام :

« ليس على الموحِّدين المؤمنين سَبْي ..

ولا يُغْنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به عليه » ..

كان « الخليفة » يعلم أن نهيه هذا سيؤلب بعض مؤيديه من ضعاف النفوس .. ولكن لينفضَّ عنه الناس أجمعون إذا كان إيثارُه الحقَّ سيظلُّ قصده وسبيله !!

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل .. كما يروى كاتبوا السيرة :

لقد كان الإمام يجلس في داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه ، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول :

ــ عمرو بن جرموز قاتل « الزبير » يستأذن في الدخول ..

وأذن « الإمام » بدخوله ..

ودخل « القاتل » .. مَزْهُوًّا فخوراً ، يظن أن الخليفة سَيهشُّ له ، ويستقبله استقبال الأبطال .

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ في وجهه :

ــ أهذا الذي تحمله سيف الزبير ..؟

قال وقد هزمت غرورَه صرخة الإمام :

نعم هو .. سلَبتهُ منه بعد أن قتلتهُ !!

فأخذه منه « الإمام » بيمينه .. ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه في خشوع إلى فمه .. ثم قبَّله في حنان وحزن ، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه :

« سَيفٌ طالما ــ والله ــ فرَّج به صاحبُه الكربَ عن رسول الله » !!

ثم صوَّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له :

« أما أنت ، فأبشر يا قاتل ابن صَفِيَّةَ بالنار » ..

وخرج « عمرو بن جرموز » يتعثر في خِزيه ، وخيبة أمله ، ويقول :

« عجباً لكم .. نقتل أعداءكم ، وتبشروننا بالنار ..!!! »

وفي رسالة « فضل أهل البيت » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « ص ٢٩ ، ٣٠ » قال :

وقد ثبت عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من وجوه أنه لما قاتل أهل الجمل لم يسب لهم ذرية ، ولم يغنم لهم مالا ، ولا أجهز على جريح ، ولا اتبع مدبراً ، ولا قتل أسيراً ، وأنه صلى على قتلى الطائفتين بالجمل وصفين ، وقال : « اخواننا بغوا علينا » . وأخبر أنهم ليسوا بكفار ولا منافقين ، واتبع فيما قاله كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن الله سماهم إخوة ، وجعلهم مؤمنين في الاقتتال والبغي كما ذكر في قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ (الحجرات : آية ٩) ..

تلك عظمة ربيب الوحي ، وسابق المسلمين .. تلك عظمة الرجل ، والبطل ..

تلك عظمة الخليفة ، والقدوة ، وإنها لعظمة لن تكُفَّ عن توكيد ذاتها ، ما دام صاحبها حياً يمارس العظائم ، ويصوغ المكرُمات ..

إن الأبطال الأُصَلاء العظماء ، لا ينشدون النصر .. مجرد النصر .

إنما هم ينشدون النصر عفًّا ، شريفاً ، عادلا .. فإذا لم يأتهم النصر مُوَشّى بهذه الفضائل ، فلا خفقتْ راياته ، ولا دقت طبوله !! »

« إن للمتقين مفازا » .. !!

.. لم يخرج الإمام من المدينة المنورة يبغي حرباً .. ولا هو خرج يريد قتالا .. أو ينال من عدو نيلًا .. وإنما جاء الكوفة ليرقب الأحداث التي سيثيرها معاوية بامتناعه عن الامتثال لأمر الخليفة الذي رأى فيه صالح الإسلام ومصلحة المسلمين . وقد احتمل الأمانة وتولىٰ أمرهم بمُبايعة الناس له بالخلافة وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ .

من أجل هذا خرج الإمام وصحبه ومن بينهم الصحابي الجليل عمار ابن ياسر الموعود وآله بالجنة بنص الحديث الشريف :

« أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة »

وعمار رضي الله عنه هو الذي قال له الرسول ﷺ : « تقتلك الفئة الباغية »

.. فإذا بالأحداث تفرض على الإمام وصحبه الدخول في معركة إنتهت بانسحاب المناوئين وقد أدركوا بوجود عمار بن ياسر محارباً في جبهة الإمام خطأ مسعاهم .. وانتصار الإمام عليّ على الفتنة وعلى الشر لصالح الحق الذي نذر نفسه للدفاع عنه ..

ألم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول :

﴿ **ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتَّبِعْها ، ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يعلمون** ﴾ (الجاثية : آية ١٨) ..

.. من هذا المنطلق .. وعلى هذا البنيان التي تكون منه .. وسار عليه يخطب أصحابه في أول جمعة له بالكوفة ..

إنه أمير المؤمنين .. ومع ذلك ليس في الخطاب ما يدل على ذلك .. فلا قرارات .. ولا أوامر .. ولا حتى تحيزاً لرجاله على ما ستحمله قادم الأيام .

هاهو كرم الله وجهه .. يخطب فيقول :

« .. أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباده ، وأقرب الأعمال لرضوانه ، وأفضلها في عواقب الأمر عنده .

وبتقوى الله أُمِرْتم ، وللإحسان خُلِقْتم ..

فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه ، فإنه حذَّر بأساً شديداً .

واخْشَوُا الله خشيةً ليست بتعذير ، واعملوا من غير رياء ولا سُمعة ، فإن من عمل لغير الله وَكَلَهُ الله إلى ما عمل ، ومن عَمِل مخلصاً له تولاه الله ، وأعطاه فضل نيته .. وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً ولم يترك شيئاً من أمركم سُدى ، قد سَمَّى آثاركم ، وعلم أسراركم وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم فلا تَغُرَّنكم الدنيا ، فإنها غرَّارةٌ لأهلها ، والمغرورُ من أغْتَرَّ بها ..

وإن الآخرة لهي دار القرار » .

لا شيء من ذلك كله يضمّنه الخليفة والإمام خطابه .

إنما هي الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته ..

كذلك نراه ونرى إسلامه الوثيق حين لم يعد له بُدٌّ من لقاء معاوية في معركة « صِفّين » يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً ، فلا يَعِدُهم ولا يمنّيهم ، ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ، ثمناً للنصر إذا هم ظفروا به ..

إنما يحدثهم حديثاً آخر يختلف عن كل الأحاديث التي تتطلبها أمثال هذه المناسبة .

أنظروا .. « ألا إنكم ملاقو القوم غداً .. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسَلُوا الله الصبر والعفو والعافية » .

في أوقات السلم ، وفي أوقات الحرب ..

فوق ثَبَج النصر ، وتحت وقع الهزيمة .. في سرَّائه ، وفي ضرائه ، لا يستولي على تفكيره ، وعلى ضميره ، وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه ..!! »

موقف .. وموقف

.. **في الشام** .. حيث لا يعرف أهلها من تاريخ الإمام عليّ وجهاده مع الرسول ﷺ والشيخين .. ومواقفه مع عثمان ودفاعه عنه ووضع إبنيه لحمايته .. وضربه لهما عندما فجع بخبر قتل الخليفة رضي الله عنهما جميعاً .

هناك .. رفع معاوية رحمه الله .. قميص عثمان حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبي لحاهم بدموع أعينهم ، رافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قَتَلَةَ عثمان ، أو تلحق أرواحهم بالله ..!!

فيم كل هذا ..؟ ولِمَهْ ..؟؟

يقول كاتبو السيرة :

.. حقاً إن قتل الخليفة الشهيد « عثمان » كان أبشع جريمة أُرتكبت في تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم .

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه ، والقصاص له ..

إن ذلك كان يمثل أيضاً احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها ..

« الإمام عليّ » نفسه ، كان يطالب بدم « عثمان » ولكنه وقد صار على رأس الدولة ، فإنه لم يعد مُجرّد مطالب بالدم .. بل صار السُّلطة التي عليها أن تنزل القصاص .

ولما كان المشتركون في قتل عثمان والمحرضون عليه ، ألوفاً ، وليسوا عشرات ، أو آحاداً . ولما كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية . فضلا عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التي طرأت على الدولة ممثلة في معركة الجمل ، وفي تمرد معاوية وأهل الشام ، فإنه لم يكن ثمت فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الخضم المضطرب وتلك الفوضى .

و « عبد الله بن عباس » ابن عم الإمام عليّ . وأحد قواده في حروبه كلها ، طالب أيضاً بدم عثمان ، بل قال في ذلك كلمة تغني عن كل مقال في ذلك المجال .

قال رضي الله عنه :

« لو لم يطالب الناس بدم عثمان لأمطرت السماء عليهم حجارة » .!!

ففيم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين عليّ ، وفيم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله .؟؟

ها هو ذا « معاوية » بالشام لا يضيع لحظة من وقته في التجهيز لمعركة كبرى . ها هو ذا يثير الجموع ضد الإمام ، فأين الإمام الآن ؟

الإمام في الكوفة بين أصحابه .. وكل اهتماماته صالح الرعية .. وكما تقول كتب السيرة التي نقلنا منها وعنها . ولا نزال ..

انظروا .. ها هو ذا قد رحل عن البصرة ، وسار بأصحابه حتى نزل الكوفة ..

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله ، فراح يمارسها بطريقته الفريدة ..

بدأ ببيت المال ، فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال ، وقسمها على مستحقيها ..

ويقترح عليه بعض مرافقيه أن يستأني في الأمر ، وأن يستبقي من المال ما سيحتاجه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات ، فيرفض . ثم يمعن في غايته حتى إذا فرغ بيت المال مما فيه ، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء .. حتى إذا تم ذلك ، قام فصلى فوق أرضه المغسولة ركعتين .!!

كانت هذه الصلاة في بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزاً لمعنًى جليل .

كانت إيذاناً بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويستردُّ الورع والتُّقي نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً .!

ثم دُعي لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامته في شموخ وفتنة .. فلا يكاد يبصره حتى يُوَلِّيَ عنه مُدْبراً وهو يقول :

« قصرْ الخَبَالِ هذا ، لا أسكنُه أبداً » !!

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به ، فهو أرحب ، وأنسب ، فيُصر على رفضه ويقول :

« لا حاجة لي فيه : إن عمر بن الخطاب كان يكرهه » ..

ويمشي في أسواق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسِنِّ الكهْل ، فيحمل عنه حاجته ويتحرَّج أصحابه مما يرون ، فيقتربون منه : يا أمير المؤمنين .

ولكنه لا يدعهم يُتمُّون حديثهم ، بل يتلو عليهم قول الله تعالى : **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾** (القصص : آية ٨٣) ..

ويشتري حاجات أهله وبيته ، ويحملها بيده فإذا اقترب منه بعض مرافقيه ليحملوها عنه أبىٰ وقال وهو يبتسم لهم :

« أبو العيال أحق بحمله » !!

ويرتدي « الخليفة » جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم .. ويركب حماراً ، وقد تدلّت على جانبيه ساقاه ، وكأنه واحد من فقراء البادية .. ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين .. فيجيبهم قائلا :

« دَعُوني أُهِنْ هذه الدنيا » !!

أجل .. ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان . وأن يعيش كما كان رسوله ومُعلمه يعيش . في تواضع النبوة ، لا في بهرجة الملك .. وفي انتظار الآخرة ، لا في الرُّكون إلى الدنيا ..

ولقد أحسن وصفه « عمر بن عبد العزيز » رضي الله عنه حين قال :

« أزهَدُ الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب ».

كما أحسن وصفه « الحسن البصري » رضي الله عنه حين قال :

« رَحِمَ الله عَلِياً كان رهباني هذه الأمة » ..

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة في بيعته ، عدا الشام ، فقد كانت بها دنيا هائلة من المؤامرات تتحرَّك ضده ، وتتهيأ لفرض القتال عليه ..!!!

معاوية بالشام ، يحض الناس على سَبِّ الإمام وَشَتْمه ..

والإمام بالكوفة ، ينهى في حسمٍ وقوة عن شَتْم معاوية . ويقول لأصحابه :

« .. قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصْلِحْ ذات بيننا وبينهم » ..!!

معاوية بالشام ، بين القصور الباذخة ، والمطاعم الرافهة ، والأموال التي تأتي بغير حساب ، وتُنفق في خدمة طموحه بغير حساب .

و « عَليٌّ » بالكوفة ، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ، ويأكل الطعام الجَشِب اليابس ، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين في عدالة لا تعرف الميل ، وفي ورع لا يعرف الهوى !!

وهكذا .. كان الحال .. موقف يبتغي الدار الآخرة .. وموقف يبغي غرض الدنيا » .

لا نصر بالجور

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام في العراق ، ومعاوية في الشام .

منهم من يبحث عن الحق ليهتدي إليه ويقف إلى جانبه ..

ومنهم من يبحث عن المغنَم الأكثر ، والفرصة الأحسن .

كانت الشام تسخو بالأمانيّ والوعود كما كانت تسخو بالأموال والعطايا ..

وكان العراق يهتف بكلمة واحدة :

« من اهتدى ، فإنما يهتدي لنفسه ومن ضَلَّ ، فإنما يَضِلُّ عليها » .

وبعد هذا ، لا أمانيّ ولا وعود .. لا رشوة .. ولا مغامرة بأموال الأمة .. كما يفعلُ خُصومه .. مهما تكن المخاطر والعواقب .

وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه ، يرجونه أن يتألّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة ، يصيح بهم الإمام :

« أتأمرونني أن أطلُب النصر بالجور » !؟

ويقف ــ معاوية ــ وسط الوفود الزائرة ، يخطبهم تحت قميص عثمان ، فيتهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته ..

في حين يقف الإمام في العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص القضية كلها في كلمات تناهت في الصدق والوضوح وعفة المقال :

« .. أما بعد ، فإن الله بعث نبيه ﷺ ، فأنقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبضه الله إليه وقد أدَّى ما عليه .. ثم استخلف الناس أبو بكر ..

ثم استخلف أبو بكر عمر ..

ولقد أحْسَنَا السِّيرة ، وعدَلا في الأمة ..

وقد وجدنا عليهما أن تولَّيا الأمر دوننا ونحن آل الرسول أحقُّ بالأمر . ولكنا غفرنا ذلك لهما ..

ثم وَلِيَ أمرَ الناس عثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم جاءني الناس وأنا معتزل أمرهم ، فقالوا لي : بَايِعْ ، فأبيتُ عليهم ..

ثم عادوا فقالوا لي بايع ، فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايَعْتُهم .

« فلم يُرْعنى إلا شقاق رجلين قد بايعاني .. يقصد طلحة والزبير .. وخلاف معاوية إياي .. هذا الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سَلَفَ صدْقٍ في الإسلام .. طليق ابن طليق .. دخلا في الإسلام كارِهَين مُكْرَهَيْنِ .. يعني معاوية وأبا سفيان ..

إني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيكم .

أقول قولي هذا ، واستغفر الله لي ولكم » ..!!

هذه هي القضية ، يعرضها الإمام في وضوح ..

فلقد أفْلَتَ الزمام فعلا من يد الخليفة الراحل عثمان ، بسبب ثقته المفرطة في بعض أقربائه من بني أُمَيَّة الذين لم يُحْسنوا الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورُعاةٍ للأمة .

ولطالما نصحه الإمام وحذّره العواقب ..

ولما وقعت الواقعة كان أكثر الناس هماً وكرباً ..

وراح يهتف ويصيح :

« اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . اللهم إني لم أقْتُل ، ولم أُمالىءْ . اللهم العن قتلة عثمان » .

محاولات يائسة

وتقول كتب السيرة : وكما هي عادته حاول بكل جهده منع المصادمة والقتال وأرسل مع جرير بن عبدالله البجلي رسالة إلى معاوية . يعلمه فيها باجتماع الأنصار والمهاجرين على بيعته ، ويدعوه إلى البيعة والطاعة .

وسافر جرير إلى الشام ، واجتمع بمعاوية ، وبعض أصحابه حوله ، فسأله معاوية : ما وراءك ؟

فقال جرير :

« لقد اجتمع لعليّ أهل الحرمين .. مكة والمدينة .. وأهل المِصْرَين .. البصرة والكوفة .. وأهل الحجاز وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل عُمان ، وأهل البحرين واليمامة ..

ولم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها .. الشام .

لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها ..

وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك » ..

وسلمه الخطاب الذي يحمله ..!!

.. ونظر معاوية في الرسالة التي كانت تهدي إلى الحق .. ثم قال لمبعوث الإمام جرير بن عبد الله :

« الحقْ بصاحبك واعلمه أني وأهل الشام لا نجيبه البيعة حتى يقتل قتلة عثمان ، أو يسلمنا إياهم » .

فرجع جرير إلى عليّ بالجواب ووصف له ما شاهده في مسجد دمشق وقال له :

لقد رأيت قميص عثمان على المنبر والناس يبكون عنده ويندبون عثمان ويعاهدون الله على الأخذ بثأره .

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه .. ولقد وصف هُتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً فقال :

« كِلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطل » .

شـرف القتـال

أدرك « الإمام عليّ » أن معاوية مزهُوٌّ بجيشه ، وبقوة أهل الشام الملتفين حوله ، كما أنه لا يقدرُ قوة الإمام قدرَها .

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه ، وأراه بعض قوته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة ..

ومن ثمَّ رأى أن يزحف إلى الشام ، ويُصَبِّحَ معاوية بصيحة عابرة ، لكنها زاجرة .. ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام ..

غادر الإمام معسكر النُّخَيْلة بالكوفة .. وغادر معاوية الشام والتقى الجمعان في « صِفّين » .

وتُفاجئنا الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد « ابن أبي طالب » .. مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه .

فعندما بلغ معاوية وجيشه « صِفّين » شرقيَّ الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد الذي يفضي إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا عليه عشرة آلاف حارس ، ليمنعوا جيش « الإمام » من الوصول إلى الماء !!!

ولما وصل « الإمام » بجيشه وعسكروا في ذات المكان ، انطلق سَقَّاؤوهُم ليجيئوا لهم بالماء فوجدوا جيش الشام قد احتل الطريق كله .

وأرسل الإمام لمعاوية ، يذكره بشرف القتال .. ويدعوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين .. لكن معاوية ومن أشاروا عليه رفضوا ..

وقضى أصحاب « الإمام » يوماً وليلة بلا ماء . وجفَّت حلوقهم وأشرف الضعاف منهم على الموت .

وفي الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين ، يقودها الأشعث ابن قيس ، والأشْتر ، فكنَست قوات معاوية كَنْسًا من طريق الماء ، واحتلته

كله .. وأصبح مفتوحاً أمام جيش الإمام ، ومغلقاً تماماً أمام جيش معاوية ..!!

وْلنُصْغ لهذا الحوار الذي دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء :

عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم ـــ يا معاوية ـــ إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس ..؟!

معاوية : دع عنك ما كان ـــ يا عمرو ـــ ولكن أتظن علياً يصنعها ..؟!

عمرو : ما أظن « علياً » يَسْتَحِلُّ منك ما استحَلَلْتَ منه ، فإنه لم يأتِ لِيُظْمِئك ، بل جاء لغير ذلك .

وبالفعل فلقد كان أول أمر أصدره « الخليفة عليّ » فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب ، ولا يمنع عنه شارب .. وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة ، لأن « علياً » بعظمته وبرجولته كان هناك ..!! »

لا مفر من الحرب

.. سار عليّ رضي الله عنه إلى الشام بجيش قوامه مائة وعشرون ألف مقاتل واتجه إليها عن طريق الرقة واجتاز نهر الفرات وتوقف عند صفين .

وسمع معاوية بمسير عليّ فهيأ جيشاً قوامه تسعون ألف مقاتل . وتحرك به نحو صفين فالتقت طلائعه مع طلائع جيش عليّ وجرت بينهم بعض المناوشات قبل أن يستقروا في أماكنهم .. ثم أخذ كل جيش موقعه واستقرّ فيه .

ولم تحدث أية مناوشات بعد الإستقرار في الأمكنة . لكن كل جيش كان متربصاً بالآخر ومراقباً له .

وكما هي عادة عليّ رضي الله عنه لا يبدأ بالقتال حتى يستنفد فرص الصلح والمحاورة . فندب إليه أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية وتحدثوا إليه قائلين :

« إن صاحبنا لَمَنْ قد عَرَفْتَ وعرف المسلمون فضله ، ولا نظنه يخفى عليك . إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ عليه السلام ، ولن يُفاضِلوا بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف .. علياً .. فإننا والله ما رأينا رجلًا قط أعملَ بالتقوى . ولا أزهدَ في الدنيا . ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه » .

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله ..؟؟

انظروا ماذا كان جوابه :

« إن صاحبكم قَتَلَ خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلَتنا ..

وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله . ونحن لا نردُّ ذلك عليه . فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به ، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » ..

.عاد الوفد إلى الإمام ، يحملون إليه كلمات معاوية فتلقاها الإمام في أسى . ثم تلا قول الله تعالى :

﴿ إنك لا تُسْمِعُ الموتى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبرين ، وما أنت بهادي العُمْيِ عن ضلالتهم ، إن تُسْمِعُ إلا من يؤمنُ بآياتنا فهم مسلمون ﴾ (النمل : آية ٨٠ ، ٨١) ..

وإذ كانوا يومئذ في شهر المحرم ، وهو من الأشهر الحُرُم التي لا يحلُّ فيها القتال ، فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال ..

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يَدْهَم جيش معاوية بقوات كبيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل ..!

وعند غروب الشمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً .

ودعا « مرثد بن الحارث » وأمره أن يعلُو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات :

« يا أهل الشام ..

إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدَمْتكُم واستأنيْتُ بكم لتراجعوا الحق وتُثيبوا إليه ، واحتجَجْت عليكم بكتاب ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق .

وإني قد نَبذْت إليكم على سواء ، إن الله لا يُحب الخائنين » !!

أبى أن يأخذهم على غِرَّة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت ومن الجهد في كسب المعركة .

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع في السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن العصيان .

آذنهم « الإمام » بالقتال إذن ، على النحو الذي أسلفنا ، وعاد يُعَبِّىء قواته ، وأصدر إليها توجيهاته في القتال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حُجَّة ..

وتركُكُم إياهم حتى يبدءوكم حُجةٌ أخرى لكم عليهم ..

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم ، فلا تقتلوا مُدْبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل .

فإذا وصلتم إلى رحالهم ، فلا تهتكوا ستْراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ..

ولا تقربوا النساء بأذى ، وإن شتمنكُم وشَتَمْنَ أمراءكم وصُلحاءكم **﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كثيراً لعلكم تُفْلِحُون ﴾** (الجمعة : آية ١٠) .

والتقى الجيشان في وقعة صِفِّين .. ودارت المعارك ضارية مُثيرة وطالت واستطالت حتى عجّت الأرض بالدماء ، وغطتها جثث الضحايا .

وجزع الإمام لكثرة الضحايا .. وفي سبيل أن يحسم الأمر ، ويصون الدم ، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه ، ليخرج إليه فما خرج .. فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه :

« يا معاوية ..

« لِم تُقتل الناس بيني وبينك ؟ أبْرُزْ إليّ . فأيُّنا قَتَل صاحبه تولّى الأمر من بعده » .

واستشار معاوية صديقه « عَمْراً » فقال له :

لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضبته مشورة « عمرو » ووجد فيها إحدى مكايده للتخلص منه ، لأنه يعلم أن « علياً » ما بارز أحداً إلا صرعه !!

ولكي يبعد « عمرو » هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

إني خارج إلى « عليّ » غداً ، فمُبارزُه .

وفي اليوم التالي ، وقد تأهب كلا الجيشين لاستئناف القتال ، وقف « عمرو » ونادى « الإمام علياً » لمبارزَته .. وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوي بسيفه على « عمرو » ليجلّله به قذف بنفسه على الأرض ، وتمدَّد عليها في استسلام ، وفزع ، وضراعة .. فألقى عليه « الإمام » نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً .

خدعة بالمصحف

لقد قتل جيش معاوية .. عمار بن ياسر الذي كان في جبهة الإمام فازداد حماس جيش الإمام وهم يذكرون حديث رسول الله ﷺ لعمار رضي الله عنه : « تقتلك الفئة الباغية » وخاف عمرو بن العاص من النتيجة .. فاقترح على معاوية بقوله :

« لقد أعددتُ بحيلتي أمراً أدخرتُه لهذا اليوم ..

ترفع المصاحف .. وتدعو إلى تحكيم القرآن ..

فإن قبلوا التحكيم اختلفوا .. وإن ردوه اختلفوا أيضاً » .!

وهذا هو الذي حدث .. فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف حتى نشب الخلاف ..

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خدعة ، فحذَّر قومه منها .. لكنّ ـ الأشعث بن قيس ـ ونفراً من القراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الإحتكام إلى كتاب الله .

قال الإمام :

« أنا أحق مَن يجيب إلى كتاب الله ، ولكني أعرَفُ بهم منكم ..

إنها كلمة حق يُراد بها باطل .. وإني ما قاتلتُهم إلا ليدينوا بحكم القرآن ، فكيف أرفُض اليوم حكمه ..؟

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن .

إنما هي الخدعة ، والوهْن والمكيدة .

فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه » !!

لكن المعارضة بلغت أوجها في سرعة مُريبة ، وتولّى « الأشعث » كِبْرَها ..

كان « الأشْتر » بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعي .. وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى (عَدْوَة فَرس) على حد تعبيره .. فطلب الأشعث ومن معه من الإمام أن يُرسل لاستدعائه .. وأرسل الإمام يستدعيه ، فجنَّ جنون « الأشتر » وقال للرسول :

« ارجع وأنبئهم أنها لحظات ، وينتهي كل شيء ، فكيف أعود .؟»

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم ردَّ « الأشتر » هذا حتى هددوا بعمل مسلح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد « الأشتر » على الفور !!

خداع الحكم

.. أصر أنصار التحكيم من جيش الإمام وقالوا له « كما تقول كتب السيرة » :

يا عليّ أجب إلى كتاب الله وابعث إلى الأشتر أن يتوقف عن القتال ويأتيك .

فحاول عليّ منعهم فهددوه بتركه وحده في ساحة القتال إن هو ترك الأشتر !!

فأرسل إليه ثانية وأصرَّ عليه وحذره من الاستمرار في القتال وإلا فإن الفتنة ستقع في الصفوف ، فتوقف الأشتر وهو يقول إنها خدعة ورجع إلى عليّ وجادل أصحابه المتوقفين لكنه لم يستطع إقناع أحد منهم مما جعل عليّاً ينادي ويأمر من ينادي ويقول :

« قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينكم حكماً » .

وأرسل الأشعث بن قيس إلى معاوية ليسأله لأي شيء رفعتم المصاحف ، فقال له معاوية :

« لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه ..

تبعثون منكم رجلًا ترضون به ونبعث منا رجلًا . ثم نأخذ عليهما عهداً أن يعملا بما في كتاب الله لا يَعْدُوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه .

فأخبر الأشعث علياً بالاقتراح . فرضي الناس به وقال الذين أجبروا علياً على الوقوف : إننا نختار أبا موسى الأشعرى حكماً . فاعترض عليّ رضي الله عنه وقال : اختاروا غيره ، واقترح عليهم أن يكون عبد الله بن عباس أو الأشتر ، فرفضوا وأصرُّوا على إرسال أبي موسى .

فقال لهم : أرسلوا من شئتم . فقد عصيتموني في الأولى وها أنتم تعصونني في الثانية . وتم اقتراح أبي موسى الأشعري .

واقترح معاوية أن يكون عنهم عمرو بن العاص .

واجتمع الفريقان لكتابة نص الاتفاق وكتبوا الكتاب وكان يتضمن عدة نقاط منها :

ــ النزول عند حكم الله في ما اختلف فيه عليّ ومعاوية وهو قتل قتلة عثمان .

- المهادنة بين عليّ ومعاوية .
- تحديد شهر رمضان لاجتماع الحكمين في دومة الجندل .
- حضور شهود من كلا الطرفين مع الحكمين .

وكان التوقيع عليه في شهر صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة .

وانتهت معركة صفين بهذه الهدنة ، وبدأت بعدها معارك كثيرة ، دارت مع الخوارج الذين انفصلوا عن عليّ بعد رجوعه من صفين مباشرة . وأهم المعارك كانت معركة النهروان ، ودارت مع أصحاب معاوية الذين تجرأوا وأصبحوا يهاجمون أصحاب عليّ في أماكنهم .

إخلال بالعهد

وسارت الأمور سيرها المعروف .. فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم ، إمامهم وخليفتهم .

ودعا « عمرو » أبا موسى لكي يبدأ الحديث ..

وبدأ « أبو موسى » وخلع علياً ، ومعاوية ..

ثم تلاه « عمرو » فقال : « إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإني أخلعه كما خلَعه .. وأُثبِتُ معاوية ، فهو أمير المؤمنين والمطالِب بدم عثمان فبايعوه » ..!!

وثار « أبو موسى » لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال ، من جديد !!

ولكن ضدَّ مَن سيعود ..؟؟

إن عظمة هذا الرجل .. عليّ بن أبي طالب .. لَعظمة فريدة .. لكأنما كان يُحركه من أعماقه ولعٌ شديد بأن يذهب عن الحياة ــ يوم يذهب ــ شهيد مُثُله ، ومبادئه ، وإيمانه .. شهيد استقامة المسلك ، وإستقامة القصد ، واستقامة الضمير ..

لقد واتته الفرصة لِدَحْض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين ..

وذلك حين راح الأشعث بن قيس .. يمرُّ على جماعات الجيش المبثوثة هناك تاليا عليها وثيقة التحكيم ، فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير .. قائلة : « لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم . وها نحن نرجع عن الخطأ ، لا حكم إلا لله » ..

ولو تقدم الإمام فتبنّى (مجرد التبنّي) هذه المعارضة الجديدة للتحكيم لأمكن تغيير الاتجاه ، ولكنه قال عندما بلغه النبأ ..

« .. أوَ بَعدَ أن أعطينا العهد والميثاق ..؟! »

لك الله أبا الحسن !!

أتُراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف ، في معركة كان الشرف عنها غائبا ، وفيها غريباً ..؟!

رفض أن ينقض ميثاقا أعطاه .. والغدر يحيط به من كل جانب .. وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها أو كما تنبأ بها عمرو بن العاص ..

فقد مزّق الخلاف أصحاب الإمام . وفي سرعة غريبة أيضاً تحولوا إلى شيع يقاتل بعضها بعضاً .. بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بألأم عصيان !!

المنطق الأعوج

ويقف الإمام رضي الله عنه .. من بعد ذا .. بين فئتين كما تقول كتب السيرة التى نقلنا عنها ولا زلنا :

أولاهما : في الشام تصيح : « يا لثارَات عثمان » !!

وثانيتهما : في العراق تصيح : « لا حكْمَ إلا لله » !!

ولئن كانت الأولى ، أعتى وأوسع ، فإن الثانية أمضُّ وأوجع . دلك أن ذويها ومُشْعِليها هم الذين كانوا بالأمس لا غير ، أتباعه وجنده .. وهم الذين أصرُّوا أو أصر أكثرهم على قبول التحكيم حين كان هو يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه .

وهم الذين أصرُّوا ، أو أصرَّ أكثرهم على اختيار « أبي موسى الأشعري » حين كان هو يدعوهم في إلحاح إلى اختيار « عبد الله بن عباس » لأنه القادر على فَلِّ دهاء « عمرو » ودحض مناوراته ..

هم أولئك بالأمس .. وهم هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا به وفق هواهم ، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع في أفئدة الآمنين ، وهم ــ أخيراً ــ الذين يضطرونه ليحمل السلاح في وجوههم ..!

لقد حاول أن يصابرهم ، ويحملهم بمنطقه على الرُّجعَى . ولكن الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم ..

ولقد فقد الإمام كل أمل في هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خَبَّاب وزوجه ، والطريقة التي قتلوهما بها ..

إن « عبد الله » ابن صحابي جليل .. كان إسلامه ، وكانت حياته روعة وبهاء ..

ولقد لقيه « الخوارج » هو وزوجته في طريق سفرهما ، فاعتقلوهما وسألوا « عبد الله » أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله فقال لهم :

« سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من السّاعي » .

وسألوه عن « الإمام عليّ » فقال فيه خيراً ، فاقتادوه وزوجته .

والآن ، لننظر هذه المفارقة المضحكة والمفجعة ..

فبينما هم ماضون بهما ، سقطت ثمرة من نخلة ، فتلقاها أحد الخوارج بفمه . وقبل أن يمضغها صاح به زميل له : كيف تستحلها بغير إذن من صاحب النخلة ، وقبل أن تدفع ثمنها ؟؟ فألقاها من فمه وراح يندم ويستغفر ..!

وبعد خطوات سيرهما .. تقدموا من « عبد الله بن خبّاب » فذبحوه ..!

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته ، فصاحت من الفزع : « إني حُبْلى ، فاتقوا الله فيَّ » .

ولكنهم ذبحوها هي الأخرى ، وبقروا بطنها عن جَنِينها ؟؟

أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس .. قد علم الله ما في قلوبهم ، فطهَّره من صُحبتهم تطهيراً » ..!!

إغتيال الإمام

لـم يكد مقتل « عبد الله بن خبَّاب » يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون في أرض الناس فساداً ، فلوَى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان ، حيث لقي الخوارج في معركة فاصلة أباد فيها جَمعهم ، وشتَّت شملهم ، وطوَّح رءوس قادتهم وزعمائهم .

وأحس المسلمون في كل مكان .. وفي العراق خاصة أنهم ضالعون في الإثم ، شركاء في الوِزر ، يوم تخلَّوا عن « البطل » وتركوه وحده في الفضاء الموحِش بين الوحوش والذئاب !!

وراحوا يبكون ، ويُولْوِلُون ..

لقد أحسوا فجأة بالفراغ القاتل الذي خلَّفه لهم غياب أبيهم الحنون ، الطيب العادل ، الرحيم .

أقول : يترحَّمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة ..

أقول : يترحمون ..

أجَلْ ، فقد نسيت أن أقول لكم : إنه مات .. قُتِلَ غيلة .. استشهد البطل والخليفة والإمام .. وهو يقترب من باب مسجد الكوفة ، وقيل : بل وهو يصلي ، أو يتهيأ للصلاة .. بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر .. ويناديهم بصوته الجليل :

« الصلاة ، أيها الناس ..

الصلاة ، يرحمكم الله »

اقترب منه في لُجَّة الظلام واحد من الخوارج اسمه .. عبد الرحمن بن مُلْجِم .. كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الإمام « بالعراق » ، ومن « معاوية » بالشام . ومن « عمرو بن العاص » بمصر .

كان « الإمام » بلا حرس ..

فكان اغتياله عملا من أيسر الأعمال .»

خاتمة المطاف

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال :

« من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

وروى الإمام أحمد عن « أبي عبد الله الجدلي قال :

دخلت على أم سلمة فقالت لي : أيسب رسول الله ﷺ فيكم ؟

قلت معاذ الله ..

قالت سمعته ﷺ يقول : « من سب علياً فقد سبني » .

وفي مشكاة المصابيح برجال الثقات عن صهيب رضي الله عنه قال :

« إن النبي ﷺ قال لعلي : من أشقى الأولين ؟ قال الذي عقر الناقة يا رسول الله ، قال صدقت ، فمن أشقى الآخرين ؟ قال لا أعلم يا رسول الله ، قال الذي يضربك على هذه ، وأشار إلى يافوخه ، فكان عليّ يقول لأهل العراق : وددت أنه قد انبعث أشقاكم فيخضب هذه ، يعني لحيته ، من هذه ، ووضع يده على مقدم رأسه » .

وفى المشكاة أيضاً : أن ابن ملجم لعنه الله ، والبرك بن عبد الله ، وعمرو بن بكر التميمي ، اجتمعوا بمكة فعابوا على الناس ولاتهم ، وقالوا والله ما نصنع بالبقاء شيئاً بعد إخواننا أهل النهروان الذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، وقتلهم عليّ ، فلو أتينا أئمة الضلالة فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد .

قال ابن ملجم وكان من أهل مصر : أنا أكفيكم علياً ، وقال البرك : أنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو : أنا أكفيكم عمرو بن العاص ، فتواثقوا على قتلهم فسمَّمُوا أسيافهم وتواعدوا أن في سبع عشرة من رمضان يثب كل منهم على صاحبه ، فخرج عليّ لصلاة الغداة فجعل يقول الصلاة الصلاة ، فشد عليه ابن ملجم فضربه على قرنه وهرب ، فلُحق وأُخذ فأدخل على عليّ ، فقال له يا عدو الله .. ألم أحسن إليك ؟ قال بلى ولكن شحذته أربعين صباحاً ، فسألت الله أن يقتل به شر خلقه ، قال له علي : ما أراك إلا مقتولا به ، وما أراك إلا من شر خلقه ،

فقال علي للحسن : إن بقيت رأيت فيه رأيي ، وإن هلكت فاقتلوه ولا تمثلوا به ، فإني سمعت النبي ﷺ نهى عن المثلة ولو بالكلب العقور .

فلما قُبِضَ عليّ ، أدخل ابن ملجم على الحسن ، فقال هل لك في خصلة إني كنت أعطيت عهداً أن أقتل علياً ومعاوية ، فإن شئت خليت بيني وبينه ولك الله عليَّ إن لم أقتله أن آتيك حتى أضع يدي في يدك ، فقال الحسن : لا والله ، فقدمه فقتله فأحرقه الناس .

وأما البرك بن عبد الله فقعد لمعاوية فخرج لصلاة الغداة ، فشد عليه فأدبر معاوية هارباً ، فوقع السيف في إليته ، فأخذ البرك ، فقال لمعاوية : عندي خبر أسرك به أنافعي ذلك عندك ؟ قال وما هو ؟ قال إن أخاً لي قتل علياً الليلة ، قال فلعله لم يقدر عليه ؟ قال بلى إن علياً يخرج ليس معه أحد

يحرسه ، فأمر به معاوية فقتل ، وبعث إلى الطبيب فنظر إليه فقال : إن ضربتك مسمومة ، فاختر إما أن أحمي حديدة فأضعها في موضع السيف ، وإما أن أسقيك شربة ينقطع منها الولد ، فقال : أما النار فلا صبر لي عليها ، وأما انقطاع الولد ففي يزيد وعبد الله وولدهما ما تقر به عيني ، فسقاه الشربة فبرىء فلم يولد له ولد بعد ، فأمر معاوية بعد ذلك بالمقصورات وقيام الشرط على رأسه .

وأما عَمْرُو بن بكير : فقعد لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج واشتكى ، فأمر خارجة بن حبيب يصلي بالناس ، فشد عليه فضربه بالسيف فقتله ، فأُخذ فأدخل على عمرو ، فلما رآهم يسلمون عليه بالإمرة قال من هذا ؟ قالوا عمرو بن العاص . قال من قتلت ؟ قالوا خارجة ، قال أما والله يا فاسق ما عمدت غيرك ، قال عمرو : أردتني والله أراد خارجة ، فقدمه وقتله .

وعن (محمد بن علي بن الحسين) قال : توفي عليّ وهو ابن ثمان وخمسين ..

وعن (يحيى بن بكير) قتل عليّ يوم الجمعة سبع عشرة من رمضان سنة أربعين ..

وعن (أبي بكر بن أبي شيبة) قتل عليّ سنة أربعين ، وكانت خلافته خمس سنين وستة أشهر ..

فاللهم ارض عنه .. وأكرمه بما أنت له أهل ، فقد جاهد وعمل وصار على الهدى .. وإليك يا رباه يرجع الأمر كله .. والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين وعلى آله وصحابته وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين وعنا معهم وفيهم برحمتك يا أرحم الراحمين ..

المحتويات

الموضـــــوع	صفحة

طبع بتصريح وزارة الاعـلام
رقـم ٣٧٤٦/م/ج
بتاريخ ١٤١٠/٩/٢١هـ

مطابع سحر
المملكة العربية السعودية - جدة - المدينة الصناعية
تليفون
٦٣٧٠٠٨١
٦٣٧٠٠٧٣
٦٣٧٣٦٥٣

